الجواهر الروحية

تأليف

حسن القبانجي النجفي

الجزء الثاني

طبع على نفقة

التاجر الوجيه محمد جواد الحاج موسى المشهدي الشطري

مطبعة الآداب - النجف

١٣٧٧هـ

١٩٥٨م

بسم الله الرحمن الرحيم

إختيار الكلام أصعب من تأليفه .

عقول الناس مدونة في أطراف أقلامهم ، وظاهرة في حسن اختيارهم .

« إفلاطون »



كتبته مجتهداً وليس يخلو من غلط
فقل لمن يلومني من ذا الذي ما ساء قط

الحمد لله ، والصلاة على رسول الحق محمد وآله البررة

كتاب كريم

تفضل به العلامة الجليل السيد محمد صادق
بحر العلوم وهو الذى قطع ليله ساهراً على امته ،
وقطع نهاره مكباً على مكتبه ، فانبثق من هذا
وذاك كتابه ـ دليل القضاء الشرعى ـ تنعكس
فيه صورة مؤلفه ، صورة علمية صادقة .

حضرة الأخ المفضال الخطيب السيد حسن القبانجي دام تأييده .

تحية وأشواقاً :

وبعد ـ فقد تسلمت فى هذا اليوم بالبريد كتابكم الثمين « الجواهر الروحية » ولعمري انه جواهر لروح كل من يقدره ويقدر مؤلفه البارع ، والحري بأن يسمى ـ الغذاء الروحي ـ أو ـ الأغذية الروحية ـ فأرجو من الله تعالى أن يوفقك أيها الأخ إلى طبع الأجزاء الأُخر لتستفيد الأُمة الاسلامية ، وتعرف من أين تؤكل الكتف ، ومن أي شريعة يغترف . هذا وبالعجالة إني أهنئك باخراج هذا السفر الثمين الذي هو غرة فى جبين الدهر ، وجوهرة ثمينة لا يقدرها إلا عباد الله المخلصون ، والعلماء العارفون بالحقائق .

« محمد صادق بحر العلوم »

كلمة المؤلف

بين يدي القارىء الجزء الثاني من ﴿ الجواهر الروحية ﴾ وهو ضميمة إلى أخيه الأول في الدعوة والارشاد إلى الخير والبر .

وإني لأعتبره مجرد رسالة بسيطة للجامعة الانسانية ومحبيها . حملها أخ لهم سبقت إلى فؤاده لمع من أضواء المعرفة ، وأراد أن تنعكس على أفكارهم واضحة جلية جلاء الشمس ، تهدي إلى الرشد وتدعو إلى سواء السبيل .

أو خطاباً متواضعاً موجهاً إلى مثقفي أبناء الجيل ، ليس في نفسه قيمة سوى ما يهدف اليه من نزعة إخلاص ، وحب في فرد من أفرادها .

فصول تعالج قضايا الدين ، والعقل ، والحياة ، والاجتماع .

لست أزعم لنفسي شيئاً من الفضل ـ وإن جهدت في جمعها وتنسيقها زمناً غير يسير . وقديماً قيل : إختيار الكلام أصعب من تأليفه .

وأملي ستظل ينبوعاً يرده الصادي ، وهو يجد في كل رشفة معنى ولذة . ثم لا يحور في معناها ولذتها في مذهب إحساسه وشعوره .

والله المكافىء على الصواب ، والمتجاوز عن الخطأ ، وهو فوق ذلك كله أهل العفو والمغفرة .

(حسن القبانجي)

الفاتحة مفتاح العلوم

— ١ —

بسم الله الرحمن الرحيم . الحمد لله رب العالمين ، الرحمن الرحيم ، مالك يوم الدين ، إياك نعبد وإياك نستعين ، اهدنا الصراط المستقيم ، صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين .

ان المقصد الأقصى واللباب الأصفى من انزال القرآن ، وتنزيله على أشرف خلق الله «ص» أولاً ، وعلى أمته الذين هم خير الأمم ثانياً ، هو : هداية الخلق وإرشادهم وتكميلهم ، بسياقهم إلى الله « تعالى » ودار كرامته ، على أتم وجه وأشرفه ، وذلك إنما يحصل بتزيين نفوسهم بأنوار الحكمة والمعرفة ، وتجريدها عن رق الطبيعة وأسر قواها الشهوية ، والغضبية والوهمية ، التي هي مدخل الشيطان ، وتطهيرها عن أرجاس العنصريات وقاذوراتها ، وتخليصها عن مكايد الشيطان وجنودها الداخلية والخارجية .

فالقرآن مشتمل من الحكمة والمعرفة على عظائمها وأصولها ، التي عجزت عن إدراكها أفهام السابقين واللاحقين ، ومن الشريعة والطريقة على لطائفها ولبابها ، التي خلت عنها زُبر المتقدمين والمتأخرين . ولعمري انه كصورة جمعية العالم المخلوق على صورة الرحمة ، الدال بهيئته ونظامه واشتماله على مظاهر الصفات

الجمالية ، من الملائكة وأنوارها ومن ضاهاها ، والصفات الجلالية من الأجسام وقواها وما شابهها ، على وجود من له الخلق والأمر . ونسبة سورة الفاتحة إلى القرآن كله كنسبة الانسان - وهو العالم الصغير - إلى العالم وهو الانسان الكبير ، وكما ان الانسان الكامل كتاب وجيز ، ونسخة منتخبة ، يوجد فيه كل ما في الكتاب الكبير الجامع الذي لا رطب ولا يابس إلا ويوجدفيه ، ولا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها - كما قيل : من كل أمر لبه ولطيفه مستودع فى هذه المجموعة - فكذلك فاتحة الكتاب مع قصرها ووجازتها يوجد فيها مجامع مقاصد القرآن وأسرارها وأنوارها ، وليس لغيرهامن سائر السورالقرآنية هذه الجامعية ، كما ليس لواحد من صور اجزاء العالم ماللانسان من صورة الجمعية الالآهية على ما قيل :

ليس على الله بمستنكر　　أن يجمع العالم فى واحد

والعارف المحقق يفهم من هذه السورة الواحدة جميع المعارف والعلوم الكلية ، المنتشرة فى آيات القرآن وسوره . ومن لم يفهم هذه السورة على وجه يستنبط منها عمدة أسرارالعلوم الالآهية والمعالم الربانية ، من أحوال المبدأ والمعاد ، وعلم النفس وما بعدها وما فوقها ، الذي هو مفتاح سائر العلوم كلها - فليس هو بعالم رباني ولا مهتد بتفسيرها على وجهه . ولو لم تكن هذه السورة مشتملة - كما قلنا - على أسرار المبدأ والمعاد ، وعلم سلوك الانسان إلى ربه لما وردت الأخبار على فضلها وانها تعادل كل القرآن ، إذ لامزية ولا فضيلة لشيء بالحقيقة إلا بسبب اشتماله على الامور الالآهية وأحوالها . ولو ان انسانًا أراد أن يعلم أن أي الأشياء هو أفضل مابه يتقرب العبد الى الله تعالى ، وانها اكسير السعادة الاخروية التي يجعل حديد قلب الانسان ذهبًا خالصًا ، وابريزاً صافيـًا يليق أن تختم به يد

الملك ، ويختم به خزائنه الشريفة ـ فليتأمل وليذعن أن ذلك يجب أن يكون من الامور التي أنزلها الله على قلب بشر . ويجب أن يكون ذلك الشيء من قبيل مايوجد في كتب الأنبياء «ع» وخزائن أسرارهم ، الذين أفاض على قلوبهم من العلوم والمعارف . ولا بد أن يكون النبي الذي أوحى الله اليه بهذا الأمر ـ الذي هو أشرف مايستكمل به جوهر الانسان ـ هو أشرف الأنبياء وأفضلهم وخاتمهم «عليه وآله أفضل التحيات وأنور التحميدات» .

ولا بد أن يكون المكان والزمان الذي وقع الايحاء والتكميل والهداية له «ص» بهذا أعلى الأمكنة ، وأسعد الأزمنة . فلا بد أن يكون ذلك الانعام عليه عند عروجه اليه تعالى ليلة المعراج والذي انزل ليلة المعراج على النبي «ص» من السور والآيات هذه السورة وخواتيم سورة البقرة . فهذا مما دل على أن أفضل السور سورة الفاتحة ، وأفضل الآيات خواتيم سورة البقرة . ولهذا لا بد وأن يكون كلاً منهما مشتملا على غاية الكمال الانساني . وسبب ذلك ان سعادة الدارين إنما تتم بدعوة الخلق من قبله تعالى بواسطة متوسط مؤيد شريف مطاع أمين ، كما قال تعالى : ﴿ ذي قوة عند ذي العرش مكين مطاع ثم أمين ﴾ ولكل مطاع مؤيد في الروحانيات . مطاع في الجسمانيات ، بل المطاع في الروحانيات ثمرة المطاع في الجسمانيات ، فان الدنيا بحذافيرها مظاهر وفروع لما في الروحانيات لأن نسبة عالم الغيب إلى عالم الغيب والشهادة نسبة الأصل إلى الفرع ، ونسبة النور إلى الظل . فكل شاهد فله في الغايب أصل ، وإلا لكان كسراب زائل وخيال باطل . وكل غايب فله في الشاهد مثال ، وإلا لكان الشاهد كشجرة بلا ثمرة ودليل بلا مدلول . فالمطاع ههنا صورة المطاع هناك ، والمطاع في عالم الأرواح هو المصـــدر ، والمطاع في عالم الأجسام هو المظهر ، وبينهما ملاقات

واتصال وبهما تتم سعادة الدارين ، لأنهما يدعوان إلى الله بالرسالة . وحاصل الدعوة والرسالة امور سبعة تشتمل عليها خواتيم سورة البقرة : منها أربعة متعلقة بأسرار المبدأ ، وهي معرفة الربوبية وعلم المفارقات من الحكمة الالآهية ، أعني معرفة الله وملائكته وكتبه ورسله ﴿ آمن الرسول بما أنزل اليه من ربه والمؤمنون كلٌّ آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله ﴾ .

ومنها ما يتعلق بالوسط وهو اثنان أحدهما : معرفة العبودية ﴿ وقالوا سمعنا وأطعنا ﴾ . والثاني : كمال العبودية ، وهو الالتجاء إلى الله تعالى وطلب المغفرة منه ﴿ غفرانك ربنا ﴾ وواحد يتعلق بالمعاد وهو : الذهاب إلى الملك الجواد ﴿ واليك المصير ﴾ فكذلك تشتمل هذه السورة على هذه الامور السبعة فقوله : ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾ مشتمل على توحيد الذات والصفات . وقوله : ﴿ الحمد لله رب العالمين ﴾ فيه التوحيد والأفعال وهي قسمان : عالم الأمر وفيه الملائكة المقربون . وعالم الخلق وأصله وصفوة الأنبياء المرسلين ومن يتلوهم . وقوله : ﴿ الحمد لله ﴾ إشارة إلى عالم التحميد والتقديس والتسبيح ، وفيه الملائكة المسبحون بحمده « تعالى » وقوله : ﴿ رب العالمين ﴾ إشارة إلى تحمُّل أهل العلم والعرفان وهم : الأنبياء والأولياء ومن يتلوهم . وقوله : ﴿ الرحمن الرحيم ﴾ أي رحمن الدنيا ورحيم الآخرة ، فيه إشارة إلى أهل الرحمة الالآهية فى كلا العالمين وهم : الملائكة والرسل . وقوله : ﴿ مالك يوم الدين ﴾ إشارة إلى حقيقة المعاد ورجوع الكل اليه « تعالى » لأنه غاية الغايات . وقوله : ﴿ إياك نعبد وإياك نستعين ﴾ إشارة إلى كيفية العبودية بتهذيب الأخلاق وتصفية الباطن إلى طلب الالتجاء إلى الله وهي حالة الانسان فيما بين البداية والنهاية . وقوله : ﴿ اهدنا الصراط المستقيم ﴾ إشارة إلى العلم بكلمات الله وآياته . وقوله : ﴿ صراط الذين

أنعمت عليهم ﴾ إلى آخر السورة : إشارة إلى القرآن المجيد ، الذي هو أشرف الكتب السماوية وهي : الألواح النفسية النازلة على الأنبياء السابقين . لأن الجوهر النفسي العقلي من النبي «ص» ـ الذي هو جوهر النبوة ـ كلمة إلآهية بوجه وكتاب مبين فيه آيات الحكمة والمعرفه بوجه ـ هو بعينه صراط الله العزيز الحميد الذي لا يمكن وصول العبد إلى الله إلا بعد الوصول إلى معرفة ذاته ، وكذا من ينوب عنه «ع» كما دلت عليه الحروف المقطعات القرآنية على صراط حق تمسكه .

وينبعث من هذه المراتب سبع مقامات في المكالمة الحقيقية مع الله بالدعاء : أولها : ﴿ ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا ﴾ فضد النسيان هو الذكر ﴿ واذكر ربك إذا نسيت ﴾ وهذا الذكر إنما يحصل بقوله : ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾ . وثانيها : ﴿ ربنا لا تحمل علينا إصراً كما حملته على الذين من قبلنا ﴾ ودفع الأسر والمشقة في الحمد يوجب الحمد لله رب العالمين . وثالثها : ﴿ ربنا ولا تحمّلنا ما لا طاقة لنا به ﴾ وذلك إشارة إلى كمال رحمته ـ الرحمن الرحيم . ورابعها : ﴿واعف عنا﴾ لأنك أنت المالك للقضاء والحكومة يوم الآخرة ـ مالك يوم الدين . وخامسها : ﴿ واغفر لنا ﴾ لأنا التجأنا بكلّيتنا اليك وتوكلنا عليك فى جميع الامور ﴿ إياك نعبد وإياك نستعين ﴾ . وسادسها : ﴿ فارحمنا ﴾ لأنا طلبنا الهداية منك : ﴿ اهدنا الصراط المستقيم ﴾ . وسابعها : ﴿ أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين ﴾ ﴿ صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين ﴾ .

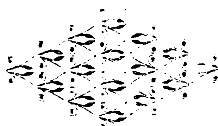
فهذه المراتب ذكرها محمد «ص» فى عالم الأرواح عند صعوده إلى المعراج ، ولما نزل من المعراج إلى المعراج الجسماني السماوي فاض أثر المصدر على المظهر ، فوقع التعبير عنها بالمكالمة الصورية فى عالم السماء الدنيا ، بيّنها بسورة الفاتحة . فمن قرأها فى صلاته صعدت هذه الأنوار من المظهر إلى المصدر ، كما نزلت فى عهد محمد «ص»

من المصدر إلى المظهر . ولهذا السبب قال صلوات الله عليه وآله : الصلاة معراج المؤمن .

واما الأخبار الدالة على فضلها فكثيرة : منها : ما روي مسنداً إلى ابيّ بن كعب قال : قال رسول الله «ص» : أيّما مسلم قرأ فاتحة الكتاب اعطي من الاجر كأنما قرأ ثلثي القرآن . وفي رواية : كأنما قرأ القرآن . ويروى عنه بسند آخر قال : قرأت على رسول الله «ص» فاتحة الكتاب فقال : والذي نفسي بيده ماأنزل الله فى التوراة والانجيل ولا فى الزبور ولا فى القرآن مثلها وهي : امّ الكتاب وهي السبع المثاني . وهي مقسومة بين الله وبين عبده ولعبده ماسأل . وفى كتاب محمد بن مسعود العياشي باسناده عن النبي «ص» قال لجابر بن عبد الله : يا جابر ألا اعلمك بفضل سورة أنزلها الله فى كتابه ، قال : فقال له جابر : بأبي أنت وأمي يارسول الله علمنيها ، فقال : هي الحمد ام الكتاب ، ثم قال : يا جابر ألا اخبرك عنها ، قال : بلى بأبي أنت وامي فاخبرني ، فقال : هي شفاء من كل داء إلا السام . والسام الموت . وعن جعفر الصادق «ع» قال : من لم يبرءه الحمد لم يبرءه شيء . وروي عن أمير المؤمنين «ع» قال : قال رسول الله «ص» : ان الله عز وجل قال : يا محمد لقد آتيناك سبعاً من المثاني والقرآن العظيم ، فأفرد الامتنان عليّ بفاتحة الكتاب وجعلها بازاء القرآن ، وأن فاتحة الكتاب أشرف مافى كنوز العرش وان خص محمداً وشرّفه بها ولم يشرك فيها أحداً من أنبيائه ، ما خلا سليمان «ع» فانه أعطاه منها : ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾ . ألا ترى يحكي عن بلقيس حين قالت : انه من سليمان وانه بسم الله الرحمن الرحيم ؟ ألا فمن قرأها معتقداً لموالاة محمد وآله منقاداً لأمرها مؤمناً بظاهرها وباطنها أعطاه الله بكل حرف منها حسنة كل واحدة منها أفضل من الدنيا وما فيها . ومن استمع إلى

قارئها كان له قدر ثلث ما للقارىء فليستكثر أحدكم من هذا فانه غنيمة لايذهبن أوانه ، فتبقى فى قلوبكم الحسرة . وعن حذيفة بن اليمان « رض » : ان النبي «ص» قال : ان القوم ليبعث الله عليهم العذاب حتما مقضياً فيقرأ صبي من صبيانهم في الكتاب : الحمد لله رب العالمين ، فيسمعه الله تعالى فيرفع عنهم العذاب أربعين سنة .

وعن ابن عباس « ره » قال : بينا نحن عند رسول إذ أتاه ملك فقال : ابشر بنورين اوتيتهما لم يؤتهما نبي قبلك : فاتحة الكتاب ، وخواتيم سورة البقرة لن تقرأ حرفاً منها إلا أُعطيته ما يتضمنه .



منهج آخر لدرس الفاتحة

— ٢ —

وهو ان للانسان أياماً ثلاثة : الأمس والبحث عنه يسمى بمعرفة المبدأ . واليوم الحاضر والبحث عنه يسمى بالوسيط . والغد والبحث عنه يسمى بعلم المعاد . والقرآن مشتمل على رعاية هذه المراتب وتعليم هذه المعارف الثلاثة ، التي كمال النفس الانسانية منوط بمعرفتها ، ونفس الأعمال البدنية إنما تراد لأجلها ، لأن غايتها تصفية مرآة القلب من الغواشي البدنية ، والظلمات الدنيوية ، لأن يستعد لحصول هذه الأنوار العقلية ، وإلا فنفس هذه الأعمال الحسنة ليس إلا من باب الحركات والمتاعب . ونفس التصفية المترتبة عليها ليس إلا أمراً عدمياً لو لم يكن معها استنارة صفحة القلب بأنوار الهداية ، وتصورها بصور المطالب الحقة الالآهية . والقرآن متضمن لها وهي العمدة الوثقى فيه ، لما ذكرنا .

ولما كانت هذه السورة مع وجازتها متضمنة لمعظم مافي الكتب الالآهية من المسائل الحقة ، والمقاصد اليقينية ، المتعلقة بتكميل الانسان وسياقته إلى جوار الرحمن ، فلا بد أن يتحقق فيها جميع ما يحتاج اليه الانسان منها . فنقول هي هكذا . . اما اشتمالها على علم المبدأ فقوله تعالى : ﴿ الحمد لله رب العالمين ﴾ إشارة إلى العلم بوجود الحق الأول ، وانه مبدأ سلسلة الموجودات ، وموجد

كل العوالم والمخلوقات . وقوله : ﴿ الرحمن الرحيم ﴾ إشارة إلى العلم بصفاته الجلالية ، أو أسمائه الحسنى . وقوله : ﴿ مالك يوم الدين ﴾ هو إثبات كونه سبباً غائياً للمخلوقات كلها ، كما انه سبب فاعلي لها جميعاً ، ليدل على ان فاعليته على غاية الحكمة والتمام ، ورعاية المصلحة للانام . واما اشتمالها على علم الوسط فلأن قوله : ﴿ إياك نعبد وإياك نستعين ﴾ إشارة إلى الأعمال والأهوال التي يجب أن يكون الانسان عاملا بها عامداً عليها ، مادام كونه في هذه الحياة الدنيا وهي قسمان : بدنية وقلبية فالبدنية تهذيب الظاهر عن النجاسات ، وتزيينه بالعبادة كالصلاة والصيام وغيرها . والقلبية تهذيب الباطن عن الغشاوات ، وخبائث الملكات ، باعانة الله وتوفيقه ليستعد نفسه بذلك لأن يتنور بأنوار المعارف الالآهية ويستكمل بالحقائق الربانية ، ليتقرب بذلك إلى الله ويحشر إلى دار كرامته ، كما دل عليه قوله تعالى : ﴿ اهدنا الصراط المستقيم ﴾ أي علّمنا طريق الوصول اليك .

والصراط صراطان : صراط في الدنيا وصراط في الآخرة . فمن استقام في صراط الدنيا وما زلّ قدمه فيه ثبت قدمه في صراط الآخرة ، ومن لم يستقم في صراط الدنيا وزل قدمه فيه فهو لامحالة من الهالكين ، والساقطين في أسفل درك الجحيم ﴿ فمن كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى ﴾ . فالدنيا والآخرة في الخيرات والشرور متطابقان ﴿ فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ، ومن يعمل مثقال ذرّة شراً يره ﴾ .

ولقد حدث المرزا ابراهيم الخوئي في شرح النهج عن الامام الحسن العسكري صلوات الله عليه قال : الصراط صراطان : صراط فى الدنيا وصراط فى الآخرة فأما الصراط المستقيم فى الدنيا فهو ماقصر عن الغلو وارتفع عن التقصير ،

واستقام فلم يعدل إلى شيء من الباطل . والصراط فى الآخرة هو طريق المؤمنين إلى الجنة ، ولا يعدلون عن الجنة إلى النار ، ولا إلى غير النار سوى الجنة ، والناس فى ذلك متفاوتون : فمن استقام على هذا الصراط وتعود سلوكه مرّ على صراط الآخرة مستويًا ودخل الجنة آمنًا .

قال بعض أهل الشهود فى بيان هـذين الصراطين : ان الله تعالى خلق الصراط من رحمته أخرجها المؤمنين ، فالصراط للموحدين خاصة والكفار لا جواز لهم عليه ، لأن النار قد التقطت من الموقف جبابرتهم ، وسائر الكفار قد اتبعوا ما كانوا يعبدون من دون الله عز وجل إلى النار . فقسّم النور بين الموحدين على قدر ماجاؤا به فى الدنيا ، والصراط يدق ويتسع على حسب منازل الموحـدين ، الدقة للمؤمنين والسعة للموحدين ، والأصل الواسع للأنبياء والأولياء يصير لهم كالبساط سعة ، ولهم السرعة والابطاء ، فأولهم كلمح البصر وآخرهم كعمر الدنيا ــ سبعة آلاف سنة ــ تزل قدم فتحترق ثم تخرجها فتبرأ من الرحمة ثم تزل قدم واخرى قد برأت . فالاسلام خرج لهم من الرحمة فلما قبلوه ولم يفوا به ضرب لهم جسراً من تلك الرحمة ، فيمرون عليه ، فمن ضيع منهم شيئاً من أعمال الاسلام فانما ضيع الرحمة التي رُحم بها فزلت قدمه . فالدقة والاتساع على قدر الرحمة من الله للعبد فبحظ العبد منها يتسع الصراط هناك عليه . والسرعة والابطاء فى قطع الصراط على قدر القرب ، فبحظ العبد من نور القرب يسرع ويبطىء ، فأولهم زمرة يقطع مثل طرف العين ولمع البصر وهم الأنبياء «ع» ، ثم فى مثل الريح والطير ، وهم الصديقون والأولياء ، والثالثة مثل عدو الفرس وأجاويد الخيل ، وهم المجاهدون بأنفسهم الذين صدقوا اليه فى جميع حركاتهم ، والرابعة مثل الراكب رجله وهم المتقون ، والخامسة مثل سعي الرجل

وهم العابدون ، والسادسة مشياً وهم العمال المستورون ، والسابعة حبواً وهم المتهتكون من الموحدين . وكل زمرة لها نور : نور النبوة ، ونور الولاية ، ونور المعرفة ، ونور التقوى ، ونور الصدق ، ونور العبادة ، ونور الاسلام . فمنهم من نوره مدّ بصره ، ومنهم من نوره عند إبهام قدمه ، وهو آخرهم وليس النور هناك بكثرة الأعمال ، إنما هو بكثرة نور العمل وإنما يعظم نور العمل على قدر مافى القلب من نور القرب ، وكل نور أقرب إلى الله تعالى فهو أقوى وأنور ، فكم من رجل قلّ عمله هنا أسبق إلى الجنة ممن هو أدنى بعمله أضعافاً مضاعفة ؟ ألا ترى إلى قوله «ص» لمعاذ بن جبل : خلص تكفيك القلة من العمل . فهذا صراط الآخرة .

وأما الصراط فى الدنيا فهو يرجع إلى الوسط الحقيقي بين الأخلاق المتضادة كالحكمة بين الجهل والجربزة ، والسخاوة بين التبذير والبخل ، والشجاعة بين التهور والجبن ، والعدالة بين الظلم والانظلام . وبالجملة : الوسط الحق بين كل طرفي الافراط والتفريط من أطراف الفضائل ، هو الطريق إلى الله تعالى المطلوب سلوكه وكل جانبي هذا الصراط الجحيم ووسطها طريق الجنة ، ولهذا قال أمير المؤمنين « ع » فى بعض خطبه : اليمين والشمال مضلة والطريق الوسطى هي الجادة . ولكنه وجد أن الوسط الحقيقي صعب والثبات عليه بعد الوجدان أصعب ولذلك لما أُمر فخر المرسلين بالاستقامة فى قوله تعالى : ﴿ فاستقم كما امرت ﴾ قال : شيبتني سورة هود . إذ وجدان الوسط الحقيقي فيما بين الأطراف غير المتباهية المتقابلة مشكل والثبات عليه بعد الوجدان أشكل .

قال المحقق الطوسي «ره» : إن ماورد فى إشارات المؤمنين من أن الصراط المستقيم أدق من الشعرة وأحدّ من السيف إشارة إلى هذا المعنى .

وأما اشتمالها على علم المعاد ، وهو العلم بأحوال النفس الانسانية الكاملة فى العلم والعمل المبرأة عن آفة الجهل و نقص العصيان فقوله: ﴿صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين﴾ إشارة إلى علم النفس ، وهي صراط الله العزيز الحميد وباب الله المأتي منه إلى الحق ، فبالنفس الانسانية العالية العاملة المهتدية بنور الله يساق الخلق إلى الحق ، ويدخل الخلايق كلها فى طريق العود من هذا الباب إلى الخالق . فان الوجود فى صورة دائرة انعطف آخرها على أولها فكما ان الوجود فى الابتداء كان أولاً العقل ثم النفس الكلية ، ثم الطبيعة الكلية ، ثم الابعاد والأجرام كلها ، ففي الانتهاء كان أولاً جماداً ثم نباتاً ثم حيواناً ثم إنساناً . وله مراتب باطنية كان أولاً فى مقام الطبيعة والنفس ، ثم فى مقام القلب والعقل ، ثم فى مقام الروح والسر . وإذا بلغ إلى هذا المقام اتصل بغاية الكمال والتمام .

وجماع القول : ان سورة الفاتحة قد اشتملت إجمالا على الاصول التي يفصلها القرآن تفصيلا ، فكان إنزالها موافقاً لسنة الله فى الابداع ، فلا غرو إذاً أن تسمى بالأسماء المتكثرة . ومن المعلوم أن كثرة الأسماء تدل على شرف المسمى

تسمى : ام الكتاب ، كما نقول ان النواة ام النخلة . فان النواة مشتملة على شجرة النخلة ، كلها حقيقة ، لا كما قال بعضهم : إن المعنى فى ذلك ان الام تكون أولاً ويأتي بعدها الأولاد .

وتسمى : فاتحة الكتاب ، سميت بذلك لأنه يفتتح بها فى المصاحف ، والتعليم والقراءة في الصلاة . وقيل : انها أول سورة انزلت من السماء .

وتسمى : امّ القرآن . وهو أن ام الشيء أصله ، والمقصود من كل القرآن تقرير امور أربعة : الالاهيات ، المعاد ، النبوات ، إثبات القضاء والقدر لله تعالي . فقوله : ﴿ الحمد لله رب العالمين ، الرحمن الرحيم ﴾ يدل على الالاهيات ،

وقوله : ﴿ مالك يوم الدين ﴾ يدل على المعاد . وقوله : ﴿ إياك نعبد وإياك نستعين ﴾ يدل على نفي الجبر والقدر . وعلى إثبات أن الكل بقضاء الله تعالى وقدره . وقوله : ﴿ اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين ﴾ يدل أيضاً على إثبات قضاء الله وقدره وعلى النبوات . فلما كان المقصد الأعظم من القرآن هذه المطالب الأربعة . وكانت هذه السورة مشتملة عليها لقبت بامّ القرآن .

وتسمى : السبع المثاني . قال تعالى : ﴿ ولقد آتيناك سبعاً من المثاني ﴾ وفي سبب تسميتها بالمثاني وجوه :

١ — انها مثنى نصفها ثناء العبد للرب . ونصفها عطاء الرب للعبد .

٢ — لأنها تثنى في كل ركعة من الصلاة .

٣ — لأنها مستثناة من سائر الكتب ، قال « ص » : والذي نفسي بيده ما أُنزل في التوراة ولا في الانجيل ولا في الزبور ولا في الفرقان مثل هذه السورة وانها السبع المثاني والقرآن العظيم .

٤ — لأنها سبع آيات كل آية تعدل قراءتها قراءة سبع القرآن ، فمن قرأها أعطاه الله تعالى ثواب من قرأ كل القرآن .

٥ — آياتها سبعة وأبواب النيران سبعة فمن فتح لسانه بقراءتها غلقت عنه الأبواب السبعة . قال جبرئيل للنبي «ص» : يامحمد كنت أخشى العذاب على امّتك فلما نزلت الفاتحة أمنت . قال : ولِمَ ياجبرئيل ؟ قال : لأن الله تعالى قال : ﴿ وإن جهنم لموعدهم أجمعين لها سبعة أبواب لكل باب منهم جزء مقسوم ﴾ وآيات هذه السورة سبعة فمن قرأها صارت كل آية طبقاً على باب من أبواب جهنم فتمر امتك عليها منها سالمة .

٦ — انها انزلت مرتين مرة بمكة واخرى بالمدينة فهي مكية مدنية .

وتسمى : الوافية . وهي أنها لا تقبل التنصيف في الصلاة .

وتسمى : الكافية ، لأنها تكفي عن غيرها ، وغيرها لا يكفي عنها .

وتسمى : الأساس . وفيه وجوه :

١ — انها أول سورة في القرآن فهي كالأساس .

٢ — انها مشتملة على أشرف المطالب كما بيناه وذلك هو الأساس .

٣ — ان أشرف العبادات بعد الايمان الصلاة وهذه السورة مشتملة على كل مالا بد منه في الايمان ، والصلاة لا تتم إلا بها .

وتسمى : سورة الشكر ، لأنها ثناء على الله تعالى بالفضل والكرم والاحسان .

وتسمى : سورة الدعاء . لاشتمالها على قوله : ﴿ إهدنا الصراط المستقيم ﴾

وتسمى : سورة تعليم المسألة ، قال تعالى : من شغله ذكري عن سؤالي أعطيته أفضل ماأعطي السائلين . فقد علمك أولاً قبل السؤال الثناء والحمد وهو قوله : ﴿ الحمد لله رب العالمين ﴾ إلى قوله : ﴿ مالك يوم الدين ﴾ ثم ذكر العبودية والطاعة ، وهو قوله : ﴿ إياك نعبد وإياك نستعين ﴾ ثم وقع الختم بالسؤال على طلب الهداية وهو قوله : ﴿ اهدنا الصراط المستقيم ﴾ وهذا يدل على أن أكمل المطالب الهداية في الدين .

وتسمى : الشافية . وذلك أنها شفاء من كل داء ، قال «ص» : فاتحة الكتاب شفاء من كل داء . وجاء عن الامام الصادق «ع» : من لم يبرءه الحمد لم يبرءه شيء . ومر بعض الصحابة (والظاهر انه سلمان الفارسي «ره») برجل مصروع فقرأ هذه السورة في اذنه فبرأ فذكروا ذلك لرسول الله «ص» فقال :

هي أُم القرآن وهي شفاء من كل داء . وعن الامام الصادق «ع» قال : لو قرأت الحمد على ميت سبعين مرة ثم رد الله فيه الروح ما كان ذلك عجباً . وقال «ع» : ما قرأت الحمد على وجع سبعين مرة إلا برء . وقال «ع» : من نالته علة فليقرأ الحمد في جبينه سبع مرات فان ذهب وإلا فليقرأها سبعين مرة وأنا الضامن له العافية

ذكر الفخر الرازي في تفسير سورة الفاتحة من تفسيره : ان قيصر ملك الروم اصيب بصداع في رأسه فأعيا الأطباء عن معالجته ، وكلما عالجوه زاد ألمه ، فكتب إلى علي أمير المؤمنين «ع» ـ وهو يومئذ بالكوفة ـ يسأله : هل يوجد طب فى الاسلام فيه شفاء هذا الداء ؟ فأعطى علي «ع» للرسول قلنسوة وقال له : فليضعها على رأسه ففعلوا ذلك فبرأ من وقته ، فلما اكتشفوا القلنسوة اذا فيها ورقة صغيرة مكتوب فيها سورة الفاتحة فعلموا أن السر في هذه الكلمات فأعادوها على حالها واحتفظوا بها فكانت أثمن شيء في الخزانة ، فاذا اصيب رجل منهم بعد ذاك بصداع يضعون تلك القلنسوة على رأسه فيبرأ .

هشام بن عدي الهمداني ، أُبينت احدى يديه فى حرب صفين ، فأخذ علي «ع» يده وقرأ شيئاً وألصقها فقال : يا أمير المؤمنين ماذا قرأت ؟ قال : فاتحة الكتاب ، فكأنه استقلها فانفصلت يده عن موضعها فتركه علي ومضى .



الفاتحة وعلوم الكائنات

— ٣ —

لم يكن ليخيل إلي يوماً ما أن تصبح الفاتحة بالنسبة للقرآن ، ولعلوم أهل الأرض أشبه بفن المقولات بالنسبة لعلوم الحكمة . ولكن هذا الخاطر فاجأني مفاجأة بهجوم عقلي أوجب علي أن أشرحه فأقول :

إني لأعلم أن النادر من قراء — الجواهر الروحية — يعرفون المقولات ، لأن المقولات انما جاءت في الفلسفة القديمة . والفلسفة القديمة مهجورة ، بل الذين درسوها في المسلمين ينظرون المقولات المذكورة نظرهم الى مستصعب الامور . فهي غامضة المعنى . وليس هذا المقام مقام الاطناب فيها ، ولكنني سأرويها لك الآن بطريق سهل ، ثم أقفي بعدها بمقاصد الفاتحة وما تضمنته من بدائع الامور . وهنالك يتجلى لك أن الفاتحة لها حظ من اسمها فهي فاتحة القرآن والعلوم . وهكذا المقولات فيها ملخص علوم الحكمة باجماع حكماء الشرق والغرب . وهي الآن تدرّس في جميع أنحاء أوربا للخواص هناك بلغاتهم المختلفة .

المقولات هي كلمات عشر ، وتلك الكلمات العشر يرجع اليها كل علم من علوم الرياضة . والطبيعة ، وسائر العلوم . وهي : الجوهر ، والكم ، والكيف ، والاضافة . والمكان . والزمان ، والوضع ، والملك ، والفعل ، والانفعال .

١ — فالجوهر يشمل كل ما تراه من المادة كالانسان والحيوان والجماد والكواكب وهكذا .

٢ — والكم يشمل علوم المقادير ، والحساب ، والهندسة ، والجبر ، والفلك ، وعلوم المساحة ، وهكذا . كما أن الجوهر يشمل العلوم الطبيعية جميعها . فعلم المعدن والنبات والحيوان وطبقات الأرض كلها ترجع للجوهر .

٣ — الكيف ويرجع الى كل ما نحسه بحواسنا الخمس من الألوان والأصوات والمذوقات والمشمومات . والملموسات . وهكذا كل ما نحس به في نفوسنا من الجوع والشبع والحزن والفرح والعلم والجهل والأخلاق الفاضلة والأخلاق النازلة وهكذا .

٤ — الاضافة وهي كل شيئين يلازم أحدهما الآخر ، كالابوة والبنوة وهكذا .

٥ — و٦ — المكان والزمان ويشملان علوم الجغرافيا ، وحساب السنين والدهور .

٧ — والوضع مثل هيئة الانسان في جلوسه ونومه . وهيئة الهواء ، والضوء . والماء ، والأرض ، وانتساب كل واحد منها الى الآخر بهيئة خاصة .

٨ — الملك وهو مثل : كل ما يملكه الانسان .

٩ — و ١٠ — الفعل ويشمل كل مؤثر في غيره ، كاحراق النار ، وتبريد الثلج الماء وهكذا . والانفعال كاحتراق الحطب وبرودة الماء وهكذا .

هذه هي المقولات التي شرحت لك معناها شرحاً وجيزاً . وقد علمت انهم أجمعوا أنه لا علم من العلوم إلا وهو مندمج فيها . ويقولون : انها أشبه بالرياض الزاهرات ذات الغصون والأزهار والأثمار .

كلمات عشرة عبر بها الحكماء في جميع العلوم . حتى أن الصناعات كلها ترجع الى مقولة الفعل . والامراض والفرح والحزن ترجع الى مقولة الانفعال وهكذا . فهذه المقولات العشرة نظيرها سورة ـ الفاتحة ـ وأنت خبير أن معاني ـ الفاتحة ـ قد تقدمت ـ في الفصل الأول ـ . وأنت اذا دققت فيها تجدها أشمل لجميع العلوم من فن المقولات . وعليه أصبح المسلم يتلو صباحا ومساء كلمات هي مفاتيح العلوم . فقراءة المسلم لها تعبداً ـ وهوغافل عن علومها أو بعضها ـ خير ممن يقرأ المقولات العشرة ويقول في كل وقت من الأوقات : ـ جوهر ـ كم ـ ـ كيف ـ . . . وهو لا يعقل معناها ولو أن رجلا أخذ يتلو هذه الكلمات العشرة صباحا ومساء على مسمع من الناس لعدّوه قليل العقل ، لأنها غير معقولة ولا مفهومة إلا للنادر من الناس .

أما الفاتحة فمعناها الظاهر يكفي العابد فى عبادته ، بل توجهه لله بها ـ وان كان لا يدري معناها ـ كاف فى العبادة . والحكماء حين يتلون الفاتحة تحضر لهم إجمال العلوم كما تحضر العلوم كلها فى المقولات العشرة . إذن وضع الفاتحة أرقى فى جمع العلوم من وضع الفلاسفة . الفلاسفة يضعونها فى كلمات لا يعقلها إلا الخواص والفاتحة تفيد العامة عبادة ، والخاصة تذكرة للعلوم كلها .

ومعي حديث يؤيد هذا المعنى ـ وهو أن الفاتحة حوت جميع العلوم ـ : فقد التقينا مع عبد الله بن عباس فحدثنا انه جاء الى علي أمير المؤمنين (ع) . يسأله عن تفسير القرآن فوعده بالليل فلما حضر قال له علي « ع » : ما أول القرآن؟ قال الفاتحة . قال : ما أول الفاتحة ؟ قال : بسم الله . قال : وما أول بسم الله ؟ قال : بسم . قال وما أول بسم : قال : البـاء . فاخذ علي « ع » يتكلم فى الباء طول الليل ، فلما قرب الفجر قال : لو زادنا الليل لزدنا . وحديث آخر لسانه يقول :

انه « ع » قال : لو شئت لأوقرت سبعين بعيراً في تفسير فاتحة الكتاب .

وجماع القول انا نستظهر في الفاتحة : أن علم الدين على قسمين : الأول ـ علم الآفاق والأنفس ـ أي معرفة العوالم العلوية والسفلية . والثاني ـ علم الشريعة ، فنرى العالم الديني شارحاً النبات والحيوان . والآخر مديراً للعمل الكيماوي . وهذا من قوله تعالى : ﴿ سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق أولم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد ﴾ .

ثم من قوله تعالى ﴿ رب العالمين ﴾ يظهر أن العالم علوي وسفلي . والله ربهما والمسلمون خلفاؤه في الأرض بالقضاء والعدل بين الناس . وبالبحث ومعرفة العوالم. فكما برع آباؤنا في القضاء والحكم بين الناس فلنقم نحن بذلك ، وندرس علوم العوالم كلها باعتبار أن ديننا يأمر بذلك ، وإلا فما الفرق بين قوله تعالى : ﴿ قل انظروا ماذا في السموات والأرض ﴾ وبين قوله تعالى : ﴿ فصل لربك وانحر ﴾ كلاهما أمر والأمر للوجوب فاذا نحن قرأنا الاحكام الشرعية وقضينا بها فلنقرأ العجائب الكونية ، ولنعمل بها فنرقي الزراعة والصناعة والتجارة .

وإني أدعو جميع المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها ، أن يمعنوا النظر فيما أقول . وإلا فكيف يقول تعالى : ﴿ ليظهره على الدين كله ﴾ وكيف يظهر على الأديان إلا بهذه المزية ؟ وهي : أن الديانات لا تتعرض لعلوم الكائنات والاسلام يدعو اليها ويأمر بها ، وهذه خاصة به لا يشاركه دين من الأديان . ليعلّم كل عالم أو ملك أمته جميع العلوم باعتبار أنها من الاسلام ، فاذا أبى المسلمون ذلك فاني انذرهم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود .

إن علماءنا السابقين « رضوان الله عليهم » شرحوا هذا في كتبهم ودونوه في دفاترهم . ولكن المسلمين المتأخرين في غفلة ساهون .

ولقد ساءني ما أرى من إعراض بعض العلماء بالدين عن عجائب الخلق !! فان من نظر فيها عمل بمقتضاها ، واذا عمل بمقتضاها استلزم الحمد . ذلك لأن كل حمد لا بد له من سبب يستوجبه ، وقد ذكر الله السبب إجمالا وهو : الرحمة ولما كان الاجمال لا يغني عن التفصيل شيئاً ذكر الله أهم النعم وهي أنه مربي العالمين فقال : ﴿ رب العالمين ﴾ أي مربي العوالم كلها ومرقيها من حال النقص الى حال الكمال والتمام . فهو الذي يتعهد النبات بالتغذية والانماء ، وهكذا الحيوان والانسان ، وكذا العوالم العلوية . وهذه التربية التي مبدأها الرحمة . ولأذكر لك مسائل من التربية في هذا المقام مما تدهش العقول .

المسألة الاولى : « الذُرة » ان المسلمين فى أنحاء المعمورة يأكلون الذرة ويشاهدون مزارعها . وأكثرهم يجهلون ما دبّر الله عز وجل فيها من الحكمة . وكيف ربّى الحبة الواحدة فى « المطر » ـ المعروف بالسنبلة ـ وهو الحب الذي تتكون حوله سطور منظمة ؟ . لو يعلم المسلمون كيفية تربية الله للحبة الواحدة لعجبوا من صنع ربهم ، وفهموا كيف يربي العوالم كلها .

إن لكل عود من أعواد الذُرَة ذكوراً في أعلاه واناثاً في وسطه . أما الذكور فهي ما يسميه العامة « الكذّاب » وهي أغصان بيضاء فيها طلع مخفي عن الناس ، ذلك الطلع ينزل على ذلك « المُطر » الذي هو مجمع الحب . وله خيوط طوال حريرية حمر أو بيض ، تلك الخيوط الدقيقة مثقوبة من وسطها ثقباً لا يشعر به الناس ، فينزل الطلع من أعلى العود الى تلك الخيوط فيدخل فى التجويف الذي فى تلك الخيوط ويسري حتى يصل الى محل الاثنى فى « المطر » أي محل الحب فتلقح تلك الاثنى ، فتخرج حبة واحدة بذلك التدبير . فانظر وتعجب كم في ذلك « المطر » من حبة وكيف كان لكل حبة رحم مخصوص ، ولقح ينزل

على ذلك الخيط حتى يصل فى التجويف الى الام فتحمل بتلك الحبة .

المسألة الثانية : «حبةالقمح» هذهالحبة لو نظرها الانسان « بالمكرسكوب » وهيمكبرة مجسمة بشكل الكفري . وهوالغلاف الذي فى جوفه طلعذكورالنخل . لرأى أن لكل حبة من حبات السنبلة ثلاثة أغشية ملتفة حولها . وفى أعلى تلك الأغشية « السفا » كأنها أسنة تحمل أكياساً مملوءة طلعاً كطلع النخل ، أو كطلع الذرة ، وهـــذه الأكياس المحمولة على تلك الأسنة تنزل ذاك الطلع على محل الانثى ، وهو موضع تلك الحبة من السنبلة . ومتى وقع طلع الذكور عليها حملت بتلك الحبة . ألا فليعجب المسلمون من تربية الله ـ مربي العالمين ـ كيف كانت عنايته تامة بالحبة الواحدة من الذرة ومن القمح ؟ وكيف جعل لها انثى وذكراً وألف بينهما وجعل الحبة نتيجة لتلك الحكمة ؟ كيف يقرأ المسلمون فى صلاتهم كل آن ان الله مربي العالمين وأكثرهم يجهلون تربيته ؟ ! !

وإني لأعجب غاية العجب من أمة يكون مبنى عبادتها ودينها على معرفة حكمة الله وتربيته ، ثم يجيء « الفرنجة » فيسبقونهم الى تلك المعارف الالآهيـة الشريفة العالية ؟ ! .

يا أمة الاسلام كيف نقرأ فى صلاتنا إن الله رب العالمين ونحن نجهل تلك التربية فى صغيرات الامور وكبيراتها ؟ . واذا كانت عناية الله قد بهرت وظهرت فى حبة ذرة وحبة قمح فكم من حبات فيهما يزدريها الانسان وهو أشبه بالبهائم ؟ ألا لافرق بين الانسان والحيوان إلا بهذه العلوم . ولو كان المدار على الخبز والماء والملابس والزينة لقالالله لنا : الحمد لله الذي أروانا ، أو الذي أشبعنا . أوالذي ألبسنا ، أو الذي جاء لنا بولد أو بمال . بل قال لنا الذيشمل العالم بالتربية فكأنه يراد منا أن نكون مفكرين علماء لاأن نأكل كما تأكل الأنعام ونموت كما يموت

الدود . ولو كان المراد أن نعرف الله بأنه مثيب ومعاقب على الحسنات والسيئات فقط ، لقال لنا : الحمد لله رب الحسنات والسيئات . إن الله واسع الرحمة عظيم الهبة ، واسع العطاء . فاقتصار الوعاظ على ذكر الثواب والعقاب قصور معيب . اللهم إني أفرغت جهدي فى إيقاظ الأمة وأديت ما عليّ وإني أسألك أن تعينني على سلوك هذا السبيل ، إنك أنت السميع المجيب .

المسألة الثالثة : « تربية الثمرة في النخلة » وذلك أن النخلة تجذب مارقّ وراق من خلاصة العناصر الأرضية ، لتغتذى بها أجزاؤها فيرتفع ذلك الغذاء فيغذي جذع النخلة بما غلظ منه وأما خلاصته فتذهب صاعدة الى الجريد فيغتذي بها ويبقى ما هو ألطف من تلك الخلاصة فيرتفع الى القنوان فيغتذي القنو بتلك اللطائف ، ثم ما رقّ وراق من ذلك يرتفع الى شماريخ الثمر فتغتذي به وترتفع الخلاصة الى الثمرة فتقابلها فى أولها تلك التي على فمها المسماة بالقمع ، وذلك القمع مصفاة تصفي الغذاء وتأخذ ألطفه وتوصله الى جرم الثمرة .

وهذه الخلاصة المصفاة يؤخذ ماغلظ منها فيصير نواة وما لطف يكوّن جرم الثمرة الحلو اللذيذ ! ثم جُعل هناك منسوج حريري رقيق صفيق فوق النواة فاصلا بينها وبين المادة الحلوة لئلا تصل المرارة الى مافوقها فتذهب بالحلاوة ، وجعل في شق النواة ذلك الفتيل الطويل ووظيفته إيصال الغذاء الى سائر أجزاء الثمرة .

فتأمل كيف صُفي الغذاء سبع مرات حتى وصل الى ما يأكله الانسان ، من التمر والرطب والبسر ، فتصفيه الجذور في الأرض من خلاصة العناصر ، ثم جذع النخلة ، ثم الجريد ، ثم القنو ، ثم الشماريخ ، فالمصفاة . فالنواة . فتعجّب من من تربية الله للتمرة والرطبة وكيف رعاها حق رعايتها حتى صارت الى ماهي عليه الآن من اللذة والمنفعة .

ومن هذا القبيل شجر النارجيل ـ وهو الجوز الهندي ـ . هيئة شجرته كهيئة النخل المعروف ، ويبلغ ارتفاعها تسعين قدماً ، تنبت في الأقاليم الحارة لاسيما شواطىء بحورها . وهي من أعجب ماخلق الله من النبات ، ففيها لأهل تلك الأقاليم غذاء وكساء ، ودواء ولبن ، وخمر ، وسكر ، وزيت ، وشمع ، وآنية ومساكن ودثر ، وفرش وحبال ، وأدوات وأسلحة ، وغير ذلك .

روى أحد الثقات : أن مسافراً كان يجوب مضان تلك الأرض تحت أشعة شمسها المحرقة . حيث يندر الظل . فرأى بيتاً تحيط به أشجار باسقة . معتدلة الأجذاع ، على رؤوسها أوراق جميلة تسر الناظرين . فدنا من البيت فرأى فيه هندياً رحّب به وأتاه بشراب شهي فيه طعم حموضة أروى ظمأه ، وأنعشه . وبعد أن استراح دعاه الى الطعام في صحون مختلفة . في جفنة سوداء مصقولة لامعة . وسقاه خمراً لذيذاً لم يشرب مثل ذلك قط . ثم أتاه بحلواء فاخرة . ثم بغيرها . فقال ـ وقد دهش ـ : من أين لك هذه كلها في هذا القفر ؟ قال : من شجرة النارجيل . فالشراب الذي سقيتك إياه من جوزها قبل نضجه ، واللبن الذي استطبته من ذلك الجوز بعد النضج ، والطبيخ الذي لذّ لك من أوراق تلك الشجرة وتلك الخمرة من عصارة زهرها ومن هذه العصارة كل ما عندي من السكر ، وكل هذه الصحون والجفان والآنية ـ التي رأيتها على المائدة ـ من قشر جوزها . وهذا البيت الذي أسكنه منها : فجدرانه من خشبها وسقفه من نسيج اوراقها ، ومظلتي من نسيج هذه الأوراق ، والثياب التي عليّ من خيوط أليافها ومن هذه الألياف مناخلنا وحصرنا وقلاعنا وحبالنا ، والزيت الذي نوقده في مصابيحنا عصير لب جوزها . ولنا فيها مآرب اخرى .

فدهش المسافر . ولما همّ بالانصراف سأله الهندي : أن يبلغ كتابه الى

صاحب له في المدينة التي يقصدها ، فقال : من أين لك الحبر والقرطاس ؟ قال : من تلك الشجرة . فالحبر من نشارة أغصانها ، والقرطاس من أوراقها ، فأخذ الكتاب وهو في حيرة وعجب .

ومن هذا القبيل ـ الذي يزيد في العجب أيضاً ـ النبات المفترس للحيوان : قد ثبت للخاصة والعامة أن النبات طعام الحيوان مسخر له . ولكن لم يدر في خلد إنسان ان الحيوان طعام النبات ، وأن النبات يفترسه بحيل مدبرة وكيد خاص !! إن نباتاً يسمى « الديونيا » من نباتات امريكا الشمالية ، له ورق يشبه مصيدة الفأر ، وفي وسط الورقة مفاصل كمفاصل اليدين والرجلين في الانسان والحيوان ، وتلك الورقة نابت عليها وبر ويحيط بها شوك ، ومتى لامست الورقة حشرة أحسّ بها الوبر فانطبقت الورقة حالا عليها ، وخرج منها مادة لزجة قائمة مقام لعاب الانسان ، لتمتص تلك الفريسة . فانظر كيف كان المفصل لتتحرك الورقة ؟ وكيف قام الوبر بالاحساس كبصر الحيوان ، وكيف كان فيها ما هو كالريق وكالعصارة المعدية في الحيوان ؟. وما أحوج الشبان في المدارس العالية وفي المعاهد الدينية الى ورود مناهل هذه الحكمة والارتواء منها ﴿ وفوق كل ذي علم عليم ﴾ .

ومن غرائب النباتات « النباتات الهوائية » وهي أعشاب لا اصول لها في التربة ، تتعلق على غيرها من النبات ، وتتناول غذاءها من الهواء ، وتنمو في الأقاليم الحارة . ومن عجيب أمرها أن زهرها يشبه الفراش والنحل وغيره من أنواع الذباب . وهو حسن زاه يسحر الألباب ويسحر العقل . اذا رأى الانسان أزهارها على أعالي سوق كالأسلاك يحركها النسيم فيظنها فراشاً يحوم على الأشجار أو نحلا يبغي جني العسل من الأزهار . ومن أزهارها ما يشاكل الرتيلاء ، ومنها ما يشاكل الانسان الى غير ذلك ﴿ وفي الأرض آيات للموقنين ﴾ .

وأغرب من هذا كله وأعجب : الشجرة التي تأكل الانسان وتتغذى بلحمه ! ! نشرت الصحف الأوروبية مقالات ضافية عن هذه الشجرة الغريبة العجيبة ، التي تتغذى بلحوم الانسان والحيوان . وأول من أذاع هذه الفكرة « الدكتور سولمون اوسبورن » وهو من علماء الجغرافيا المبرزين وقد سافر الى جزيرة « مدغشكر » وهي الجزيرة التي فيها تلك الشجرة ، فسمع تلك الاشاعة ولم يتمكن من رؤيتها لأنها في الغابات الموحشة . وقد قال ـ بعد وصف الحفلات الدينية التي يقيمها الأهالي حول تلك الشجرة ويقدمون لها وقتاً دون وقت ضحايا بشرية ـ : ان تلك الشجرة كشجرة الصنوبر باسقة ، وجذرها ذو عقد كبيرة ناتئة ، وعليها أربعة أوراق فقط ، يبلغ طول الورقة أربعة أمتار ، وعرضها في الوسط ٨٠ سنتمتراً . وهي تتدلى من رأس الشجرة الى أسفلها وتشبه جلد الجاموس الثخين وأطراف الاوراق مسننة ، وتوجد أزهار على رأس الشجرة تشبه الأقداح تتصاعد منها رائحة كريهة ، اذا شمها الانسان اعتراه دوار شديد وتسيل منها مادة مسكرة .

والأهالي في احتفالهم الديني يقترعون على من يقدم ضحية . وقد أصابت القرعة إمرأة فأرغموها على أن تتسلق الشجرة وتشرب من المادة المسكرة وما كادت شفتاها تمسان الزهرة حتى ارتفعت الأوراق المتدلية وأطبقت عليها من كل جهة ، ولبثت ملتفة عليها مدة اسبوعين وعادت بعدها الى ما كانت عليه ولم يبق من جثتها غير رأسها المسلوخ .

فانظر الى هذه العجائب من النبات فان هذا وأمثاله مما أمر الله المسلمين ان يعلموه ، وأن يعملوا به في الدنيا ويرقوا مدنهم فيكونوا شاكرين لله تعالى . وما دام المسلمون لم ينظروا ولم يعملوا في النبات باستخراج الثمرات والمنافع فانما هم كافرون لنعمته غير شاكرين لها . فهذه من آثار قوله تعالى : ﴿ وما أنزل الله من السماء

من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة ﴾ .

ان الدين الاسلامي ـ كما قال أحد العلماء الهولنديين ـ : كان عند أمة تعرفه في صدر الاسلام ، فارتقت به ، فلما دخل في هذا الدين أمم جاهلة ، عقولها غير ناضجة ، فهمته فهماً معوجاً فانحطت ونزلت أسفل سافلين . فما أذل المسلمين إلا جهلهم باللغة والقرآن ، وغفلتهم عن كلام أسلافنا الفضلاء مصابيح الدجى وأعلام الهدى . فيا عجباً كل العجب لعالم أضاع حياته في أقوال جدلية وكلمات لغوية ! ! وقد أغمض أجفانه ـ وهو غافل ـ عن هذه العوالم المشاهدة . فلنفهم إذن قوله تعالى : ﴿ وإن من شيء إلا عندنا خزائنه وما ننزله إلا بقدر معلوم ﴾ وقوله : ﴿ وأنبتنا فيها من كل شيء موزون ﴾ . وقوله : ﴿ كل شيء عنده بمقدار ﴾ .

على نفسه فليبك من ضاع عمره　　　وليس له منها نصيب ولاسهم

ليقف العالم بين الناس شارحاً لهم جمال الزهر وبهجة القمر ، وبدائع النبات وغرائب المعادن ، وليُفهم غيره وليكثر من هذا . ان علوم الخلق من العوالم العلوية والسفليه غذاء . وإن علوم الشريعة ـ وهي الأحكام الفقهية ـ دواء . فهل يعيش الانسان إلا بالغذاء ؟ واذا تعاطى الدواء وحده هلك ، بل الغذاء هو الدائم الطلب ، أما الدواء فانما يكون عند انحراف الصحة .

فلنربِّ أولادنا بالتربية الاسلامية الشريفة ، لكي ينالوا كل فخر وشرف . بأن نملأ صدورهم من العواطف والرحمة والحب . ربّوا الأبناء على حب النظام والعمل للمجموع والحب العام ، بالحكايات الدينية اللطيفة والسير الجميلة . وسيرة النافعين للامم الاسلامية . حسنوا لهم كل جميل ، وقبحوا لهم كل قبيح . واعدلوا بهم الي الأخبار المشجعة للآداب ، والمعطشة للعلم . المرغبة لمساعدة

الاخوان . وليكن هذا منكم كثيراً حتى ترسخ الملـكات فى النفوس . هذا هو الصراط المستقيم ، والنظام القويم . فليحرض العلماء الامة على اتساع نطاق التربية الخلقية ، والمحبة الجنسية الدينية ، والفضائل الكمالية . فذلك أعلى تقديساً وأشرف مقاماً ، وأعز مقصداً . وأوسع مدداً . وأقرب منالا ، وأكثر إفضالا ، وأقرب الى مرامي النبوّات والى جمال هذه المخلوقات .

لن تجمل النفوس . ولن تجمل الأخلاق وتحسن الشعوب ، ولن يتم النظام إلا بصنع النفوس صنعاً يعليها ، ووعظها وعظاً يدنيها ، بالأمثال النافعة والحـكايات الممتعة والآراء الناجعة . وسير الأبطال وفضائل الرجال وشمائل العلماء . الذين نفعوا الامم بعلومهم ورقوها بنصائحهم . ذلك هو القول البليغ الذي أمر به الرسول وذلك هو الوعظ الممدوح الشارح للصدور . المهيء لتبوء النفوس مقام الصدق . ومطالع العرفان والنور . إن أهل سويسرا قد علمهم أساتذتهم فى المدارس تعليما دينياً وأدبياً واجتماعياً حتى وصلوا الى درجة انهم لا يفهمون معنى السرقة ولا يعقلون كيف يكذبون .

سافر أحـد العظماء الى سويسرا فنزل فى قطار السكة الحديدية ، فلم يرَ القوم يأخذون تذكرة بطاقة فى أيديهم ، بل كل واحد منهم يحاسب نفسه بنفسه فيضع النقود بيده فى الصندوق وليس عليه رقيب ، بخلاف عاداتنا ! ! ولما دخل المدينة سأل عن القاضي أين هو ليحادثه . لأنه هو أيضاً من رجال القانون ؟ فقالوا له : ان القاضي فى الدكان يصنع الأحذية . فتوجه اليه وعجب كيف يكون القاضي صانع الأحذية ! ! فقال له القاضي : إن بلادنا تقل القضايا فيها والامـة تعرف واجبها وأنا لا أعمل إلا ثلاثة ايام اول الشهر فيأتي المتقاضون يسألونني فيما أشكل عليهم من الامور فأفتيهم فيقتنعون وليس لي الحق أن آخذ راتباً فى ايام

لا عمل لي فيها ، فها أنا ذا آخذ راتب ثلاثة ايام وفي بقية الشهر أصنع وآكل من كسب يدي .

ثم توجه الى فتاة قروية ، قد نامت فى وسط الأعشاب فى البرية ، وحولها عشرات من البقر يتبعنها أينما سارت ، ويقمن حولها اذا نامت ويسرن وراءها اذا رجعت الى منزلها . قال : فسألتها ألا تخافين من اللصوص ؟ قالت : لا أفهم معنى لصوص ، فقال : سارقون . فقالت : هذه لأول مرة اسمع أن الانسان يأخذ ما لاحق له . وليس لنا علم بهذا . فتعجب مما سمعه ومما رآه .

هذه الحكاية وامثالها كثيراً ماتدهشنا نحن المسلمين ، وتدعو لأسفنا الشديد اننا خير أمة أخرجت للناس نأمر بالمعروف وننهى عن المنكر ، ثم تكون عاقبتنا أننا قوم لا نعرف إلا القضاء والمحاماة ، فأما تربية الوجدان وتهذيب النفوس فنحن عنهما بمعزل ساكتون صامتون نائمون ، كما نام اصحاب الكهف سنين عددا ولم نجد ما يوقظنا .

أليس ما اذكره الآن آلاماً ؟ أوليست هذه امراضاً اجتماعية ؟ بل هي امراض اجتماعية ، ودواؤها : ان يقلع المسلمون عن طرق التعليم الحالية وإلا فعذاب الاذلال الواقع من الامم الغربية لامرد له ، وما لهم من دونه من وال . وهذا الاذلال من دول اوروبا للمسلمين عذاب لايزول إلا بزوال سببه وهو الجهل بالعلم وبطرق دراسته .

المسألة الرابعة ــ تربية الله للؤلؤ في البحر ويسمى الدرّ والجمان ــ : اللؤلؤ حيوان يعوم على وجه الماء ثم يهبط في الاعماق . وهو داخل صدف من المواد الكلسية وقاية له من الاخطار ، والدر ــ يتكون في لحمه . ومن عجيب صنع الله عز وجل أن جعل هذا الحيوان مخالفاً لما نعرفه من سائر الحيوانات ، ذلك ان الحيوان

يشم بأنف ، ويأكل ويشرب بفم ويتنفس بهما ، ويمنع المضارّ عنه بيديه وقرونه وقواه وحصونه وجيوشه . أما حيوان اللؤلؤ فان له شبكة دقيقة كشبكة الصياد ، متداخلة عجيبة النسج ، تكون مصفاة له . فتدخل الى جوفه الماء والهواء ومواد الغذاء ، وتمنع الرمال وغيرهامن المضار عن الدخول في جوفه . وتحت تلك الشبكة أفواه ، لكل فم أربع شفاه تقبل الملائم من تلك المواد وتدفع غيره . واللؤلؤ ينشأ من تجمع رمل أو حيوانات ضارّة تدخل الصدفة ، فيفرز حيوانها مادة لزجة يغطيها بها ثم تجمد وتتحجر . ومن اللؤلؤ ماهو أصغر من العدسة ، ومنه ما هو أكبر من بيضة الحمام . وينبت في خليج فارس ، وخليج المكسيك ، وجزيرة سيلان . فتعجّب من تربية الله لحبة الذرة وحبة القمح والتمرة والدرّة في البحر . التي تتحلى بها الحسان وتزين تيجان الملوك . ألا وإن حليتها في صدور الحكماء ، وعلم تربيتها فى أفئدة العلماء أبقى أثراً وأشرف ذكراً وأرفع مقاماً .

يقول الله تعالى : ﴿ وهو الذي سخّر البحر لتأكلوا منه لحماً طرياً وتستخرجوا منه حليةً تلبسونها وترى الفلك مواخر فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون ﴾ . فذكر اللحم الطري وهو السمك المستخرج من البحر . وذكر عجائب الجمال وبدائع الصنعة من الدر المخلوق فى صدفه ، العائش فى البحار . وكذا المرجان الذي ينبت فى قاع البحر . ولعمرك لا ينال مغنمه ولا يحظى بمكسبه إلا الفرنجة ، ألا ترى الى فرنسا فانها تحصد حقول المرجان ــ التي أمام تونس والجزائر ــ وهي حافظة لها ومتى تم ينعها حصدتها وباعتها . والمسلمون نائمون لا يعلمون شيئاً .

يقول الله تعالى : ﴿ وتستخرجوا منه حلية تلبسونها ﴾ والمسلمون كأنهم لم يقرؤا القرآن ، وكأنهم لم يخلقوا فى هذه الارض ، وكأنهم أموات لا أحياء . يقول الله لهم : وتستخرجوا منه حلية تلبسونها وتتحلى بها نساؤكم ، وهم يقولون:

يا ربنا نحن لا نستخرج وإنما نشتري من المستخرجين من الارض . فكأنهم ليسوا مخاطبين بالاستخراج المباح ؟ ! ! اللهم أنقذ أُمتنا من هــذا النوم العميق وأيقظهم إنك أنت السميع العليم . واجعل كتابي هذا نوراً يستضيء به العارفون ونبراساً يهتدي به المثقفون إنك عليم قدير .

المسألة الخامسة ـ تربية الجنين فى بطن أُمه ـ : إن للأجنّة علماً خاصاً يدرس فى مدارس العالم الراقية ، وهي من التربية الالآهية الداخلة فى قوله تعالى: ﴿ رب العالمين ﴾ إن الحيوان المنوي الجاري من الحيوانات التي تعـد بالآلاف ومئات الآلاف فى الماء المهين ، يسارع فى مجراه عند مصبه ، حتى يلاقي حيوانًا من التي سارعت جارية من ماء الاناث فيلتقيان ، ويكوّنان خلية واحدة ثم تكبر بالانقسام : ٢ ـ ٤ ـ ٨ ـ ١٦ ـ ٣٢ ـ ٦٤ ـ ١٢٨ ـ وهكذا بطريق المتواليـة الهندسية المحتوية على بيوت الشطرنج ذات الاسرار العجيبة فى علم الارتماطيقي ، وهكذا التكاثر المنتظم السريع بهذه المتوالية يستمر الى تسعة اشهر . ومن عجيب هذا الانقسام العددي فى الخلايا أنه يتبعه نظام مدهش فى الاعضاء والشرايين والاوردة والعروق والرباطات واللحم والشحم والظفر والشعر ، والحواس المدهشة ، الدقيقة الصنع . عجبًا وأي عجب انقسام الخلية المكونة من الحيوان المذكر ومن الحيوان المؤنث الى المضاعفات بنظام تام آلافًا مؤلفة ، يتبعه نظام في الاعضاء فكان ظفر ومخ وماء زجاجي في العين . ان في ذلك لعجبًا عجابًا ونظامًا غريبًا . حرام على المسلمين ان يجهلوا تربية الله للأجنّة في بطون امهاتها .

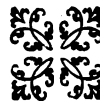
حُكي ان رجلا امريكيًا اراد ان يستخرج الفراخ من بيض الدجاج بدون واسطة الدجاج وحضنها للبيض ـ كما كان يصنعه الفاطميون في مصر ـ فخطر له ان يجعل البيض في حرارة تضارع الحرارة التي ينالها البيض من الدجاجة الحاضنة

له . فلما جمع البيض وابتدأ بالعمل قال له فلاح : ياأيها السيد لا بد لك أن تقلب البيض كل أربع وعشرين ساعة مرة . لأني رأيت الدجاجة تقلبه هكذا . فسخر منه ذلك العالم وقال له : أيها الفلاح إن الدجاجة تقلب البيض لتعطي الجزء الأسفل منه حرارة جسمها الذي حرمته أما نحن فحرارتنا محيطة بالبيض من جميع جهاته ، فأنى يستوي عملنا وعمل الدجاجة ؟ ثم استمر في عمله فلما جاء دور الفقس لم تفقس بيضة واحدة ولم ينل منها فرخاً . فكان حظه الحرمان والخسران فقال : لابد أن أفعل في المرة الثانية ماأشار به الفلاح ثم صار يقلبه كما لقنه الفلاّح ففقس جميع البيض وخرجت منه أفراخ كثيرة . فطار الخبر في أنحاء المعمورة وطلب من العلماء تفسير هذه الحادثة . وآخر مارووه أن قالوا : ان الفرخ حينما يخلق في البيض اذا بقي بدون تحريك انحدرت المواد إلى الجهة السفلى من جسمه . فتتمزق أوعيته رأساً . فاذا بقيت لم تحرك تمزقت من الأسفل لـكثرة المواد في الجهة السفلية . وهكذا بقية الأعضاء . فهذه وأمثالها مما لا يتناهى يدلنا على أننا في حومة الجهالة . في وسط بحر لجيّ من الحكمة لايعرف قراره ولا يُدرى منتهاه .

المسألة السادسة ـ تربية الولد باللبن ـ : خلق الله اللبن في الثدي قبل أن يولد الطفل . وكلما كبر الجنين ازداد اللبن في الثدي ، حتى اذا ماتم حمله وكانت الولادة درّ له لبن مناسب لسنّه . فكلما كبر سناً اقترب اللبن من طبعه ، وتناسب مع قوته . حتى أن علماء الطب حرّموا أن يرضع حديث الولادة من امرأة قديمة العهد بها لأن الطفل لايتحمل لبنها وقالوا ايضاً : الأولى بكل طفل ـ أُمه في الرضاعة . فان لبنها أنسب له وذلك من التربية التي تضمنها لفظ ﴿ الحمد لله رب العالمين ﴾ الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى . ومن عجب أن العجوز والصغيرة جداً لاتشتهيان ولا يقترب منهما الرجال لحكمة الله عز وجل ، لأنهما لا قبل لهما

بالحمل ولا الولادة ولا الارضاع . فهذه الحكمة ناطقة بلسان فصيح قائلة ما جعل الذكر والانثى فى الانسان والحيوان إلا للانتاج . فأما الشهوات واللذات فانما هي مقدمات وممهدات للنسل .

المسألة السابعة ـ التربية الطبية ـ : ولنذكر قليلا منها نموذجاً لذي اللب والشعور . الذي تهمه الصحة والسعادة . قال الاطباء : مراعاة الصحة افضل من استعمال الدواء . يعني انك اذا حافظت على جسمك . وراعيت صحتك . ونظمت أغذيتك ، لم تحتج إلى الدواء . وقالوا : ان جميع الاستفراغات والمسهلات للبدن مثل الصابون للثوب إذا كثر استعماله أبلاه سريعاً . واكثر المسهلات سمّية قاتلة ـ اذا لم يعرف القدر المستعمل منها ـ وربما يحرك المسهل أخلاطاً رديئة كامنة فى الجوف . فتثور منها علل عظيمة وداء لا دواء له . فترك المسهل والاستفراغات جميعاً أولى . اللهم إلا عند الضرورة الملجئة فيستعمل منها القدر اليسير . وقال الاطباء : متى امكنك ان تعالج المريض بالغذاء فلا تعطه شيئاً من الادوية ، ومتى قدرت ان تعالجه بدواء خفيف مفرد فلا تعالجه بدواء مركب ولا قوي . ولا تستعمل الادوية الغريبة المجهولة ما امكنك إلا ان يصح لك منها شيء بالتجربة . هذا ما اردت ذكره من تربية الله للناس بعلم الطب الذي لم تراعَ اصوله فى بلاد الاسلام ، والعالم كله ـ حتى اليوم ـ لا يزال فيه طفلا رضيعاً لا يدري ما منتهاه .



منهج الاسلام فى التربية

ان من النواميس الاولية والضرائب الطبيعية ، التي لم تعتورها عوامل الدثور والظهور ، ولم تغيرها فواعل التبدل والتحول .

إن أول خطوة فكرية يتخطاها هذا الكائن الحي ، الحساس الناطق من مجهلة الحيوانية ، الى معالم الانسانية بعدما طوى شطراً من صحيفة أيامه ، في بلهنية العيش وسذاجة الخيال وفراغ البال ، إلا من تقاضي مقومات مادي حياته ، والدفاع عما يحس به من مؤلمات واهن وجوده .

أول قدم يضعها في مفازة البحث والنظر بعد تلك النعسة الطبيعية ، واسبق روح دب فيه بعد هاتيك الميتة الجاهلية هو : ما بثته فيه لحظة العناية ، من تطلّب الاسباب والعلل لساير ما يقع عليه حسه ، من حوادث الطبيعة ، وكوائن المادة ولاسيما الكوائن الفجائية التي لم يرضخ لها ولم يعتد عليها ، ولم يتكرر له شهودها يستغرب ويعجب من طلوع الكوكب المذنّب بما لا يستغرب به لبزوغ الشمس وطلوع القمر .

يندهش للخسوف والكسوف . ولا يندهش لمغيب الشمس كل ليلة ، ومحاق القمر كل شهر . والغاية فى الجميع واحدة ، وان اختلفت الاسباب

وتعددت المبادىء .

بيد أنه يندفع بدافع الغريزة الى التقاضي . والطلب لمعرفة سبب كل حادث وكائن أياً ما كان ، غير ان هذه الحركة الفكرية قد تكون حالا (أعني مرور خطور لمعة البرق اسرع ما يلمع) ثم تزول ويعود المرء على عدوائه من سنن تلك النعسة الاولى ، والتغافل عن الامعان فى فجاج هـذه الأودية السحيقة ، فيغدو — وقد صار كهلا — كما هو وقد كان طفلا ، سوى ما يعانيه من مزاولة الماديات ، ومقومات أود الحياة . فيستخدم ذلك الروح المجرد العاقل لهذا الجسد الكثيف الباطل ، الذي سوف لا يحصل منه على طائل .

نعم وقد تستمر تلك الحركة وتتكاثف وتلزم حتى تصير ملكة ، فتترامى من سبب الى سبب ، ومن طلب الى طلب ، ولا يجد أريحية ولا راحة من هذه المتاعب الفكرية والتجولات النظرية ما دام في أسر هذا الهيكل وفى سجن هـذا البناء الذي سينهدم عليه . فيتركه ويفر منه طالباً . عسى ان يجد الحقيقة وراءه ولا أدري أيجدها أم لا ؟

مهما جهلت ذلك أو علمته ، فاني لا اشك ان أهل السلامة والاستقامة — أعني بها سلامة القرائح والفطر ، واستقامة الالباب وصحة النظر — لا تزال أفكارهم المثقفة تترامى في معارج النظر ، والمعرفـة تتصاعد في سلم المراقي الى حيث شاءت لها القابليات والاسباب والمعدات . كل ذلك بدافع طبيعي وسائق غريزي ، ثم لامحيص له في النهاية من الوقوف على غاية يطوي عليها سلسلة سائر الممكنات ، ويتخذها غاية الاسباب والمسببات . يجعلهـا مبدءاً لكل شيء ولا مبدء لها من شيء .

والناس فى ذلك على ثلاثة أصناف لا رابع لها أبداً :

صنف يقول : لا أدري ولا يهمني ولا يعنيني طلب هذه المواضيع المظلمة والمغارات الموحشة ، وما عناي وهمي إلا في توسعة العيش ، وترفيه مآزق هذه الحياة ومعالجة معامع هـذا الدهر ، ولا أعرف ولا أطلب شيئاً وراء ذلك . وهذا الصنف قد استراح الى الجهل ، وسكن الى ظله ، واخمد مصباح عقله ، وتدرع بلاأدري عن كل واردة ترد عليه . فهو والبهيم سواء . « إن شر الدواب عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون » .

وصنف سمت همته ، وكبرت نفسه عن التلوث بهذه الرذيلة — رذيلة الجهل التي هي أم الرذائل وسم الفضائل ـ فبحث وسار . ونقب في الاثير وتطلب الآثار . وركب متن افكاره السيارة . فجالت فيه حتى وقفت به على أمر محسوس متحيز ، متجرد عن مبدء كل شعور وادراك . فلم يجد هناك شيئاً — بعد كشف الحقائق لديه — انفع وأصلح للبشرية من الاديان . وانها المبدأ الأول لسائر المبادىء ، والغاية الازلية التي ليس بعدها غاية . وانها من اكبر النواميس المتممة بل المقومة لنظام الكون والعمران .

سار هذا الصنف مع الثالث مترافقين كتفاً لكتف وجنباً الى جنب . يتطلبون الحقيقة الضايعة والضالة المنشودة وما هي منهم ببعيدة . اتفقوا في مبادي السير والحركة . ووحدة الغاية والمقصد ، بعدما طووا بسير واحد جم مراحل وجملة منازل . على ان الغاية والغرض الوحيد من وضع الاديان ، ونواميس الشرايع وبعثة الاطباء الروحانيين وصحف الوحي ـ هي معالجة هذه النفوس ، وحفظ صحتها والسير بها على الاعتدال والاستقامة ، حتى يصير هذا الكائن الحي انساناً بحقيقة الانسانية .

وبالجملة ليس الغرض من الاديان والشرائع سوى قلع جراثيم الفساد ،

وابادة جـذور الشرور من الأرض ، التي لا منشأ لها سوى إطلاق النفوس ، وتسريحها في مراعي شهواتها ، وعدم اعتقالها بشكيمة العقل ، وانقيادها بمقـادة الشرايع ، وجماحها عن السير على سنن الآداب المقدسة ، واتباع القادة . وهل ذلك إلا خروجها عن جادة الصراط المستقيم ، الذي وضعته العناية الالآهيـة لتكميلها وتربيتها ، وحفظ شرف جوهرها .

ما الذي يبعث الهمم ، وينشط العزائم ، وينشىء الرغبات الصادقة ، والاميال الصحيحة ، وحفظ الحياة والاطمئنان إلا الأديان ؟ .

لعمرك ماالأديان إلا سعادة　　وما الناس لولا الدين إلا بهائم

وتالله لولا سيطرة القوانين والطقوس ـ شرعية أو وضعية ـ لانتكس هذا النوع البشري من اوج الانسانية إلى حضيض الحيوانية

بلى بلى والله هو ـ والسميع العليم . كلما بحثت ونقبت وأدليت ماتح الفكر في أعماق الأسباب والعلل ، وصوّبت وصعدت النظر في معارج المبادي ـ لم أجده يرد ويقف إلا على تحكيم العقائد الحقة المشذبة من كل تنطع وخرافة ، وتمكين الدين الصحيح من النفوس ، ورسوخ الايمان بمبدأها ومعادها . وان وراء هذا اليوم يوماً عظيماً : اما سعادة لازمة ، أو شقوة دائمة .

أكبر سائق للنفوس على الذي ألمعنا اليه ودللنا عليه ـ هو أن تساط النفوس والأذهان وتنصبغ بتلك الصبغة الالآهية الثابتة ﴿ صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة ﴾ حتى تتمكن منها . بل وتتحد بها اتحاد الأرواح بالأجسام والماء بالمدام .

ان الجماعات لاتصلح إلا بالدين . ولا يقوم لها شأن بغير هدايته ، ولا تستقر إلا بقوته ، لأن الاديان تهذب العالم والجاهل ، وذا العقل القوي وصاحب

العقل الضعيف . فهدايتها عامة شاملة . لا تخص فريقاً دون فريق . بل ان الجماعات مهما تكن ثقافتها ومعارفها عالية تخضع للدين وتستولي على مشاعرها آياته .

حكي عن سقراط انه سمع بموسى «ع» وقيل له : لو هاجرت اليه ؟ فقال : نحن قوم مهذبون . فلا حاجة إلى من يهذبنا . وهذا ليس بصحيح لأن التعاليم الالآهية والأحكام السماوية فوق تعاليم البشر .

ان الدين هو الذي يربي الوجدان الفاضل ، ويهذب الضمير ، ويوقظ شعور الانسان بالفضيلة . فارشاده يمس مواطن الاحساس في النفوس ، ويؤثر فيها أبلغ تأثير ، ويصل إلى الاعماق في الهداية والصلاح .

والدين الاسلامي في عمومه في الاحكام يشبه قانون الاخلاق ، من حيث انه يحكم على كل أفعال الانسان الارادية بالخير أو الشر ، فكذلك يحكم الاسلام على كل الافعال بالقبول عند الله أو عدم القبول

ولما كان للاسلام هذا العموم في الاحكام ـ كان صالحاً لارشاد الناس في كل امورهم .

سلك الاسلام فى تكوين خلق بني الانسان مسلكا شملهم من جميع نواحيهم ، فاتخذ من الوسائل أوفاها وأقربها ، ومن الذرائع أنبلها وأنجعها ﴿ ان هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم ﴾ واليك البيان :

الذريعة الاولى
تأديبه في مأكله ومشربه

ان من أهم الامور وآكدها الاعتناء بتربية النشء الصغار ، وتعويدهم التخلق بالكمال في حال نشأتهم . لأن الصبي عند ما يولد يكون ساذجا خالياً من كل نقش وصورة ، وهو قابل لكل ماينقش عليه ، ومائل إلى كل مايمال به اليه . فان عُوّد الخير وعمله ـ نشأ عليه وسعد في الدنيا والآخرة ، وشاركه في ثوابه أبواه وكل معلم له ومؤدب . وان عوّد الشر واهمل إهمال البهائم شقي وهلك ، وكان الوزر في رقبة القيّم عليه ، والمتولي أمره . انظر قوله تعالى : ﴿ ياأيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم ناراً ﴾ .

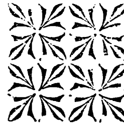
واذا كان الأب يصونه عن نار الدنيا فلأن يصونه عن نار الآخرة أولى وصيانته بأن يؤدبه ، ويعلمه مكارم الأخلاق ، ومحاسن الصفات ، وحيث أن أول مايغلب عليه شره الطعام ، وجب على المربي أن يؤدبه فيه ؛ حتى لا يكثر من الطعام ولا يسرف فيه . فان الله سبحانه يبغض من يفعل ذلك . وأن يقبح عنده كثرة الاكل بتشبيه كل من يكثر الاكل بالبهائم ، ويذم بين يديه كل من يكثر الاكل من أمثاله ، وألا يطعمه إلا حلالا طيباً ، طاهراً من ربا أو غصب

أو سرقة . ويبين له الحلال منه وطرق تحصيله ، والحرام ويباعده عنه . ويبين له المواضع التي أباح الله له الأكل منها من بيوت أقاربه ، كأبيه ، وامه ، وأخيه ، واخته ، وعمه ، وعمته وخاله وخالته ، أو صديقه . ويبين له آداب الأكل — منفرداً أو مع غيره — قبل الأكل وبعده .

وقد بيّن الله جل شأنه هذه الآداب على أحسن وجه وأكمله . فقال تبارك اسمه ، في النهي عن كثرة الأكل والشرب والاسراف فيهما وبغضه لذلك : ﴿ كلوا واشربوا ولا تسرفوا إنه لايحب المسرفين ﴾ فأرشدنا إلى ماعلمنا إياه ، من الطب والحكمة ، وهدانا اليه مما تصح به أبداننا ، وتقوى به أجسامنا وتطيب به معيشتنا ، وتهنأ به حياتنا ، من عدم الافراط في الأكل والشرب والاسراف فيهما . لأن كثرة الأكل والشرب تفسد المعدة ، وتضعف الجسم وبذلك يضعف الفكر ، ويخمد الذهن وينحط الادراك . واذا حجب القلب عن الادراك ومنع الذهن عن الحركة في المعقولات — خسر صاحبه باباً كبيراً من العبادات . لأن المقصود من العبادات إنما هو التفكر الموصل إلى المعرفة والاستبصار بحقائق الحق ، وكثرة الأكل — كما علمت — مانعة منه . ولهذا قال لقمان لابنه : « واذا امتلأت المعدة نامت الفكرة ، وخسرت الحكمة ، وقعدت الأعضاء عن العبادة » .

وقد بينت السنّة حد السرف المنهي عنه فقال رسول الله «ص» : (ان من السرف أن تأكل كل ما اشتهيت) كما بينت القدر اللازم والمقدار الواجب استعماله منهما فقد قال «ص» : (ما ملأ ابن آدم وعاءً شراً من بطنه . حسب ابن آدم لقيمات يقمن صلبه . فان كان فاعلا لامحالة ، فثلث لطعامه ، وثلث لشرابه ، وثلث لنفَسه) .

هذا وبعد أن نهى جل شأنه عن الاسراف في الأكل والشرب ـ أخذ يتوعد ويهدّد من خالف أمر الله فأسرف فيهما . ولم يقتصر على استعمال القدر الواجب استعماله منهما . فقال : ﴿ انه لايحب المسرفين ﴾ أي يبغضهم . وناهيك بغضب الله تعالى وعدم رضاه ، فانه داعية الهلاك ، وسبب كل المصائب . وأي عاقل يجرؤ على أن يُغضب الله تعالى في مقابلة مرضاة نفسه . باتباعها في شهوة هي سبب هلاكه وداعية لأسقامه وآلامه ؟



الذريعة الثانية
تأديبه في حديثه

ان أعصى الأعضاء على الانسان اللسان . فانه لا تعب في إطلاقه ولا مؤنة في تحريكه . ولذا ترى أغلب الخلق قد تساهل في الاحتراز عن آفاته وغوائله ، والحذر من مصايده وحبائله ـ فأوردهم المهالك وجرّ بهم إلى المصائب ، وما كب الناس في النار على وجوههم إلا حصائد ألسنتهم .

فاللسان خطره عظيم ، ولا نجاة من خطره إلا بالجامه بلجام الشرع ، ووقوف صاحبه عند الحدود والآداب ، التي أدبه بها الشرع . وعلمه إياها في محادثاته ومخاطباته . فلا يطلقه إلا فيما ينفعه في الدنيا والآخرة ، ويكفه عن كل مايخشى غائلته . في عاجله وآجله . وذلك بأن يعقله إلا عن حق يوضحه ، أو باطل يدحضه ، أو حكمة ينشرها أو نعمة يذكرها ، ولا يتكلم به إلا بقدر الضرورة والحاجة .

وان يقتصر في التكلم به على مايقيم حجته . ويبلغ حاجته . وألاّ يغالب أحداً على كلامه . واذا سئل غيره فلا يجيب عنه . واذا حدّث بحديث فلا ينازعه ولا يقتحم عليه فيه ، ولا يريه أنه عالم به . وأن يكلم كل انسان بما يليق . فلا يخاطب السوقة بكلام الملوك ، ولا الملوك بكلام السوقة . وألاّ يتكلم

إلا اذا دعا داع إلى الكلام ، فان ما لا داعي له هذيان .

وأن يجتنب في محادثته ثلاثة أشياء هي أعظم الأشياء خطراً على الانسان ، وأبغضها لله وأقبحها عند الناس وهي : الكذب ، والغيبة . والنميمة . وألا يتجاوز في مدح ، ولا يسرف في ذم ، لأن السلامة من الكذب في المدح والذم متعذرة وألا يتكلم إلا فيما يعنيه . وأن يضع الكلام في موضعه لأن لكل مقام مقالا .

وأن يجتنب في حديثه كل ما يكدر مخاطبه . وألا يرفع صوته فوق صوت من هو أكبر منه . فان ذلك كله مما ندب اليه الشرع وسلّم به سليم الطبع .

فان لاحظ المتكلم في حديثه هذه الاعتبارات السابقة وألزم نفسه رعايتها في كل أحواله ، كان ممن كملت أخلاقه . وعظم قدره واستوى عقله ، فان عقل المرء مخبوء تحت لسانه بمصداق قول علي «ع» : (لسان العاقل وراء قلبه وقلب الأحمق وراء لسانه) .

تأمل قوله تعالى في الملاطفة في القول والمجاملة في الحديث . ومجانبة الخشونة فيه : ﴿ وقل لعبادي يقولوا التي هي أحسن ان الشيطان ينزغ بينهم ان الشيطان كان للانسان عدواً مبينا ﴾ فأرشدنا إلى حسن الأدب في المحادثة والمخاطبة

فقد أمر نبيه «ص» أن يأمر عباده المؤمنين أن يقولوا في مخاطباتهم ومحاوراتهم ومحادثاتهم ـ الكلمة الطيبة ، وهي الكلام الحسن الذي لا خشونة فيه . فانهم إن لم يفعلوا نزغ الشيطان بينهم وألقى بينهم العداوة والبغضاء . لأنه العدو المبين للانسان ، يتربص به الدوائر . ويترقب له الفرص في حصول الشحناء بين بعض أفراده .

فالعاقل من لم يجعل للشيطان حظاً من قلبه ، حتى يملكه من غرضه وينيله امنيته ، ويحقق له رغبته . وإلا كان قد أسلم نفسه لعدوه يفعل فيها كيف يشاء .

وهو لعمري فعل غير حكيم .

وقال تعالى فى النهي عن التكلم فيما لا يعني . والسؤال عما لا يعود على السائل منه أدنى فائدة . بل ربما ساءه وأضرّ به : (يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم وان تسألوا عنها حين يُنزّل القرآن تبد لكم عفا الله عنها والله غفور حليم ﴾ فأرشدت الآية الكريمة . إلى بيان تأديب الله عباده المؤمنين ، وتعليمهم الأدب معه ومع رسوله «ص» وقت التشريع . إذ نهاهم عن أن يسألوا عن وجوب ما لم يجب . أو حرمة مالم يحرم من التكاليف التي تشتهي نفوسهم الوقوف عليها ولم ترد على لسان الشارع «ص» . مع انهم لو سألوا عنها لكان سؤالهم داعيةً إلى مشقتهم بتكليفهم مالا يطيقون . مما يضعفون عن القيام به فيحل بهم غضب الله وهـذا ما يفيده قوله «ص» لعكاشة بن محصن أو سراقة بن مالك — حين سأله عن وجوب الحج فى كل عام — : (ويحك وما يؤمنك أن أقول نعم ؟ والله لو قلت نعم لوجبت . ولو وجبت ما استطعتم . ولو تركتم لكفرتم ، فاتركوني ما تركتكم فانما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم فاذا أمرتكم بأمر فخذوا منه مااستطعتم واذا نهيتكم عن شيء فاجتنبوه) .

فأدب المرء بالنسبة لله سبحانه وتعالى — هو أن يسكت عما ترك الله ذكره . لأنه — جل شأنه — هو العالم بالمصالح والمحيط علمه بكل شيء ولو علم أن فى ذكر هذه الأشياء خيراً كثيراً لذكرها .

وقال جل ثناؤه فى الحث على التكلم مع الناس بالحسنى . واللين والرفق . ومجانبة الفظاظة فى القول والغلظة فى الحديث . آخذاً العهود والمواثيق من بني اسرائيل على ذلك : ﴿ وإذ أخذنا ميثاق بني اسرائيل لاتعبدون إلاالله وبالوالدين

إحساناً وذى القربى واليتامى والمساكين وقولوا للناس حسناً) .

فأفادت الآية الكريمة بيان ماأمر الله بني اسرائيل ، وأوجب عليهم أن يؤدوه من الحقوق والآداب نحوه ـ جل شأنه ـ ونحو عباده . وأخذ عليهم العهود والمواثيق بذلك . فأعظم هذه الحقوق وأولاها بالرعاية أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً ، لأنه هو الخالق الرازق ، المنعم المتفضل على خلقه في جميع الأوقات والحالات . فهو المستحق أن يوحدوه ولا يشركوا به شيئاً من مخلوقاته .

ثم يليه حق الوالدين ، وهو برهما وحسن معاشرتهما . والتواضع لهما ، والرحمة بهما . والنزول عند أمرهما ـ فيما لايخالف أمر الله تعالى ـ ويوصل اليهما مايحتاجان اليه ، ولا يؤذيهما ـ وإن كانا على غير دينه ـ ولعناية الله تعالى ببر الوالدين وأداء مايجب لهما من الحقوق ـ قرن ذلك بأعظم الأشياء لديه وهو عبادته وحده لاشريك له . وذلك في غير موضع من القرآن فمنه قوله تعالى : ﴿ أن اشكر لي ولوالديك إلي المصير ﴾ . وقوله : ﴿ وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحسانا ﴾ إلى غير ذلك من الآيات .

ثم من بعده حق اليتامى ، وهم الذين مات آباؤهم وهم صغار . وحقهم أن يتولى تربيتهم ويحسن تأديبهم ويكفل مصالحهم ، ويسعى فى صالحهم . وبالجملة يجلب لهم كل خير ويدفع عنهم كل شر وضر .

ثم من بعده حق المساكين وهم الذين لا يجدون ما يقوم بكفايتهم . وحقهم ان يقوم بمساعدتهم بما تتم به كفايتهم ، وتزول به ضرورتهم . ويكفيهم مؤنة ذل السؤال ولا يلجؤهم إلى تكفف الناس . ثم بعد أن أمرهم ـ جل شأنه ـ بالاحسان بالفعل على الوالدين ، والأقربين واليتامى والمساكين . واخذ عليهم العهود والمواثيق بذلك ـ امرهم بالاحسان بالقول مع سائر الناس . ليجمع بين

طرفي الاحسان الفعلي والقولي فقال : ﴿ وقولوا للناس حسناً ﴾ أي كلموهم كلاماً طيباً عند محادثتكم لهم ومخاطبتكم إياهم . ولينوا لهم جانباً . وليكن حديثكم معهم هيناً ليناً وسطاً ، ليس بالغليظ المرتفع فيمج ، ولا بالمنخفض بحيث يكلف المستمع طلب إعادته .

ويدخل فى ذلك كل حسن من القول سواء كان امراً بمعروف أم نهياً عن منكر . وقال تعالى فى الحث على خفض الصوت عند المحادثة : ﴿ واغضض من صوتك ان انكر الاصوات لصوت الحمير ﴾ وقال تعالى : ﴿ ولا تطع كل حلاف مهين ، هماز مشاء بنميم . مناع للخير معتد أثيم ﴾

فبيّن حرمة صحبة من لا اخلاق لهم من الناس . ومجانبة المجالسة . والمحادثة معهم ، وعدم طاعتهم فى كل ما يقولون بقوله : ﴿ ولا تطع كل حلاف مهين هماز مشاء بنميم ، مناع للخير معتد أثيم ﴾ . فهذه سبعة اوصاف كلها مثالب ومعايب ، نهى الله تعالى نبيه «ص» عن طاعة المتصفين بها ـ وهو تعليم لنا وإرشاد لما يجب ان نتخلق به من الاخلاق الفاضلة ، والصفات الكاملة ، ونتركه من الاخلاق الفاسدة والصفات الكاسدة .

ووجه النهي « والله اعلم » ان الحلاّف وهو كثير الحلف ـ سواء فى الحق او فى الباطل ـ قلّما يتحرى الصدق فى ايمانه . فهو عرضة على الدوام للكذب والخطأ فيها ، فضلا عما له من الجرأة على الله تعالى وعلى اسمائه . ومثل هذا تجب مجانبته ، وتحرم مخالطته . ولذا جعله ـ جل شأنه ـ فاتحة المثالب . ومقدمة المعايب . وان طاعة المهين ـ وهو حقير الرأي والتدبير ـ ربما أوردته المهالك وجرّت عليه أخبث المسالك . لانه يريد أن ينفع فيضر . فطاعة مثل هذا لا نتيجة لها سوى الضرر .

وان الهماز ـ وهو العيّاب الطعان ـ لاتؤمن غوائله . فهو اليوم له وفى غد عليه . فضلا عن أنه بطاعته يعد شريكا له فى هذه المنقصة وتلك الرذيلة ، لأنه لا يعيب غيره ، ولا يطعن عليه إلا لزمانة فى مروءته . وخسة فى اصله ولؤم فى طبعه .

وان المشاء بالنميمة ـ هو النقال للحديث من قوم إلى آخرين . ليفسد بينهم لا همّ له إلا الايقاع بين الناس والافساد بينهم وإلقاء بذور الشقاق والخصومات فيما بينهم . وايغار الصدور وتوليد الشرور . ومثل هذا تجب مخالفته . وتحرم طاعته وتعاف مجالسته . لان صحبته غرَر . وطاعته ضرر . ومجالسته خطر . فكثيراً ما هلك وأهلك . وأراق الدماء وسفك . وما حُمد أيّما سلك

وان المناع للخير ـ وهو البخيل الممسك ـ يمنع أحوج ما يكون اليه صاحبه ومثل هذا لاخير فى صحبته وطاعته . وان المعتدي ـ وهو الظالم ـ لا يؤمن شره ولا يؤمل خيره . فهو أولى بالاجتناب وأحرى بنبذ طاعته سداً للباب .

وان الاثيم ـ وهو كثير الاثم والمعصية ـ لم يبال المجاهرة بمعصية خالقه ، ولم يخش من جلاله وعظمته . فلا يبالي ان يجاهر صاحبه بأذيته . وينابذه بعداوته . ومثل هذا تنبذ طاعته ، وتجتنب مخاطبته . وقال فى النهي عن الكذب فى القول وقت المحادثة : ﴿ ان الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون ﴾ فبين قبح الكذب وذم فاعله ، وذلك بما اخبر به تعالى عن الكذابين ، من عدم الفلاح والنجاح . وكفى بأي صفة ذمًا ان تكون نتيجتها عدم الفلاح والنجاح .

الدربعة الثالثة

تأديبـــه فى مجالسته

من خُلق الاسلام : أن يوسع المرؤ لجليسه اذا أقبل عليه ، ولا يضيّق عليه ، وان يلتزم معـه الأدب والسكينة والوقار — اذا كان اكبر منـه سناً أوعلماً ، وبخاصة اذا كان أباه أو استاذه . وأن يرحب به و يقبل عليه اذا حدثه ، ولا يضع رجلا فوق أخرى بحضرة من هو اكبر منه — ان كان ذلك يغضبه — ولا يبصق ، ولا يمخط إلا في منديل ، مواريا وجهه عن جليسه . واذا تثاءب فلا يصحب التثاؤب بصوت ، بل يضع يده على فمه . فان مخالفة ذلك مما يستقذره الناس . قال تعالى مشيراً الى بعض هذه الآداب : « يا أيها الذين آمنوا اذا قيل لـكم تفسحوا في المجالس فافسحوا يفسح الله لـكم واذا قيل انشزوا فانشزوا يرفع الله الذين آمنوا منـكم والذين أُوتوا العلم درجات والله بما تعملون خبير » .

فبيّن ما أدب الله به عباده المؤمنين ، وأمرهم به من حسن المعاملة والمجاملة ورعاية الأدب فى حق بعضهم بعضاً . فمن ذلك اذا كان جماعة في مجلس وقدم عليهم آخر ، أو جماعة أخرى . فعلى الجالسين أن يوسعوا للقادمين مسرعين فى ذلك — سواء أكان المجلس مجلس ذكر ام تعليم أم صلاة جماعـة أم جمعه أم غير ذلك من مجالس الخير — لأن ذلك يكون سبباً للتواد والتوافق والتحاب ،

ونبذ التباغض والتحاسد . وهـذا ما أفاده الله تعالى بقوله : « يا أيها الذين آمنوا اذا قيل لـكم تفسحوا فى المجالس فافسحوا يفسح الله لـكم » .

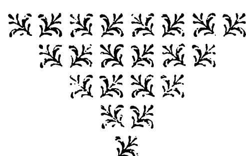
ولما كان الغرض من التوسعة في المجلس للقادم — غرس المودة والمحبـة في قلوب المؤمنين ، ولا يكون ذلك إلا حيث كانت التوسعة مصحوبة بشيء من الحفاوة بالقادم ، والاحتفال بأمره والاعتناء بشأنه ، ومن ذلك أن ينهض مسرعاً فى التوسعة . فلما كان الغرض من التوسعة ذلك ، حث (جل شأنه) على النهوض بسرعة للتوسعة في المجلس للقادم ، فقال : « واذا قيل انشزوا فانشزوا يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين اوتوا العلم درجات والله بما تعملون خبير » .

اي واذا قيل لـكم انهضوا للتوسعة في المجلس للقادمين عليـكم فانهضوا ، واسرعوا ولا تتثبطوا ، فانـكم ان فعلتم ذلك يرفع الله الذين فعلوا منكم في الدنيا والآخرة درجات عظيمـة جزاء امتثالهم لأمر الله تعالى فى قيامهم من مجالسهم ، وتوسعتهم لاخوانهم . ويرفع الله الذين اوتوا العـلم منهم خاصة درجات أعظم وأرفع ، لانهم انما يفعلون ما يؤمرون به عن بينة وقوة يقين . وانما خص جل شأنه أُولي العلم — مع دخولهم فى عموم الذين آمنوا — لأنه لما علم جل شأنه ان أهل العلم بمكانة بها يستوجبون عند أنفسهم وعند الناس ارتفاع مجالسهم ، خصهم الله بالذكر عند الجزاء ليسهل عليهم ترك ماهم من الرفعة في المجلس تواضعاً لله عز وجل . وفى الآية مما يدل على فضل العلم والعلماء على غيرهم كما لا يخفى .

وان لم تفعلوه بأن كرهتم أن تتأدبوا بآداب الله ، واستعظمتم ان توسعوا مجالسكم للقادمين عليكم — حسبما أمركم ربكم — فان الله بما تعملون خبير ، لاتخفى عليه خافية من أعمالـكم من خير أو شر ، فيجازيكم بالخير خيراً وبالشر شراً .

ومما جاء فى آداب المجالسة قوله (ص) : « اذا كنتم ثلاثة فلا يتناجى

رجلان دون الآخر حتى تختلطوا بالناس أجل ان ذلك يحزنه ﴾ . والحديث صريح في ان التسار بين الاثنين دون الآخر منهي عنه ، لأنه يدخل على قلبه الوحشة والريبة فيحزن ويتألم . ومن هذا القبيل أن يتحدث الاثنان جهرة بلغة يجهلها الثالث — مع اشتراكهم جميعاً في معرفة لغة اخرى .



الذريعة الرابعة

تأديب جوارحه ومشاعره

قصد الاسلام أن يجعل من الانسان — في ذاته — مثلا صالحاً ، فلا يصدر منه ما يوجب الذم واللوم ، ولا يقع منه ما يخل بالمروءة ، أو يقلل من قيمته ، أو يحط من قدره . فلا تلقاه إلا محمود الخصال ، ولا تراه إلا شريف الشمائل جميل الخلال . إن نطق صدق ، وان وعد وفى وحقق ، وان أؤتمن لم يخن ، وان تمكن من فعل محرم عف وكف ، وان رأى منكراً غيّره ، وان تكلم غض من صوته ، وان مشى لم يختل في مشيته ، وان رأى كبيراً وقره ، وان مرّ بلغو — من القول أو الفعل — تجنبه . وان لم يقدر على دفعه . وهكذا من كل خصلة حميدة وصفة جميلة .

من أجل ذلك سلك به فى التأديب الطرق الآتية :

الاولى : غض البصر ، وحفظ الفرج ، وعدم التبرج ، وعدم فعل أي شيء من دواعي الميول الحيوانية ، أو اثارة الفتنة — سواء أكان ذلك للرجال أم للنساء ﴿ قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم ذلك أزكى لهم ان الله خبير بما يصنعون وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ويحفظن فروجهن ولا يبدين زينتهن إلا ما ظهر منها وليضربن بخمرهن على جيوبهن ولا يبدين

زينتهن إلا لبعولتهن أو اخوانهن أو بني اخوانهن أو بني اخواتهن أو نسائهن أو ما ملكت ايمانهن أو التابعين غير اولي الاربة من الرجال أو الطفل الذين لم يظهروا على عورات النساء ولا يضربن بارجلهن ليعلم ما يخفين من زينتهن وتوبوا الى الله جميعاً أيها المؤمنون لعلكم تفلحون ﴾ .

فبيّن أكمل الآداب التي يجب — على الرجال والنساء — أن يتخلقوا بها ، ويتحلوا بحلاها . وهي بالنسبة الى الرجال : أن يغضوا أبصارهم عن النظر الى ما لا يحل النظر اليه ، من أجنبية غير محرم لهم ؛ وان يحفظوا فروجهم من التعدي على عرض الغير . وهذا ما أفاده الله تعالى بقوله ﴿ قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم ذلك أزكى لهم ان الله خبير بما يصنعون ﴾ لأن العين مبدأ الزنا . والنظر يزرع في القلب الشهوة التي هي مجلبة لسائر الدنايا . ومهلكة لصاحبها بما تجر اليه من أعظم المصائب وأكبر المعائب . ولذا كان حفظ العين من الامور المهمة ، الدالة على جلالة قدر صاحبها ، ونزاهة نفسه . وبعد همته ، وصلاح شيمته ، وقد حذر (ص) الأخذ في أسبابه ونهى عن دواعيه سداً لبابه فقال : « إياكم والجلوس على الطرقات قالوا يا رسول الله : لابد لنا من مجالسنا نقعد فيها فقال (ص) : فان أبيتم إلا المجالس فاعطوا الطريق حقها قالوا وما حق الطريق يا رسول الله ؟ قال : غض البصر وكف الأذى ورد السلام والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر » . هذا ومن اتفق وقوع بصره على ما يحرم نظره اليه — من غير قصد — فعليه أن يصرف بصره عنه سريعاً بتحويل وجهه الى جهة اخرى ، أو إطباق عينيه أو إطراقه الى الارض ، أو يسترها باي ساتر مما يحول دون نظره ، فان ذلك أدعى لعصمته وأحفظ لميوله .

واما هذه الآداب بالنسبة للنساء فهي : أن يغضضن أبصارهن ويمنعنها

النظر الى غير ازواجهن ، ولا يظهرن شيئاً من زينتهن للاجانب إلا ما ظهر منها ، وما لا يمكن اخفاؤه كالرداء والثياب الظاهرة ، وان يلقين على صدورهن ونحورهن مقانع ليسترنها عن أعين الناظرين . فلا يرون منها شيئاً ، ولا يبدين زينتهن إلا لأزواجهن أو آبائهن ، أو آباء ازواجهن ، أو ابنائهن أو ابناء ازواجهن ، او بني إخوانهن ، او بني اخواتهن او نسائهن ـ المختصات لخدمة أو صحبة بشرط أن يكن مسلمات ، لأن غيرهن لا يتحرجن من وصفهن للرجال ، وذلك يجر للمفسدة — أو ما ملكت ايمانهن — من الاماء ، أما الذكور فلا يجوز ابداء الزينة لهم . لانهم فحول وليسوا أزواجا . والميول متحققة فيهم . والأجراء والاتباع — الذين ليسوا باكفاء ولا حاجة لهم الى النساء ، أو الاطفال الذين لا يميزون — فهؤلاء لا بأس فى ظهور الزينة أمامهم .

أما وجه جواز اظهار زينتهن لآبائهن . وآباء أزواجهن . وابناء أزواجهن واخواتهن وبني اخوانهن ، فلأنهم محارم لهن يجوز للمرأة ان تظهر عليهم بزينتها ، ولكن من غير تبرج ، بل بالحشمة والوقار . لقلة توقع الفتنة من جهاتهم ، وتحتاج المرأة الى صحبتهم فى السفر للنزول والركوب وغير ذلك .

واما وجه الجواز بالنسبة لنسائهن — المختصات بهن المسلمات ، وماملكت ايمانهن من الاماء ، والأجراء . والاتباع ، الذين لاحاجة لهم الى النساء ، والاطفال الذين لا يميزون — فلعدم الضرر من جهتهم اذا أبدين زينتهن لهم .

وقد شدد الشارع الحكيم فى عدم ابداء الزينة للنساء لما يعلم ما يترتب على ذلك من المفسدة والمضرة ، حتى نهى المرأة أن تضرب برجلها الارض ليعلم ما خفي من زينتها . ﴿ ولا يضربن بارجلهن ليعلم ما يخفين من زينتهن ﴾ ومثل ذلك ما لو كان شيء من زينتها مستوراً فتحركت بحركة لتظهر ماخفي ، أو تتعطر

وتتطيب عند خروجها من بيتها . فيشم الرجال طيبها . فانه يدخل تحت هذا النهي أيضاً . وكذا ما يلبسه أكثر مترفات النساء — فى زماننا — فوق ثيابهن ويتغطين به اذا خرجن من بيوتهن . ففيه من انواع الزينة ما يبهر العيون ويأخذ بألباب ضعاف العقول . وقد عمت بذلك البلوى . ومثله ما عمت به البلوى أيضاً ـ عدم احتجاب اكثر النساء من أصدقاء أزواجهن ، وعدم مبالاة ازواجهن بذلك وكثيراً مايأمرونهن به فان ذلك مما لم يأذن به الله ورسوله وهو دليل على قلة الغيرة وضعف المروءة .

الثانية : عرض عليه طائفة من أحسن الآداب ، وأجل الاخلاق الذاتية . حاكيًا عن لقمان إذ يوصي بها ولده « يا بني أقم الصلوة وأمر بالمعروف وأنه عن المنكر واصبر على ما اصابك ان ذلك من عزم الامور ولا تصعر خدك للناس ولا تمش فى الأرض مرحًا ان الله لايحب كل مختال فخور واقصد في مشيك واغضض من صوتك ان انكر الاصوات لصوت الحمير » .

فبيّن أهم مكارم الاخلاق ، واعظم صفات الكمال على الاطلاق . ولاغرو فقد وصى بها أب حكيم — قد ذكره الله بأحسن الذكر ، وآتاه الحكمة والاصابة فى الرأي والفكر — لابن هو أشفق الناس عليه . واحبهم اليه . فهو جدير بان يمنحه افضل ما يعرف ، وذلك من إقام الصلوة والاتيان بها مستوفية الشروط والاركان . فى اوقاتها المعينة لها . من غير ابداء ملل ولا ضجر . ولا تقاعد ولا تكاسل ، مع تمثيل عظمة الله تعالى فى قلبه . ومراقبته جل شأنه في كل قول وفعل منها ، حتى يلازم الأدب قلبه وتتبعه فى ذلك سائر جوارحه . فانه ان أتى بها كذلك نهته عن فعل الفحشاء والمنكر ، وذلك غاية الأدب ونهاية مكارم الأخلاق .

والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من لقمان لابنه من باب تذليل النفس وتهذيبها ، واقبالها على الطاعات ونبذها للمنكرات بلطف . وهذا شأن المعلم الحكيم ، فان من يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر تستنكف نفسه ، ويكره ان يراه الناس حيث نهاهم ، فلايصدر منه ما يوجب الذم واللوم ، ولا ما يكون سبباً في عدم سماع كلامه وبلوغ مرامه ، فيفعل المليح ويجتنب القبيح . الى ما يترتب على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من ارشاد الخلق الى مافيه صلاح حالهم ، واستقامة أحوالهم وانتظام شؤونهم ، وتقويم ما اعوج من اخلاقهم .

ولما علم لقمان — بما اتاح الله له من الحكمة — ان الآمر بالمعروف الناهي عن المنكر لا بد أن يقابل من المأمورين والمنهيين من الناس باذىً كثير — لأنه انما يأمرهم بمفارقة ما عليه اهواؤهم . والفته نفوسهم ، وتعلقت به رغائبهم ومفارقة ذلك اصعب شيء على النفس — لما علم لقمان ذلك امر ابنه بالصبر على اذاهم ، وتحمل الآلام والمشقات التي تحصل له في اثناء ذلك . وبيّن له ان الصبر عليه من عزم الامور فقال له : « واصبر على ما اصابك ان ذلك من عزم الامور » .

ولما كان الآمر بالمعروف الناهي عن المنكر يجب ان يكون متصفاً بأحسن صفات الكمال ، من الأدب والتواضع ، والحلم وعدم الكبر على الخلق وعدم استحقارهم والاستخفاف بهم ، حتى يكون ذلك سبباً في قبول امره ، ومجانبة نهيه — امر لقمان ابنه بما يجمع هذه الخصال فقال : « ولا تصعر خدك للناس » اي لا تعرض عنهم بوجهك — اذا كلمتهم او كلموك — احتقاراً لهم ، واستكباراً عليهم ، بل ألن جانبك لهم وتواضع لصغيرهم وكبيرهم ، واجلب

محبتهم اليك بحسن صنيعك معهم ، ولطف معاملتك لهم . فانهم بذلك ينتظرون لك امراً فيتبعونه او نهياً فيجتنبونه .

وبعد ان بين له كيف يصانع الناس ويعاملهم ويعاشرهم ، اخذ يبين مايجب ان يكون هو عليه في نفسه . من الاخلاق الفاضلة ، والصفات الكاملة ، فقال : « ولا تمش في الارض مرحاً ان الله لا يحب كل مختال فخور واقصد في مشيك واغضض من صوتك ان انكر الاصوات لصوت الحمير » اي اذا مشيت فى الارض فلا يكن مشيك خيلاء ، فان الله يبغض من هذه حالته . واذا مشيت فليكن مشيك لا بالبطيء المتثبط ، ولا بالسريع المفرط ، فان كلا الأمرين مذموم ، لأن الأول — مع مافيه من التكبر وفتور الهمة وضعف العزيمة — فيه ضياع لفرص كثيرة . والثاني — مع مافيه من امارات الطيش والخفة وعدم الثبات — فيه تحميل الاعضاء فوق طاقتها ، واضعافها بعمل جهود لا تتحملها قواها العضلية ، فيهدم بذلك اساس قوته ، ويجر الفساد على بنيته .

واذا تكلمت فاخفض صوتك ولا ترفعه زيادة عن الحاجة ، فان الجهر بأكثر من الحاجة مما يضر بالسامع ويؤذيه ، ولأن صوته بذلك يكون منكراً يشبه صوت الحمير ، الذي هو أفظع الأصوات وأقبحها وأنكرها ، كما قال جل شأنه : ﴿ ان أنكر الأصوات لصوت الحمير ﴾ .

الثالث : قبّح له السخرية بالناس ، ولمزهم والتنابز بالألقاب ، وسوء الظن ﴿ ياأيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيراً منهم ولا نساء من نساء عسى أن يكنّ خيراً منهن ولا تلمزوا أنفسكم ولا تنابزوا بالألقاب بئس الاسم الفسوق بعد الايمان ومن لم يتب فاولئك هم الظالمون ﴾ ﴿ ياأيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيراً من الظن ان بعض الظن إثم ولا تجسسوا ولا يغتب بعضكم بعضاً

أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً فكرهتموه واتقوا الله ان الله تواب رحيم﴾

في هذه الآية الكريمة أرشد الله جلت حكمته إلى الصفات الحسنة، والأخلاق الكريمة، وهي: ألاّ يسخر احد من احد ويستخف به ويستحقره، وألاّ يعيب احد على احد بشيء يكرهه، وألاّ يسيء ظنه بأحد من اخوانه، وألاّ يبحث ويفتش عن عورات الناس ومعايبهم ويستكشف عما ستروه، وألاّ يذكر احد اخاه بما يكرهه في غيبته. فان ذلك كله مما نهى الله عنه، ورغّب فى التباعد منه، فنهى عن السخرية بالناس والاستخفاف بهم بقوله: ﴿يا ايها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى ان يكونوا خيراً منهم ولا نساء من نساء عسى ان يكنّ خيراً منهن﴾ اي لا يصح ان يستهزء احد من احد، ولا يستخف به ويحقره ـ سواء أكان من الرجال ام من النساء ـ لأنه ربما كان المسخور به عند الله خيراً من الساخر، فلا ينبغي ان يجترىء احد على السخرية بغيره، والاستخفاف به، بمجرد انه رآه رث الهيئة، او فقيراً او ذا عاهة فى بدنه او غير لبيق فى محادثته، او غير ذلك، فلعله اخلص ضميراً، وانقى قلباً، ممن هو على ضد صفته، فيظلم نفسه بتحقير من وقّره الله تعالى.

والسخرية إنما تحرم إذا كانت فى حق من يتأذى بها. اما من جعل نفسه مسخرة ـ وربما فرح بالسخرية به، كما يفعله السفلة من الناس ـ فان السخرية فى حقه من جملة المزح وليس بمحرم فى حقه. وإنما المحرم الاستصغار والذي يتأذى به المستهزأ به، لما فيه من التحقير والتهاون، وذلك تارة يكون بالضحك من كلامه ـ إذا تخبط به ولم ينتظم ـ او من افعاله ـ إذا كانت غير منتظمة ـ كالضحك من صنعته، او صورته وخلقته ـ إذا كان قصيراً او ناقصاً لعيب من العيوب، فالضحك من جميع ذلك داخل فى السخرية المنهي عنها. وقد تكون

السخرية بالمحاكاة فى الفعل والقول ، وقد تكون بالاشارة والايماء .

ونهى عن أن يعيب أحد غيره بقوله : ﴿ ولا تلمزوا أنفسكم ﴾ أي لا يعب بعضكم بعضاً بقول ، أو فعل أو إشارة ، لأن الناس كنفس واحدة ، فمتى عاب الانسان أخاه فكأنما عاب نفسه ، وهذا أدب كبير أدب الله به عباده ليكون سبباً في إلفتهم واتحادهم وارتباط قلوبهم بعظيم المودة ووثيق المحبة .

ونهى عن أن يدعو أحد أخاه بلقب يكرهه . لأن ذلك يزرع في القلوب الضغينة ، ويمكّن فيها الحفيظة ، وهو مما جاء الشرع الشريف بزواله ، ولذا سمى جل شأنه التنابز بالالقاب — الذي هو داعية الحقد والبغض — فسقاً في قوله : ﴿ بئس الاسم الفسوق بعد الايمان ومن لم يتب فاولئك هم الظالمون ﴾ .

ونهى جل وعلا عن كثير من سوء الظن بأحد من الناس بقوله : ﴿ يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيراً من الظن ان بعض الظن اثم ﴾ أي يا أيها الذين آمنوا تباعدوا عن كثير من الظن ، وهو مجرد التهمة التي لا سبب لها ولا دليل عليها — كأن تتهم غيرك بشيء من الفواحش ولم يظهر عليه ما يقتضي ذلك — لان بعض ذلك يكون اثماً محضاً ، فليجتنب الكثير منه احتياطاً . ويشترط في حرمة هذا ان يكون المظنون به ممن شوهد منهم التستر والصلاح والامانة . أما من يتعاطى الريب والمجاهرة بالخبائث والمنكرات ، كالدخول والخروج فى حانات الخمور ، وصحبة الغواني الفاجرات . فلا يحرم سوء الظن به فى نحو ما يظهر منه فقط .

الرابعة : انكر عليه البحث عن عيوب الناس وعوراتهم بقوله : ﴿ ولا تجسسوا ﴾ أي لا تبحثوا عن عورات الناس ، ولا تستكشفوا عما ستروه ، فان في ذلك فضيحة لهم ، وتعرضاً لما لا يعني ولا يفيد . وهب أن ذلك الباحث

اطلع على جميع عورات أخيه ومعايبه ، فاي فائدة تعود عليه من ذلك ؟ سوى انه كالذباب لا يتتبع إلا القاذورات والمواضع الفاسدة من الجسد وغيره .

ونهى عن أن يذكر أحـد أخاه بما يكره في غيبته بقوله : ﴿ ولا يغتب بعضكم بعضا أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً فكرهتموه ﴾ أي لا يذكر بعضكم بعضاً بما يكره في غيابته ، سواء أكان ذلك باللسان أم بالفعل . ومنه الاشارة والكتابة وغيرها — مما يفهم نقصانه — فان علة النهي عن الغيبة الايذاء بتفهيم الغير نقصان المغتاب ، وهو موجود حيث أفهم الغير ما يكرهه المغتاب ، بأي وجه كان من طرق الافهام . وسواء كان ذكر ذلك الشيء الذي يكرهه ينقص في بدنه ، أو نسبه ، أو خلقه ، أو في فعله ، أو في قوله ، أوفي دينه ، أو في دنياه ، حتى في ثوبه وداره ، وماله وولده . وزوجته وخادمه . وغير ذلك من كل ما يتعلق به . فذلك كله مما كرهه الله تعالى وحرمه و نهى عنه حتى جعل المغتاب كأنه يأكل لحم أخيه ميتاً ذلك الأمر المستبشع طبعاً وعقلا وشرعاً .

ومحل حرمة الغيبة اذا لم يكن المغتاب مجاهراً بالمعاصي ، متهتكا لا يبالي بما يفعل ، فان الغيبة في مثله جائزة . وذلك لأن الذي يعلن بالفجور والفسوق ، ولا يستحي من عصيان الخالق ، ولا يستتر عن المخلوق فيما يأتي من الكبائر ، ويظهر من المناكر ـ قد كشف ستاره ، وأبدى عواره ، فخرج من حد الظن الى حد اليقين . فمثل هذا ليس مقصوداً في النهي . ففي الحديث « من ألقى جلباب الحياء فلا غيبة له » .

الخامسة : بين له ان أحق المنكرات بالترك ، الجهر بالقول السيء . فقال جلت حكمته : ﴿ لا يحب الله الجهر بالسوء من القول إلا من ظلم وكان الله

سميعاً عليما﴾ فنهى عن البذاءة باللسان ، والجهر بالسوء من القول ، سواء أكان ذلك القول السيء شتما ، أم سبا ، أم لعنا أم مراء ، أم خصومة ، أم ذما في حق الغير ، ام غير ذلك . مما يدل على حقارة قدر صاحبه ، ودناءة نفسه ، وقلة حيائه ، وسوء تربيته ، وعدم قدرته على ان يكبح زمام نفسه عما تسوله له من القبائح والمنكرات ، وتهيجه له القوة الغضبية ، التي منشؤها الزهو ، والعجب ، والكبر ، والمزاح والهزل ، والمماراة ، والمضادة ، والغدر وغيرها من الاخلاق الرديئة المذمومة شرعا وعقلا .

ولما كان الجهر بالسيء من القول بهذه المكانة من القبح - عبر الله جل شأنه عن النهي عنه بما يفيد شدة قبحه ، وزيادة نكره ، وبشاعة امره فقال : ﴿ لايحب الله الجهر بالسوء من القول ﴾ ولم يقل لاتجهروا بالسوء من القول . اي وإذ كان غير محبوب لله جل وعز وغير مرضي له - فهو اولى الأشياء المنكرة بالاجتناب ، وأحقها بالترك والابتعاد . ثم استثنى جل شأنه من عدم محبته للجهر بالسوء من القول ، وبغضه وكراهته له — جهر من ظلم . بأن يدعو على ظالمه أو يتظلم منه ، أو يذكره بما فيه من السوء ، فان ذلك غير مبغض عند الله تعالى وذلك لأنه انما يستغيث ليغاث ، ويستجير لينجد ، ويذكره بسوء لعله يرد عليه ظلامته . ولأن المظلوم مصدور وهو لابد ان ينفث . وهذا مالابد منه من طريق الفطرة . فرخص له الشارع ذلك . وفى ذلك دلالة على قبح الظلم والظالم ، وعدم نظر الله له ، وعدم اعتبار حرمته واحتقاره له جل شأنه . حتى لم ينه عن مذمته بظلمه وعن الجهر بالسوء من القول فى حقه .

السادسة : حظر عليه تتبع ماليس له به علم فقال : ﴿ ولا تقف ماليس لك به علم ان السمع والبصر والفؤاد كل اولئك كان عنه مسئولا ، ولا تمش فى الأرض

مرحًا انك لن تخرق الأرض ولن تبلغ الجبال طولا ، كل ذلك كان سيئه عند ربك مكروها ﴾ فلا يقول رأيت — والحالة انه لم ير . ولا سمعت — وهو لم يسمع . ولا علمت دون أن يعلم وهكذا ، لأن الله تعالى سائله عن ذلك كله ، من أين جاءه العلم بما رآه وسمعه وعلمه ؟ فانه جل شأنه خلق الأعضاء للانسان ، وجعل لكل عضو منها وظيفة قائمًا بها ، وعملا خاصًا به يسأل عنه دون غيره . فيسأل السمع عما سمعه ، والبصر عما رآه ، والقلب عما عمله . فان كان الجواب طبق ما ناط الله هذه الاعضاء به ، وخلقها لأجله ، وكلفها اياه من الاعمال ، أثاب صاحبه إذا استعملها فيما خلقت له . وان كان الجواب غير مطابق عاقب صاحبها جزاء تقصيره ، وعدم استعماله هذه الاعضاء فيما خلقت لأجله . ومعنى سؤال هذه الاعضاء ومجاوبتها : ان الله سبحانه ينطقها عند سؤالها ، فتخبر عما فعلت وفعله صاحبها . وهذا الذي أشار الله تعالى اليه بقوله : ﴿ ولا تقف ماليس لك به علم ان السمع والبصر والفؤاد كل اولئك كان عنه مسئولا ﴾ .

السابعة : نهاه عن التجبر والتبختر والتمايل فى المشية . فان ذلك يبغضه الله ورسوله ، لأنه نتيجة اعجاب المرء بنفسه . وهو أخبث سرائر القلوب ، وأعظم كبائر الذنوب ، ودليل على جهل المرء بمقدار نفسه ، وعماه عن عيبها ، إذ رأى قبيحه حسنًا ، وخطأه صوابًا ، فاوجب لنفسه حقًا لم تستوجبه ، ورأى لها فضلا لم تستأهله . ولو أنه تبصر فى عيوب نفسه قليلا ، وتأمل ماهو عليه من المثالب والمعائب ، لاستنكف مما عليه نفسه ، من الزهو والعجب الذي حمله على هذه المشية التي يبغضها الله ورسوله . كما قال مطرف بن عبد الله ، للمهلب بن أبي صفرة — عندما نظر اليه وعليه حلة يسحبها ، ويمشي الخيلاء : يا ابا عبدالله ما هذه المشية التي يبغضها الله ورسوله ؟ فقال له المهلب : أما تعرفني ؟!

قال : اعرفك ، أوّلك نطفة مذرة « أي فاسدة » وآخرك جيفة قذرة ، وحشوك فيما بين ذلك بول وعذرة .

فعلام الانسان يتكبر ، وقد عرف مبدأه ومنتهاه ؟ ! فلذا يقول الله تعالى توبيخاً للمعجب بنفسه المتبختر في مشيته : « انك لن تخرق الأرض ولن تبلغ الجبال طولا » أي لن تثقب الأرض حتى تبلغ آخرها بمشيك متكبراً . ولن تبلغ الجبال طولا بتمايلك وفخرك واعجابك بنفسك . وفي ذلك من التهكم والتحقير للمختال ما لا يخفى . بل قد يجازي فاعل ذلك بنقيض قصده . كما أخبر جل شأنه عن قارون : انه خرج على قومه في زينته ، فخسف الله به وبداره الأرض ثم بين جل شأنه أن هذا الذي ذكر من الاعجاب ، والتبختر في المشي ، وتتبع الانسان ما ليس له به علم وغيره ، مما تقدم ذكره ونهى الله عنه . هو قبيح مكروه عند الله تعالى يجب اجتنابه . والتباعد عنه بقوله : ﴿ كل ذلك كان سيئه عند ربك مكروهاً ﴾ .

الذريعة الخامسة

تنشئته على بر الوالدين والعطف على القريب

ان أبا الانسان وامه لهما عليه حقوق لابد من أدائها ، وواجبات لابد من قضائها . فمن تلك الحقوق وتلك الواجبات مقابلتهما بكل ما يمكنه من البر والاحسان ، وأن يمتثل أوامرهما عامة ، وبخاصة ما تعود عليه بالمنفعة ، كاوامرهما المتعلقة بحسن السلوك ومكارم الاخلاق ، وحسن المعاشرة مع الخلق ، والنظافة

والعفة ، والأمانة ، وغير ذلك من الكمالات ، وحميد الاخلاق وجميل الصفات وأن يجتنب نواهيهما وكل ما يؤذيهما ، أو يكدر خاطرهما ، أو يجلب غضبهما ، من قول أو فعل . فان أجهد نفسه فى فعل كل ما يرضيهما كان له الحظ الأوفر من الفضيلة ، والنصيب الاكبر من المروءة . وان لم يفعل ذلك واستجلب غضبهما فقد قابل الحسنة بالسيئة ، والاحسان بالكفران ، والخير بالشر والطاعة بالمعصية . فان أباه هو الذي رباه صغيراً ، وأجهد نفسه فى تحصيل ما ينفقه عليه فى ملبسه ومأكله ، ومشربه وجميع مطالبه ، والقيام بأوده إلى أن عرف حقوق نفسه ، وأمكنه أن يكتسب . ولولاه لمات جوعاً لانه لايقدر على شيء من ذلك فى حال صغره .

واما امه فقد عانت فيه المشقات العظيمة ، والآلام الكثيرة ، في مدة حمله وولادته ورضاعه ، وتنقيته من الأدران ، وسهرت لأجله الليالي الطوال ، وتكدرت لكدره ، وفرحت لفرحه . الى غير ذلك من ضروب العنت التي لا تحصى والمشقات التي لا تستقصى .

ومنها ان ينفق عليهما اذا كبرا ، لأنهما كفلاه صغيراً ، الى ان استطاع ان يكتسب . فهذا الكسب ثمرة غرسهما ، وليس من الأدب والمروءة أن يغرس الانسان غرساً ثم يحرم جني غرسه .

ومنها ان يجالسهما بالادب والوقار ، فلا يضحك ولا يلعب كما يضحك ويلعب السفهاء . وليكن ضحكه ولعبه على وضع لا يخل بالادب ، ولا يرفع صوته فوق صوتهما ، ولا بحضرتهما ، ولا يمشي أمامهما إلا لحاجة ، ولا يسبقهما بالكلام في المجلس . واذا أقبلا عليه أو احدهما — وهو في مجلس — قام ليوسع لهما حتى يجلسا — ان كان في المكان ضيق . وجملة القول : يفعل جميع الوسائل

التي تكون سبباً في مرضاتهما وزوال ما يكدرهما ، والى هذه الآيات السامية أشار الله جلت حكمته في كتابه العزيز إذ يقول : ﴿ وقضى ربك ألاّ تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحساناً إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أُفٍ ولا تنهرهما وقل لهما قولا كريماً واخفض لهما جناح الذل من الرحمة وقل رب ارحمهما كما ربياني صغيرا ﴾ .

فأرشد الى أهم الامور واولاها بالعناية ، وأجدرها بالرعاية ، وأقربها لرضا الله تعالى ، وأبعدها من سخطه ومقته ، ألا وهو بر الوالدين الذي جمع من الخير اكمله . ومن الاحسان أجمله . ومن المروءة ارفعها . ومن الخيرات أنفعها . وكفى به فضلا وشرفا أن قرنه الله بتوحيده وعبادته . وبالغ بالتوصية به . مبالغة تقشعر لها جلود أهل العقوق . وتحمل ذوي العقول على تأدية الواجب لهما من الحقوق ، فأمر جل شأنه بالاحسان اليهما وقرنه بتوحيده وعبادته . في قوله : ﴿ وقضى ربك ألا تعبدوا إلا اياه وبالوالدين إحساناً ﴾ أي أمر أمراً جازماً ، وحكم حكما قاطعاً بتوحيده وعبادته ، وبر الوالدين والاحسان بهما ، وفي هذا الاقتران من الدلالة على تأكد حقهما ، والعناية بشأنهما مالا يخفى .

ثم شدد في الامر بمراعاتهما ، حتى لم يرخص في ادنى كلمة تنفلت من المتضجر — مع موجبات الضجر ومع احوال لا يكاد يصبر الانسان معها — فاذا حصل منهما أي شيء يكرهه فلا يصح له ان يتكلم معهما بأي كلام ، يكون من ورائه تضررهما وتكدر خاطرهما . بل الواجب عليه في هذه الحالة ان يقول لهما قولا ليناً ، جميلا سهلا ، أحسن ما يمكن التعبير به من لطف القول وكرامته ، مع حسن التأدب والحياء والاحتشام . وبخاصة اذا كانا كبيرين ، فانهما في هذه الحالة أحق بالمجاملة ، وحسن التلطف ، لانهما يظنان انهما كلٌّ عليه ، فكل

كلمة تصدر منه ــ ولو صغيرة ــ يجدان منها ألمًا . ولذا خص الله سبحانه وتعالى حالة الكبر بالذكر في قوله : ﴿ إما يبلغنّ عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أُفّ ولا تنهرهما وقل لهما قولا كريمًا ﴾ .

أي ان كبرا ــ وهما في كنفك وكفالتك ــ فلا يصح أن تقول لهما أيّ قول يكدر خاطرهما ، ويجلب غضبهما ، حتى التأفف الذي هو أدنى مراتب القول السيء . بل الواجب أن تعاملهما بالحسنى ، وتقول لهما القول اللين الطيب الحسن ، مع الأدب والتوقير ، والتعظيم والاحترام والاحتشام . وأن تخفض لهما جناح الذل ، وتتواضع وتتذلل لهما بجميع أنواع التذلل والمسكنة . لأنهما صارا أفقر الناس اليك ، بعد أن كنت أفقر الناس اليهما . واحتياج المرء إلى من كان محتاجاً اليه غاية الضراعة والذل والمسكنة ، فكانا لذلك أولى بشدة الرحمة والشفقة وزيادة التعطف عليهما . ثم ختم جل شأنه التوصية بهما . والحث على برهما ، والاحسان اليهما بطلب الدعاء لهما من الله أن يرحمهما برحمته الباقية الدائمة فقال : ﴿ وقل ربِّ ارحمهما كما ربياني صغيرا ﴾ كأنه تعالى يقول : لا تكتف برحمتك التي لاتدوم ، ولكن اطلب من الله الرحمة الدائمة ، وقل رب ارحمهما رحمة مثل رحمتهما وتربيتهما إياي وأنا صغير .

ثم ان بر الوالدين لا ينتهي بموتهما ، بل يجب بعد الموت كما يجب في الحياة . ويكون بالصلاة عليهما والاستغفار لهما ، وانفاذ عهدهما واكرام صديقهما ، وصلة الرحم التي لا توصل الا بهما . فمن ذلك ان رجلا جاء لرسول الله « ص » فقال يا رسول الله : هل بقي علي من بر أبوي شيء أبرهما به بعد وفاتهما قال : نعم ، الصلاة عليهما والاستغفار لهما ، وانفاذ عهدهما واكرام صديقهما ، وصلة الرحم التي لا توصل إلا بهما .

ولئن تأكد بر الوالدين فهو في حق الام أوكد ، لأنها تعبت في حمله ، وولادته ، وحضانته وغيرها أكثر من أبيه ، ولذلك يقول رسول الله «ص» : بر الوالدة على الولد ضعفان . ويقول : « دعوة الوالدة أسرع اجابة . قيل : يارسول الله ولم ذلك ؟ قال : هي أرحم من الأب ودعوة الرحم لاتسقط . وقال تبارك اسمه في الحث على بر الوالدين ، وما اعد مثوبة لذلك من قبول العمل الصالح والتجاوز عن السيئات ، وإدخال الجنة ﴿ ووصينا الانسان بوالديه إحساناً حملته امه كرهاً ووضعه كرهاً وحمله وفصاله ثلاثون شهراً حتى إذا بلغ أشده وبلغ أربعين سنة قال رب اوزعني أن أشكر نعمتك التي انعمت علي وعلى والدي وان أعمل صالحاً ترضاه واصلح لي فى ذريتي إني تبت إليك وإني من المسلمين أولئك الذين نتقبل عنهم أحسن ما عملوا ونتجاوز عن سيئاتهم فى أصحاب الجنة وعد الصدق الذين كانوا يوعدون ﴾ .

فارشد إلى بيان ما يجب على الانسان من بر الوالدين والاحسان اليهما ، والحنو عليهما . وخصوصاً أمه . لانها تعبت فيه وكابدت من المشقات والمتاعب ـ في حمله ووضعه ورضاعه ـ ما لم يشاركها الاب في شيء منه . ولذلك كان حقها أوكد من حقه ، وبرها أوجب من بره . وإلى ذلك أشار بقوله تعالى ﴿ ووصينا الانسان بوالديه إحساناً حملته امه كرهاً ووضعته كرهاً وحمله وفصاله ثلاثون شهراً ﴾ فانه جل شأنه ـ بعد أن وصى بالوالدين وأمر بالاحسان اليهما ـ ذكر ما نالته الام من التعب والمشقات ، وقاسته من الاوصاب والآلام في حال حمله ، من الثقل والكرب . ثم أردف ذلك ببيان ما تقاسيه الام من الآلام ، من حين الوضع الى الفطام من تعهده بالنظافة وازالة ما عليه من الادران ، وكدرها لكدره ، وفرحها لفرحه ، وسهرها عليه الليالي الطوال ، وغير ذلك مما يفيد :

ان حق الام أآكد من حق الاب ـ واضعاً ذلك في قالب بيان مدة الحمل والرضاع ـ فقال : ﴿ وحمله وفصاله ثلاثون شهراً ﴾ أي إن كانت هذه المدة الطويلة ظرفاً لما تقاسيه الام من الآلام ، وتلاقيه من المشقات والمتاعب في الولد فحقها عليه في بره لها آكد من حق أبيه في ذلك عليه . وقال جل ثناؤه في الحث على بر الوالدين والاحسان اليهما ، والحنو والشفقة عليهما ـ قارناً ذلك بتوحيده وعبادته ـ مما يدل على تأكد حقهما ﴿ واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً وبالوالدين إحساناً وبذي القربى واليتامى والمساكين والجار ذى القربى والجار الجنب والصاحب بالجنب وابن السبيل وما ملكت أيمانكم إن الله لا يحب من كان مختالا فخورا ﴾ .

فبين صنوف البر وانواع الخير . وحسن المعاملة مع الله والناس ، مما لو عملت وتخلقت به لكنت من أسعد السعداء وأنبل النبلاء . فمن ذلك : توحيد الله تعالى وحسن عبادته ، وبر الوالدين بالاحسان اليهما . والحنو عليهما وصلة الرحم ، بمديد المساعدة لهم إن كانوا فقراء . والتودد اليهم بالزيارة والهدايا والطيب من القول إن كانوا أغنياءً . والاحسان إلى اليتامى والمساكين بالنظر في مصالحهم . والقيام بأودهم وكل مايحتاجون اليه .

ومن ذلك حسن الجوار . سواءٌ أكان الجار ملاصقاً أم غير ملاصق ، وبخاصة اذا انضم إلى الجوار القرابة . وحسنه بالتصدق على الجار ان كان محتاجا والتودد اليه بالزيارة ، والمبادرة برد السلام ، والمساعدة له فى كل ما يحتاج اليه ، فلا يمنع عنه ماعون البيت وأثاثه إذا احتاج إلى شيء منه . وكذلك حسن الصحبة وهو المراد بقوله تعالى : ﴿ والصاحب بالجنب ﴾ وهو من كانت صحبته بسبب مرافقته بالجنب في طلب علم ، او تعلم صناعة . اومباشرة تجارة . اومرافقة

في سفر ، أو قعوده بجنبه في مسجد او مجلس ، او غير ذلك . وحسن الصحبة معه ان يكون له في النوائب ، ويؤثره بالرغائب ، وينشر حسنته ويطوي سيئته ، ويكتم سره ويستر عيبه ، وإذا سأله اعطاه ، وإذا سكت وكان محتاجا ابتداه ، وإن نزلت به نازلة واساه .

ومواساة ابن السبيل وهو المسافر تكون بسد عوزه . وإعانته بما يوصله إلى محل أوبته . والشفقة والرحمة بالأرقّاء والعبيد . والاحسان اليهم . لأن الرقيق ضعيف الحيلة ، أسير في ايدي الناس . ويكون ذلك بتربيته وتعليمه . وعدم تكليفه في العمل مالا يطيق ، وأن يكسوه سيده ويطعمه مما يلبس ويأكل حتى إذا آنس فيه النباهة . والمعرفة والقدرة على أن يملك زمام نفسه . ويعرف أن يتصرف في معيشته باستقلاله أعتقه . فان ذلك هو المقصود من الاسترقاق وليس المقصود منه الاستعباد المطلق ، لأن العبد أخو سيده . ومتمتع بسائر الحقوق البشرية . والمميزات الانسانية . بل المقصد الأسمى منه ان العبد إذا وجد عند سيده كان ذلك داعية لتعلمه . واكتسابه من اخلاق سيده . وحسن آدابه وكمال معرفته ـ ما يؤهله لأن يعرف احوال نفسه . ويمكنه ان يقوم بجميع مصالحه . حتى اذا وصل إلى هذه الحالة أعتقه .

وقد جعل الشارع لذلك اسباباً كثيرة منها : الكفارات وغيرها . وما أحسن ماوصى به رسول الله «ص» في شأن الأرقّاء والخدم . فانه «ص» جعل يوصي أمته في مرض موته ويقول : (الصلاة الصلاة ، وما ملكت ايمانكم) وجعل يرددها حتى انتقل للرفيق الأعلى : وقال «ص» : (للمملوك طعامه وكسوته ، ولا يُكلف من العمل مالا يطيق) . وقال «ص» : اذا صنع لأحدكم

خادمه طعاماً فليقعده معه ، فان كان مشفوهاً فليضع في يده منه أُكلة (١) .

صلة الرحم : رحم الانسان أقاربه . وصلتهم أن يطعمهم من جوع ، ويؤمنهم من خوف ، ويقضي عنهم ديناً ، ويفرج عنهم غمّاً ، ويقوم بما يحتاجون اليه ، ويتودد اليهم بالزيارة والهدايا والطيب من القول ، والبشاشة عند اللقاء ، والمبادرة بالسلام ، ورد ضالتهم ، والمحافظة على فعل كل ما يجلب محبتهم اليه . وهي من أفضل الخصال وأجمل الخلال . فيها يكثر التواصل والتوادد ، وتؤمن الغوائل ويزول التباغض والتحاسد ، وتستمال القلوب ، وتصفو الضمائر ، وتحسن السرائر . ولهـذا حث الشرع عليها وبالغ في التمسك بها ، حتى جعلها رسول الله «ص» سبباً في ادرار الرزق وسعته ، وفاتحة الخير وزيادته ، فقال «ص» (ان أعجل الطاعة ثواباً صلة الرحم ، حتى أن اهل البيت ليكونون فجاراً فتنمو اموالهم ، ويكثر عددهم اذا وصلوا ارحامهم ، وقال «ص» : من سرّه أن يُمد له في عمره ، ويوسع له في رزقه فليتق الله وليصل رحمه) .

وقال رجل لابنه في بعض وصاياه : يا بني لاتقطع القريب وإن أساء . فان المرء لايأكل لحمه وإن جاع) . ولعل حكمة حث الشارع عليها ، والتشديد في أمرها والترغيب فيها ، والتحذير من قطعها ، ومجانبة ذلك جهد الاستطاعة ، هي :

أن أقارب الرجل هم اكثر الناس بعد أبويه له تناصراً ، واكثرهم رغبة في الخير له ، وأشدهم شفقة عليه ، وأعظمهم محبة له . بهم يعلو بين الأنام قدره ، ويعظم فخره ، ويرتفع ذكره . وهم اكثر الناس به اختلاطاً . فاذا قطعهم تنغص عيشه وكثر شره وقلّ خيره ، ولأنهم ابعاض ابويه ومنهما نشأوا ، اواختلطوا

(١) طعام مشفوه كثرت عليه الأيدي ،

معها في نسب ، فكل هذه حقوق تحتم على الشخص أن يصلهم بقدر جهده واستطاعته . وقد حث جل شأنه على صلة الرحم ، ورغّب فيها وحذّر من قطعها ، وأعد الجنة لمن وصلها والنار لمن قطعها ، فقال : ﴿ الذين يوفون بعهد الله ولا ينقضون الميثاق والذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون في الأرض اولئك لهم اللعنة ولهم سوء الدار ﴾ .

فبين ما أعده من الخير العميم والثواب الجزيل لمن اتصفوا بهذه الصفات الحميدة ، وتخلقوا بهذه الأخلاق الجميلة ، من الوفاء بالعهد ، وعدم نقض الميثاق ، وصلة الرحم التي أمر الله بها ان توصل ، مع مراقبة جانب الله تعالى ، والخشية من عقابه على قطعها ، والخوف من سوء الحساب فى السؤال عنها والصبر عند حلول النوائب . وإقام الصلاة على وجهها المطلوب شرعاً ، من الخضوع والخشوع والانكسار . والنفقة والتصدق على الفقراء والمساكين ، فى السر والجهر . فان هؤلاء الذين اتصفوا بهذه الصفات قد أعد الله لهم من الجزاء الأوفى ما بيّنه بقوله : ﴿ اولئك لهم عقبى الدار جنات عدن يدخلونها ﴾ . وقال تبارك اسمه فى الحث على صلة الرحم . وبيان ان ذوي القرابات ـ فى إيصال بعضهم الخير إلى بعض ـ أولى من غيرهم ، ممن ليس بينهم وبينهم قرابة : ﴿ واولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض فى كتاب الله ﴾ .

فبيّن ان الأقرباء أولى من غيرهم بالصلة والمودة . فما أبعد نظر الشريعة الغراء وأعلمها بالمصلحة للعباد !! وقال تبارك اسمه في الحث على صلة الرحم وبرها والنهي عن حرمانها وقطعها : ﴿ يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيراً ونساء واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام إن الله كان عليكم رقيباً ﴾ فبيّن أمرين :

الأول : ما أرشد اليه خلقه ، من الأمر بتقواه وهي عبادته وحده لا شريك له .

الثاني : الحث على صلة الرحم وبرها وعدم قطعها ، وهو الذي أفاده بقوله : ﴿ واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام ﴾ أي واتقوا الله الذي يسأل بعضكم بعضاً به ، وتقواه بطاعتكم إياه ، واتقوا قطع مودّة الأرحام ، فان قطعها من اكبر الكبائر ، وصلتها باب لكل خير . فتزيد في العمر ، وتبارك في الرزق . ولذا وصل جل شأنه صلة الرحم بتقواه . وما أحسن ما ذكر الله من دواعي الحنو والعطف ، الشفقة والرحمة بالأقارب . واستمالة القلوب اليهم حتى يصلوهم ولا يقطعوهم إذ ذكر جل شأنه ان أصل الخلق من أب واحد ، وأم واحدة . فان في ذلك من موجبات الاحتراز عن الاخلال ، بمراعاة حقوق الأخوة مالا يخفى . وقوله : ﴿ إن الله كان عليكم رقيبا ﴾ أي مطلعاً وعليما . فيعلم من امتثل امره بتقواه وصلة الرحم ، ومن لم يمتثل ، فيجازي كلا بما يستحق والله اعلم .

الذريعة السادسة

غرس الإجلال والاعظام للنبي (ص) في قلوب النشء

النبي (ص) اعظم من يجب احترامه ، وتبجيله وتوقيره . لأنه (ص) السبب في هداية الخلق الى فلاحهم في دنياهم ، ورفعهم من حضيض الشقاوة الى أوج السعادة ، واخراجهم من ظلمة الجهل والجحود الى نور العلم والايمان ، مع مقاساة المشقات والمتاعب في ذلك .

وليس من العدل والمروءة أن يقابل «ص» بغير كمال التبجيل ، وتمام الاحترام والتعظيم ، والأدب معه في حياته ومماته . ولما كان علو مقامه «ص» وجليل مقداره ، بالمكانة التي قلما يمكّن أحداً أن يقوم بما يجب لها من الآداب دون إرشاد وتعليم ـ سنّ الله سبحانه وتعالى لعباده المؤمنين من الآداب ما به يعرفون كيف يسلكون مسلك تعظيمه ، في ترك فعل ما يكرهه بين يديه ، أو الاستعلاء عليه في كلام أو مشي ، أو دخول بيته بغير إذنه ، أو في لزوم طاعته ومتابعته ، والنزول عند حكمه ، والرضا بقضائه ، أو غير ذلك . ولتبجيله وتوقيره مظهران :

المظهر الأول : أفاده الله تعالى بقوله : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لاتقدموا بين يدي الله ورسوله واتقوا الله إن الله سميع عليم * ياأيها الذين آمنوا لاترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض أن تحبط أعمالكم وأنتم لاتشعرون * إن الذين يغضون أصواتهم عند رسول الله اولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى لهم مغفرة وأجر عظيم ﴾ .

فبيّن صنوف الآداب ـ التي أدب الله بها عباده المؤمنين ـ فيما يعاملون به نبيه «ص» من الاجلال والتعظيم ، والتبجيل والتكريم ، سواء أكانت هذه الآداب فعلية أم قولية . وإلى ذلك أشار الله تعالى بقوله : ﴿ ياأيها الذين آمنوا لا تقدموا بين يدي الله ورسوله واتقوا الله إن الله سميع عليم ﴾ .

وفيها نهي صريح عن الاسراع في شيء من الأشياء قبله ، وأمر ضمني بمتابعة سنته ، والوقوف عند شريعته ، وأمر بالتقوى ومراقبة جانب الله تعالى في كل شيء . لأنه سبحانه سميع لأقوالنا ، عليم بنياتنا ، لايخفى عليه من ذلك خافية . فقال : ﴿ واتقوا الله ان الله سميع عليم ﴾ . ومن كان كذلك فمن حقه

أن يُتقى ويراقب .

ثم قال : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض أن تحبط أعمالكم وأنتم لاتشعرون ﴾ ففيها حظر ظاهر لرفع الأصوات عند محادثته «ص» ومكالمته إلى حد يكون فوق مايبلغه صوته «ص» . لأن ذلك يدل على قلة الاحتشام ، وترك الاحترام له . لأن خفض الصوت وعدم رفعه من لوازم التعظيم والتوقير عادةً . ونهيٌ عن الجهر بالقول ، كما يجهر الواحد ـ اذا كلمه ـ لأن ذلك إنما يكون بين الأكفاء ، الذين ليس لبعضهم على بعض مزية ، مع مافيه من الجفاء في مخاطبته «ص» وعدم الأدب معه .

ثم حذر سبحانه المغبة بقوله : ﴿ أن تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون ﴾ أي إنما نهيناكم عن رفع الصوت عنده والجهر له بالقول كما يجهر أحدكم لأخيه اذا كلمه ـ خشية أن تبطل أعمالكم بذلك ، دون أن تفطنوا ، لأن سبق رسول الله فى قوله أو فعله ، ورفع الصوت في حضرته ، ومحادثته بالجهر كمحادثة الأكفاء ، كل ذلك تجاوز لحدود الأدب ، في مقام يتعين فيه الاجلال والتعظيم .

ثم قفّى على ذلك ببيان مزايا من عمل بهذه الآداب فقال : ﴿ ان الذين يغضون أصواتهم عند رسول الله اولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى لهم مغفرة وأجر عظيم ﴾ .

أي ـ ان الذين يخفضون أصواتهم عند رسول الله إجلالا وتعظيما ، اولئك الذين أخلص الله قلوبهم للتقوى ، وجعلها لها أهلا ومحلاً ، وكان جزاؤهم على ذلك مغفرة وأجراً عظيما . وقال جل شأنه فى الأدب مع رسوله « ص » في المجتمعات العامة : ﴿ إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله واذا كانوا معه على أمر

جامع لم يذهبوا حتى يستأذنوه ان الذين يستأذنونك اولئك الذين يؤمنون بالله ورسوله فاذا استأذنوك لبعض شأنهم فأذن لمن شئت منهم واستغفر لهم الله إن الله غفور رحيم﴾

فبيّن الآداب نحو الرسول عليه السلام ، فى حال ماذا كانوا مجتمعين معه على أمر مهم ــ يجب اجتماعهم فى شأنه ــ كالجمعة ، والجماعة ، والعيد ، والجهاد ، والتشاور في أمر ، وغير ذلك من الامور الداعية الى الاجتماع . وذلك بأنهم لا يتفرقون عنه «ص» ولا ينصرفون عما اجتمعوا له لعروض عذر لهم حتى يستأذنوه فى الذهاب فيأذن لهم به ، فان هم خالفوا ذلك وتسللوا من عنده خفية ، واحداً بعد واحد كان ذلك علامة على نفاقهم ، وعدم ثبات ايمانهم . لأن الخروج من مجلسه «ص» بغير إذنه من امارات عدم الاكتراث به وعدم رغبتهم فيما جاء به واجتمعوا لأجله . وذلك من أعظم الجنايات واكبرها . ولذا جعل الله جل شأنه استئذانه «ص» ــ عند ارادة الانصراف من مجلسه ــ من علامات كمال الايمان في قوله .

﴿ان الذين يستأذنونك اولئك الذين يؤمنون بالله ورسوله﴾ أي ومن لم يستأذن عند ارادة الانصراف فليس بمؤمن حقاً . ومن الآية الكريمة يؤخذ أدب المرؤس مع رئيسه ، وأدب المتعلم مع معلمه ، وأدب المصلين مع إمامهم ، وأدب الرعية مع راعيهم ، فان مراعاة الأدب معهم واعتبار حرمتهم من الواجبات فأحرى بهم ألاّ يبرموا أمراً دونهم ، ولا يخالفون خطة لهم رسموها ، ولا يأمرونهم بأمر إلا بادروا بتنفيذه ، كما لا ينصرفون من مجلسهم إلا بعد استئذانهم

وجملة القول : يفعلون كل مافيه تبجيلهم وتعظيمهم واحترامهم ، ويتركون كل ما فيه تحقيرهم وإهانتهم .

وبعد أن بيّن جل شأنه كيف يتأدبون معه «ص» عند إرادة الانصراف

من مجلسه ـ أمره «ص» أن يأخذهم باللين ، ويعاملهم بالرفق ، وبما يكون داعية الالفة والتواد . فاذا استأذنه أحد منهم أن يخرج من المجلس ـ لعروض عذر له ـ أذن له إن شاء ، ومنعه إن شاء ، على حسب ما تقتضيه المصلحة التي يراها رسول الله «ص» . وهذا معنى قوله تعالى له «ص» : ﴿ فاذا استأذنوك لبعض شأنهم فأذن لمن شئت منهم واستغفر لهم الله ان الله غفور رحيم ﴾ أي فاذا طلبوا منك الاذن فى أن يخرجوا من مجلس الاجتماع فأنت مخير بين أن تأذن لهم أو لا .

وفى هذا التفويض له «ص» من رفع شأنه وعلو منزلته عند الله تعالى مالا يخفى . ولما كان الاستئذان ـ وإن كان لعذر مسوغ ـ لا يخلو من شائبة تقديم أمر الدنيا على أمر الآخرة ، وهو اغتنام مجلسه ـ أمره أن يستغفر لهم واعداً بالمغفرة بقوله : ﴿ ان الله غفور رحيم ﴾ أي كثير المغفرة لفرطات عباده ، والرحمة بالتيسير عليهم ، بالغ فيهما الغاية التي ليس وراءها غاية . وفي الآية الكريمة من المبالغة في الحفاوة به « ص » ما لا يخفى . إذ جعل سبحانه الاستئذان للذهاب عنه أمراً محتاجا للاستغفار ، فضلا عن الذهاب بدون إذن . ورتب الاذن منه على الاستئذان لبعض شأنهم ، لا على الاستئذان مطلقاً ، ولا على الاستئذان لأي أمر ـ مهما كان أو غير مهم ـ ومع ذلك فقد علّق الاذن على المشيئة . وليس ذلك بالغريب فلرسول الله «ص» عند ربه مكانة دونها كل مكانة . والله يختص برحمته من يشاء والله غفور رحيم .

المظهر الآخر متابعته «ص» في كل ماجاء به عن ربه ، والنزول عند حكمه والرضا بقضائه . وقد أفادها الله تعالى بقوله : ﴿ وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ومن يعص الله ورسوله فقد ضل ضلالا مبيناً ﴾ .

فبيّن مايجب على عباده من الأدب وحسن المعاملة مع رسوله (ص) . فاذا حكم على أحدهم فليس له أن يختار من أمره شيئاً ، بل يجب عليه أن يجعل رأيه تبعاً لرأيه (ص) ، واختياره تبعاً لاختياره ، حتى يكون بذلك مؤمناً حقيقة . كما قال تبارك وتعالى : ﴿ فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لايجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليما ﴾ . وقال (ص) : (لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئتُ به) .

وذلك لأن من لم ينزل على حكمه (ص) ولم يرض بقضائه فهو ضال ، ذلك اما لكونه يرى ان هذا الحكم منه (ص) وقع في غير محله فهو ظالم وجور فهو يمتنع عن قبوله وهذا نهاية الخسران والضلال . واما لأنه يرى ان حكمه (ص) وقع في محله ولكن لا يقبله ـ عناءاً وكبراً ـ أو لأنه لا يوافق هواه . وعلى كل فهو جحود وكفران . ولذا شدد الله سبحانه على من لم يرضَ بحكمه (ص) واختار غير مااختاره بقوله : ﴿ ومن يعص الله ورسوله فقد ضل ضلالا مبيناً ﴾ أي ومن يعص الله ورسوله في أمر من الامور مثل ـ عدم الرضا بقضائه وحكمه (ص) ـ فقد ضل عن طريق الحق ضلالا ظاهراً واضحاً لايخفى .

فان كان العصيان عصيان رد وامتناع عن القبول فهو ضلال كفر . وإن كان عصيان فعل مع قبول الأمر واعتقاد الوجوب فهو ضلال خطأ وفسق . وعلى كل حال فهو من الضلال ، وقلة الأدب معه (ص) بحال لا يصح لمؤمن ولا مؤمنة أن يتصف بها ويكون عليها .

وقال جل وعز في حسن متابعة الرسول ، والتأسي في أقواله وافعاله واحواله : ﴿ لقد كان لكم في رسول الله اسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيراً ﴾ فبين لزوم الأدب معه (ص) بوجوب متابعته والتأسي

به في اقواله وافعاله ، إلا ما علم انه من خصوصياته «ص» ،

ولذا أمر الله تبارك وتعالى الناس بالتأسي به (ص) يوم الأحزاب ، في صبره ومصابرته ، ومجاهرته وانتظاره الفرج من ربه . فقال - للذين تضجروا وتزلزلوا ، واضطربوا في أمرهم : ﴿ لقد كان لكم في رسول الله اسوة حسنة ﴾ أي اقتداء به (ص) اقتداء حسناً وهو : أن تنصروا دين الله . وتؤازروا رسوله ولا تتخلفوا عن نصرته ، وتصبروا على مايصيبكم ، كما فعل هو (ص) إذ كسرت رباعيته ، وجرح وشج وجهه . وأُوذي بضروب الأذى فصبر وواساكم مع ذلك بنفسه . فافعلوا انتم كذلك مثل فعله واستنوا بسنته .

ولما كانت متابعته (ص) والاقتداء به - في مثل هذه الامور العظام والمواطن الصعبة التي لا يتحمل عبثها إلا من تيقن ثواب الله ورحمته ، ورسخ ايمانه وكمل يقينه فلازم طاعته بكثرة ذكره - قال الله تعالى : ﴿ لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيراً ﴾ أي هذه الأُسوة الحسنة للذين يرجون ثواب الله ولقاءه ورحمته فى اليوم الآخر والذين يذكرون الله كثيراً . والآية وإن كان سببها خاصاً - كما علمت - عامة ، لأن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ، فالتأسي به (ص) ومتابعته فى كل ما جاء به حسنة فى كل حال .

وقال تعالى في وجوب متابعته فى كل ما أمر به ونهى عنه : ﴿ وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا واتقوا الله إن الله شديد العقاب ﴾ .

فبين وجوب متابعته (ص) فى كل ماجاء به ، بفعل كل ماأمر به ، وترك كل مانهى عنه ، لقوله تعالى : ﴿ وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا ﴾ أي أيّ شيء امركم به من الطاعات وفعل الخيرات فافعلوه ، وأي شيء نهاكم عنه من الخبائث والمنكرات فاجتنبوه ، لأنه لايأمر إلا بخير ، ولا ينهى إلا عن

شر . على انه إنما يأمر بأمر ربه . وينهى بنهي ربه فعدم متابعته (ص) ـ في كل ماجاء به او بعضه ، مخالفة لأمر الله ونهيه ، ولا يجرؤ على مخالفة الله ورسوله إلا فاقد الحياء .

واما أمر جل شأنه بالأئتمار بأمره (ص) والانتهاء بنهيه ـ أمر بتقواه وخوّف من شدة عقوبته فقال : ﴿ واتقوا الله ان الله شديد العقاب ﴾ أي اتقوه بامتثال أوامره ، وترك زواجره ، فانه شديد العقاب لمن عصاه . وخالف أمره وأباه ، وارتكب ما عنه زجره ونهاه .

هذا قلّ من كثر وفيض من غيض وحسبك من القلادة ماحف بالعنق .

الذريعة السابعة

طبع نفوس النشء على التأدب فى حق الله عز وجل وإلقاء خشيته فيها

وهو نوعان :

اما الأول ـ فعلى مثال ما جاء في قوله تعالى حكاية عن سيدنا ابراهيم عليهم السلام : ﴿ الذي خلقني فهو يهدين والذي هو يطعمني ويسقين واذا مرضت فهو يشفين ﴾ فتراه نسب الخلق والهداية والاطعام والسقيا اليه تعالى ، ونسب المرض الى نفسه فى قوله : ﴿ مرضت فهو يشفين ﴾ وكان مقتضى السياق أن يقول واذا أمرضني . فينسب المرض الى الله تعالى كما نسب اليه غيره من الأفعال . مع اعتقاده بأن الكل منه . وفى العدول عن ذلك من الأدب مالا يخفى .

ومن ذلك أيضاً قوله تعالى ـ حكايةً ـ عن مؤمني الجن عند مبعث الرسول (ص) ومنعهم من استراق السمع : ﴿ وإنا لا ندري أشرٌّ أُريد بمن فى الأرض أم أراد بهم ربهم رشداً ﴾ فنراهم ـ عند اسناد الشر ـ بنوا الفعل للمجهول ولم يعينوا المريد له ، مع اعتقادهم بأن المريد له هو الله تعالى . وعند اسناد الخير صرحوا بمريده فقالوا : ﴿ أم اراد بهم ربهم رشداً ﴾ وهذا ادب عظيم . ومثل هذا النوع من الآداب كثير فى القرآن .

واما الثاني ـ فامتثال المرء أوامره جل شأنه واجتنابه نواهيه . ومراقبته في كل عمل من أعماله . بل وفى سائر حركاته وسكناته . فان كان هذا العمل طاعة كانت المراقبة باستحضار ذاته العلية ، وتمثل عظمته تعالى بقلبه ، وانبعاث الخشية والخشوع من جميع جوارحه ، واطمئنان نفسه بالمثول بين يديه . وملاحظة أنه يراه فى جميع حركاته وسكناته . وهو معنى الاحسان الذي ذكره (ص) في قوله : (الاحسان أن تعبد الله كأنك تراه فان لم تكن تراه فانه يراك) وإن كان هذا العمل معصيةً تذكّر ان عليه رقيباً مهيمناً قريباً . يعلم ما توسوس به نفسه ويخفيه صدره ، ويبصر دبيب النمل فى الليلة الظلماء . فعند ذلك يخشع قلبه . وتستكين جوارحه . ويتملك الخوف فؤاده . فيجتنب القبيح بعد العزم عليه . ويحجم عن المنكر بعد الوصول اليه وبذلك تتم له السعادة الحقيقية في الدنيا والآخرة .

ويجمع المراقبة بقسميها كلمة (التقوى) وهي : اتخاذ الوقاية من غضب الله تعالى بالعمل بأوامره واجتناب نواهيه .

ومن ذلك يتبين انها اسم جامع لجميع انواع البر ، وكافل لصاحبه كل خير ، ومبعد عنه كل شر . ولذا اكثر الله جل شأنه في القرآن الكريم من الحث عليها ، مبيناً مايترتب عليها من صلاح الدنيا ، ورفيع الدرجات في الآخرة

فمن ذلك قول الله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله ولتنظر نفس ما قدمت لغد واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون ولا تكونوا كالذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم اولئك هم الفاسقون ﴾ فالآية الكريمة ناطقة بثلاثة امور :

الأول : الحث على التقوى وهي امتثال ماأمر الله واجتناب مانهى اللهعنه

الثاني : الحث على العمل الصالح ومحاسبة الانسان نفسه قبل أن يُحاسب ، والنظر فيما ادّخره من الأعمال الصالحة ليوم معاده ، وعرضه على ربه ، ومناقشة الحساب . فيطالبها أولاً بتصحيح الجواب عن جميع ما تكلم به طول نهاره ، وهكذا عن نظره بل عن خواطره وأفكاره ، وقيامه وقعوده وأكله وشربه ونومه . حتى عن سكوته أنه لِمَ سكت ؟ وعن سكونه لِمَ سكن ؟ فاذا وجدها مع ذلك اقترفت ذنباً . أو ارتكبت تقصيراً فى حق الله تعالى وجب عليه أن يعاقبها . وعقوبتها اما بمنعها عن مشتهياتها . واما بتوبيخها الشديد . او باللوم عليها اللوم الصارم . بأن يقول لها : يا نفس أي شيء جرأك على معصية الله ؟ إن كانت جرأتك على معصية الله لاعتقادك أنه لايراك فما أعظم كفرك وأشد جهلك !! وإن كانت مع علمك باطلاعه عليك فما أقل حياءك !!

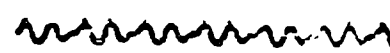
يا نفس لو واجهك عبد من عبيدك ، بل أخ من اخوانك ، بما تكرهينه كيف يكون غضبك عليه ومقتك له ؟ لاجرم أنك تعاقبينه أشد العقاب وتخافين انك لو تجاوزت عنه جرّ ذلك إلى مالا تحمد عاقبته . فكيف مع ذلك تتعرضين لمقت الله تعالى وغضبه ، وشديد عقابه ؟ فان كنت مغترة بكرم الله تعالى وفضله . واستغنائه عن طاعتك وعبادتك . فما بالك لاتعولين على كرم الله فى مهمات دنياك فاذا قصدك عدوٌّ فلِمَ تستنبطين الحيل فى دفعه ولا تكلينه إلى كرم الله تعالى ؟

واذا أرهقتك حاجة إلىشهوة من شهوات الدنيا ـ مما لاينقضي إلابالدينار

والدرهم ، فما بالك تنزعين الروح فى طلبها وتحصيلها ، فلمَ لا تعولين على كرم الله تعالى حتى يسخر لك عبداً من عبيده فيساعدك على نيل حاجتك ؟ أفتحسبين ان الله كريم في الآخرة دون الدنيا ؟ وهكذا مثل هذه التوبيخات . فان حاسب نفسه وعاقبها بمثل هـذه العقوبات عند وجود تقصير منها تمت له طاعتها ، وسهل عليه تصريفها فيما ينفعه وينفع قومه .

اما اذا أهملها سهل عليه مقارفة المنكرات ، وأنست بها نفسه . وعسر عليه فطامها . وكان ذلك سبب حرمان نفسه الفضائل السامية . وإلى هـذه المحاسبة يشير الله تعالى بقوله : ﴿ ولتنظر نفس ما قدمت لغد واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون ﴾ أي حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا ، وانظروا ماذا ادخرتم لها من الأعمال الصالحة يوم عرضكم على ربكم ، واعلموا ان الله تعالى عالم بجميع أحوالكم وأعمالكم . لا تخفى عليه منكم خافية . فيجازيكم عليها إن خيراً فخير وإن شراً فشر .

الثالث : الحث على مداومة استحضار عظمة الله وجلاله . كما يؤخذ من قوله تعالى : ﴿ ولا تكونوا كالذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم اولئك هم الفاسقون ﴾ فان الغفلة عن الله تعالى وجليل قدرته تورث الغفلة عن العمل الصالح الذي يرفع الامم ويسعدها ، لأن الجزاء من جنس العمل . قال تعالى : ﴿ اولئك هم الفاسقون ﴾ أي الخارجون عن صراط الله السوي .



الذريعة الثامنة

تربيته على حسن معاملة أفراد المجتمع

مما سلكه الاسلام فى تكوين خلق الفرد أنه : أوجب عليه أن يعامل أفراد المجتمع برفق ولين ، ويخفض جناحه للكبير منهم والصغير . ولا يخاطب أحداً بغلظة ، ولا يتكبر ولا يتعاظم على احد منهم ، بل يستجلب محبتهم بمكارم أخلاقه وحسن معاملته ولطف صنيعه ، ولا يكثر المراء والخصومة معهم . وأن يبتدر من يعرف ومن لا يعرف بالتحية . وإذا حياه غيره بتحية ردها بعينها أو بأحسن منها . وأن يلقى غيره بالبشاشة والبشر وطيب الكلام . ولا يؤذيهم بقول أوفعل ، وأن يعفو عن مذنبهم ، ويصفح عن تائبهم . ويتودد اليهم بكل وسائل أنواع التودد . وألاّ يعد احداً منهم بوعد إلا وفى به . إلى غير ذلك من الاخلاق الفاضلة والصفات الكاملة . وقد جاء القرآن الكريم مبيناً هذه الآداب على أحسن وجه وأكمله ، مرشداً إلى ما يجب التخلق به ، ويجب استعماله في معاملة افراد المجتمع ، في كل ما يجلب رضاهم ومحبتهم ، فتتحد كلمتهم وتتألف جامعتهم . ويسعون لأنفسهم فيما يجلب لهم الخير ويدفع عنهم الشر والضير . فمن ذلك ماحث الله سبحانه عليه من مقابلة الاساءة بالاحسان ، والذنب بالغفران ، والغضب بالحلم ، والغيظ بالكظم — مع بيان الثمرة المترتبة على ذلك — فقال : ﴿ ولا تستوي الحسنة ولا السيئة إدفع بالتي هي أحسن فاذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي

حميم * وما يلقّاها إلا الذين صبروا وما يلقّاها إلا ذو حظ عظيم ﴾ .

فبيّن ما يجب على الأفراد من حسن معاملة اخوانهم ، صغيرهم وكبيرهم ، فان أغضبهم أحد صبروا ، وإن جهل عليهم حلموا ، وإن أساء اليهم عفوا عنه ، وإن أذنب في حقهم ذنباً غفروه وأغضوا عما حصل منه من الهفوات ، وتجاوزوا عما صدر منه من الغلطات . فان فعلوا ذلك صار العدو لهم صديقاً ، والبعيدعنهم قريباً ، والمبغض لهم حبيبا . وهذا ما أفاده الله تعالى بقوله : ﴿ ولا تستوي الحسنة ولاالسيئة ادفع بالتي هي أحسن فاذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم ﴾

أي إن أساء اليك رجل فالحسنة أن تعفو عنه . والتي هي أحسن أن تحسن اليه ، كأن يذمك فتمدحه ، أو يشتمك فتعطيه جائزة . فانك إن فعلت ذلك وأحسنت اليه ـ من حيث أساء اليك ـ قاده إحسانك إلى مصافاتك ومحبتك والحنوّ عليك حتى يصير كأنه ولي حميم . أي قريب اليك يهتم لأمرك ، من فرط الشفقة عليك .

وبعد أن وصى عباده بحسن المعاملة ، ومقابلة الاساءة بالاحسان ، وبيّن الثمرة المترتبة على ذلك ـ أخذ يمدح من عمل بهذه الوصية ، وحافظ على هذه المزية فقال : ﴿ وما يلقاها إلا الذين صبروا وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم ﴾ أي وما يقبل هذه الوصية ولا يعمل بها إلا من اجتمعت له خلال الصبر ، وثبات القلب وقوة العزيمة ، وكان له منها نصيب موفور .

وقال العليم الحكيم ـ يُعلّم نبيه «ص» محاسن الأدب ومكارم الأخلاق وحسن المعاملة ـ مع صنوف الخلق سواءً المطيع منهم والعاصي : ﴿ واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين فان عصوك فقل إني بريء مما تعملون ﴾ فأمره أن يلين جانبه ، ويتواضع للمؤمنين . لأن ذلك أدعى إلى اجتماع كلمتهم عليه ، ومحبتهم له

وقيامهم بكل ما يرضيه ، و بذلهم النفس والنفيس فى سبيل نشر دينه ، وسعيهم في إعلاء كلمته ، ونصرته على أعدائه . وهذا ضرب من التدبيرات الالآهية والسياسات الشرعية ، التي تجب على كل من قام بالدعوة ليرشد الناس ويهديهم إلى مافيه صلاح حالهم دنيا واخرى ، ويقوّم ما اعوجّ من أخلاقهم - أن يكون متخلقاً بها فيجمل المعاملة ، ويحسن الصنيعة مع من خالفه ، لما فى ذلك من محبتهم له وعدم نفورهم منه . وربما كان ذلك سبباً في رجوعهم عن معصيته ومخالفته إلى طاعته وامتثال أمره . وذلك بأن يلطف بهم ويحنو عليهم . فلا يعاقبهم ولا يردعهم ولا ينهرهم ولا يقسو عليهم في المعاملة - وإن كان ما عملوه من المخالفة والعصيان يستحقون عليه اكثر من ذلك - بل غاية ما يقابلهم به أن يتبرأ من عملهم ويقول لهم : ﴿ إني بريء مما تعملون ﴾ .

والآية الكريمة وإن كان المأمور فيها بخفض الجناح واستعمال اللين واللطف وحسن المعاملة والمجاملة - هو خصوص رسول الله «ص» هداية لأمته ، واتباعه بطريق التبع ، لأن كل أمر له أمر لامته مالم يرد نص مخصص ، ولذا وجب على كل مسلم أن يعامل جميع الناس بالرفق واللين والتواضع ، ويستجلب محبتهم اليه بمكارم أخلاقه ، وحسن معاملته ولطف صنيعه ، سواء المحسن منهم والمسيء ، فان ذلك أدعى لمعونتهم له وقت الحاجة ، واغاثتهم له وقت الشدة ، ونصرته وقت الحرج والضيق .

وقال جل ذكره فيما يجب أن يستعمله الانسان مع خصمه . من حسن المعاملة والملاطفة واللين . حتى يكون ذلك فى قبول قوله ، واجابة طلبه - مخاطباً بذلك موسى وأخاه هارون « ع » عندما أمرهما أن يذهبا إلى فرعون ليدعواه إلى عبادة الله تعالى : ﴿ إذهب أنت وأخوك بآياتي ولا تنيا في ذكري إذهبا

إلى فرعون إنه طغى فقولا له قولا ليناً لعله يتذكر أو يخشى ﴾ .

فيقول الله تعالى لنبيه موسى «ع» : اذهب انت وأخوك هارون إلى فرعون ، وادعواه إلى عبادتي وتوحيدي والاخلاص لي ، ومعكما آياتي ومعجزاتي وحججي وبراهيني متمسكين بها فى اجراء احكام الرسالة . وإتمام أمر الدعوة . وعليكما مع ذلك ـ عند مواجهتكما له ومقابلتكما إياه ـ ألاّ تنيا ولا تقصّرا فى ذكري واستحضار أنني وليكما وناصركما ، مع الدعوة إلى توحيدي ، ليكون ذلك عوناً لكما عليه ، وقوة وسلطانا . كما قال نبينا «ص» عن ربه : (ان عبدي كلّ عبدي الذي يذكرني وهو مناجز قرنه) أي يذكر انني وليه والآخذ بيده .

وبعد أن أمر جل شأنه موسى « ع » أن يذهب إلى فرعون ويصحب أخاه هارون معه . اخذ يأمرهما بالذهاب الى فرعون ويرشدهما الى ما يقولان له . لعله يكون سبباً في اذعانه لهما وقبوله ما جاءا به فقال : ﴿ اذهبا الى فرعون انه طغى ﴾ أي تمرد وعتا وتجبر على الله وعصاه ، وتجاوز الحد في الكفر والتمرد بادعائه الربوبية ، فقولا له قولا ليناً لا خشونة فيه . فان التخشين فى القول من اعظم اسباب النفور ، وعدم الامتثال . بخلاف تليين القول فانه اسرع الى الاجابة وأدعى الى كسر سورة عناد العتاة ، وتليين قسوة الطغاة . وقد فعلا عليهما السلام ما أُمرا به فقد قالا له : ﴿ إنا رسولا ربك فأرسل معنا بني اسرائيل ولا تعذبهم ﴾

وقال له موسى «ع» : ﴿ هل لك الى أن تزكى وأهديك الى ربك فتخشى ﴾ فان هذا غاية في اللين والرفق . لأنه دعاء في صورة العرض والمشورة وقد ذكر جل شأنه العلة الباعثة على دعوته باللين وحسن الملاطفة فقال : ﴿ لعله يتذكر او يخشى ﴾ أي لعله يتأمل فيبذل النصف من نفسه والاذعان للحق ، فيدعوه ذلك الى الايمان . او يخشى ان يكون الأمر كما تصفان فيجره إنكاره

الى الهلكة وذلك يدعوه الى الايمان ايضاً . فهذا ما أمر الله به نبيه موسى وأخاه هارون ، من حسن المعاملة مع فرعون ، واللين له في القول ، والتلطف به ، وهما صفوة الله من خلقه ـ إذ ذاك ـ وهو أحط منهما قدراً عند الله تعالى فكيف بمعاملة غيره من المؤمنين بعضهم بعضا ، فانهم أولى باستعمال الملاطفة واللين بينهم .
وقال تعالى يعلمنا كيف نعامل خلقه بتأدية مالهم من الحقوق مع بيان ماأعده الله لمن احسن هذه المعاملة من النعيم المقيم ، وما أعده لمن لم يحسنها من الهوان والعذاب الأليم : ﴿ الذين يوفون بعهد الله ولا ينقضون الميثاق والذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل ويخشون ربهم ويخافون سوء الحساب والذين صبروا ابتغاء وجه ربهم واقاموا الصلاة وانفقوا مما رزقناهم سراً وعلانية ويدرؤن بالحسنة السيئة اولئك لهم عقبى الدار جنات عدن يدخلونها ومن صلح من آبائهم وازواجهم وذرياتهم والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار والذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما امر الله به ان يوصل ويفسدون فى الأرض اولئك لهم اللعنة ولهم سوء الدار ﴾ .

فبين ما اعده لمن احسن من عباده المؤمنين المعاملة معه جل شأنه ومع عباده من الثواب الجزيل . والنعيم الدائم المقيم . وقد بين جل شأنه ان احسن المعاملة يكون بأشياء :

الأول : الوفاء بالعهد وهو بالنسبة لله عز وجل امتثال اوامره واجتناب نواهيه . وبالنسبة للخلق ألاّ يعد احدهم وعداً إلا وفى به وانجزه ، ولا يكون كالمنافق اذا عاهد غدر واذا خاصم فجر . واذا حدّث كذب . واذا اؤتمن خان .

الثاني : صلة ما امر الله به ان يوصل . ونهى ان يقطع . وهي بالنسبة لله عز وجل دوام مراقبته وتمثل عظمته فى قلبه ، حتى يكون ذلك زاجراً له عن

معصيته ، ومخالفة امره . والايمان بالكتب والرسل ، فانه جل شأنه امر بوصل ذلك وعدم قطعه . وبالنسبة للخلق ثلاثة انواع : وصل قرابة المؤمنين الثابتة بالايمان والداخلة في عموم قوله تعالى : ﴿ إنما المؤمنون إخوة ﴾ ويكون بالاحسان اليهم على قدر الطاقة والوسع . ونصرتهم والذب عنهم والشفقة عليهم ، وجلب الخير اليهم ودفع الضرر عنهم . وافشاء السلام وعيادة المرضى . ومنه مراعاة حق الأصحاب والخدم والجيران والرفقاء فى السفر الى غير ذلك . ووصل قرابة الرسول «ص» ويكون بالشفقة بهم ، وتعهدهم فيما يحتاجون اليه ، واحترامهم وتوقيرهم والتودد اليهم . كما قال : ﴿ قل لا اسئلكم عليه اجراً إلا الموذة فى القربى ﴾ فان في صلتهم صلة رسول الله وهي غاية ما يسعى المرء لنيله ، ووصل قرابته من الرحم ويكون بأن يطعمهم من جوع ويؤمنهم من خوف ، او يقضي عنهم ديناً او يفرج عنهم غماً ، او يقضي لهم ما يحتاجون اليه إن كانوا فقراء ، ويعاملهم بالتودد ، ويتعهدهم بالزيارة ، ويبدأهم بالسلام إن كانوا اغنياء .

الثالث : الخشية من الله تعالى ومراقبته جل شأنه فى جميع الأعمال والأحوال ، والخوف من سوء الحساب في الدار الآخرة . فان دوام المراقبة والخشية والخوف من الحساب يوم الحساب ـ مما يوطن قلب العبد على طاعة الله تعالى وامتثال اوامره ، واجتناب نواهيه . وما احسن تلك المعاملة !

الرابع : الصبر عن المحارم والتعفف عن المآثم ، وترك جميع الموبقات ونبذ سائر المنكرات ، واحتمال المشاق في نصرة الله ودينه . ولا غرض من ذلك سوى طلب مرضاة الله تعالى وجزيل ثوابه .

الخامس : إقامة الصلاة بحدودها ومواقيتها وركوعها وسجودها وخشوعها على الوجه الشرعي المرضي فان ذلك من حسن المعاملة بمكانة دونها كل مكانة .

السادس : الانفاق من فضل الله تعالى على من يجب لهم الانفاق ، من زوجات وقرابات وأجانب ، من فقراء ومساكين ، فى السر والجهر .

السابع : درء السيئة بالحسنة . أي دفعها بها ، فاذا آذا هم أحد قابلوه بالجميل صبراً واحتمالا وصفحاً وعفواً ، وإن أساء اليهم عفوا عنه ، وإن حصلت منه هفوة أغضوا عما حصل منه من الهفوات ، وتجاوزوا عما فرط من الغلطات . فبذه الأشياء التي ذكرها الله غاية فى حسن المعاملة معه ومع عباده .

ثم بيّن ما يترتب عليها من الثواب الجزيل والسعادة الأبدية بقـــوله : ﴿ اولئك لهم عقبى الدار ﴾ ثم فسر ذلك بقوله : ﴿ جنات عدن ﴾ أي جنات اقامة يخلدون فيها ، هم ومن هوصالح لدخول الجنة ، من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم ليكون في الجمع بينهم وبين من يحبون من أهليهم وقراباتهم قرة عين لهم . والملائكة يدخلون عليهم من كل باب من أبواب الجنة ، يسلّمون عليهم ويهنؤنهم بما حصل لهم ، من التقريب والانعام والاقامة في دار السلام ، فى جوار الصديقين والأنبياء والرسل الكرام ، جزاء حسن معاملتهم مع الله ومع خلقه .

وبعد أن بيّن سبحانه حال السعداء وما أعده لهم من النعيم المقيم أتبع ذلك ببيان أحوال الأشقياء ، وما أعده لهم من العذاب الشديد والعقاب الأليم ، وهم الذين لم يحسنوا المعاملة مع الله تعالى ومع عباده فقال : ﴿ والذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون في الارض اولئك لهم اللعنة ولهم سوء الدار ﴾ وقال تعالى يعلّم رسوله «ص» لطف المعاملة وحسن المصانعة ، مع اليتامى الأذلاء والفقراء الضعفاء ـ ولنا فيه «ص» الاسوة الحسنة ـ : ﴿ فأما اليتيم فلا تقهر وأما السائل فلا تنهر وأما بنعمة ربك فحدّث ﴾ .

فبين وجوب حسن المعاملة ، ولطف المجاملة مع هذين الصنفين وهما اليتيم

الذي مات أبوه وهو صغير ، والسائل الذي ألجأته الحاجة والفاقة الى ذل السؤال وتكفف الناس . فحسن المعاملة مع اليتيم ألا يقهره ولا يغضبه ، ولا يأخذ منه حقاً هو له ، وأن يكون له كالأب الرحيم للابن البار ، فيسعى فى نماء ماله إن كان له مال ، وفى تعليمه وتربيته ، ويحسن كفالته فلا يذله ولا ينهره ولا يهينه ، ولا يفعل به أي أمر يكدر خاطره ، أو يحصل له منه ضرر . وإنما وصى جل شأنه باليتيم هنا وفى مواضع كثيرة من القرآن الكريم وحث على ذلك ورغب فى حسن كفالته ولطف معاملته — لأن اليتيم الذي مات أبوه وكان المتكفل بحسن تربيته ، وتعليمه ونجاحه وفلاحه والسعي وراء كل ما يكون فيه سعادته في الدنيا والآخرة ، والقائم بتدبير حالته المعاشية . والنظر فى كل ما يجلب له الخير ويدفع عنه الشر والضير — اذا لم يجد من يقوم له بما كان يقوم له به أبوه . نشأ على الأخلاق الفاسدة والطباع الرذيلة . لأن النفس بطبيعتها ميالة إلى الشرور . مطبوعة على الفجور . فاذا لم تجد وازعاً يكبح جماحها . ويحول دون تنفيذ كل رغباتها ولا سيما في الصغر تحكمت فيها الشهوات وتمكنت فيها الرذائل والمنكرات . فينشأ صاحبها على ذلك فاسد الأخلاق . مرذول الطباع . منقاداً لأهوائه البهيمية . عبداً لشهواته المدنية . وبذلك يكون كلاً على المجتمع وجرثومة فساد فيه .

وحسن المعاملة مع السائل يكون اما باجابة ما سأله . والنصح والاخلاص له في الجواب ، مع عدم التكبر والتجبر والفحش فى القول واظهار الفضل عليه إن كان سائلا عن علم . واما باعطائه سؤله ، أو رده برحمة ولين وتعطف وتلطف إن كان محتاجا يسأل ما به يسد رمقه ويزيل عوزه . ولا يصح أن يقابل السائل — الذي هذه حالته — بالفظاظة والغلظة والكبر من المسؤل ، فان في ذلك من قلة المروءة وخسة الطبع مالا يخفى . على انه لا يحسن بعاقل أن يتقلب في نعمة

ولا يرى من الشكر على هذه النعمة التي جعلته مسئولا وغيره سائلا ، وعزيزاً وغيره ذليلا يتكفف الناس ويسألهم ، هذا يمنحه وهذا يمنعه . حقاً لا يحسن به ألاّ يرى من الشكر أن يمنح أخاه المؤمن وهو يسأله مما منحه الله من العلم أو المال مايسد به حاجته ، فذلك من زمانة فى مروءته وخسة في طبعه .

وقال جل ذكره ـ يحث على حسن المعاملة مع الناس ـ بالعفو عن مذنبهم والصفح عن تائبهم : ﴿ ولا يأتل اولوا الفضل منكم والسعة أن يؤتوا أُولي القربى والمساكين والمهاجرين فى سبيل الله وليعفوا وليصفحوا ألا تحبون أن يغفر الله لكم والله غفور رحيم ﴾ .

فبين وجوب صلة الرحم والأقرباء مهما اقترفوا من الذنب ، ولا يكون ما فعلوه سبباً فى أن يأتلي أُولوا الفضل والسعة . أي يحلفوا ان يمنعوهم ما كانوا يحسنون به عليهم . وليكن ديدنهم معهم العفو عن ذنبهم الذي أذنبوه ، وجناياتهم التي اقترفوها ، والصفح عن تائبهم بالاغضاء عنه ، والاغماض عن جنايته . فان ذلك سبب لعفو الله تعالى ومغفرته . كما قال تعالى مرغباً في العفو والصفح حاثاً عليهما : ﴿ وليعفوا وليصفحوا ألا تحبون أن يغفر الله لكم والله غفور رحيم ﴾ .

القرآن الكريم

١ - وصفه . ٢ - محتوياته . ٣ - أثره في اللغة العربية . ٤ - أثره في الأحوال الاجتماعية والخلقية والعلمية .

١ - وصفه

القرآن الكريم كتاب أُحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير . آية الله الدائمة وحجته الخالدة ، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد .

الم ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين ، الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون ، والذين يؤمنون بما أُنزل إليك وما أُنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون أولئك على هدىً من ربهم وأولئك هم المفلحون .

٢ - محتوياته

احتوى القرآن على ما يحتاج اليه الانسان في معاشه ومعاده ﴿ ما فرطنا في الكتاب من شيء ﴾ ويمكن حصر ذلك فيما يأتي :

١ — **العقائد** : وهي مبينة في الآيات التي توجب الايمان بالله واحد ، وبملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر . مثل قوله تعالى : ﴿ قل هو الله أحد الله الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد ﴾ . وقوله تعالى : ﴿ آمن الرسول بما انزل اليه من ربه والمؤمنون كلٌّ آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرّق بين أحد من رسله وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا واليك المصير ﴾ .

٢ — **الفرائض الدينية** : وهي موضحة في الآيات التي توجب الصلاة والصوم والحج ... مثل قوله تعالى : ﴿ وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وماتقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله ﴾ . وقوله تعالى : ﴿ ياأيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون * أياما معدودات فمن كان منكم مريضاً أو على سفر فعدة من أيام أُخر وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مسكين فمن تطوع خيراً فهو خير له وان تصوموا خير لكم إن كنتم تعلمون ﴾ وقوله تعالى : ﴿ ولله على الناس حج البيت من استطاع اليه سبيلا ومن كفر فان الله غني عن العالمين ﴾ .

٣ — **الأوامر والنواهي** : وهي مفصلة في الآيات التي تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر مثل قوله تعالى : ﴿ ولتكن منكم أُمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر واولئك هم المفلحون ﴾ وقوله تعالى : ﴿ ان الله يأمر بالعدل والاحسان وايتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي يعظكم لعلكم تذكرون ﴾ .

٤ — **الانذار والتبشير** : في الآيات التي ذكر فيها ما أُعِد للكافرين والمؤمنين ، مثل قوله تعالى : ﴿ من عمل صالحاً من ذكر أو انثى وهو مؤمن

فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون ﴾ وقوله تعالى : ﴿ ومن يعص الله ورسوله ويتعدّ حدوده يدخله ناراً خالداً فيها وله عذاب مهين ﴾

٥ — الجدل والتحدي : في الآيات التي دعى فيها المخالفون إلى الاتيان بآيات ـ ولو مفتريات ـ فعجزوا . مثل قوله تعالى : ﴿ وان كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعو شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين فان لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة اعدت للكافرين ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ أم يقولون افتراه قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ قل لئن اجتمعت الانس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا ﴾ .

٦ — القصص : كالذي ورد فى تاريخ الأنبياء والرسل ، وذي القرنين وأصحاب الكهف . مثل قوله تعالى : ﴿ ولقد آتينا داود فضلا يا جبال أوّبي معه والطير وألنّا له الحديد أن اعمل سابغات وقدّر فى السرد واعملوا صالحًا إني بما تعملون بصير ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ واذكر فى الكتاب مريم إذا انتبذت من أهلها مكانًا شرقيًا ، فاتخذت من دونهم حجابًا فأرسلنا اليها روحنا فتمثل لها بشراً سويّا ، قالت إني أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقيا ، قال إنما أنا رسول ربك لأهب لك غلامًا زكيا ، قالت أنّى يكون لي غلام ولم يمسسني بشر ولم أك بغيا ، قال كذلك قال ربك هو عليّ هيّنٌ ولنجعله آية للناس ورحمة منا وكان أمراً مقضيا ، فحملته فانتبذت به

مكانًا قصيا ، فأجاءها المخاض الى جذع النخلة قالت ياليتني مت قبل هذا وكنت نسيًا ،نسيا ، فناداها من تحتها ألاّ تحزني قد جعل ربك تحتك سريّا ، وهزي اليك بجذع النخلة تساقط عليك رطبًا جنيا ، فكلي واشربي وقري عينًا فاما ترين من البشر أحداً فقولي إني نذرت للرحمن صومًا فلن اكلم اليوم إنسيا ، فأتت به قومها تحمله قالوا يا مريم لقد جئت شيئًا فريا ، يا اخت هرون ما كان أبوك امرءَ سوء وماكانت أُمك بغيا ، فأشارت اليه قالوا كيف نكلم من كان في المهد صبيا ، قال إني عبدالله آتاني الكتاب وجعلني نبيا ، وجعلني مباركا أين ما كنت وأوصاني بالصلوة والزكوة مادمت حيا ، وبراً بوالدتي ولم يجعلني جباراً شقيا ، والسلام عليّ يوم ولدت ويوم أموت ويوم ابعث حيا ، ذلك عيسى بن مريم قول الحق الذي فيه تمترون ﴾

٧ — **التشريع الاجتماعي** : وهو في الآيات التي توجب الزكاة واخراجها لمستحقيها مثل قوله تعالى : ﴿ إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفى الرقاب والغارمين وفى سبيل الله وابن السبيل فريضة من الله والله عليم حكيم ﴾ . وقوله تعالى : ﴿ يسألونك ماذا ينفقون قل ماأنفقتم من خير فللوالدين والأقربين واليتامى والمساكين وابن السبيل وما تفعلوا من خير فان الله به عليم ﴾ .

٨ — **التشريع السياسي** : وهو فى الآيات التي توجب الطاعة لأولياء الامور والوفاء بالعهد والمواثيق . مثل قوله تعالى : ﴿ ياأيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول واولي الأمر منكم فان تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلا ﴾ . وقوله تعالى : ﴿ واوفوا بعهد الله اذا عاهدتم ولا تنقضوا الايمان بعد توكيدها وقد

جعلتم الله عليكم كفيلا إن الله يعلم ما تفعلون ﴾ .

٩ — **التشريع الجنائي** : وهو ماجاء في الآيات المبينة للحدود والقصاص مثل قوله تعالى : ﴿ وكتبنا عليهم فيها ان النفس بالنفس والعين بالعين والأنف بالأنف والأذن بالاذن والسن بالسن والجروح قصاص ﴾ .

١٠ — **التشريع المدني** : وهو ما تكفلت به آيات الربا والميراث وما أومأ اليها . مثل قوله تعالى : « وما آتيتم من ربًا في أموال الناس فلا يربو عند الله وما آتيتم من زكوة تريدون وجه الله فاولئك هم المضعفون » . وقوله تعالى : « يمحق الله الربا ويربي الصدقات والله لايحب كل كفار أثيم » . وقوله تعالى : « يوصيكم الله في أولادكم للذكر مثل حظ الانثيين فان كنّ نساء فوق اثنتين فلهن ثلثا ما ترك وإن كانت واحدة فلها النصف ولأبويه لكل واحد منهما السدس مما ترك إن كان له ولد فان لم يكن له ولد وورثه أبواه فلامه الثلث فان كان له اخوة فلامه السدس من بعد وصية يوصي بها أو دين آباؤكم وأبناءكم لا تدرون أيهم أقرب لكم نفعًا فريضة من الله إن الله كان عليما حكيما . ولكم نصف ماترك أزواجكم إن لم يكن لهن ولد فان كان لهن ولد فلكم الربع مما تركن من بعد وصية يوصين بها أو دين ولهن الربع مما تركتم إن لم يكن لكم ولد فان كان لكم ولد فلهن الثمن مما تركتم من بعد وصية توصون بها أو دَين وإن كان رجل يورث كلالة أو إمرأة وله أخ أو اخت فلكل واحد منهما السدس فان كانوا اكثر من ذلك فهم شركاء في الثلث من بعد وصية يوصي بها أو دَين غير مضار وصية من الله والله عليم حليم » .

١١ — **التشريع الحربي** : وهو في الآيات التي تؤذن بالقتال وتشير

بالسلم ، وتبين معاملة الأسرى ، وتوزيع الفيء ، مثل قوله تعالى : ﴿ وإما تخافنّ من قوم خيانة فانبذ اليهم على سواء إن الله لايحب الخائنين ، ولا يحسبن الذين كفروا سبقوا إنهم لا يعجزون ، وأعدوا لهم مااستطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم لاتعلمونهم الله يعلمهم وما تنفقوا من شيء في سبيل الله يوف اليكم وأنتم لاتظلمون ، وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله انه هو السميع العليم ﴾ .

١٢ — المواعظ والارشاد : وهي في الآيات المشتملة على الأمثال والحكم مثل قوله تعالى : ﴿ ألم تر كيف ضرب الله مثلا كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء تؤتي أكلها كل حين باذن ربهـا ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتذكرون ، ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض مالها من قرار ﴾ . وقوله تعالى : ﴿ ولا يحيق المكر السيء إلا بأهله ﴾ وقوله تعالى : ﴿ قل كلٌ يعمل على شاكلته ﴾ . وقوله تعالى : ﴿ وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم والله يعلم وأنتم لاتعلمون ﴾ . وقوله تعالى : ﴿ كل نفس بما كسبت رهينة ﴾ . وقوله تعالى : ﴿ لا يكلف الله نفساً إلا وسعها ﴾ . وقوله تعالى : ﴿ واتقوا فتنة لاتصيبن الذين ظلموا منكم خاصة واعلموا ان الله شديد العقاب ﴾ . وقوله تعالى : ﴿ ان تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون وما تنفقوا من شيء فان الله به عليم ﴾ . وقوله تعالى : ﴿ وأن ليس للانسان إلا ما سعى وأن سعيه سوف يُرى ﴾ . وقوله تعالى : ﴿ ان الله لا يغيّر ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ﴾ .

٣ ـ أثره فى اللغة العربية

١ — كان لقريش عظيم الأثر وكبير الفضل في توحيد لهجات اللغة العربية ، لأنها كانت تسكن بلاد الحجاز التي كانت محط رحال الحجاج والتجار . فكان يجتمع فيها أكثر أشراف العرب والشعراء والخطباء ، من الرجال والنساء للمفاخرة بالشعر والخطب ، فى الحسب والنسب والفصاحة وغير ذلك . فأخذت قريش المستعذب من لهجات العرب حتى لطفت لهجتهم ، وجاد اسلوبهم ، واتسعت لغتهم لأن ينزل بها خير الكلام . وكان طبيعياً أن ينزل القرآن بلغة قريش لأنها خلاصة اللغة العربية . ولأن الرسول « ص » قرشي . وليكون هذا الكلام زعيم اللهجات كلها ، فقد امتازت قريش بكثير من خصائص الزعامة ، وأقر لهم العرب بذلك ، فأولى لهم أن يقروا مثل ذلك في كلام الله تعالى .

٢ — لو نزل القرآن بغير لغة قريش التي ألفها النبي «ص» ما كانت تستقيم الموازنة بين أساليب القرآن وكلام النبي «ص» . ولكان ذلك مدعاةً الى أن قبائل العرب تجد كل واحدة منها مذهباً للقول فيه فتذنشق الكلمة .

٣ — ائتلفت لغة القرآن الكريم على وجه يستطيع العرب أن يقرؤه بلحونهم مع بقائه على فصاحته ـ في الوضع التركيبي ـ وتلك سياسة لغوية جمعت العرب على منطق واحد ليكونوا جماعة واحدة .

٤ — من أجل ذلك كان للقرآن الكريم الأثر البيّن فى توحيد اللغة

ونشرها، وترتيبها من حيث أغراضها وألفاظها وأساليبها، وفوق ذلك ضمن لها حياة طيبة وعمراً طويلا .

٥ — قد جمع القرآن العرب على لغة واحدة ـ بما استجمع فيها من محاسن هذه اللغة ، فأصبح عندهم مثلا كاملا ، ومن شأن المثل الكامل أن يجتمع عليه طالبوه ، مهما فرقت بينهم الأسباب المتباينة . وقد كانوا قبل ذلك تتوهم كل قبيلة منهم انها أسلم فطرة فى اللغة ، وأوضح مذهباً فى البيان ، لعدم وجود مقياس عام يرجعون اليه ولم يكن فى طوق انسان أن يقيس قدرة أقوام وعجزهم في أمر معنوي ـ كاللغة ـ إلا إذا كان بالغاً حد الكمال ، ولما كان الكمال لله وحده كان كلامه جل شأنه هو المثل الكامل .

٦ — لولا القرآن الكريم لما وجد على الأرض أحد يعرف كيف كانت تنطق العرب بألسنتها ، وكيف تقيم أحرفها وتحقق مخارجها . فتواتر أداء القرآن الكريم ـ حفظ لنا كيفية الأداء العربي .

٧ — ان الشعوب العربية ـ في مصر ، وسورية ، والعراق ، وبلادالمغرب وغيرها ـ يتكلمون باللغة العربية ، ولكن تختلف لغة كل شعب منهم عن لغات الآخرين اختلافا قليلا أو كثيراً بنسبة البعد بينهم ، والاختلاف في أحوالهم . ولولا القرآن لاستقلت لغة كل شعب ، حتى لم يعد الشعب الآخر يفهمها ـ كما حصل في فروع اللغة اللاتينية ، الفرنسية ، والاسبانية ، والطليانية ، وغيرها ، ولكن محافظة المتكلمين فى اللغة العربية على لغة القرآن والرجوع اليها ـ فيما يكتبون ويخطبون ـ جعل فى لغاتهم المولدة مرجعاً يجمع لغاتهم الى أصل واحد .

٤ ـ أثره في الاحوال الاجتماعية

جاء القرآن والعرب قد وقعت بينهم الفرقة وتشتتت الالفة . واختلفت كلمتهم ، واضطربت أحوالهم . فكانوا اخوان دبر ووبر ، أذل الامم داراً ، وأجدبهم قراراً . لا يأوون إلى جناح دعوة يعتصمون بها . ولا إلى ظل إلفة يعتمدون على عزها . فأحوالهم مضطربة وأيديهم مختلفة . وكانوا فى بلاء عظيم : من جهل مطبق ، وبنات موؤدة وأصنام معبودة ، وأرحام مقطوعة ، وغارات مشنونة . فلما استضاؤا بنور القرآن الكريم اجتمعت أملاؤهم ، واتفقت أهواؤهم ، واعتدلت قلوبهم ، وترادفت أيديهم ، وتناصرت سيوفهم ، وعقد بملته طاعتهم ، وجمع على دعوته إلفتهم ، وأصبحوا ينعمون فى ظل سلطان قاهر ثابت . وصاروا حكاماً على العالمين ، وملوكا فى أطراف الأرضين ، قد ملكوا الامور على من كان يملكها عليهم ، وأمضوا الأحكام فيمن كان يمضيها فيهم .

جاء القرآن وقد تمكنت من العرب عصبية الجاهلية . فما عدا أن سفّه أحلامهم ، ونكّس أصنامهم ، وذهب بجلّ ما ألفوه ، حتى كأنما خلقهم خلقاً جديداً ، وكأنهم على آدابه نشأوا وهم أغفال وأحداث ، بل كأنهم كانوا سلالة أجيال كان القرآن فى أوليّتهم المتقادمة . وكانوا هم الوارثين لا الموروثين مصداقا للحديث الشريف : (خير القرون قرني ثم الذين يلونهم) الحديث .

كان من أثره فيهم أن أذهبَ عنهم العصبية الممقوتة ، وأحل محلها

التعصب لمكارم الخصال ، ومحامد الأفعال ، ومحاسن الامور ، وخلال الحمد من من الحفظ للجوار والوفاء بالذمام ، والطاعة للبر والمعصية للكبر ، والأخذ بالفضل ، والكف عن البغي ، والاعظام للقتل ، والانصاف للخلق ، والكظم للغيظ ، واجتناب الفساد فى الأرض .

لهذا كله انعقدت عليه قلوبهم ـ وهم يجهدون في نقضها ، واستقاموا لدعوته وهم يبالغون في رفضها . فكانوا يفرون منه في كل وجه ، ثم لا ينتهون إلا اليه . ذلك بأنه قد جاءهم بما لا قِبلَ لهم به مما يشبه أساليب الاستهواء ـ في علم النفس . فغلب على طباعهم وحال بينهم وبين قديمهم .

ولعمري لو كان القرآن غير فصيح أو كانت فصاحته غير معجزة في أساليبها ـ التي أُلقيت اليهم ـ لخلا منه موضعه الذي هو فيه . وكان سبيله بينهم سبيل القصائد والخطب والأقاصيص . ولنقضوه كلمة كلمة ، وآية آية ، دون أن تتخاذل أرواحهم ، أو تتراجع طباعهم .

بيّن القرآن لهم : ان الطبيعة مسخرة لهم ، فعليهم كشف ما فيها . واستخراج أسرارها ﴿ قل انظروا ماذا في السموات والأرض ، وكأيّن من آية في السموات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون ، والأرض مددناها وألقينا فيها رواسي وأنبتنا فيها من كل شيء موزون وأرسلنا الرياح لواقح فأنزلنا من السماء ماءً فأسقيناكموه وما أنتم له بخازنين ﴾ .

نادى فيهم القرآن الكريم ان النبي (ص) ابن يومه وعقله ، فلا هو مفاخر ، ولا واهم ولا شاعر . وخاطبهم بالآية الكريمة ـ التي هي روح الثبات في امم العلم والعمل ـ ﴿ وإن كذبوك فقل لي عملي ولكم عملكم أنتم بريئون مما أعمل وأنا بريء مما تعملون ﴾ .

قد وصل العرب قبل نزول القرآن الكريم إلى هاوية الانحلال الاجتماعي — بما لم يعد له مثيل في تأريخ الامم — فكانوا فى جهل مطبق بأحكام الدين الصحيح ، ومبادىء السياسة والحياة الاجتماعية . ولم يكن لهم فن يذكر أو صناعة تنشر ، ولم يكونوا يعرفون شيئاً من العلاقات الدولية . وكانت كل قبيلة امة قائمة بنفسها ، تتحفز لشن الغارة على جارتها . فما لبثوا أن جاءهم الكتاب الكريم حتى خالطت أحكامه قلوبهم ، وايقظت أرواحهم ، وجعلتهم يتلمسون الحق ، وتصبو نفوسهم إلى رفع مناره . ونشره فى أطراف الأرضين .

قد بلغوا في العبادة مبلغاً بذّوا به أهل البرهنة والتنسك ، وصاروا اولي قوة في دين ، وحزم في لين ، وإيمان في يقين ، وحرص في علم ، وعلم في حلم ، وقصد في غنى ، وخشوع فى عبادة ، وتجمل في فاقة ، وصبر في شدة وطلب في حلال ، ونشاط في هدى ، وتحرج عن طمع . ومع بلوغهم هذه الدرجة الروحية العالية لم يهجروا الدنيا وشؤنها ، بل عملوا لها بصدق واخلاص ، فأبدلهم الله العز مكان الذل ، والأمن مكان الخوف . فصاروا ملوكا حكاما وأئمة أعلاما

وان تعجب فعجب أن يتم ذلك المجد العظيم للعرب في أقل من مائةسنة !! وفي هذا برهان قاطع على أن أحكام القرآن خير طريق إلى تنمية الملكات الانسانية ، واعدادها لكسب الحياتين الدنيوية والروحية . فقد جعل الامة العربية تضع أعناقها للحق الذي لم تألفه حقاً . وان تعطيه — مع ذلك — محض ضمائرها ، وتسلم له في تاريخها وعاداتها .

ان نظرة بامعان فيما جاء به القرآن الكريم من الآيات البينات — تدل على انه ليس هناك في الانسان من نقص إلا والقرآن كفيل باصلاحه . فهو طبيب الانسانية . وليس أحذق الأطباء من يدّعي هذه الصفة لنفسه فحسب ، بل من

يستطيع مداواة أعظم الأدواء في اكثر الحالات . وكذلك فعل القرآن ، فقد بلغ من أثره في العرب انه حوّل طباعهم . وغيّر أخلاقهم ، فلم يشهد التاريخ جيلا اجتماعيًا مثل الجيل الأول في صدر الاسلام ـ حين كان القرآن هو المنار الذي يهتدى به ، ولم تستطع الفلسفة ـ على اختلاف ضروبها في أي عصر من العصور ، أن تنشىء جيلا من الناس كالذي أخرجه القرآن الـكريم . فكانوا مثلا حسنًا في علوّ النفس ، وصفاء الطبع ، ورقة الجانب ، ورجاحة اليقين ، وطهارة الخلق ، وشدة الأمانة . وإقامة العدل ، والخضوع للحق ، وما ماثل ذلك من امهات الفضائل .

محمد اعظم مصلح ظهر

اما وقد بان ان الكتاب الكريم أحدث أوفر قسط من الاصلاح في أقصر زمن عرفه التاريخ ، فلا بدع أن كان الذي نزل عليه ذلك الكتاب أعظم مصلح . واليك البيان :

١ — اقتضت حكمة الله تعالى أن يرسل إلى كل أُمة ـ آنًا بعد آن ـ هاديًا يرشدهم ويصلح حالهم . فيدوم النور الذي جاء به زمنًا ثم يخبو قليلا قليلا ، حتى إذا كاد ينطفىء أنقذ الله هذه الامة برسول بعده يجدد لها الهداية .

وقد توالت الدهور والاحقاب والامم منفصلة بعضها عن بعض ، زاعمة — كل واحدة — ان العالم كله فيها ، وانها أفضل من سواها ، لأن الله تعالى

خصها بالرسالة والهداية . فنجم عن ذلك القول بان الله — تعالى عما يقولون علواً كبيرا — حابى بعض الامم وخصها بمزايا لم يمنحها غيرها .

من اجل ذلك أرادت الحكمة الالآهية ان تقضي على ماخالج نفوس بعض الامم من انها افضل من غيرها جنساً ، وخلالا ودينًا ، وان تجعل من الانسان جسما واحداً فمن الله تعالى على الخلق جميعهم برسول عام ، معه رسالة عامة . وهكذا كانت رسالته (ص) عامة لا يخصصها زمان ولا مكان ﴿ وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين ، وما ارسلناك إلا كافة للناس بشيراً ونذيرا ﴾ .

كان مثل من سبقه من النبيين صلوات الله عليهم اجمعين — مثل المصابيح كل منها وضع في حجرة لا يضيء سواها . فلما ظهرت شمس الرحمة من البلاد العربية لم يبق هناك من حاجة الى هذه المصابيح المحدودة المدى ، وليس فى مقدور أي نور آخر ان يخلف هذه الشمس .

بعث كل رسول ممن تقدموا على المصطفى (ص) لتهذيب افراد امته ، وجعلهم صالحين لتكوين امة متجانسة . ولعمري هذا عمل جليل ، غير ان محمداً « ص » — وهو خير المرسلين — أُرسل ليجمع هذه الامم ويجعلها امة واحدة متكافئة ، مرتبطة برابطة الاخاء . جاء كل رسول لتقويم خلق معين في امته فكانت حياته اسوة للخلق الذي ارسل لتقويمه .

اما محمد « ص » فقد جاء لتنمية الفطرة الانسانية جميعها ، واستخدام ملكاتها ، وتقويم غرائزها ، وكانت حياته العملية « ص » ملأى بالمثل الصالحة الكفيلة بتقويم اخلاق بني الانسان جميعها ، ولذلك كان مثلا كاملا للانسانية . اجتمعت فيه الفضائل التي كانت فى انبياء بني اسرائيل وغيرهم . تجمعت فيه شجاعة موسى ، وشفقة هارون ، وصبر ايوب ، واقدام داود ، وعظمة سليمان ،

وبساطة يحيي ، ورحمة عيسى ، عليهم جميعاً الصلاة والسلام .

٢ — إن كانت العظمة تتحقق باصلاح امة قد وصلت الى غاية الانحلال الاجتماعي ـ فليس هناك من يباري محمداً « ص » في أنه انقذ الأمة العربية من هاوية الدمار ، وجعلها مصابيح الحضارة والعرفان .

وإن كانت العظمة تتحقق بجمع شمل كل امة ـ قد تأصلت فيها الفرقة وتمكنت منها العداوة والبغضاء ـ فمن يجاري محمداً « ص » في انه جمعهم تحت ظل الاسلام اخواناً متساندين ؟ ﴿ واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم اعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته اخوانا وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها ﴾ .

كان مثل العرب فى تفرقهم كمثل رمال بلادهم فلائم الاسلام بينها ، وجعلها من القوة بحيث لا تؤثر فيها الزلازل العنيفة .

وان كانت العظمة تتحقق باقامة ملك الله فى الأرض ـ فمن يطمح الى منافسة محمد « ص » في انه نكس الاصنام ، وأبطل عبادة الاوثان ، وطهر الجزيرة العربية من الشرك ، وملأ القلوب بالتوحيد والنور ؟

وان كانت العظمة تتحقق بحسن الاخلاق ـ فمن ذا الذي ينكر على محمد « ص » ان اعداءه واصدقاءه اجمعوا على تسميته بالأمين ؟

وان كانت العظمة تتحقق بالفتح وبسط الملك ـ فالتاريخ أصدق شاهد على ان احداً غيره لم يبلغ مبلغه « ص » فقد نشأ يتيماً لا قوة له ، ثم صار فاتحاً عظيماً ، اسس اعظم دولة لبثت ترد مكايد الاعداء اكثر من ثلاثة عشر قرناً .

وان كانت العظمة تتحقق بما لصاحبها من رفعة الاسم ، وانتشار الصيت ، فمن يجاري محمداً في ارتفاع اسمه الذي تحبه قلوب اربعمائة مليون من

الناس ، منتشرين في اطراف الارضين ، مرتبطين برابطة الاخاء - مع اختلاف قوميتهم والوانهم والسنتهم - ؟

اثر القرآن في الاحوال الخلقية

لما كان المنزل هو المربي الأول - الذي يتعلم فيه الانسان الآداب الخلقية ويألفها - أوجب القرآن الكريم طاعة الوالدين ﴿ وقضى ربك ألاّ تعبدوا إلا إياه وبالوالدين احسانًا اما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما اف ولا تنهرهما وقل لهما قولا كريمًا ، واخفض لهما جناح الذل من الرحمة وقل ربّ ارحمهما كما ربياني صغيراً ﴾ .

ولم يرخص في عصيانهما الا إذا ارادا ان يحملاه على الاشراك بالله . ﴿ وإن جاهداك على أن تشرك بي ما ليس لك به علم فلاتطعهما وصاحبهما في الدنيا معروفًا ﴾ .

هذا الاحترام العظيم للوالدين هو الاساس الذي بنيت عليه فضيلة الطاعة لأولياء الامور . ﴿ يا ايها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول واولي الامر منكم ﴾ .

بنى القرآن الكريم الاخلاق على فضيلة واحدة وهي التقوى . وقد دل تصفح الآيات الكريمة التي وردت فيها هذه الكلمة وما اتصل بها من المشتقات ، على ان المراد منها أن يتقي الانسان كل ما كان فيه ضرر لنفسه ، أو اضرار

لغيره ، لتكون حدود المساواة قائمة في المجتمع الانساني ، لا تحصل فيها ثلمة ولا يطرأ عليها وهن .

﴿ يا ايها الناس إنا خلقناكم من ذكر وانثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن اكرمكم عند الله أتقاكم ﴾ .

وقد جاء في الحديث : (لا فضل لأحد على أحد إلا بالتقوى) والآية صريحة في ان الغاية الاجتماعية للناس ـ شعوباً وقبائل هي التعارف . وتلك كلمة لا تشذ عنها فضيلة من فضائل الاجتماع قاطبة ، ولا يمكن ان تدخل في مدلولها رذيلة اجتماعية .

وفي هذه الآية الكريمة اقام القرآن الأساس الخلقي العظيم ، فجعل أكرم الناس المتساوين ـ في الحالتين الفردية والاجتماعية ـ هو اتقاهم اي اعظمهم خلقاً ، لا أوفرهم مالا ، ولا أكثرهم رجالا ، ولا اثقبهم فكراً ، ولا اعظمهم علماء ولا شيئاً من ذلك مما لا يصح ان يكون سبباً للتفاضل ، الا في ادبار الدول واضطراب الاجتماع ، وفساد العمران . فالحقيقة ان التقوى هى الخلق الكامل.

ومن اجل ذلك كان العدل ـ فى رأي القرآن ـ أقرب شيء الى التقوى إذ يقول جل شأنه : ﴿ ولا يجرمنكم شنآن قوم على أن لا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى ﴾ .

وقد رد القرآن مظاهر التقوى إلى (ثلاثة اشياء) . الامر بالمعروف، والنهي عن المنكر ، والايمان بالله . وهذه الاشياء الثلاثة هي المبدأ والنهاية لكل قوانين الادب والاجتماع ، قال تعالى : ﴿ كنتم خير أمة أُخرجت للناس تأمرون بالمعروف ﴾ الا اذا توافر استقلال الادارة وقوتها . والمنكر هو ما ينكره العقل الصحيح . ولا يمكن النهي عن المنكر الا باستقلال الرأي وحريته .

والايمان بالله هو الاعتقاد بوجوده ووحدانيتـــه . ولا يتم ذلك الا اذا استقلت النفس من أسر العادات والاوهام ، بالنظر والفكر فى مصنوعات الله . وهذا هو الايمان الذي يبعث على الامر بالمعروف والنهي عن المنكر بثقة الآهية لا يعترضها شيء من عوارض الاجتماع ، التي تعتري الناس ، من ضعف الطباع الانسانية كالجبن ، والنفاق ، وايثار العاجلة وما اليها . فان هذه الصفات لاتتحقق مع صحة الايمان بل هي انواع من العبادة للقوي والمستبد ، وللشهوات والنزعات وما شابهها . وذلك لا يتفق والايمان الصحيح بالله .

ما تدبّر أحد القرآن إلا وجده يمنح كل انسان ارادة اجتماعية أساسهـا الحرية ﴿ وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر . فمن اهتدى فانما يهتدي لنفسه ومن ضل فانما يضل عليها وما أنا عليكم بوكيل ﴾ .

ولذلك لما اتخذه الجيل الاول ـ فى صدر الاسلام ـ مثالا لهم واتخذوا آدابه الخلقية شعاراً لهم حقق لهم هذه الارادة الاجتماعية . ولو أن العلوم كلها والفلسفة واهلها كانت لاولئك العرب مكان القرآن ، ما اغنت عنه شيئاً لان الفضيلة العقلية ـ التي اساسها العلم ـ لا توصل حتماً الى الارادة العملية .

اما الفضيلة الخلقية ـ التي جاء بها القرآن ـ فانها تسوق إلى الارادة العملية، لأن هذه الارادة مظهرها ، ولا سبيل لظهورها غير العمل . ومتى صحت ارادة الفرد واستقامت له وجهته في الجماعة فقد ـــــصار بنفسه جزءً من عمل الامة . والامة التي تتألف ـ من مثل هذا الفرد ـ تشغل مكانة سامية فى تاريخ الاجتماع .

والمتأمل فى القرآن الكريم يرى : أن جميع آدابه وعظاته ترمي الى بث الروح الاجتماعية فى نفوس أهله . فكانت هذه الروح هي السبب الاول فى انتشاره ، حتى بين أعدائه الذين أرادوا استئصاله ، كالتتار ، والمغول ،

وغيرهم ، ممن اشتدوا عليه ليخذلوه ، فكانوا بعد ذلك من اشد أهله فى نصرته والغضب له .

ليس للقرآن طرائق للدعوة اليه الا الاسوة . ﴿ لقد كان لكم فى رسول الله اسوة حسنة ﴾ فالاسوة أو القدوة مظهر آدابه . ولذلك كان كلما وجدت طائفة من أهله وجدت الدعوة اليه وان لم ينتحلوا و يعملوا لها . وما استحث أحداً بالعطايا لانه الدين الطبيعي للانسان ، تأخذ فيه النفس عن النفس بلا واسطة ولا حيلة فى الوساطة . وما افصح ما ورد فى صفة القرآن من قول الرسول « ص » : (فيه نبأ ما قبلكم ، وخبر ما بعدكم ، وحكم ما بينكم ، وهو الفصل ليس بالهزل) .

اثره فى الحال العلمية

من يدرس تاريخ العلم الحديث لا يسعه إلا أن يستنبط ان القرآن الكريم : كان أصل النهضة الاسلامية . وان النهضة الاسلامية هى التي لها الفضل فى حفظ علوم الاولين ، وتهذيبها وتصفيتها ، وهي التي أوسعت المجال العقل ، يبحث و يناظر و يستدل .

و بذلك كانت هذه النهضة أساس التاريخ العلمي في اوروبا .

انفرد القرآن بأنه هو الذي حرر العقول البشرية من أصفاد الجمود والرق وحفز النفوس البشرية وساقها إلى قراءة صحف الكائنات ، وتدبر ما فيها ، من الصنع البديع .

القرآن هو الذي ساق النفوس إلى تقصي غوامض الكائنات ، والتنقيب عن دفائنها ، وبيّن لهم انهم لم يؤتوا من العلم إلا قليلا . ﴿ وما أُوتيتم من العلم إلا قليلا ﴾ ثم دلهم على مواطن التفكير والبحث وبين للناس بضرب الامثال فيم يفكرون فقال جل شأنه : ﴿ ومن كل شيء خلقنا زوجين ، سبحان الذي خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ومن أنفسهم ومما لا يعلمون . وجعلنا من الماء كل شيء حي . الله الذي خلق سبع سموات ومن الأرض مثلهن . كل في فلك يسبحون . ولقد خلقنا فوقكم سبع طرائق . تبارك الذي جعل في السماء بروجاً وجعل فيها سراجاً وقمراً منيرا . ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر . يوم تشقق السماء بالغمام . ألم نجعل الأرض مهادا والجبال أوتادا . والأرض مددناها والقينا فيها رواسي وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج ﴾ .

القرآن هو الذى اعد العقول لفهم الفلسفة الاغريقية ، ودراسة العلوم الكونية . فتصافى العلم والقرآن بضعة قرون لم يقع بينهما نفور ولا مشادة فقد كرم العلم ونوّه بالعقل ، وذم الذين يعطلون عقولهم ويتبعون أهواءهم إذ يقول في شأنهم :

﴿ لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها اولئك كالانعام بل هم أضل أُولئك هم الغافلون . إن شر الدواب عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون . ومنهم من ينظر اليك أفأنت تهدي العمي ولو كانوا لا يبصرون . ولا تقف ماليس لك به علم ان السمع والبصر والفؤاد كل اولئك كان عنه مسئولا . قال ياقوم أرأيتم ان كنت على بينة من ربي وآتاني رحمة من عنده فعمّيت عليكم أنلزمكموها وأنتم لها كارهون . نحن أعلم بما يقولون وما أنت عليهم بجبار . فذكّر بالقرآن من يخاف وعيد . ان عليك إلا البلاغ .

قد بينا الآيات لقوم يعقلون . لا اكراه في الدين . إنما أنت مذكر لست عليهم بمسيطر ﴾ .

القرآن هو الباب الذي خرج منه العقل الانساني الكامل — بعد أن كان طفلا ، فقد هداه الى النظر والاعتبار والاستنباط إذ يقول :

﴿ إن في خلق السموات والارض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب . الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ويتفكرون فى خلق السموات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك فقنا عذاب النار . وفى خلقكم وما يبث من دابة آيات لقوم يوقنون . واختلاف الليل والنهار وما أنزل الله من السماء من رزق فاحيا به الأرض بعد موتها وتصريف الرياح آيات لقوم يعقلون . أولم ينظروا فى ملكوت السموات والارض وما خلق الله من شيء وان عسى أن يكون قد اقترب أجلهم فبأي حديث بعده يؤمنون . وما من دابة فى الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا امم أمثالكم » .

كانت هذه الآيات واشباهها سبباً فى اطلاق الحرية العلمية للعقول البشرية فلما اقتبست منها اوروبا نهضت ، واصبحت تسوس العالم وترشده الى ما فيه صلاحه .

القرآن هوالذي أوجد العدد الجم من أعاظم المؤلفين . فى العلوم الشرعية والرياضية ، والطبيعية . والفلكية ، وغيرها . ذلك بان العلماء لما نظروا فيه تشعبت طرق تفكيرهم . فمنهم قوم عنوا بضبط لهجاته وتحرير كلماته . ومعرفة مخارج حروفه وهؤلاء هم علماء القراءة .

وقوم عنوا بالمعرب والمبني وما الى ذلك وهؤلاء هم علماء النحو .

وقوم شغفوا بما فيه من الأدلة العقلية ، وهؤلاء هم علماء الكلام .

وتأملت طائفة منهم معاني خطابه فرأت منها ما يقتضي العموم ومنها ما يقتضي الخصوص ، ومنها ما هو مطلق ، ومنها ما هو مقيد ، ومنها ما هو مجمل ، إلى غير ذلك . وهؤلاء هم علماء الاصول .

وتلمست طائفة مافيه من قصص القرون السالفة ، والامم الخالية . وهؤلاء هم أهل التاريخ والقصص .

وتنبه آخرون لما فيه من الحكم ، والأمثال والمواعظ ، وهؤلاء هم الخطباء والوعاظ .

وأخذ قوم علم الفرائض وحسابه من آيات المواريث .

ونظر قوم إلى ما فيه من الآيات الدالة على الحكم الباهرة ، فى الليل والنهار ، والشمس والقمر ، والنجوم . وهؤلاء هم علماء الميقات .

من هذا يتبين ان القرآن ـ الذي نزل في البادية على امي وقوم أُميين لم يكن لهم إلا ألسنتهم وقلوبهم ، وكانت فنون القول التي يذهبون فيها مذاهبهم لاتتجاوز ضروبا من الصفات ، وأنواعا من الحكم ـ مكّن العلماء من أن يخرجوا من كل معنى علماً برأسه ، وعلى ممر السنين أخرجوا من كل علم فرعاً ، حتى وصلت العلوم إلى ماوصلت اليه في الحضارة الاسلامية ، التي أنجبت الحضارة الحديثة

كفاك بالعلم في الاميّ معجزة   فى الجاهلية والتأديب فى اليتم

لايزال الباحثون في القرآن الكريم يستخرجون منه مايشير إلى مستحدثات الاختراع ، وما يحقق بعض غوامض العلوم . فمن ذلك قوله تعالى : ﴿ أو لم يرَ الذين كفروا أن السموات والأرض كانتا رتقاً ففتقناهما ﴾ .

مما يؤيد ما حققه العلماء من ان الأرض انفتقت من النظام الشمسي .

وقوله تعالى : ﴿ وألقى في الأرض رواسي أن تميد بكم ﴾ .

مما يدل ـ كما أثبته العلماء ـ على انه لولا الجبال لمادت الأرض ببحارها ، واضطربت بأمواجها ، ولما طاب للانسان بها مستقر . وقوله تعالى : ﴿ وجعل الشمس سراجاً ـ وجعلنا سراجاً وهاجا ﴾ .

مما يؤيد ما حققه العلم من ان الشمس جسم مشتعل ، تبث النور والنار من ذاتها ، وترسلها إلى سياراتها المرتبطة بها .

وقوله تعالى : ﴿ يا معشر الجن والانس إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السموات والأرض فانفذوا لاتنفذون إلا بسلطان ﴾ .

مما يشير إلى حدوث الطيران ، وانه سيكون منه نصيب للانسان .

وقصارى القول : ان العقل هو القائم على فهم القرآن ، واستنباط ما فيه من الأسرار ، على اختلاف الأحقاب والدهور ، لأن الذي جاء بهذا القرآن كان آخر الأنبياء من الناس . ولا حاجة بالكمال الانساني لغير العقول ، ينبه بعضها بعضاً . ولذلك يقول الله تعالى : ﴿ سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم انه الحق أولم يكف بربك انه على كل شيء شهيد ﴾ .

فلو محصت جميع العلوم الانسانية ما خرجت في معانيها من قوله تعالى : ﴿ في الآفاق وفى أنفسهم ﴾ وكلما تقدم النظر وتوفرت طرائق البحث ظهرت حقائق الكائنات ناصعة ، وتجلت الاشارات التي انبثت في ثنيات القرآن . والله غالب على أمره ولكن اكثر الناس لا يعلمون .

فوق أثباج القرآن

« سورة يوسف أجمع السور معارفاً »

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ الر تلك آيات الكتاب المبين ، إنا أنزلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا اليك هذا القرآن وإن كنت من قبله لمن الغافلين ﴾ .

نبيّن لك أحسن البيان ، لأنه جاء على أبدع الأساليب ، وأحسن الذي يقص لما فيه من العجائب والحكم والآيات ، والفوائد النافعة في الدنيا ، كسير الملوك والمماليك ، وحسن السياسة وتدبير الملك ، وإقامة العدل ونظام الدولة ، ومكر النساء ، والاصطبار على الاذى ، والعفو والتجاوز عن هفوات الاقارب .

هذا الوجود أسباب ومسببات ، ونتائج ومقدمات ، سواء في ذلك العناصر والمركبات ، والعلوم والديانات . ومنها القرآن فلقد انزل للاعتبار ، وقرىء للادّكار ، واكثر المسلمين لا يقرؤنه إلا وهم غافلون ، ولا يسمعونه إلا وهم لاهون ، لا يعلمون إلا ظاهراً من الامر والنهي ، والوعد والوعيد ، والعظة والمثل وهم عن عجائب القصص معرضون .

في القرآن قصص تسرد وقايع الانبياء ، وفضائل الاولياء ، وعجائب أعمالهم وغرائب أحوالهم . لنقيس المشاهد المنظور على الغائب المستور ، والحاضر الظاهر على الغائب الفائت .

غفل الناس عن ذلك كله أيما غفلة ، وناموا على وساد الراحة ومهاد الغفلة حتى أصبح المسلمون في أنحاء المعمورة يمتازون بأنهم مسبوقون فى المدنية والعمران جاهلون بالمنافع المادية والمعنوية . خاضعون للظالمين ، مقلدون . والمقلد جاهل ، والجاهل غافل . والغافلون هم الهالكون .

ما عذّب المسلمين ولا أزاحهم عن مكانهم السامي ـ الذي خوله الله لهم من الشرف العميم والفضل العظيم ـ إلا القصاصون المخرفون . وأدعياء العلم ، « وما أكثرهم » وهم ضالون مضلون ، بما يفترونه على الله عز وجل باسم الدين ، والدين بريء مما يقولون . فعلى قادة الامة الاسلامية أن يدخلوا البيت من بابه ، ويدعوا المسلمين للعلم بطريق الدين ، كما أُخرجوا منه بطريق الدين .

ان في هذه السورة لحكمًا وعبراً وعلوماً ـ لو كشف عنها الغطاء وأدرك المسلمون سرها لكانوا أرقى العالمين فى الدنيا والدين .

ان فيها لسياسة المنزل ، وسياسة الشخص ، وسياسة المدنية . سياسات ثلاث انتظمتها سورة يوسف . ففيها نصف علم الحكمة . وهي الحكمة العملية الداعية لسعادة الاشخاص ولسعادة المنزل ولسعادة المدن .

لو أدرك المسلمون هذه العجائب من الاسرار والحكم لما أغمضوا الجفون ، ولنأت جنوبهم عن مضاجع الكسل ، ولربؤا بأنفسهم أن ترعى مع الهمل وما استبدلوا الذي هو أدنى بالذي هو خير .

ان الناس يترنمون بهذه السورة ويطربون لألفاظها ، ولم يدركوا شيئًا من

أسرارها العالية !! ألا إنما مثلهم اليوم ـ في ترنمهم بها وإقبالهم عليها وغرامهم بها ـ كمثل اولئك الذين يدّعون انهم يعلمون الغيب بالخط في الرمل ، وما لهم بالغيب من علم ، وإنما هي الفطرة الانسانية ، والحكمة الربانية أكبتهم عليه وإن كانوا لا يشعرون . كأن الحكمة الالآهية تقول لاولئك الجاهلين : ياأيها الناس ان في الرمل لعلوماً ستدركونها وأسراراً ستعلمونها ، ثم صنع منه المنظار المعظم والمقرب فكشف أدق الدقائق في الحيوان والنبات ، وظهرت للعين بعض النجوم الثوابت وسائر السيارات ؟

فهكذا في سورة يوسف الاشارة لعلوم الأخلاق ، ولنظام المدن . فأغرم الناس بها واكثرهم لا يعلمون من مقاصدها إلا ما يعلم الدجالون من عجائب الرمل ، ومثلهم أيضاً ـ في غرامهم بها ـ كمثل ذلك الذي يدعي انه يعلم علم جابر ابن حيان ، ويستخرج الذهب والفضة بالكيمياء وما له بذلك من علم ، إن يتبع إلا الظن . ولكن الله تعالى أودع ذلك في قلوب طائفة من عباده ، توارثوه أجيالا حتى أتاح الله للناس مَن فهموا الرمز ، وقاموا بالأمر ، وشرحوا علم الكيمياء ، ونقلوه من الظلمة إلى النور . ورفع المدينة ، ورقي الزراعة والصناعة والتجارة ، ودخل في سائر أبواب الحياة . فأصبحت الارض كلها تنبت ما هو أنفع من الذهب وسائر المعادن كل هذا بالكيمياء .

فهكذا فلتكن هذه القصة الشريفة التي يسمعها الناس ، واكثرهم لا يعلمون إلا حديث الحب والود . فأشبهوا ذلك الرّمال ومدعي الكيمياء وهما لا يعلمان .

في هذه السورة خمس عبر : ١ ـ رؤيا يوسف . ٢ ـ أذى اخوته . ٣ ـ قصته في بيت العزيز . ٤ ـ قضيته في السجن . ٥ ـ تنظيمه للخزائن المصرية .

١ — الرؤيا :

اذا كان الحب والنوى ينبتان نجماً وشجراً فالنتيجة حب ونوى وما كان فكراً أولا فهو عمل آخراً هكذا كان اول حياته . ثم أن رأى احدعشر كوكبًا والشمس والقمر له ساجدين وعليها أقيمت حياته وتنوعت أطوارها وبالسجود له والأعظام ختم تاريخ حياته ﴿ وخروا له سجداً وقال ياأبت هذا تأويل رؤياي من قبل قد جعلها ربي حقاً ﴾ فاول الفكر آخر العمل .

ان للنفوس الأنسانية خصائص تبدو علاماتها لذوي الفراسة . ويختلج فيها من ابان الصبا ماخصص له أستعدادها ، ويبرز في افعالها وأقوالها . وتمثلها وتقليدها وأحلامها وان امتاز عليه السلام بالنبوة والرسالة والفضيلة . وصورت له الاجسام الأرضية بصورة الاجرام السماوية والمركبات العنصرية المظلمة ذوات الأنفس الشريفة ، بالكواكب المضيئة صوراً بديعة وآيات عجيبة ، الا ان لكل رؤيا تناسبه وأحلاماً توافقه ، وطالما دلت الرؤيا ذوي الفراسة على أخلاق الرائين . وافادت السامعين أنباء عقول القائلين ، فلكل امرىء مناهج يسلكها . ومطالب يرصدها ومقاصد يؤمها . لذلك رأى النبي « ص » النجوم وجمالها والسجود والخضوع . ورأى الملك المصري سبع بقرات سمان خرجن من نهر يابس ، وسبع بقرات عجاف مهزولات ضعيفات ، فابتلعت العجاف السمان . ورأى سبع سنبلات خضر قد انعقد حبها ، وسبعاً أُخر يابسات قد استحصدت وأدركت . فالتوت اليابسات على الخضر فامتصت ماءهن وتركتهن يابسات . ولم يبد على البقرات الآكلات سمات السمن ، ولا على السنبلات اليابسات آيات النضرة ومظاهر الحياة . فاضطرب الملك بسببه ، لأن فطرته قد شهدت بأن استيلاء الضعيف على القوي

منذر بنوع من انواع الشــر ، الا انه لم يعرف تفصيله فجمع الكهنة والمعبرين وقال : ﴿ ياأيها الملأ افتونى في رؤياي ان كنتم للرؤيا تعبرون . . . ﴾

رؤيا النبي ثم جمال النجوم وسجود الساجدين ورؤيا الملك سنبلات و بقرات ذلك عجب عجاب .

بعث الأنبياء للعبادة والتفكير فى الجمال ، وخلق الملوك لعظام الممالك وحفظ البلاد والعباد من الخراب والدمار .

فالسجود من جنس العبادة وأن لم يكن في هذا من عبادة ولكنه تكريم والنجوم جمال . والجمال السماوي والبهاء الكونى مصدر التفكير والتعليم . إلا أن فى اشراق الكواكب والشمس والقمر في نفس الصديق يوسف في صباه لعجباً عجيباً . ودلالة على عفته عند الحرمات ، وتعليما لطبقات الناس وحفظاً للمــال أن يضيع ، والناس أن يموتوا . كل ذلك مقتضى النفوس الجميلة التي ذرأها الله سحابًا ماطراً . وشمساً تضيء وقمراً ذا سناء .

ألا وان الشمس لتشرق والناس لايشكرونها . والقمر ليطلع ـ وإن كفر به الناس . والله خالق ورازق ـ وإن كفر نعمته العالمون .

هكذا الصدّيق النبي تجلى للناس ، وتجلت له تلك الصور الجميلة . فبرزت بعـــد ذلك منه آثار واضحة ، من العفة ، والصبر ، والعطف على المصريين ، وتعليمهم وتنظيم ثروتهم ، وثمرات نيلهم ، ولأهله وعشيرته صفح جميــل ، وبر وصلة وعطف ـ وإن كانوا له حاسـدين ـ . فـكان الاحسان لنفسه سجية ، والجميل بقلبه طريقة . فأحسن للمسيئين من أهله والناس ـ فكلاهما آذاه ، وكلاهما نال الخير منه بعد أذاه . فهذا أوله وهذا منتهاه .

فأما الملوك فما أحراهم أن يعكفوا على نظام الجمهور ، وحفظ الثغور ،

والسهر على المصالح العامة . وأهم المطالب الاجتماعية في الامم المتمدنة أربع :
الامارة ، الزراعة ، التجارة ، الصناعة .

ولما كانت الزراعة من أهمها وضعاً ، وأعمها نفعاً ، وأشرفها صنعاً - روّع قلب الملك بيابس سنبلاتها ، وعجاف بقراتها ، مما دل على اهتمام الملك بالرعية وحبه للأمة . وليست تتصور النفس في المنام إلا ما اهتمت به في الغالب أجل اهتمام .

٢ — أذى اخوته :

لا أحد من الناس يجهل ما فعله اخوة يوسف من كيد ، وما دبروا من حيلة ، وكيف نصبوا له الحبائل وجاؤا على قميصه بدم كذب ، وسولت لهم أنفسهم أمراً ، ودلوه في البئر . ثم باعوه بثمن بخس دراهم معدودة وكانوا فيه من الزاهدين

أجمعوا أمرهم بينهم وأسروا النجوى ، وأوثقوه في هاوية . فما كان عاقبته إلا أن تربّى وترعرع وبلغ أشده وكان لهم من المحسنين .

هذه كانت قصة يوسف «ع» وذاك خبر اخوته . فكان منهم الاساءة ومنه الاحسان ، ومنهم الشر ومنه الخير . وأول أمره شقاء وآخره هناء . ومبدؤه ذل ونهايته عز واسعاد . ذلك عبرة للمسلمين وتذكرة لهم .

تنبؤك قصة يوسف بما يلاقيه المصلحون من الجاهلين . مافي الأرض من مصلح إلا وكان أول أمره طارداً منبوذاً ، تنتابه الأعداء ويسطو عليه الأقرباء ويحط من قدره الأصدقاء ويهينه الأولياء . استغراباً لقوله واستبعاداً لعمله ، وحطاً من شأنه . وحسداً على ماآتاه الله من فضله ، وإحباطاً لعمله ، وتشنيعاً عليه فان صبر فاز . وإن جزع هلك وباد .

موقف المصلح من الامة

يعلم قرّاء « الجواهر الروحية » : ان وظيفة الاصلاح وظيفة مقدسة لدى جميع الامم . وفي عامة العصور . ولها المكانة السامية والمقام الرفيع ، لما ينجم منها من تطور في الأفكار . وتثقيف في الأذهان . وما يحتاجونه من معرفة أحكام دينهم . وما تنطوي عليه الشريعة من الأسرار والحكم البليغة . لذا كان من الضروري أن يشغل هذا المنصف صفوة الامة ، وخلاصة رجالها . ولقد كان رسول الله «ص» هو القائم بنفسه في الاصلاح ، بحيث لم يُنب عنه أحداً في حياته ، حتى التحق بالرفيق الأعلى . وهذا هو السر في أن الشعوب تفخر برجال إصلاحها . وتحفظ لهم كرامة تليق بهذا المنصب الجليل .

فالمصلح هو محور الأُمة وعليه قوام نظامها ومدار سير اعتدالها . قد أحضر مراهمه ، وأحمى مواسمه . عرف المرضى والمزاج فهيأ العدة والعلاج . وعلى هذا يعجبني من المصلح أن يكون متصفاً بصفات ثلاثة :

١ — أن يكون من العلماء بالله وبدينه .

٢ — أن يكون عارفا بزمانه .

٣ — أن يكون ذا بيان قوي .

فانه اذا كان عالماً بالله عز وجل كان من أهل الخشية له سبحانه . ومعروف ان هذه الخشية تلزم الجادة . وما أحلى رجل الاصلاح ـ اذا كان مستقيما ـ فانه

يكون داعياً الى الله بحاله ومقاله ، واذا كان عالماً بدين الله عرف كيف يقود الناس الى مرضات ربهم . ينبو به علمه عن أن يدعو عباد الله الى معصية — يزعم أنها طلبته — أو ينفرهم عن طاعة — يظن أنها معصية . وما أجله اذا شرع في التكلم ولم يسمع الناس منه إلا الحق الصراح .

اما علمه بزمانه فبه يكون — مع الناس — كالطبيب الماهر يعرف من مريضه الداء فيصف له الدواء المناسب ، فيوشك أن يصبح وقد زايله المرض . وعاودته الصحة . وهذا الوصف هوخاصة المصلح الذي انعرّي عنه لم يكن له من الاصلاح إلا إسمه ، وهو بعيد عن حقيقته بعد الظلمة من النور . فانه إذا لم يعرف ما عليه الناس كان فى ناحية وهم في ناحية اخرى . ومن يتكلم مع قوم فى غير ما هم عليه كيف ينفعهم ؟

أما قوة البيان — فهو روح الاصلاح وقوامه . فان المصلح إذا كان عالماً بالله وبدينه ، ملماً بأحوال زمانه — ولكنه ألكن اللسان ، تمتام — كان لا قيمة لعلمه ، ولا لمبلغ يقظته وثقوب نظره . وما عسى أن يقول فى علمه وفى إحاطته بما عليه الناس — وهو إذا أراد أن ينطق كان لسانه كالجواد الشموس ، الذي يدفعه للامام فيرجع هو للوراء . ومثله لا ينفع الناس ، وإنما هو يمثّل فصول العجمة والعيّ ، ويدع سامعيه بعضهم في خجل ، وبعضهم في ضحك . وكيف ينفع مَن هذه حاله ؟ .

اما العالم البصير — إن كان قوي البيان — فهو حلية من حلي الدنيا ، وزينة من زينات الوجود ، وروضة للابصار ، ولذة للاسماع ، وغذاء بالغ النفع للارواح . كيف لا ، وهو إذا نطق كان كالبحر ينثر اللئالىء والجواهر على من حوله . فلا يسعهم إلا التسابق الى التقاط ماينثر ، يتدفق تدفقاً ويسيل سيلا . لا يهجم على

رذيلة إلا قضى عليها . ولا يعطف على فضيلة إلا أنعشها وأحياها وبالأخص إذا قام بين الجموع المتحاشدة التي لاتخلو من فطر مستقيمة ، واستعدادات طيبة . تتلقى النصيحة بالقبول . فتمد ـ يد المتاب ـ إلى ثياب الفسوق فتمزقها تمزيقاً ، وتبادر إلى لباس التقوى ـ الذي لا يتدنس ولا يبلى ولا تنظر العيون اليه إلا بكل إجلال . فتلزم لباسه لما به حياتها . قال رسول الله «ص» : (يا علي لئن يهدي الله على يديك رجلا واحداً خير لك مما طلعت عليه الشمس وغربت) .

مع ان الناس اليوم أعرضوا عن العلم الالآهي الذي لاتصلح النفوس إلا به . وإن شئت أن تعرف ذلك منهم فزاحمهم في مجالسهم ، ولا تتهيب أن تقول لهم : هذا حلال وهذا حرام . وانظر إلى أي حد يكون فرارهم منك !! إذاً لابد من حيلة يصل بها المصلح إلى إيصال إصلاحه اليهم ، لأن تركهم بذلك الاعراض الذي لايدانيه خطر . أيها العلماء ، أيها المصلحون في الاسلام تفاقم الأمر على أُمة الاسلام ، واشتد كابوس الضغط على الامة الاسلامية .

أيها المسلمون : ان الزمان قد استدار . استيقظ أهل الصين واليابان شرقاً، واستيقظ أهل اوربا غربا . أُمم . ودول . وممالك ، وأنتم بينهم . فوالله لئن لم يقم فيكم حكماء وعلماء يجمعون شمل التعليم الاسلامي والتربية الدينية ـ ليحصدنكم الله من أرضه حصدا ، وليذيقنكم العذاب الهون بما تجهلون .

تسوقنا الرغبة إلى لفت نظر القراء إلى أصناف من الأُمة وقع في النفس اليأس من صلاحهم ـ عن طريق المصلح ـ إن تمادوا على ما هم عليه . نستعرض ذكرهم هنا لعلهم ينتبهون :

صنف : أخذت الدنيا سمعه وبصره وعقله ، وأنسته نفسه وأهله ، بل وأنسته دينه . وأصبح لا تتسع في قلبه اسواها . فهو معها على حد قول القائل :

عرفت هواها قبل أن أعرف الهوى فصادف قلبًا خاليًا فتمكنا

وكيف ينتفع مثل هذا بعلاج المصلح مهما كان ناجعًا ومفيداً ؟

وصنف : بلغ به الاعجاب بنفسه مبلغًا جعله غير مستعد لأن يسمح بالالتفات إلى إنسان . وإذا كان لا يلتفت فكيف يُقبل على المصلح ، ويتحرى سماع قيله لينتفع به ؟ إنما يسمع المصلح من يظن بنفسه النقص ، فهو يحرص على سماعه ، ليتكمل بما يسمع منه من آداب وعظات . اما المغرور المفتون فهو نسخة من شخص القائل :

فلا وأبيك لا أخشى انتقاصاً ولا وأبيك لا أرجو ازديادا

ومن لا يسمع من المصلح أنفة وكِبراً كيف ينتفع منه ؟

وصنف : يدخل الاجتماعات والمحافل ـ بحكم العادة ـ وهواه فى خارجها ، فاذا جلس بها كان كمن يجلس على جمر . وهذا بالضرورة يكون شبحه بالمجتمع وقلبه في أودية من يحب . ومَن فى الدنيا يصدق أن هذا يسمع صوت المصلح حتى ينتفع به ؟

وصنف : يعتقد بنفسه أنه أفهم وأعلم من المصلح ـ مهما بلغ فى المرتبة العلمية ، وهم الذين يسمون أنفسهم مرة ـ متمدنين ـ واخرى ـ متنورين ـ وتارة ـ أهل ثقافة ـ تسمية الشيء بضده . وهذا الصنف قد استراح إلى جبله ، وأخمد مصباح عقله ، فهو والبهيم سواء . فاللازم على المصلح أن يلازمه مهما شذّ عن الطريق . ملازمة الطبيب مع مريضه . والمعلم مع تلميذه .

انا اذا قطعنا النظر عما سبق من هذه الأصناف بقي لنا من عباد الله من هم موضع أمل المصلح ، ومحل رجائه . ومكان غرسه الذي لا يلبث أن ينمو ويثمر ثماره النافعة الطيبة . كما أن المصلح عندهم أحب شخص تقع عليه أعينهم ، وتسمع

مقاله آذانهم ، ولا يعلم إلا الله قدر نفع المصلح فيهم ، ونفعهم بالمصلح . اولئك هم المعنيون بقول الله تعالى : ﴿ إنما تنذر من اتبع الذكر وخشي الرحمن بالغيب فبشره بمغفرة وأجر كريم ﴾ . وقد استوفينا البحث وأعطيناه حظه في كتابنا : « الأخلاق النفسية في شرح الوصية » .

فتعجب كيف كانت عاقبة النبي يوسف (ع) أن بيع للمصريين ، وترعرع في بيت العزيز ، وحاقت به الفتنة . وصبر على الظلم والسجن ، ولم يدر اخوته الزاهدون ولا حاشية العزيز — وهم له ساجنون — ولا من كانوا معه مسجونين . أن السعد سيؤمه ، وان العز سيرقيه ، وانه سيقبض على ناصية البلاد ويدين له الهرمان ، ويساعده الزمان وتنسج على ماقاساه عناكب النسيان .

ذالك مثل المصلحين الصادقين القائمين بالاعمال الشريفة ، والفضائل العالية المنيفة . فليبشر اولئك الذين صدقت نياتهم ، وحسنت أعمالهم ، وأخلصوا لأمتهم وأرادوا انقاذ البلاد من الجهل والفساد . فسوف يبدل شقاؤهم راحة ، وذلهم عزاً وسعادة ، وتغني الاغصان عند هبات الرياح بمدحهم ويعبق الجو بأريج ذكرهم وعاطر ثنائهم . وهذا ناموس الوجود لم يشذ منه نبي مرسل ، ولا عالم مصلح . وكانت العاقبة للمتقين .

ولم يدر من رجال الاصلاح من أحد حتى أخذ حظيه من النصب والراحة وسار على خطفه وحلب الدهر شطريه . ولقد كان لنا في رسول الله (ص) اسوة حسنة . فلقد اوذي كما اوذي الصديق يوسف (ع) . وما آذاه إلا أقرباؤه الأدنون ، وتألبت عليه قرابته كأبي لهب ، وأبي جهل ، وابي سفيان ، وزوجته هند ، وغيرهم . ولما نصره الله تعالى عليهم عفى عنهم وأحسن اليهم .

يا أيها الناس ، يا أبناء بلادي ، يا رجال الاصلاح يا أطباء النفوس ، لا يجرمنكم شنآن قوم من بلادكم أن يصدوكم عن اصلاحها ، فعلى مقدار فضل الرجل يكون أعداؤه ، وكما يكون النصب تكون الثمرات فاعملوا لبلادكم وأمتكم كما عمل الصديق ، وتجاوزوا عن خطوات الشياطين ، مع اخوانكم المبغضين المثبطين الحاسدين ﴿ وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون ﴾ .

تتوالى النكبات إثر النكبات على المصلحين المجاهدين ، والأنبياء المرسلين .

ساقت القوة الغضبية اخوة الصديق فهجروه ، بل نبذوه وباعوه ، وسلطت الشهوة البهيمية امرأة العزيز فراودته . ويوسف باق على كماله . صابر على عفته ، مع جماله الفتان . فقالت له لتسجنن ولتكونن من الصاغرين . فقال : انما الصغار لمن لا عفة له ولا شرف ، ونفس المرء أوسع من السموات والارض .

اذا لم تسعك النفس فالكون كله وآفاقه للمرء أضيق من قبر
وفي الفكر نيران وفي الفكر جنة وما اكثر الآفات إلا من الفكر

فاذا خنت سيدي ودنست عرضي كنت من الجاهلين . أو يجمل في دين المروءة ان يحسن إلي وأسيء . ويصدق واكون من المكاذبين ؟

ان العزيز سيدي أحسن إلي وعطف بالبر والاحسان علي ، فهل جزاء الاحسان إلا الاحسان ؟ واللئيم يجزي المحسن بالكفران ، ألا بعداً للجاهلين . انا من بيت النبوة — بيت ابراهيم واسرائيل — ولن يليق بي أن اكون شر خلف لخير سلف حتى يقال في : فخلف من بعدهم خلف اضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات فسوف يلقون غيا .

انا أرنو لشرف عظيم ومجد كبير ، ومن لم يحفظ النفس في ابان حياتها

قعدت به همته عند كبرها ، ومن أراد الاصلاح فليبدأ باصلاح نفسه وليكرمها ، فانها بالاكرام أولى . ومن لم يحكم أمر البداية حرم الفضل في النهاية .

فعلى من يريد الاصلاح أن يفي بالعهد ، ولا ينقض الميثاق ، ولا يخون اخوانه في العرض ، ولا في المال ، ولا يفشي لهم سراً . ذلك هو مبدؤ الشرف الاسمى ، والخير الأعم ، والفضل الأدنى ، وقد قال الله تعالى لنبيه : ﴿ فبهداهم اقتده ﴾ فنحن أولى بالاقتداء ، وأحق بالاتباع ، واذا اقتدى المعصومون فغيرهم أولى بالاتباع ، وأحق بالاعتبار .

ما اشبـــه قصة النبي يوسف (ع) بعلم تهذيب الاخلاق ، إذ يقسمونه « ثلاثة أقسام » : سياسية النفس بالعفة والصيانة كما كان الصديق فى بيت العزيز ، وسياسة أمر المنزل أشبه بما اتفق له فى السجن ، واصلاح أمر المدينة كما حصل له إذ قال الملك ائتوني به استخلصه لنفسي فلما كلمه قال انك اليوم لدينا مكين أمين .

حلقات ثلاث : لا يصلح أخراها إلا بصلاح أُولاها ، عف في أول منازله ففشى ظلم الحاشية على حسن سيرته . واتهموه وهو برىء . وسجنوه وهو محسن ، فكان السجن ثاني المنازل . فنصح المسجونين وقال لهم : يا صاحبي السجن أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار . درّس لهم التوحيد بالبرهان . ثم ذكر شرف قومه وأهله فقال : واتبعت ملة آبائي ابراهيم واسرائيل الخ .

نصح النبي الصديق للمصريين وهو غريب ، حفظاً للجميل وقياماً بحق الانسانية والنبوة ، ذلك الارشاد من الله وتعليمه ، أن كونوا أيها المصلحون شموساً تضيء سناها على العالمين ، ولا تدعوا أيها العلماء الناس غافلين ، بل ايقظوهم وعمموا التعليم .

لقد نصح الصديق في السجن ولم تعقه ضيقة السجن ، ولا وزر القول عن ان يقشع سحب الضلال . ويصقل قلوب العامة بصقال العلم ، ويجليها بجلاء الحكمة فكان من المحسنين .

هكذا فليقم كل أحد بانتشال امته من وهدة الجهل ، ليرفعها الى سماء الفضيلة وليعمم العلم بين أفراد الامة .

ارتقاء البشر المادى

وهبوطهم الأدبى ، وحاجتهم إلى الدين

﴿ وقل للذين اوتوا الكتاب والأميين أأسلمتم فان أسلموا فقد اهتدوا وإن تولوا فانما عليك البلاغ والله بصير بالعباد ﴾ « آل عمران » .

إن من المعلوم اليقيني الثابت بالحواس : أن علوم الكون المادية تثب فى هذا العصر وثوبًا يشبه الطفور ، وتؤتي من الثمار اليانعة ـ بتسخير قوى الطبيعة للانسان ـ ما صارت به الدنيا كلها كأنها مدينة واحدة ، وكأن أقطارها بيوت لهذه المدينة ، وكأن شعوبها عشائر وفصائل لامة واحدة ، في هـــذه البيوت (الاقطار) يمكنهم أن يعيشوا فيها اخوانا متعاونين سعداء متحابين ، لو اهتدوا بالدين .

وإن من المعلوم التعيين أيضًا : أن البشر يرجعون القهقرى في الآداب والفضائل على نسبة عكسية مطردة ، لارتقائهم في العلوم المادية واستمتاعهم بثمراتها ، فهم يزدادون إسرافا في الرذائل ، وجرأة على اقتراف الجرائم ، وافتتانا في الشهوات البهيمية ، ونقض ميثاق الزوجية ، وقطيعة وشائج الارحام ، وعقوق الوالدين ، ونبذ هداية الاديان ، حتى كادوا يفضلون الاباحة المطلقة على

كل ما يقيد الشهوات ، من دين وأدب وعرف وعقل ، بل رجع بعضهم الى عيشة العرى في أرقى ممالك أوربا وامريكا علما وحضارة ، كما يعيش بعض بقايا الهمج السذج في غابات افريقية و بعض جزائر البحار النائية عن العمران .

وإن من المعلوم اليقيني أيضاً : أن الدول الكبرى لشعوب هذه الحضارة أشد جنايةً عليهم وعلى الانسانية من جنايتهم على أنفسهم ، باغرائها أضغان التنافس بينهم ، وباستعمالها جميع ثمرات العلوم ومنافع الفنون في الاستعداد للحرب العامة . التي تدمّر فى أشهر أو أيام معدودة صروح العمران التي شيدتها العصور الكثيرة . وتفنى الملايين فيها من غير المحاربين كالنساء والأطفال والشيوخ . و بصرفها معظم ثروات شعوبها في هذه السبيل . وفى سبيل ظلمها للشعوب الضعيفة التي ابتليت بسلطانها ، وسلبها لثروتهم وحريتهم فى دينهم ودنياهم . فالعالم البشري كله في شقاء من سياسة هذه الدول الباغية الخبيثة الطوية . وكل ما عقد من المؤتمرات لدرء أخطارها لم يزد نارها إلا إسعاراً ، ولو حسنت نياتها وأنفقت هذه الملايين التي تسلبها من مكاسب شعوبها وغيرهم فى سبيل الاصلاح الانساني العام لبلغ البشر بها أعلى درجات الثراء والرخاء .

كل ما ذكر معلوم باليقين . فهو حق واقع ، ماله من دافع .

وإن من المعلوم — من استقراء تاريخ هذه الحضارة المادية — : أن هذه الشرور كانت لازمة لها ونمت بنمائها . فكان هذا برهاناً على أن العلوم والفنون البشرية المحضة غير كافية لجعل البشر سعداء فى حياتهم الدنيا . فضلا عن سعادتهم فى الحياة الآخرة . وإنما تتم السعادتان لهم بهداية الدين . فالانسان مدني بالطبع . ومتدين بالطبع ، أو بالفطرة كما يقول الاسلام .

من أجل ذلك فكر بعض عقلاء اوربا وغيرهم في اللجوء إلى هداية الدين

وأنه هو العلاج لأدواء هذه الحضارة المادية والترياق لسمومها وتمنّوا لو يبعث في الغرب أو الشرق نبي جديد يصلح الله بهدايته فسادها . ويقوم بها منارها ، لأن الأديان المعروفة لهم لا تصلح لهذا العصر وقد فسد حال جميع أهلها . وكان من يسمون دينهم دين المحبة ، مصداقا لقول الله تعالى : ﴿ فأغرينا بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة ﴾ .

بيد أن هؤلاء المفكرين لا يعرفون حقيقة دين القرآن وهو الدين الالآهي العام ، والمانع لهم من معرفته ثلاثة حجب تحول دون النظر الصحيح فيه . وعدم فهمهم القرآن كما يجب أن يفهم . فأما الحجب دونه فهذا بيانها بالايجاز :

الحجب بين الافرنج ، وحقيقة الاسلام

(الحجاب الأول) الكنيسة أو الكنائس التي عادته منذ بلغتهادعوته ، وطفقت تصوره بصور مشوهة باطلة . بدعاية عامة فيها من افتراء الكذب وأقوال الزور والبهتان ما لم يعهد مثله فى أهل ملة من البشر في زمن من الأزمان ، وألفت في ذلك من الكتب والرسائل . والأغاني والأناشيد والقصائد ما يعرف بطلانه كل مؤرخ مطلع على الحقائق . ثم إنها جعلت تشويهه ووجوب معاداته ركنًا من أركان التربية والتعليم فى جميع مدارسها . والمدارس التي يتولى خريجوها تعليم الناس فيها فما من أحد يتعلم من أتباعها إلا وهو يعتقد أن جميع المسلمين اعداء للمسيح والمسيحيين كافة فيجب عليه عداوتهم ما استطاع . والحق الواقع أن الاسلام هو صديق المسيحية المتمم لهدايتها وأن محمداً صلى الله عليه وآله هو روح الحق الذي بشر به المسيح عليه السلام .

(الحجاب الثاني) رجال السياسة الاوربية . فانهم ورثوا عداوة الاسلام

من الكنيسة ، وتلقوا مفترياتها في الطعن عليه بالقبول ، وضاعف هذه العداوة له والضراوة بحربه — طمعهم في استعباد شعوبه واستعمار ممالكه .

واذا كان رجال الدين قد ملأوا الدنيا كذبا وافتراء على الاسلام — ومن أسس الدين الصدق وقول الحق والحب والرحمة والعدل والايثار — فاي شيء يكثر فعله على رجال السياسة وأساس بنائها الكذب وأقوى أركانها الجور والظلم والعدوان ، والقسوة والأثرة والخداع ؟ وهو ما نراه باعيننا ونسمع أخباره بآذاننا كل يوم في المستعمرات الأوربية . بل نحن نعلم أن سبب افتراء رجال الدين على الاسلام هو السياسة لا الدين نفسه ، وان قاعدتهم المشهورة « الغاية تبرر الواسطة » سياسة لا انجيلية . فما كان لدين أن يبيح الجرائم والرذائل باتخاذها وسيلة لمنفعة أهله وإن كانت دينية .

(الحجاب الثالث) سوء حال المسلمين في هذه القرون الاخيرة ، فقد فسدت حكوماتهم وشعوبهم واستحوذ عليهم الجهل بحقيقة دينهم ومصالح دنياهم . حتى صاروا حجة لاعدائهم فيهما على أنه لا خير فيهم ولا في دينهم . وأمكن هؤلاء الاعداء أن يفتنوا بهذه الحجة الدامغة اكثر من يتخرج في مدارسهم السياسة الالحادية ، والدينية التنصيرية . من أبناء ملتهم أو جلدتهم ومن غيرهم . حتى نابتة المسلمين أنفسهم ايضاً . وهم يختارون من هذه النابتة الافراد التي تتولى اعمال الحكومة والتعليم في مدارسها في كل قطر خاضع لنفوذ دولهم الفعلي بأي اسم من أسمائه : من فتح وامتلاك وحماية واحتلال وانتداب . أو لنفوذهم السياسي والتعليمي كما فعلوا في بلاد الترك وايران ، لتساعدهم على هدم كل شيء إسلامي فيها من اعتقاد وأدب وتشريع .

وقد كان السيد جمال الدين الافغاني حكيم الاسلام وموقظ الشرق يرى

أن هذا الحجاب اكشف الحجب الماثلة بين شعوب أوربا الحرة والاسلام ، وقد نقل عنه انه قال : اذا أردنا ان ندعو احرار اوربا الى ديننا فيجب علينا ان نقنعهم أولا اننا لسنا مسلمين ، فانهم ينظرون الينا من خلال القرآن هكذا — ورفع كفيه وفرج بين أصابعها — فيرون وراءه اقواماً فشا فيهم الجهل والتخاذل والتواكل . . . فيقولون : لو كان هـذا الكتاب حقاً مصلحاً لما كان اتباعه كما نرى .

لا ننكر أن بعض أحرار الافرنج قد عرفوا من تاريخ الاسلام ما لم يعرفه اكثر المسلمين . فانصفوه فيما كتبوا عنه من تواريخ خاصة ومن مباحث عامة في العلم والحضارة والدين ، وأن منهم من اهتدى به عن بصيرة وبينة ولكن ما كتبه هؤلاء كلهم لم يكن مبيناً لحقيقته كلها . ولم يطلع عليه إلا القليل من شعوبهم ، وكان جل تأثيره في أنفس من اطلعوا عليه — أن بعض الناس أخطأوا في بيان تاريخ المسلمين فانتقد عليهم آخرون . فهو لم يهتك الحجب الثلاثة المضروبة بينهم وبين حقيقة الاسلام .

وأما عدم فهمهم للقرآن — كما يجب — وأعني به الفهم الذي تعرف به حقيقة اعجازه ، وتشريعه ، وأدبه . وإصلاحه . وكونه هو دين الله الأخير الكامل الذي لا يحتاج البشر معه الى كتاب آخر ولا الى نبي آخر — فله أربعة اسباب خاصة ، وراء تلك الحجب العامة . وهي :

الأسباب العائقة عن فهم الأجانب للقرآن

جهل بلاغة القرآن :

أولها — جهل بلاغة اللغة العربية التي بلغ القرآن فيها ذروة الاعجاز في اسلوبه ونظمه وتأثيره فى أنفس المؤمنين والكافرين به جميعاً ، فاحدث بذلك ما أحدث من الثورة الفكرية والاجتماعية فى العرب والانقلاب العام في البشر . وقد كان من إكبار الناس لهذه البلاغة أن جعلها أكثر علماء المسلمين موضع تحدي البشر بالقرآن دون غيرها من وجوه اعجازه ، وجعلوا عجز العرب الخلّص عن معارضته بها ، ثم عجز المولدين الذين جمعوا بين ملكة العربية العملية وملكة فلسفتها — من فنون النحو والبيان — هو الحجة الكبرى على نبوة محمد (ص) وقد فقد العرب الملكتين منذ قرون كثيرة إلا أفراداً متفرقين منهم — فما القول في غيرهم ؟ !

فعلماء المسلمين في هذه القرون يحتجون بعجز أولئك ولا يدعون أنهم يدركون سر هذا الاعجاز ، أو يذوقون طعمه . بل قال بعض علماء النظر المتقدمين منهم : ان الاعجاز واقع غير معقول السبب . فما هو إلا ان الله تعالى صرف الناس عن معارضته بقدرته . والصواب ان منهم من حاول المعارضة فعجزوا ، إذ ظنوا ان إعجازه بفواصل الآيات التي تشبه السجع فقلدوها

فافتضحوا . ومن متأخري هؤلاء من ادعى النبوة كمسيح الهند القادياني الدجال ، ادعى الألوهية (كالبهاء) وقد اخفى اتباع هـذا كتابه الملقب بالأقدس لئلا يفتضحوا به بين الناس ، واضعف منه واسخف بيان استاذه الباب (علي محمد) وقد ذكرنا فقرات من قرآنه السخيف في المجلد الأول من كتابنا هـــذا « الجواهر الروحية » فراجعه .

قصور ترجمات القرآن وضعفها :

ثانيها — ان ترجمات القرآن — التي يعتمد عليها علماء الافرنج في فهم القرآن — كلها قاصرة عن اداء معانيه . التي تؤديها عباراته العليا واساوبه المعجز للبشر ، وهي إنما تؤدي بعض ما يفهمه المترجم له منهم إن كان يريد بيان ما يفهمه ، وإنه لمن الثابت عندنا ان بعضهم تعمد تحريف كلمه عن مواضعه . على انه قلما يكون فهمهم تاماً صحيحاً . ويكثر هذا فيمن لم يكن به مؤمناً ، بل يجتمع لكل منهم القصوران كلاهما : قصور فهمه . وقصور لغته . وقد اعترف بهذا مستر (محمد) مارماديوك بكتال ، الذي ترجمه بالانكليزية ، وجاء مصر منذ ثلاث سنوات فعرض على بعض علماء العربية . والمتقنين للغة الانكليزية ما رأى انه عجز عن اداء معناه منه وصحح بمساعدتهم ماذا كرهم فيه .

واعترف بذلك قبله الدكتور (ماردريس) المستشرق الفرنسي الذي كلفته وزارتا الخارجية والمعارف الفرنسية لدولته ترجمة ٦٣ سورة من السور الطوال والمئين والمفصل التي لا تكرار فيها ففعل ، فقد قال في مقدمة ترجمته التي صدرت سنة ١٩٣٦ مامعناه بالعربية : (أما اسلوب القرآن فانه اسلوب الخالق جل وعلا ،

فإن الاسلوب الذي ينطوي على كنه الكائن الذي صدر عنه هذا الاسلوب لا يكون إلا إلاهياً . والحق الواقع ان اكثر الكتاب ـ ارتياباً وشكاً ـ قد خضعوا لسلطان تأثيره وأن سلطانه على الثلثمائة مليونا من المسلمين المنتشرين على سطح المعمورة لبالغ الحد الذي جعل أجانب « المبشرين » يعترفون بالاجماع بعدم إمكان إثبات حادثة واحدة محققة ارتد فيها أحد المسلمين عن دينه إلى الآن

ذلك أن هذا الاسلوب الذي طرق فى أول عهده آذان البدو كان نثراً جد طريف يفيض جزالة فى اتساق نسق ، متجانساً مسجعاً ، لفعله أثر عميق في نفس كل سامع يفقه العربية . لذلك كان من الجهد الضائع غير المثمر أن يحاول الانسان أداء تأثير هذا النثر البديع « الذي لم يسمع بمثله » بلغة اخرى ، وخاصة اللغة الفرنسية الضيقة ـ التي لاسعة فيها للتعبير عن الشعور ـ المرنة « التي لا تتنازل عن حقوقها » والقاسية . وزد على ذلك أن اللغة الفرنسية ومثلها جميع اللغات العصرية ليست لغة دينية . وما استعملت قط لتعبير عن الالوهية » .

ثم تكلم عن عنايته هو مدة تسع سنوات متواليات بمحاولة نقل شيء من القرآن إلى اللغة الفرنسية على شرط المحافظة على بلاغة الأصل ، وتساءل هل أمكنه التغلب على هذه الصعوبة أم لا ؟ يعني أنه يشك فى ذلك .

اسلوب القرآن المخالف لجميع أساليب الكلام :

ثالثها — أن اسلوب القرآن الغريب المخالف لجميع أساليب الكلام العربي وغيره ، وطريقته في مزج العقائد والمواعظ والحكم والأحكام والآداب بعضها ببعض في الآيات المتفرقة في السور ـ قد كان حائلا دون جمع كبار علماء المسلمين

من المفسرين وغيرهم لكل نوع من أنواع علومه ومقاصده . في باب خاص به ، كما فعلوا فى آيات الأحكام العملية . في العبادات والمعاملات . دون القواعد والاصول الاجتماعية والسياسية والمالية ، إذ لم يكونوا يشعرون بالحاجة اليها كما نشعر فى هذا العصر .

وقد عُني بعض الافرنج « هو المستشرق العلامة المسيو جول لابوم » بوضع كتاب باللغة الفرنسية . جمع فيه آيات القرآن بحسب معانيها ، ووضع كلاً منها فى باب أو أبواب خاصة بقدر فهمه ، ولكنه أخطأ فى كثير من هذه المعاني ، وقصّر في بعض مما علمه . وما جهله منها عظيم ، ذلك بأن أخذ القواعد والاصول العامة من هذه الآيات ـ يتوقف على العلم بسيرة النبي «ص» وسنته في بيان القرآن وتنفيذه لشرعه . وآثار خلفائه وعلماء أصحابه من بعده .

الاسلام ليس له دولة ولا جماعات :

رابعها — أن الاسلام ليس له دولة تقيم القرآن وسنة الرسول (ص) بالحكم وتتولى نشره بالعلم . ولا جماعات دينية تتولى بحمايتها الدعوة اليه بالحجة وليس لأهله مجمع ديني ولا علمي يرجع اليه في بيان معاني القرآن وهدايته ، في سياسة البشر ومصالحهم العامة . التي تتجدد لهم بتجدد الحوادث ، ومخترعات العلوم والفنون ، وفيما يتعارض بين العلوم ونصوص الدين فيرجع اليها علماء الافرنج في استبانة ماخفي عليهم من نصوصها .

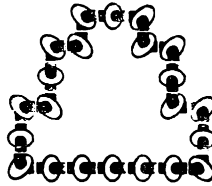
وأعجب من هذا وأغرب : أن المسلمين أنفسهم قد تركوا من بعد خير القرون الاولى أخذ دينهم من القرآن المنزل ، ومن بيان الرسول (ص) له كما

أمره الله تعالى فيه بقوله : ﴿ وأنزلنا اليك الذكر لتبين للناس ما نزّل اليهم ولعلهم يتفكرون ﴾ وما زالوا يهجرون الاهتداء بهما ، حتى استغنوا عنهما استغناء تاماً بأخذ عقائدهم من كتب المتكلمين ، وأخذ أحكام عباداتهم ومعاملاتهم عن كتب علماء المذاهب غير المجتهدين ، وهذه الكتب لا تقوم بها حجة الله تعالى على البشر ، ولا سيما أهل هذا العصر الذي ارتقت فيه جميع العلوم العقلية والتشريعية ، حتى صار المسلمون – منا – يأخذون عنهم العلم كما كان أجدادهم يأخذون عنا ، بل فيها من آراء المتكلمين والفقهاء ، وروايات الكذابين والضعفاء ، ما قد يعد حجة على الاسلام وأهله ، كما أن سوء حال المسلمين في فشوّ الجهل في شعوبهم ، والفساد والانحلال في حكوماتهم قد اتخذ حجة على دينهم فصاروا فتنة للذين كفروا به .

وإذا كان هذا حال المسلمين في فهم القرآن وهدايته ، فكيف يكون حال الشعوب التي نشأت على أديان اخرى ألفتها ، ولها رؤساء يربونهم عليها ويصدونهم عن غيرها ، ودول حربية قد عادت الاسلام منذ بضع قرون ، بما لو وجهوه إلى الجبال لاندكت وزالت من الوجود ؟ ! ولكنه دين الله الحي القيوم ، فهو باق مادام البشر فى الأرض لايزول أو يزولون أجمعون .

هذه أظهر الأسباب لخفاء حقيقة الاسلام الكاملة على علماء الحضارة العصرية ، من الأجانب ومن المسلمين أيضاً ، وتمنيهم لو يبعث نبي جديد بهداية إلآهية عامة كافية لاصلاحهم . ولما كان الاسلام هو دين الانسانية العام الدائم ، الجامع لكل ما تحتاج اليه جميع الشعوب ، من الهداية الدينية والدنيوية – وجب على العقلاء الأحرار – والعلماء المستقلين – الذين يتألمون من

المفاسد المادية التي تفاقم شرها في هذا العهد ، أن يعنوا بهتك تلك الحجب التي تحجبهم عن النظر فيه ، وإزالة الموانع التي تعوقهم عن فهم حقيقته ، وأن يدعوا جميع الشعوب إلى اخوته ، وتكميل الحضارة الانسانية بهدايته .



فلسفة دعائم الاسلام الخمس

إن الله سبحانه برحمته الواسعة وحكمته البالغة — بنى الاسلام على خمس دعائم ، كل دعامة منها أساس ثابت لسعادة الدنيا وحسن ثواب الآخرة ، وعماد قويم لاصلاح المجتمع وإسعاد بنيه . قال رسول الله «ص» : « بني الاسلام على خمس : شهادة أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً عبده ورسوله . وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة وصوم رمضان . وحج البيت » .

فالدعامة الاولى : الشهادتان ، وهما تتضمنان عقائد حقة تعتمد عليها سعادة الناس وروابطهم . فأما شهادة أن لا إله إلا الله فهي عماد كل دين إلاهي « قل ياأهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله » وهي تتحقق باعتقاد القلب واعتراف اللسان ـ بأن الله موجود ، وانه واحد لاشريك له . وهاتان العقيدتان فطريتان يؤدي اليهما النظر الصحيح ، ولا ترتاب فيهما فطرة سليمة ، لأن الفطرة التي لم يعبث بسلامتها تقليد ولا تضليل ، تؤمن بأن كل موجود لابد له من موجد ، وأي أثر لا ينتج من غير مؤثر ، وان هذا العالم المحكم صنعه ، البديع نظامه ، لابد له من خالق أوجده ، وقادر أبدعه ﴿ نحن خلقناكم فلولا تصدقون ،

أفي الله شك فاطر السموات والأرض ﴾ .

وكذلك يطمئن القلب إلى أن هذا الكون ـ الذي تجري سننه على نسق واحد ، وتسير نُظمه على غير خلف ـ لاتدبّره أرباب متفرقون ، لأن في تفرق المدبّرين إختلاف المذاهب في التدبير ، ومع الاختلاف لايتحد للكون نظام ولا يتسق له سنن ﴿ ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله إذاً لذهب كل إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض سبحان الله عما يصفون ، لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا ﴾ .

ولهاتين العقيدتين أثر بالغ في تهذيب النفوس ، وتقوية الوحدة الاجتماعية فان بهما تحرير العقول من رق الأوهام ، وتطهير النفوس من خلال الشرك ، والعلو بها عن العبودية لغير الله ، والانحطاط إلى عبادة جماد أو حيوان .

وبهما جمع القلوب على معبود واحد ، وتوجيه الوجوه إلى قبلة واحدة . ولهذا التوحيد أثره في جمع الكلمة وتعاون بني الانسان ﴿ أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار ﴾ .

وأما شهادة أن محمداً عبده ورسوله ـ فتتحقق بايمان القلب وإقرار اللسان بأن محمداً بن عبد الله بن عبد المطلب ، العربي القرشي عبد من عباد الله ، إصطفاه ليبلغ للناس رسالاته ، وأنزل عليه القرآن هدىً للمؤمنين ورحمة . وما كان إبناً لله ولا ملكا من ملائكته ، وما جاء بأمر من تلقاء نفسه ﴿ قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلي أنما إلهكم إله واحد ﴾ .

وفى المعجزات التي أيده الله بها ، والشدائد التي صبر عليها ، والنجاح الذي لقيته دعوته ، والتطور العام الذي أحدثته في العالم ، والآثار التي بقيت لها . والأخلاق الكريمة التي تخلّق بها من نشأته — أصدق برهان على صدقه وأنه

رسول الله .

وفي الشهادة برسالته والايمان بما جاء به تقويم للنفوس . وإصلاح للنظم الاجتماعية . فان محمداً (ص) إنما بعث ليتمم مكارم الاخلاق ، ويحل الطيبات ويحرم الخبائث . ويأمر بالمعروف ، وينهى عن المنكر .

وهذه أسس سعادة الانسان وصلاح شؤونه . ولذا قال حكيم العرب أكثم بن صيفي : « إن ماجاء به محمد لولم يكن ديناً لكان في أخلاق الناس حسناً » .

نبذة من اسرار الصلاة

الدعامة الثانية : اقام الصلاة . وذلك بأداء الصلوات الخمس في مواقيتها . مقوّمة الأركان ، مستكملة الشرائط . مع الخشوع والخضوع واستشعار العبد جلال المعبود . واستحضار عظمته في القيام والقعود والركوع والسجود . وكم في هـذه العبادة ووسائلها من منافع للناس ؟ !

ففي التزام المصلي طهارة بدنه وثوبه ومكانه . وفي تحرزه عن الانجاس والاقذار تعويد على النظافة ووسيلة الى سلامة الحواس . وفي اجتماع المصلين على أدائها — متجهين الى قبلة واحدة . متساوين في صفوف واحدة — توثيق للالفة وباعث على التعارف والتعاون . وفي تكرير ذلك خمس مرات في اليوم تذكير للعبد بربه ، وتعويد القلب على مراقبته . ومن راقب الله وقف عند حدوده وانتهى عن محارمه . « وأقم الصلاة طرفي النهار وزلفاً من الليل إن الحسنات يذهبن السيئات » .

وان من عطف نظره الى أسرار تشريع الصلاة وما تضمنت من استعراض جميع من بلغ الرشد من أربعمائة مليون مسلم خمس مرات في كل يوم وليلة ، في صفوف منتظمة بكل سكينة وخشوع ووقار ، الأمير بجانب المأمور ، والخادم بازاء المخدوم ، والفقير بحذاء الغني ، والضعيف بجانب القوي ، والرفيع مع الوضيع ، والسيد بصف المسود والكل منكسر لله ذليل بين يدي رب عظيم قاهر ، دون ميزة لبعضهم ، ولا أفضلية فيما بينهم ، وكلهم يستقبلون الكعبة المشرفة ويتجهون الى بقعة أشرقت منها شمس الهداية المحمدية (ص) ويتلون النشيد الالآهي والسبع المثاني ، ويوجهون قلوبهم ونفوسهم الى المبدأ الواحد . والاله القادر ، وفي ذلك وحدة الشعور وتوحيد المشاعر . والمفاداة في سبيل نصرة الحق ، والتمرين على النظام والطاعة والاتباع والانقياد للامام ، وفي جميع ذلك تعويد لهم على أسس العدل الاجتماعي، من المساواة ، والحرية . والائتلاف . وصفاء النفس من كدر الشوائب ، واتصافها بجلائل الخصال والمكارم ، وأمهات الفضائل . وعدم الاعتداء على أحد في ماله وحقوقه وعرضه ونفسه . وهذا كاف للسلم العام . مضافا الى أن الخضوع والخشوع لله يزيلان الطمع وحب الدنيا — الذي هو رأس كل خطيئة ، وحب المادة الذي هو منشأ الحروب .

ومن الجدير بالذكر أن مقدمات الصلاة تكافح المباديء الهدامة . مضافا إلى أنها تشيد أسس النظافة ، والصحة والثقافة . وشرف الانسانية إذ يتكرر للمصلي في كل صلاة أن من أهم شروط صحة الصلاة إباحة ماء الوضوء ، وإباحة تراب التيمم ، وإباحة لباس المصلي وساتره وإباحة مكان الصلاة ، وإباحة ما يسجد عليه فاذا كان شيء من هذه الأمور مغصوبا بطلت الصلاة ، إذ لا يجوز التصرف في مال الغير وملكه فانه نتيجة عمله ومحصول قواه وغرائزه . مثل اختصاصه بتلك

القوي والغرائز ، ولا يشاركه أحد في ذلك فيعتقد بحكم الحس واليقين بأن الاختصاص وملكية الفرد من الحقوق الطبيعية والفطرية للانسان . وأن إنكارها خروج على ناموس الطبيعة والفطرة ، والناس جميعاً متفقون في مقتضيات الفطرة ، وبما ان الاسلام دين الفطرة ودين الطبيعة قرر في تعاليم هذا الاختصاص الطبيعي ، وجعل ملكة الفرد من أهم تعاليمه . وجعل انتزاع ملكه وماله منه بدون رضاه غصبا وحراما ومبطلا للصلاة . وبمرور السنين تصبح هذه العقائد الحقة كملكات راسخة في قلوب المصلين وتكون أمورا طبيعية وفطرية عندهم . فيستحيل أن تجد المذاهب الاشتراكية المتطرفة والمبادي الهدامة التي تقاوم الطبيعة وتنازع الفطرة . وتنفي الاختصاص وتنزع الملكية من الفرد وتتداخل في شؤون الانسان بينه وبين ربه سبيلا الى قلوب المصلين (*) ﴿ إن الصلوة تنهي عن الفحشاء والمنكر ﴾ .

نبذة من اسرار الزكاة

الدعامة الثالثة : إيتاء الزكاة . وذلك باعطاء الاغنياء في كل مرة نصيبا من مالهم الذي آتاهم الله من فضله . لسد حاجة الفقراء والمساكين ، ومعونة الغارمين ، وأبناء السبيل .

ولله في هذه الزكاة حكمة بالغة . جمعت بين انصاف الأغنياء ورحمة الفقراء فاشتراط نصاب معين يكون ما دونه عفواً ، واشتراط نمائه ومضي الحول عليه . وتحديد القدر الواجب — بنسبة يسيرة — وتعيين موعد الاداء بانقضاء الحول كل هذا مراعى فيه العدل وانصاف ذي المال . وتكون رحمة بالفقراء من فضل

(*) راجع فلسفة الصلاة فى المجلد الثالث من هذا الكتاب .

ما آتاه الله . وفيها شكر لله على النعمة ، وتربيـة لعاطفة الرحمة . وشكر النعمة يزيدها . والرحمة بالناس تستل من قلوبهم الاضغان . وتغرس بدلهـا المحبة ، فلا يحقد فقير على غني . ولا يطمع محروم فى غير ماله . وفيها علاج النفس من داء الشح وتطهيرها من أدرانه ﴿ خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها ﴾ .

نبذة من اسرار الصوم

الدعامة الرابعة : صوم رمضان : وذلك بالامساك عن الطعام والشراب، والامتناع عن الشهوات شهراً فى كل عام من طلوع الفجر الى الغروب .

وفى هـذا رياضة للنفس بكبح جماح شهواتها ، وابتلاء للعبد ليعرف مبلغ احتماله المشاق . وصبره على ما يكلفه به مولاه . وفيـه إشعار المترفين بآلام البائسين ، ليقدروا نعمة الله عليهم ويعطفوا على المحرومين ﴿ يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون ﴾ .

أجل من سرّح نظر الفكر في أسرار تشريع الصوم يعلم أن هذه العبادة الدينية التى يقصد بها إلى الله تعالى بترويض النفس والجسد لرفع الانسان بروحه من حضيض الحيوانية الى أرفع مقام أدبي يليق بكرامته الانسانية. تبعث فى الامم الاسلامية لغة الاحساس التى بها تنبعث من صميم نفس الصائم عاطفة ليست فى طرق اللغة ، ولا يغني فى تذوقها الوصف ، فتخلق فى النفوس عناصر الشفقة والرحمة والحنان والرأفة ، والرفق والايثار ، إلى جانب قوة الارادة ورباطة الجأش ، والقدرة على مغالبة الشهوات ومكافحة الأهواء ، والتدريب على الخشونة وروح المفادات ، في سبيل إعلاء كلمة الله وشأن الأمة ، والدفاع عن العقيدة على غرار

الامم الحية ، وتؤهل النفوس للخصال الكريمة والمبادىء الاجتماعية القويمة التي هي الهدف للاديان الالآهية وللانسانية ، وينبه القلوب لضرورة التكافل بين الأقوياء والضعفاء . وبين الأغنياء والفقراء . وبذلك يحصل التضامن الاجتماعي ويتوحد الشعور العام ، وترسخ ملكات اجتماعية يسود بها العدل الاجتماعي والسلام العام .

الصوم مبدأ أدبي سام . ومواساة شاملة كاملة لمختلف الطبقات أمام القانون الالآهي ، وعبادة اسلامية كفيلة بتثقيف عامة المسلمين ، وايجاد عناصر الرجولة الكاملة فيهم ، لحد يجعلهم يتحملون — بجلد وصبر — أشد المحن وأعظم الكوارث . ويندفعون الى التضحية فى سبيل البر وإقامة أعمال الخير . من فيض فضل الله عليهم . الصوم بمركزه الديني وهيبته الأدبية له شأن عظيم في تحديد التمعن فى صنوف المتاع المادي . وتوجيه العقول والاذواق الى صالح المجتمع ، وتكوين أمة ذات غرض إنساني سام . متزنة الجوانب لا تطغى فيها الخشونة والقسوة والأثرة على الرأفة والشفقة والايثار . والثمرة النهائية لهذه العبادة الاسلامية توحد الوجهة واجتماع الكلمة ، وقيام دولة الحق على وجه الارض (*)

نبذة من اسرار الحج

الدعامة الخامسة — حج البيت لمن استطاع اليه سبيلا . وذلك بقصد البيت الحرام بمكة مرة في العمر ، للطواف بالكعبة ، والوقوف بعرفة بعد الاحرام

(*) راجع مدرسة الصوم من هذا المجلد تجد بحثاً وافياً قد ألم بجمهرة كافية من نقاط الصوم الجوهرية .

والتجرد من الثياب والاكتفاء بأزار ورداء .

وفي هـذا الحج تتعارف الشعوب الاسلامية . وتشعر النفوس بالاخاء والمساواة . فكلهم عاري الرأس سترته أزار ورداء . لافرق بين غني وفقير ، وعبد وأمير . وفيه تعظيم المسلمين لمهد دينهم وذكرى أول أمرهم ، وفيه عدة مصالح اجتماعية ومنافع اقتصادية ﴿ ولله على الناس حج البيت من استطاع اليه سبيلا ليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم الله فى أيام معلومات على مارزقهم من بهيمة الانعام ﴾ .

اسرار الحج وحكمه :

شرع الله الحج لحكم جليلة :

اولا — منها تقوية الروابط بين الشعوب الاسلاميـة ، على اختلاف أجناسها وتباين أقطارها ، وإزالة ما بينها من الفوارق الجنسية والقومية لتتحقق الوحدة الاسلامية التي هي أهم ما يدعو اليه الاسلام . فاذا اجتمع المسلمون في موسم الحج في بقعة واحـدة ليؤدوا المناسك ، وتجردوا من كل مظاهر الحياة الفاتنة — فلابد أن يتولدفى نفوسهم شعور بانهم أعضاء مجتمع اسلامي كبير ، له خصائصه ومميزاته ، وانهم لايحيون إلا بحياته ، ولا يسعدون إلا بسعادته . فتتصل قلوبهم وترتبط بروابط المحبة والمودة والاخلاص . وذلك سر كل عمل شرعه الله لاجتماع الناس ، كصلاة الجماعة والجمعة والعيدين . إلا أن هذه الأعمال لما كان اجتماع الناس فيها جزئياً ومقصوراً على عدد معين من أبناء كل بلد في كل أمة ، شرع الله الحج ليتسنى لاكبر عدد ممكن من جميع الامم الاسلامية — الاجتماع

في بقعة واحدة ، ليتموا فى قلوبهم الشعور بالوحدة الاسلامية .

وقد كان من الواجب على أقطاب المسلمين وزعمائهم فى جميع الامم الاسلامية أن يكونوا فى طليعة الحجيج الى بيت الله الحرام ، ليعقدوا هناك مؤتمراً اسلامياً عالمياً للتشاور فى مصالح شعوبهم ، وفي كل ما ينهض بالمسلمين من كبوتهم ويجعل عندهم الصلاحية لمسايرة الامم القوية فى مضمار الحياة ، وانهم لو فعلوا ذلك لأسدوا إلى الامم الاسلامية يداً بيضاء يسجلها لهم التاريخ بأحرف من نور على صفحات الفخار .

ثانياً - ومنها تهذيب النفوس : فان الحاج يتجرد فى أثناء الحج عن كل مظاهر الحياة ـ التي تملأ النفس غروراً ـ ويقبل بقلبه وروحه إلى الله تعالى ، ويؤدي أعمالا تملأ القلب يقيناً بالله ، وشعوراً بعظمته وسلطانه الغيبي الذي تعنو له الوجوه ، وتخضع له جميع الكائنات ووجود الانسان فى هذا الوسط الذي استغرق فى عبادة الله تعالى وفى البلاد المقدسة التي تغمر نفسه بذكريات نشأة الاسلام ، ونبي الاسلام ، وابطال المسلمين ، وخيار العباد من الصحابة والتابعين وفي المواطن التي نزل بها القرآن الكريم وهبط فيها جبريل الأمين على خاتم الأنبياء ـ كل ذلك كفيل بأن يسمو بروح الانسان عن أقذار الشهوات ، وعن المنازع الدنيئة التي تفسد قلبه وخلقه . إلى الغايات الفاضلة التي تجعله إنساناً كاملا مهذباً ، يتمتع بانسانيته التي انسلخ منها أكثر المفتونين بالحياة .

فالحج على هذا يعتبر من أقوى العوامل فى تهذيب النفوس . ألست ترى الحاج وقد فارق بلده وأهله وماله وخلانه ، وتجرد عن فاخر ثيابه ، ولبس ثياب الاحرام المجردة عن وشي الزينة ، وطرح وراء ظهره مطامعه وآماله وشهواته وأهواءه ، ورجع إلى بساطة الفطرة في ملبسه ومأكله ونومه وجلوسه ، وعمر

أوقاته بتكبير الله وتحميده وتسبيحه والصلاة والسلام على نبيه ، بالطواف والسعي والوقوف بعرفة ورمي الجمار ؟! إلى غير ذلك من الأعمال التي تجعله ذاكراً ربه في كل حين . فأنّى تكون للاهواء سيطرة على قلبه الذي تفرغ لعبادة ربه ؟ وأنّى يكون للعادات المرذولة سلطان على نفسه ؟ وقد وجدت من الانس بالله وعبادته ما هو خير عندها من الدنيا وما فيها .

ثالثاً ومنها انتشار الثقافة الاسلاميــة ، لأن اجتماع المسلمين فى تلك البقاع الطاهرة . لأداء فريضة الحج ـ فضلا عن كونه يوثق عرى المحبة بينهم ـ فانه من أكبر الوسائل لنشر الثقافة الاسلامية . إذ يلتقي بالعلماء المستنيرين الذين استبطنوا دخائل الدين . وسبروا أغواره وفهموا أسراره ، فيتعلمون منهم ثم يرجعون إلى بلادهم بثروة علمية ، يذيعونها بين أقوامهم . وبذلك تنتشر تعاليم الاسلام الصحيحة ، وتقل الأوهام الباطلة .

رابعاً — ومنها رواج تجارة وصناعة الامم الاسلامية واقتباس كل أمة من غيرها أحسن ماوصلت اليه فى ابتكار المصنوعات النافعة .

وبالجملة : ففوائد الحج ترجع الى أمرين : فوائد دينية أشرنا الى بعضها ، وفوائد أخروية وأهمها ذكر الله في أيام الحج وأداء نسكه . وإلى ذلك أشار الله تعالى بقوله : ﴿ وأذّن في الناس بالحج يأتوك رجالا وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق ، ليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم الله في أيام معدودات على ما رزقهم من بهيمة الأنعام فكلوا منها وأطعموا البائس الفقير ، ثم ليقضوا تفثهم وليوفوا نذورهم وليطوّفوا بالبيت العتيق ﴾ .

خامساً — ومنها ان الله جعل الحج خيراً وبركة على سكان البلاد المقدسة ،

الذين يعيشون بما يصل اليهم من خيرات البلاد الأخرى ، ومما ينفقه الحجاج فى موسم الحج ، إجابة لدعوة سيدنا ابراهيم الخليل (ع) إذ قال ﴿ رب اجعل هذا بلداً آمناً وارزق أهله من الثمرات ﴾ واذا كنا نعلم انه ليس من عبادة — فرضها الله على عباده أو ندبهم اليها — إلا كان القصد منها تطهير النفوس ، وتهذيب الأخلاق ، وتكوين الفضائل ، وتنمية خشية الله فى القلوب ، وتعويدها مراقبته تعالى — ففي الحج انعزال المرء عن أهم مشتهياته ، وانقطاع عن معتاده . واذا أثرت الصلاة فى النفوس خُلق الصبر — فلأن ما يؤثره الحج من ذلك الانقطاع أولى وأوضح .

وإذا كان في الزكاة إنفاق وبذل . فان في الحج انفاقاً أغزر ، وانحلالا من المال أكثر . ولئن كان في الصوم انقطاع المرء عن ملاذه ومشتهياته . ففي الحج كذلك انحباس عن ملاذ ومشتهيات كثيرة . فليس في الحج نساء ، ولا طيب ، ولا لباس ، ولا تزيّن . بل المرء فيه مطالب أن يكون أوضح مظاهر الانخلاع من شؤن تلك الحياة . فاذا كان في الصيام تعويد النفوس الصبر عن ملاذها ومشتهياتها ـ فالحج أعمق في ذلك أثراً وأشد تعويداً . هذا إلى ما نجده في الحج وراء ذلك من مصاعب ومشاق . ففي الحج مفارقة المرء لبيئته وعشيرته . وارتحاله عن وطنه . وفي ذلك من مؤلمات النفس ومدميات الأكباد مالا يحتاج إلى تدليل أو بيان .

وفي الحج مفارقة المرء لزوجه وولده . ونحن نعلم مقدار اتصال القلب بالزوج والولد . كما نعلم مقدار ما يساور المرء من خواطر وآلام ومخاوف حين يفارق أفلاذ كبده ومسكن نفسه . كما اننا لا ننسى أنهم قديماً قالوا : « السفر شقة من العذاب »

هنا وهناك معنى آخر : ذلك أن الانسان اذا تصور ما في نهاية سفره من متع وملهيات ، ومظاهر الحياة — كان له في ذلك بعض العزاء عما يلاقيه من مصاعب ومتاعب . أما والحاج انما يذهب الى تلك البقعة التي تجردت عن كل متعة ، وعن كل مُلهٍ ، وعن كل مظهر من مظاهر الحياة الخصيبة ، لذلك كان الحج من أدل العبادات على الامتثال ، واخلاص العمل لله ، فلا غرو أن يكون الحج من أفضل ما يسطر للمرء في كتاب اعماله — الذي سيلقاه أو سيقرؤه — ﴿ يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً ﴾ .

نعم للحج من بين العبادات مظهر خاص : فهو أكثرها احتواء لرموز العبودية والتقديس . وأوفرها تلويحاً الى حاجة العبد الى ربه ، ففي الاحرام حين يداني الحاج مكة — رمز الى شعور المرء بدخوله حرم المليك وحلوله في ساحته ، فهو لهذا يتجرد عن ملبسه وزيه الذي اعتاده ، والذي قد يكون فيه معنى من معاني النعيم والاعتزاز ، الى مظهر هو عنوان الذل والخضوع . فلا مخيط من الثياب ، ولا طيب ، ولا تيجان على الرؤوس ، ولا قلانس ولا تحلية ولا تزيين .

يقوم الحاج بهذا الرمز حين يداني الكعبة — بيت الله الحرام — حتى اذا وصل الكعبة قام برمز آخر . إذ يطوف حول البيت طواف القدوم — وكأنه يشير بذلك — الى ما يقوم به الوافدون نحو ملوكهم من تمسح بالاركان . وتردد على الاعتاب ومحاولة الاتصال وإظهار العبودية والخضوع ، فاذا أظهر الحاج هذا الخضوع وهذه المحاولة للاتصال بمليكه . كان بعد ذلك ما يشبه الوقوف بحضرة المليك بعد إظهار الاخلاص والتمسح بالاركان ، فيقف الحجاج بعرفة وكأنما هم — في هذه الحالة — في حضرة مليكهم يتسمع الى مطالبهم ، فكلٌ يدعو ربه بما يريد — كما تتقدم الرعية الى امرائهم وملوكهم.

بحاجاتهم ، حتى اذا أتبعوا هذا المظهر بمظهر آخر ، وهو السعي بين الصفا والمروة ، يرمزون بذلك الى تأكيد الاخلاص . وانهم لم يكونوا فيما أظهروا من خضوع — انما يحاولون الحصول على مطالبهم . ثم يسارعون الى الانصراف من ساحة المليك — بل يريدون أن يقولوا : إنا خاضعون ومحبون لذاتك . ولا نبغي من وراء تقديسك وعبادتك سوى وجهك الكريم .

هذا الى رموز وتلويحات أخرى تحقق أن الحج من أفضل العبادات وأكثرها ثوابا عند الله . ولا أدل على هذا من أنك تجد اسلوب فرضه على الناس يغاير كل اسلوب طلبت به عبادة أخرى .

ففي الصلاة يقول الله تعالى : ﴿ اقيموا الصلواة وآتوا الزكوة ﴾ فلم يزد على الأمر بها ، دون أن ينسب فى الآية الأمر لنفسه . وفي الصيام يقول جل شأنه : ﴿ كتب عليكم الصيام ﴾ فتفهم الآية انه مفروض ، دون أن ينسب هذا الالزام لله تعالى . حتى اذا قرأت آية فرض الحج وجدت اسلوبا يغاير ذلك كله ، إقرأ اذا شئت قوله تعالى : ﴿ ولله على الناس حج البيت من استطاع اليه سبيلا ومن كفر فان الله غني عن العالمين ﴾ فانظر كيف عبر بأوضح أساليب الالزام إذ يقول : — على الناس — تراه الى هذا قد نوّه بمشقته وصعوبته فقال : — من استطاع — ولا يقال فى جانب الأمر : — مستطاع أو غير مستطاع — الا وهو شاق خطير . ثم هو الى هذا قسم الناس قسمين : فجعل منهم المستطيع وغير المستطيع ، مما يدل على عظم المشقة . ووراء هذا وذاك تراه قد جعل الاعراض عنه واهماله كفراً إذ يقول : ﴿ ومن كفر فان الله غني عن العالمين ﴾ .

فمن حق ما فى الحج من فضل بمشقته ، ومن وفر عبوديته بما فيه من رموز التقديس ، ومن حق ما كان فى طلبه من عناية أن يدعو المؤمنين الى القيام بهذه

العبادة لينالوا من ربهم أجزل أجر وأحسن جزاء . وفى الحديث الشريف : « من حج فلم يرفث ولم يفسق رجع كيوم ولدته أمه » . ومعنى ذلك : ان الانسان يولد على الفطرة ، طاهر النفس ، صافي الروح ، لا يدرك من هذا العالم المادي وما يضطرم فيه من النزعات المادية شيئًا ، ولا تعلق روحه بأوزاره ولاتنزع الى مايستهوي الناس من متعه ـ التي طغت على صفاء الأرواح ـ فصارت سجنًا لها ، وقيوداً حالت بينها و بين المثل العليا .

والكمال الروحي ـ الذي استمتع به من اصطفاهم الله تعالى من خلقه ، ولا يزال الوليد على هذا الصفاء الفطري لأول عهده في هذه الحياة الدنيا ـ ليس بينه و بين المادة وظلماتها اتصال .

وما أشبه روحه في هذا الطور ـ من أطوار حياته ـ بصفحة بيضاء ناصعة لم تخط فيها يد الأهواء سطراً من سطور الآثام ، ولا تطمح نفسه إلى شيء من الدنيا ، غير قطرات من اللبن يسيغها حلقه ، فتطفيء غليل الجوع والعطش فى معدته وأمعائه ، فاذا هو بعدها رضي النفس ، باسم للحياة ، قانع بما قسم الله له من الرزق ، لايطلب شيئًاولايطمع في شيء ، ولا يزعجه شيء . اللهم إلامايتعرض له كل مخلوق من ألم في الجسم لا يعبر عنه الطفل إلا بالبكاء والدموع ، ثم هو بعد ذلك سابح في صمته الطويل . ينظر الى هذه الدنيا نظر الغريب الى ماحوله لحداثة عهده بها . فاذا داعب النوم أجفانه استسلم له وسبح فى أحلامه اللذيذة حتى يقضي إربته منه ، فاذا درج الطفل الى الصبا . ونضا عنه ثوب الطفولة . وأخذ يدرك ما حوله من الأشياء ـ تنبهت غرائزه الكامنة في نفسه . واستيقظت من غفوتها لتحدث أثرها فى حياته .

وإن من أقوى الغرائز سلطانًا على نفسه ـ في ذلك الطور من حياته ـ

غريزة حب التملك التي تسيطر على الانسان طول حياته . فترى الصبي يحب أن يتملك كل ما وصلت اليه يداه ، ويحس من ذلك بلذة لا تعدلها لذة ، ويبكي إن حاول غيره أن ينزع ما في يده . وكلما تقدمت به السن قوي سلطان هذه الغريزة في نفسه ، حتى لقد تدفع بعض الناس إلى انتهاك الحرمات ، واقتحام الأخطار فى سبيل إرضائها . ولا يزال الطفل تتنبه غرائزه الواحدة بعد الاخرى حتى يصل إلى طور الشباب ، فاذا هو محاط بجند قوي من غرائزه ، إن لم يواته الحظ باخضاعه لسلطان العقل والعين ، والحكمة والعلم والخلق القويم ، فيوشك أن تضل غرائزه فيرتفع عن سبيل الحق والرشاد .

وعندما يبدأ إتصال الطفل بالبيئات المختلفة ـ التي يعيش فيها ـ فلا بد أن يتأثر بكل مايسود تلك البيئات من عوامل الخير والشر . وتنطبع فى نفسه سورة منها ، ويقوى تأثره بها ، ويضعف بحسب استعداده ومزاجه وقابليته لعدوى البيئة ، ومناعة نفسه أو ضعفها . فتسمو نفسه وتنصقل بحسب ما يسري اليها من من عدوى البيئة .

فاذا وصل إلى طور الشباب وزاد اتصاله بالعالم ـ تجاذبته العوامل المختلفة التي تسيطر على نفوس الناس جميعاً . فيجد نفسه في عالم يموج بشتى النزعات . ويجدها محاطة من شهواته وغرائزه بقوة جبارة . لا ينجو من سلطانها إلا من وفقهم الله تعالى للسمو عليها بما يهبهم من سلطان الدين والحكمة .

وأكثر مايستهوي الانسان ـ فى هذا الطور من حياته ـ هو حب المال والنساء . ومنافسة غيره في متاع الحياة الدنيا وزخرفها البرّاق الذي يخدع أفكار الناس فيصرف أرواحهم عن متعة الحياة الروحية . والاتصال بالله تعالى إتصال عبودية وإيمان قوي . إلى التعلق بالحياة المادية . التي أذلت الناس وقتلتهم

وهم يحسبون أنهم يحيون بها . وما أكثر ماتجرّه الحياة المادية على الناس من محن وأرزاء ، وهم في غفلتهم يعمهون .

يشقى الناس بهذه الحياة المادية . ويكثر الفساد في الأرض لولوعهم بحبها . وكلما زاد افتتانهم بهـا زاد شقاؤهم وكثرت آلامهم . ولقد كثرت الشرور فى الأرض من جراء تهالك الناس على تقديس المادة . حتى أصبحت حياة أكثرهم سجناً لايحتمل .

أفليس من حكمة الله ـ العليم في تدبيره وتشريعه أن يشرع للناس من العبادات ما يخرجهم بها من سجن الحياة المادية ، إلى إطلاق الحياة الروحية التي يسمو بها سلطان الروح على قيود المادة الثقيلة المرهقة ؟ وترجع بها الروح الانسانية إلى صفاء الفطرة ، وتسمو بها عن الأهواء والشهوات والمنازع المادية ، إلى أُفق الكمالات الانسانية ، وتتصل فيها بالله تعالى اتصال إيمان وعبودية ، فتشهد من عظمته ماتعنو له وجوه الكائنات ، وتشهد من أسرار حكمته ما يتضاءل أمامه كل مافي الكون من مغريات ، وتتنزه فيها النفس عن كل مايدنسها من أقذار المطامع المادية والأهواء الردية ، ويجد فيها الناس جميعاً مايجذب أرواحهم بعضها إلى بعض فيوثق بينها العلائق على أساس المحبة الكاملة ، لأنها محبة بالله لا يشوبها من الأغراض مايكدرها ، ويحيلها إلى علاقات معلولة ضررها أكثر من نفعها . لذلك شرّع الله الحج على كل من استطاع اليـه سبيلا ، ليجد المسلمون ـ أثناء تأدية مناسكه ـ فرصة يتجردون فيها من تعلقهم بالحياة المادية ، ويروضون فيها أنفسهم بعبادة الله ، لتعود إلى صفاء الفطرة نقية من الأوزار والذنوب ، وكل ما يحجب العبد عن الاتصال بالله تعالى . فكان تشريعه من أجل مظاهر الرحمة الالآهية

بنفوسنا المريضة مما يلح عليها من أوزار المجتمع ، وما يستهويها من فنون الحياة الدنيا

ولكي تتم الحكمة المقصودة من تشريع الحج ـ أمر الله تعالى كل من فرض عليه الحج في أشهره أن يتجنب الرفث والفسوق والجدال في الحج ، فاذا حج العبد ولم يرفث ولم يفسق طهرت نفسه من الأوزار والذنوب ، ورجع من حجه نقي النفس طاهر السريرة ، كالطفل يوم ولدته أمه . وقد أسلفنا ان أنقى ما تكون النفس الانسانية ـ إنما يكون في دور الطفولة . فاذا تطهرت من أدران الذنوب رجع الانسان من حجه مغفوراً له ، ليس عليه تبعة ولا مؤاخذة كيوم ولدته أمه . وهذا معنى قوله عليه الصلاة والسلام : (من حج لله ولم يرفث ولم يفسق رجع كيوم ولدته أمه) والحديث ظاهر في أن الله تعالى يغفر له بحجة الصغائر والكبائر .

ولم يدعنا ـ اللطيف بعباده الحكيم بفعاله ـ إلى زيارة بيته وتأدية نسكه إلا ليختبر أينا أحسن عملا وأهدى طريقاً ؟ وأينا يدرك هذه الحكمة الالآهية من اجتماع المسلمين في بقعة واحدة فيتعارف الشرقي بالغربي ، ويتعاون العربي والعجمي ، فيسهل عليهم أن يضعوا دستوراً لمعاشهم ، ومنهاجاً لصلاحهم ، ويدعمونه بسلطان من شجاعتهم ، وقوة من نفوذهم . ولا يحس الدين بما جرته سياسة الطغيان ، من انفراج الحال بين المذاهب الاسلامية ، وجفاف الثرى بين الوشائج المحمدية ، وهناك يتسع أفق تفكيرهم ، وينفسح مدى نظرهم ، فلا يقنعون بالدون ، ولا ولا يستنيمون الى الهون . فتنقلب أشتات الامة الى الوحدة ، وترتد أموات الجهالة الى البعث ، وتفيء أسرى العبودية الى التحرر .

هذه حكمة من معاني الحج ، وقبس من نوره ، أدرك آباؤنا السابقون

سره ، وعقلوا أمره ، وتمثلوه روحاً ومعنى ، فملأهم الدين بما فهموا عزة وقوة وآتاهم حكمة وعلماً ووهبهم خير النظم — كفالة للحق وضماناً للحرية والكرامة ، فوحد الله به عقائدهم ، وألف بين قلوبهم ، وربطهم بحبل من تراحم وتضامن ، وأحلهم من سمو الخلق والعزة مكانا لم تبلغه قبلهم أمة من الغابرين . فكانوا يدركون من أسراره انه شريعة اجتماعية ، تؤديها الكعبة الى الامم الاسلامية ، هي : تعارف أبناء الاسلام واجتماع كبرائهم وقادتهم ، يتشاورون فيما يعود على الدين بالقوة وعلى أبنائه بالسعادة ، ويشرفون على تجلية الروح وتهذيب النفوس المحمدية . وتنظيم الدواء لهذه الأدواء ، ومعالجة المشاكل التي تمس العصر ، وتنظيم الاحسان والقيام بالخدمة العامة بين الأغنياء والفقراء ، وإسداء النصح فيما يعرض للمسلمين من صعاب ، ويوثقون وشائج الأرحام . ويربطون صلات التآلف والتعارف فيقضى على المنازعات والخصومات .

هذا هو الحج كما كان ، وكما ينبغي أن يكون — قوي الأثر في النواحي الروحية ، والاجتماعية ، والتعليمية . يغار على تأديته المؤمنون ، ويرون أن منارته ينبعث منها الاصلاح في جميع نواحيه :

المتعلمون في نشر ثقافته .

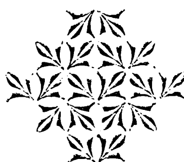
الاغنياء في تشجيع فريضته .

الفقراء في تمني فضيلته .

من هذا يتبين ان قواعد الاسلام الخمس إنما هي دعائم لمصالح الناس ، وأسس تبنى عليها سعادتهم ، وكل قاعدة منها عماد لامهات من الفضائل ، وسبيل

إلى خيري الدنيا والآخرة ـ لو رعاها المسلمون حق رعايتها ، وألموا بأحكامها وأسرارها . وقاموا حق القيام بواجباتها .

وأجل خدمة علمية دينية للمسلمين ـ أن يمهد لهم السبيل إلى العلم بهذه القواعد ومعرفتها . على أكمل وجوهها . حتى يكون المسلم فى عقيدته مؤمنا على علم ، مطمئنا إلى الايمان قلبه . لاتشوب عقيدته أوهام ولا أباطيل .



الحجاب رمز الفضيلة

﴿ قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم ذلك أزكى لهم ان الله خبير بما يصنعون * وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ويحفظن فروجهن ولا يبدين زينتهن إلا ما ظهر منها وليضربن بخمرهن على جيوبهن ولا يبدين زينتهن إلا لبعولتهن أو آباء بعولتهن أو أبنائهن أو أبناء بعولتهن أو اخوانهن أو بني اخوانهن أو بني أخواتهن أو نسائهن أو ماملكت أيمانهن أو التابعين غير اولى الإربة من الرجال أو الطفل الذين لم يظهروا على عورات النساء ولا يضربن بأرجلهن ليعلم ما يخفين من زينتهن وتوبوا إلى الله جميعاً أيها المؤمنون لعلكم تفلحون ﴾ «١» .　　　　« قرآن كريم »

ان من الواجب على كل متدين بهذا الدين الاسلامي الحنيف ـ البحث والتدقيق عما جاء به القرآن الكريم وأرشد اليه ، من الصفات والأخلاق ليتبع ويؤخذ به ، فانه الميزان الذي يجب ان نعرض عليه العقائد والأعمال ، فان هذا العصر ـ الذي أوجدت ظروفه أوصروفه اختلاط الشرقيين بالغربيين ، وخطف برق مدنيتهم المادية أبصار بعض من لازال يتخبط في دياجير الجهل ـ كثر اسم

(١) سورة النور آية ٣٠ و ٣١

الاصلاح والمصلحين ، حتى صار كل من ساعده الوقت على التشبه بأبناء الغرب يرى نفسه مصلحاً ، ويشن الغارة الشعواء على الآداب الاسلامية الحقة . والعادات الدينية النزيهة . طمعاً في ترويج أغراضه الشخصية ومقاصده النفسية – كالجماعة الذين يطالبون بسفور نساء المسلمين وهتك حجاب العفاف عنهن . وابرازهن في ميادين الرجال . زاعمين : ان المدنية لا تتم بدون ذلك ، والعمران لا يكمل بغير هذا « وهم يحسبون انهم يحسنون صنعاً ألا إنهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون »

فرغبت أن أبحث حول وجوب الحجاب وفلسفته — ما أمكنني — وأشرح الأضرار الناجمة من السفور — ما وسعني — وأورد من الأدلة السمعية والعملية ما حضرني . فان أدعياء السفور لا زالوا ولا يزالون يقرعون أسماع العامة من الناس بأن الشرع الاسلامي لم يأت بالحجاب ، وانما أتى به المسلمون من تلقاء أنفسهم ! وربما صدّق ما يقولونه بعض جهلة الناس — من العوام — من غير مراجعة أهل العلم . وطالما سمعت النزاع والجدال الذي يقع بينهم فى النوادي والمقاهي بهذا الخصوص .

واني اقتصر على الأدلة القرآنية وما يناسبها من الأحاديث النبوية ، علماً مني أن القوم يأبون من الطعن فى الرواية ولا يسعهم انكار الآية . وربما استعرضت بعض شهادات علماء الغرب وفلاسفتهم التي لها دخل في الموضوع ، — ربنا لا تؤاخذنا بما فعل السفهاء منا — .

وفى الحقيقة أيّ بلية أعظم من أن تسوقنا الظروف ، وتقضي علينا الضرورات بالوقوف في صف البحث مع مثل هذه الناشئة التي كسدت عندها الحقائق ، وراج لديها سوق الاوهام ، فجاءتنا بتيار من الجحود المحض لما سنته الشريعة ، والانكار المجرد لبعض النواميس الدينية المنيعة ، تعتده آلة وأداة

لإبطال كل شاهقة راسخة الدعائم ، مبتنية قصرها المشيد على كل أساس وطيد من العلم والمعارف . وهكذا يفنى الفضل ، وتذهب الفضائل ، ويدرس العلم وتضيع الحقائق .

هكذا يفسد الزمان ويفنى   العلم فيه ويدرس الأثر

غير أني أعطف مقالتي هذه على أخي في الدين المليء غيرة وحمية ، قائلا له : يا طالب العفاف ويا حبيبه — الذي هو أحب لديه من كل محبوب وأنفس من كل مرغوب الذي لعلك تتفاداه بنفسك وتضحي في قربانه دماء أعزتك وافلاذ كبدك — لا يسوءنك ما تسمع وترى من تحامل هؤلاء القوم على عرضك العزيز — الذي تجد انك لا تجد الخير والسعادة إلا بصيانته والتفاني دون سدول حجابه . كلا ، لا يسوءنك ذلك جازعاً كنت أم صبوراً .

وأما إخواني وخلاني من ذوي الفضل والمعارف — اقسمكم بالله لئن عثرتم على زلل وقع لي في موضع — لسوء فهمي للمعاني المقصودة ، أو عروض عي عند التعبير عنها بالفاظ مطلوبة — لتعفون عني ، ولئن اطلعتم على صدور هفوة ، أو قصور خطوة لتذبأنني عليه . فاني اعترف بقصور الباع في الصناعة .

أقول : اعترف باني لست فيلسوفا . ولكن في يدي حقائق من علم الحياة لا تأتي الفلسفة بمثلها ، وكتابي ـ الذي تقرأ فيه ـ هو الشارح . واليك ما أقول :

المرأة هي المخلوق الذي أنشأه الباري تعالى حرثاً للرجل ، وزين كلاً منهما في عين الآخر ، وربط قلبيهما برابط الحب — تكثيراً للنوع الانساني ، وكلفها بما كلف به الرجل من الدين والايمان ، وتصديق الشرايع والرسل ، والامتثال للأوامر الالآهية والانتهاء بالنواهي الربانية ، وأوجب على الرجل القيام بشئونها وسد خلتها ، من الانفاق عليها بجميع ما يؤمن حياتها ويضمن

ارتياحها ، وكلفه بالسعي والطلب لمعيشته ومعيشتها ، ولم يكلفها سوى تربية ذراريها ومداراتهم ، وحثها على غض البصر عن غير محارمها . وعدم ابداء الزينة لسواهم .

كما نهى جل وعلا عن الخلوة بالمرأة الاجنبية — مع عدم حضور أحد محارمها — على لسان نبيه الكريم قال « ص » : « لا يخلو أحدكم بامرأة إلا مع ذي محرم » . وكان « ص » لا يأذن للمرأة بالخروج من بيتها إلا لحاجة تخشى فواتها . فضلا عن أن تسافر وحدها . ولذلك قال : المرأة عورة . وانها اذا خرجت من بيتها استشرفها الشيطان » كل ذلك لحفظ نظام البشرية . وتأمين العائلة الانسانية . وسد باب الفتنة . والكف عن دواعي الفاحشة .

وقال « ص » : « من أطاع امرأته اكبه الله على وجهه في النار » قيل وما تلك الطاعة يا رسول الله قال : تطلب منه الذهاب الى الحمامات والأعراس والاعياد والنياحات وما أشبه ذلك » وقال (ص) : لابنته فاطمة (ع) : أي بنية أيّ شيء خير للمرأة ؟ قالت : ان لا ترى رجلا ولا يراها رجل . فضمها اليه وقال : ذرية بعضها من بعض . وكان أصحاب النبي (ص) يسدون الثقب والكوى في الحيطان لئلا تطلع النساء على الرجال .

وما روي عنه (ص) — أنه أذن للنساء في حضور المساجد . وقال : لا تمنعوا إماء الله مساجد الله . فالظاهر انه كان مختصاً بنساء عصره لعلمه بعدم ترتب فساد على حضورهن فيها ، والصواب اليوم أن يمنعن من حضور المساجد والذهاب الى المشاهد إلا العجائز منهن ، للقطع بترتب الفساد والمعصية على خروج نساء هذا العصر الى أي موضع كان . وقد استصوب أيضاً ما قالوا : لو علم رسول الله (ص) ما أحدث النساء بعده لمنعهن من الخروج بالمرة . وسئل

الصادق جعفر بن محمد (ع) عن خروج النساء فى العيدين ؟ فقال : لا ، إلا عجوز عليها خفّيها .

وان عائشة بنت طلحة زوجة مصعب بن الزبير كانت من أجمل نساء عصرها وأكثرهن تديناً ، وكانت تحرص على أن لا يفوتها فرض صلاة في المسجد حتى صلاة العشاء ، وكان مصعب يغار عليها في مثل هذا الوقت فيمعن فى اقناعها أن لا تذهب وتأبى أن تجيبه الى طلبه ، وقد كانت مطبوعة على العناد وقاسية فى معاشرة الزوج ، أبية على كل طاعة ، وذلك ما كان يعزز حبها في نفسه .

فعمد ذات عشية الى تأثرها خفية ـ وهي تذهب للصلاة ـ وكان الجو مظلماً ثم خالفها الطريق وكمن لها فى احد المنعطفات . فلما جازته ولم تره غمزها بيده فى كتفها وعاد الى كمينه ، فرجعت من حيث اتت ، فكان هو اسبق منها الى المنزل عن طريق آخر . وفى عشية اليوم التالي قعدت عن الذهاب الى الصلاة في المسجد ، فسألها السبب ؟ فقالت: « كنا نذهب اذ الناس ناس ... » فليتأمل من اوتي حظاً من بيان العرب — روعة هذا الجواب . ثم ليعد الى ناموس التشريعة الاسلامية وليعمل بها . وجماع القول — فان من اطلع على احوال نساء امثال عصرنا يعلم ان مقتضى الغيرة ان يبالغ فى حفظهن عن جميع ما يحتمل ان يؤدي الى فتنة وفساد . والمدنية — الرعناء اليوم — ساوت بين الرجل والمرأة . ولم تفرق بينهما فى جميع الشئون ، فاصبحت المرأة تشتغل فى الاسواق مع الرجال . وتقامرهم فى أندية الميسر ، وتخاصرهم في محافل الرقص ، وتنادمهم في مجالس الانس والطرب ، وهكذا وصار ذلك معدوداً من عوائد هذه المدنية . ونحن لا نلوم من رضي بها من أهلها ، لأنه أعرف بدينه وعاداته ، وإنما نوجه اللوم إلى شباننا المتعلمين ـ الذين

عقدنا عليهم الآمال - في أن يخدموا دينهم الحنيف وامتهم الكريمة بما يخفف بعض الويلات عنها ، ويداوي شيئاً من آلامها ، واذا بهم يحملون أوقاراً من هذه المدنية ويطلبون من النساء المسلمات أن يخضعن لها ، ويطأطئن رؤسهن أمامها ، كأنهم يريدون دك التعاليم الاسلامية الحقة ، وهدم التقاليد الدينية المحبوبة بترك المرأة حبلها على غاربها ، تعمل ماشاءت وشاء لها الهوى .

تخذتكم درعاً حصيناً لتمنعوا سهام العدى عني فكنتم نصالها
وقد كنت أرجو منكم خير ناصر على حين خذلان اليمين شمالها
فان كنتموا لم تحفظوا لي مودتي ذماماً فكونوا لا عليّ ولا لها
قفوا موقف المعذور عني بمعزل وخلوا نبالي والعدى ونبالها

ان هذه المدنية جعلت الرقص علماً من العلوم ، وفتحت باب المدارس للطالبات ، فتسافر الفتاة من بلادها للبلاد التي فيها تلك المدارس - وهي في الثانية عشرة من عمرها - لتتعلم الرقص . ومن جملة فنون الرقص المذكور أن تنزل الفتاة والفتى على المسرح ويحتضن كل منهما صاحبه بمحضر من الناس ، وتتلاصق ابدانهما ، وتتواصل صدورهما ، وتلتف ساقاهما ، ويشدان الخناصر تبعاً لتمايلهما الى اليمين والشمال ! ومن العوائد المعروفة انه اذا حضرت الفتاة نادي الرقص ولم يدعها احد من الرجال للرقص معه - غضبت ، وحسبت ذلك إهانة لها واذا دعاها احد ولم تقم معه رأى انها أهانته بعدم قيامها ، وكم من فتنة تثور في هذه المقامات؟!

فهل تسمح النفوس المسلمة لنسائهم بمثل هذا الحال ؟ وهل ترضى المرأة المسلمة التي خاطبها دينها بقوله : - لا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى - ان تتدين بشيء منها ؟ نعم التعليم الذي يأمر به دينها هو من الأمور المطلوبة منها .

لم يهمل الدين الاسلامي أمر المرأة ، ولم يتركها تتخبط في دياجير الجهل - كما

يقول المتعصبون على الاسلام ـ بل أمر بتعليمها تعليماً يوافق طبايعها ، ويلائم احساساتها ويناسب عواطفها . ولما كانت المرأة رقيقة الطبع ، ضعيفة القوى ، سريعة التأثر كما نشاهد ذلك منها بالضرورة ـ أوجب الدين الحنيف على الرجل مداراة أحوالها . وحسن معاشرتها . وكلفه بادارة شؤنها الحيوية ، وعدم الضغط عليها بما يحصل معه انكسارها . وحدد لها وظائفها الخاصة بها . فالتعليم الذي يكون للمرأة ضمن دائرة الدين وأن تحيط علماً بالأمور الآتية .

١ — القرآن الكريم وتصحيح القراءة فيه .

٢ — المبادىء الدينية والعقائد الاسلامية لتكون إمرأة متدينـــة ممتثلة لأوامر الدين . مجتنبة لنواهيه صحيحة العقائد قد نشأت منشأً مباركاً . وعلمت ما لها وعليها من الحقوق التي فرضها الله تعالى .

٣ — الاخلاق لتكتسب الفاضلة منها كالحياء والعفة والصدق والامانة والوفاء . وتجتنب السافلة منها ، كالوقاحة والتبذل والكذب والخيانة والخداع وتكون قدوة صالحة الذكور والاناث في أولادها . وريحانة عبقـــة لزوجها ، وروضة غنّاء للنساء من أقاربها وجيرانها .

٤ — العربية كالنحو والصرف والمعاني لتقويم لسانها وتهذيب منطقها .

٥ — التفسير لتفهم ما تتلوه من كتاب الله وتستفيد من حكمه ومواعظه وأحكامه .

٦ — التربية وهي من أهم الأمور لها لانها المدرسة الاولى للبنين والبنات من أولادها .

٧ — معرفة ادارة المنزل لانها من خصائصها التي لا يشاركها فيها أحد . واذا أرادت التوسع فالخياطة والغزل وامثالها مما لا يخرجها عن كونهـــا

إمرأة ، ولا يستوجب تمردها على نواميس الطبيعة .

والمدنية ساوت بين الرجل والمرأة في التعليم ، وأبرزت المرأة الى ميدان العمل ، وتركتها تكافح في طلب رزقها ضمن معترك الحياة .

تغافل قوم من عشاق الجديد عن مركز المرأة الطبيعي . وعن وظيفتها الحقيقية فسموا أنفسهم محرري المرأة . وهم فى الحقيقة يريدون استعبادها . وأخذوا يطالبون بنزولها معهم في ميدان العمل مقترحين إنفصالها عن مواهبها التي خلقت لأجلها ، فلهم في كل يوم للمرأة إستنهاض جديد . وتحريض طري على إخراجها من خدرها الكافل لعصمتها . وإبرازها من سترها الصائن لشرفها ، صارخين : الاشغال تعطلت . الصنائع بطلت . العلوم إندرست ، إنهضن أيتها النساء لاحياء ما مات من مجدنا . وتلافين ما مضى من فخرنا . فكأنما فرغوا من تكميل الرجال فالتفتوا الى سد الفراغ بالنساء . فليت شعري أين هم عن الشبان الذين يقضون ليلهم ونهارهم فى المقاهي والملاهي . بل عن الكهول الذين لا شغل لهم إلا البطالة والسفلة . فيشغلونهم بتلك الامور التي يندبون النساء للاشتغال فيها . حتي إذا بقي شيء من الاعمال التى يحتاج اليها المجتمع وليس له عامل من الرجال يقوم به لاشتغال الجميع بأنواع الاعمال ندبوا اليه المرأة .

إن نهضة الرجال أولى من نهضة النساء . والرجل أقوى من المرأة وأقدر منها على العمل . وأصبر على المشاق فلماذا نتركه خاملا ينتقل من مقهى الى مقهى يقهره الافلاس وتهينه البطالة . ونذهب إلى المرأة الضعيفة التي أشغلتها الطبيعة بأشغال تخصها ، ووظفتها بوظائف لابد لها من تأديتها ، ونكلفها بما لا تطيقه من تكليفات أخرى ! . لا أستطيع أن أقول هذا نوع من السفه ولله در العلامة المرحوم الشيخ عبد الحسين الحلي إذ يقول :

تحجبي ياابنة العرب الذين رأوا أن السفور رقي الخرد العين
أقل عمالهم حتى لك التجأوا أم أنت أحكم ضبطا للدواوين
كفاك تربية الأولاد مشغلة وخدمة البيت عن سن القوانين
أفسدت صالحنا المثري محجبة فان سفرت فما حال المساكين
صوني جمالك عن لحظ العيون فما من فتنة مثله ثارت لمفتون
ليس الصيانة تغني البنت إن برزت بلا حجاب وما صينت بتحصين
ولا تعلمها ما لا غناء لها عنه بابرازها حسرى لمقرون
ليس التمدن وقفاً في الأنام على جز الشعور ولا حلق العثانين
ولا الرقي الذى فيه سعادتهم لبس البرانيط أو نزع الخفاتين
تلكم تمارين أعمال قد إستترت ويل لمستور هاتيك التمارين
قد أهملوها لترعى والذئآب معا والذئب ليس على شاة بمأمون
وذكروها على التأنيث فاجتلبوا للحسن فتنة تحسين وتزيين
عمري لقد بدلوا بالغى رشدهم وأستبدلوا أفضل الأديان بالدون
قالوا ربحنا ولا والله ماربحوا بفعلهم غير خسران الموازين
قالوا اخطونا المدى قدماو ماار تفعوا ولا خطوا قدما إلا عن الدين
لا يمنع الدين من نيل الرقي أهل فيمن رقى أمة كانت بلادين
ياوردة العرب صوني ما كرمت به لا تبدلي عزة التخدير بالهون
فالورد أطيب نشراً حين يبرزه كمٌ وأنظر لونًا فى البساتين
قدهان صيدك بعداليوم فاحتفظي لا تعتلق بك اشراك الشياطين

إن هؤلاء الاغرار الذين يكتبون ما يكتبون فى تحبيذ السفور و نبذ العفاف طمعافي تأدية حقوق التقليد للغربيين هل من قائل عني لهم: إنه إن كان ولا بدمن التقليد

للغربيين والعكوف على مبادئهم . والتطفل على فضلات موائدهم . فهلا يكون لتلك الطائفة لروحية منهم التي هي الى مبادئكم أدنى وبها أشبه والى الادب أقرب وبحفظ النظام ونواميس الشرف أوفى وأكفى . ولدرء المفاسد والشرور ألزم وأتم ؟ ولكن حب الذات والميل الى الشهوات هو الذي زين لكم هذه الاحوال التي تكاد القرود تهزأ وتسخر منها . على أن فيها محو كل فضيلة ومحق كل أدب وإزهاق روح كل علم ومعرفة .

إن بعض الشعوب لما تجاوزت هذا النظام وتحللت من العفاف وقعت في مشاكل تنحل معها الانسانية . وتنهار بها القومية ، كما أصاب إيطاليا وفرنسا في عصورها المتأخرة . وإسمع ماقاله رئيس جامعة (إنابر في ولايات مشغن من أعمال امريكا الشمالية) سنة ـ ٩٣١ ـ قال : (ان تحرر الفتى والفتاة من العفاف حال دون التزاوج . واصبحت المرأة احرص ما تكون على جمالها من الحمل والولادة ، وخشيت الحكومة ان تنقرض الامة بعد جيل او جيلين ، لذلك شرعت تحريم البغاء) . هكذا ذكر الاستاذ الحوماني في كتابه ـ دين وتمدين ـ وقد كان شاهد الحفل وسمع الخطاب .

اقول : إن اهل هذه المدنية انفسهم يتذمرون من طغيانها ، وينذرون قومهم ان يخرجوا من طوفانها . لما شاهدوه من المستفضعات والمناكر وارتكاب السافرات للجرائم والخيانات . من القتل والسرقة وغيرها . وكان كل ذلك نتيجة حب وإرضاء شهوة . وأمثالهما ، مما لا يوجد له سبب الا التبرجة والسفور والاختلاط بالرجال . وأود أن أنقل في هذا الفصل بعض تلك الجرائم ، ليعلم ذو اللب أن السفور لابد وأن يؤدي الى هلاك المرأة . وإن طلاب التبرج إنما هم من ألد أعداء المرأة ، وأقتصر في نقلي على ماجاء في مجلة الحقوق الفلسطينية

ومجلة كل شيء .

نقلت مجلة الحقوق : إن البوليس القى القبض على فتاة كانت قد قتلت رجالا وسرقت أموالا وشلحت على قارعة الطريق . وأعيت حيلها البوليس ، وتمكنت مراراً عديدة من الافلات من يدي عشرات من رجال الشرطة .

هذه الفتاة كان لها في اللصوصية طريقة مبتكرة تستدعي كثيراً من الشجاعة فهي تدخل المخازن وتشهر مسدساً بيدها بسرعة هائلة . مهددة بالقتل من يرفع صوته أو يحرك يده . وتتوجه رأساً الى صندوق المال فتستلم الموجود فيه ، وتخرج بسرعة وتركب سيارتها الى حيث تشاء . وتعود بعد مدة الى عملها السابق . وقد ضج الناس أخيراً منها . وتناولت الجرائد أخبارها . فكتبت عنها الفصول الطويلة ومما يروى عنها : دخلت ذات يوم مخزن حلاق مشهرة مسدسها ، وطلبت من الحاضرين تسليم ما في جيوبهم في الحال فضحكوا منها ولم يعبأوا بها ، ظناً منهم انها خلاّعة . ولم تمض دقيقة واحدة على عدم اكتراثهم ـ حتى سقط منهم اثنان يختبطان بدمائهما من رصاص مسدسها . فسلمها الباقون مامعهم من المال . واختفت كعادتها اختفاء غريباً . والسبب في وقوعها بأيدي الشرطة هو التجاؤها الى احد البيوت بسبب الولادة . لأنها كانت حاملا فالقي القبض عليها .

وروت ايضاً : ان سيدة ـ مرتدية أفخر الملابس وعليها من الحلي الشيء الكثير ـ جاءت ذات يوم الى السجن على سيارتها ، فدنت من السجان وطلبت منه السماح لها بمقابلة احد المسجونين . مدعية انه من اقاربها . فسمح لها بمقابلته من وراء الشباك الحديد ، فدنت منه فحادثته ولم يسمع احد حديثهما ، ولما همت بالانصراف قبلته في فمه قبلة مستطيلة وانسحبت وهي تبكي ، فتأثر الحارس لها وامسكها من يدها للمعاونة ، حتى اوصلها الى السيارة فشكرته على صنيعه ، وركبت

سيارتها وانصرفت . ولما عاد الحارس الى غرفة السجين رآه ملقى على الحضيض ووجهه الى الأرض فظن أنه أصيب باغماء لتأثره من مقابلة السيدة قريبته ، ففتح الباب ودخل اليه ينهضه فوجده ميتاً . ولدى الفحص الطبي عليه وجد أنه مات مسموما ، فعلم أن السم سرى اليه من تلك القبلة حيث كانت وضعت السم في فمها ، وفتشوا عن المرأة فلم يهتدوا اليها .

وفي مجلة كل شيء : كانت إمرأة قديسة تلقي العظات في الكنائس . وهي مبشرة امريكية ولها زوج تحبه حباً شديداً يقرب من العبادة ، فرأته ذات يوم في الشارع ومعه فتاة مترسلة على رسلها في الشارع . فظنت انها صديقة له فتبعتها وزارت محلها واطلقت عليها رصاص مسدسها . هذا وهي لا زالت تعظ الناس وترشدهم .

وفيها أيضاً : أن إمرأة حسناء كان لها غريم بذلت كل شيء في سبيله ، وكان والدها رئيس جزيرة (سانت ماري) فنهاها عن مصاحبته يوماً ، فاخبرت عشيقها بذلك وحرضته على ابيها حتى ألقوه في البحر حياً نصب عينيها .

هذه قطرة من بحار جرائم المرأة السافرة . ومن هذا النوع شيء كثير جداً لا يمكننا حصره .

فهل توافق هذه الأحوال العادات الشرقية . وهل تناسب الغيرة الاسلامية والحمية العربية ؟ وهل يجوز لذي مسكة من أبناء المسلمين أن يدعو الناس الى اقتباسها فى بلاد آمنة مطمئنة قد اشتغل كل فرد من أفراد العوائل فيها بوظيفته الخاصة التي كلفه الباري تعالى بها . غير خارج على أحكام الطبيعة . ولا مخل بنظام الكون ، قد قيدته القوانين الآلهية بقيود قبلها على نفسها طوعاً ، من غير أن يكرهه مكره عليها . ولا يطلب الانفصال عنها في حين من أحيان حياته

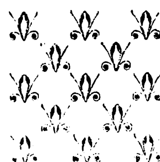
بل انه يرى سعادته بها حياً وميتاً .

وأرى لذة للنفس وتنويراً للفكر أن استطرد لقراء كتابي — الجواهر الروحية ـ فكاهة كان يتندر بها في هذه المناسبة استاذنا التبريزي .

نادرة

جرت مذاكرة حول الحجاب والسفور سنة ـ ١٣٦٨ هـ ـ بحضرة أستاذنا سماحة الحجة السيد محمد جواد التبريزي دام ظله . فتفضل علينا بأن قال : سأنقل اليكم قضية تكون فصل الخطاب . وهي أنه جرت مفاوضة فى موضوع الحجاب بين أحد سفراء الروس وعمي . نقل لي أحد الثقات عن ابن عمي عن أبيه قال : كان للحكومة الروسية سفير فى تبريز يستحسن أخلاق الأسلام ومباديه الدينية عدا الحجاب وكان يقول هذا غير صحيح ، لأنه حبس فى الحقيقة للمرأة . وكان عمي يعدد له فوائد الحجاب وأنه الحاسم لمادة الفساد ، لأن الرجل إذا لم يطلع على محاسن المرأة يكون هو والمرأة فى راحة . ولم يكن الرجل بصدد التعرض لها . وهذا بخلاف ما اذا كانت المرأة سافرة متبرجة بجمالها الفتان فانه يستعقب من الفساد ما لا يحصى . وكان السفير لا يقنع بذلك كله . فاتفق أن الشاه ناصر الدين ملك ايران رجع من سفره لبلاده . وقام أهل البلد باستقباله والحفاوة بقدومه ، فخرج الاعيان والأشراف لاستقباله ولم يكن فى ذاك الوقت لهذه المراكب الجديدة عين ولا أثر ، وكان المستقبلون يركبون الخيل والعربة ، فخرج من خرج ومن جملتهم السفير الروسي وكان راكباً أحسن ما يكون من اناث الخيل ، إذ صادف فى طريقه رجلا قروياً ممتطياً ظهر جواد قوي ، فلما

وقع بصر جواد الرجل القروي على فرس السفير ما أمهله دون أن رمى صاحبه الى الارض وهجم على فرس السفير . فوقع السفير الى الأرض فانكسرت رجله وشج رأسه . واشتغل الحصان بعمله ، وحمل السفير الى المستشفى فكان فيه ستة أشهر الى أن برىء ، فخرج وفي رجله اعوجاج فكان يمشي على عكازة ، فصادفه عمي يوماً في الطريق فرآه يتكىء على عكاز في مشيه قال له عمي : لو كانت فرسك محجبة عن حصان القروي لما انكسرت رجلك وابتليت بما ابتليت . فقال السفير : الآن أذعنت واعترفت بفوائد الحجاب وحسن مشروعيته .



— ٢ —

الحياة العائلية من أجلى مظاهر الحياة العامة . وهي المرآة الكاشفة عن سعادة الانسان وشقائه في دنياه ، بل الرمز الحقيقي لاستراحته وتعبه . وذلك من الأمور المحسوسة لكل أحد ولا يحتاج الى بيان ، ولا يفتقر الى توضيح ، ولا يقبل الجدال والمناقشة ولا سيا القسم الخاص بالزوجين من هذه الحياة ، والداعي لتبادل المحبة والمودة بينهما ، والموجب على كل منهما القيام بتأدية حقوق الآخر الشرعية منها والأدبية . لذلك حث الدين الاسلامي الكريم الأمة المرحومة بالاعتناء فيه وبتحكيم روابطه . قال رسول الله ص : ان أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً . وخياركم خياركم لنسائهم .

جعل الله الزوجة سكناً وأنساً للرجل لخلواته ، فيجب عليه إكرامها والرفق بها ، يعفو عنها إذا جهلت . ويداريها إذا ساء خلقها . ويقوم بشؤن حياتها من الانفاق عليها والالتزام فيما يهمها من الحوائج الضرورية بحكم الشارع الأقدس ، وعند إمتناعه ألزم الحكام إجباره على ذلك . يقول تعالى : « لينفق ذو سعة من سعته ومن قدر عليه رزقه فلينفق مما آتاه الله » . جاء في تفسيرها عن صادق أهل البيت جعفر بن محمد (ع) : « إذا لم ينفق الرجل على إمرأته مايقيم ظهرها مع الكسوة وإلاّ فُرق مابينهما » . وأوجب تعالى على المؤمنين أن يقوموا بالاصلاح بين الزوجين عند حصول الشقاق . كما أمرهم بعموم إصلاح ذات البين لصلاح العائلة . وأوجب التحكيم عند حصول المشاغبة وعدم الاتفاق ، فقال تعالى :

« وإن خفتم شقاق بينهما فابعثوا حكما من أهله وحكماً من أهلها إن يريدا إصلاحا يوفق الله بينهما » .

وحث الرجل وهو رأس العائلة على التوسعة على عياله ، على لسان نبيه الكريم حيث قال (ص) : « من أنعم الله عليه فليوسع على إمرأته فان لم يفعل أو شك أن تزول النعمة » . وقال (ص) : « إن في الجنة درجة لا يبلغها إلا إمام عادل أو ذو رحم وصول ، أو ذو عيال صبور » . الى غير ذلك من الروايات الواردة بخصوص المقام . كما إنه تعالى أوجب على المرأة الاطاعة لزوجها وجعله قواما عليها بقوله : « الرجال قوامون على النساء » .

وهذه الاطاعة مقصورة فيما عـــدا الواجبات عليها ، أما فى الواجبات كالصلاة والصوم والحج وأمثالها فلا حكم له عليها . كما إنه سلب السلطة منه على أموالها الخاصة بها وعدم التصرف فيها إلا باذنها . ومنعه من إجبارها على الخدمة له . بل عليه إخدامها بقوله : « ولهنّ مثل الذي عليهن » . وهذه من الكلمات العجيبة الجامعة للفوائد الجمة . وانما أراد بذلك ما يرجع الى حسن العشرة وترك المضارة والتسوية فى القسمة والنفقة والكسوة . وكما ان للزوج حقوقا على الزوجة مثل الطاعة التي أوجبها الله عليها له وهي ان لاتدخل فراش غيره . وأن تحفظ ماءه فلا تحتال في إسقاطه . وغير ذلك ، حتى قال رسول الله (ص) : لايصلح لبشر أن يسجد لبشر . ولو صلح لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها ـ كذلك جعل تعالى للزوجة حقوقاً على زوجها . قالت إمرأة معاذ : يارسول الله ما حق الزوجة على زوجها ؟ قال : أن لايضرب وجهها ولا يقبحها وأن يطعمها مما يأكل ويلبسها مما يلبس ولا يهجرها وقال (ص) : إتقوا الله فى النساء فانكم أخذتموهن بأمانة الله واستحللتم فروجهن بكلمة الله . ويقول علي أمير المؤمنين (ع): لاتحملوا عليهن المشاق

والامور الصعبة لأنهن ريحانة . فكما أن الريحانة تذهب طراوتها باللمس كثيراً كذلك المرأة تذهب طراوتها بارتكاب الامور الشاقة فهي كالريحانة من حيث حفظها من أن تتصدم .

هذه بعض التعاليم الاسلامية بالنسبة الى الحياة العائلية ، وقد تركنا منها الشيء الكثير .

أما المدنية الجديدة فقد جعلت المرأة تكد وتكدح في الغالب ، للانفاق على زوج أو خليل لها ، بل يوجد من القوانين ما يمنع المرأة من التصرف في مالها الذي نالته من إرث أو غيره إلا باذن زوجها . وللرجال السلطة المطلقة على أموالها يفعل بها ما يريد . وليس للمرأة المسكينة معارضته . وهذا النوع من السلطة والتصرف ممنوع في الشريعة الاسلامية . يقول دستور الاسلام : ﴿ وإن أردتم استبدال زوج مكان زوج وآتيتم احداهن قنطاراً فلا تأخذوا منه شيئاً أتأخذونه بهتاناً وإثماً مبينا ﴾ . ومن المدنية الجديدة انه اذا كان على الرجل دَين أو غرامة وأمثالها حجزت أموالها مع أمواله . هذه الأسباب هي التي أفسدت الحياة العائلية ، من انكباب النساء على أعمال الرجال ، وانطلاقهن مع الأهواء ، ونيلهن الحرية المطلقة .

عاشت المرأة زمناً طويلاً في ظل الدين الحنيف الذي أمرها بالتحجب عن الأجانب من الرجال ، وعدم ابداء الزينة لغير محارمها .

عاشت وهي محفوظة الكرامة طاهرة الذيل متجلببة جلابيب العز والشرف .

ولم يكن اعتبار نبي الاسلام « ص » بعض مقادير الحجاب بدعاً من الرسل ، فقد كان الحجاب معتبراً في شرايع السلف ودين ابراهيم الخليل « ع »

فالموسوية والعيسوية ، وحتى لدى أمم الفرس والهنـــد وفى ديانة الصين . ومن راجع أسفار العهد القديم كالتوراة والانجيل وغيرهما عرف صحة ما قلناه . ورد فى سفر التكوين — ورفعت برقعـة عينيها فرأت اسحق فنزلت عن الجمل . وقالت للعبد من هـذا الرجل الماشي فى الحقل للقائنا ؟ فقال العبد هو سيدي ، فاخذت البرقع وتغطت — وفيه أيضاً قوله : — فاخبرت ثامار وقيل لها هو ذا حموك يهوذا بن يعقوب صاعداً الى تمنة ليجز غنمه فخلعت عنها ثيابا ترملها وتغطت ببرقع وتلففت وجلست في مدخل عينايم التي هي على طريق تمنة . الى آخر ما هنالك .

وكان الحجاب خاصة عند العرب حتى في دورهم الجاهلي المظلم . ومن تتبع أشعار الجاهلية رأى أنهم كانوا يخصون النساء بالنقاب والنقاب بالنساء . فقد ورد في شعر أم عمران ابنة وقدان وهي من النساء المتحمسات في الجاهلية تقول عندما تحرض قومها فى أخذ الثأر :

وخذوا المكاحل والمجاسد والبسوا نقب النساء فبئس رهط المرهق

ومثل ذلك جاء فى قصيدة المهلهل يرثي اخاه كليباً حيث يقول :

يخمشن من ادم الوجوه حواسراً من بعده ويعدن بالأزمان

وكذا الربيع بن زياد العبسي يقول في رثاء مالك بن زهير :

من كان مسروراً بمقتل مالك فليأت نسوتنا بوجه نهار
يجد النساء حواسراً يندبنه يلطمن أوجههن بالاسحار
قد كن يخبئن الوجوه تستراً فاليوم حين برزن للانظار
يضربن حر وجوههن على فتى عف الشمائل طيب الاخبار

ومثله قول هند بنت معبد بن خالد بن نائلة في رثاء ابن أخيها خالد بن حبيب يوم مأتمه حيث تقول :

إن تبكيا لا تبكيا هيناً   وما بما مسكما من خفا
إذ يخرج الكاعب من خدرها   يومك لا تذكر فيه الحيا

فكل هذا وأشباهه دليل واضح يشهد بانتشار الحجاب فى الطبقات العالية من نساء العرب . في أوحش أدوارهم وسواد جاهليتهم لا يبرحن عنه إلا في ضرورة حرب أو عند ذهولهن من نازلة خطب . وكان أولوا الشرف يفتخرون بالتزام الحجاب وغض النظر عن النساء ، كما نرى عنترة العبسي يفتخر بقوله :

وأغض طرفي ان بدت لي جارتي   حتى يواري جارتي مأواها

وكذا مسكين الدارمي يقول فى أدب النفس من جملة أبيات :

ناري ونار الجار واحدة   واليه قبلي ينزل القدر
ما ضرّ جاري إذ اجاوره   أن لا يكون لبيته ستر
أعمى اذا ما جارتي خرجت   حتى يواري جارتي الخدر

ولم تزل المرأة منذ مئآت القرون في مختلف الأديان محافظة على حجابها ، متجلببة جلابيبها ، محجبة عن الأنظار فى بيتها وحجرتها . إذ كان النظر من أحد الجنسين إلى الآخر هو المثار الوحيد للشهوة والفتنة . حتى إذا دالت الأيام وانتقلت السيطرة والقوة من الشرق إلى الغرب . وأزهرت المدنية المادية ربوع أهلها ، وأخذت الحضارة مأخذها من أرباب الترف والبذخ ، ومال ذوو السلطة القاهرة إلى الانغماس في الشهوات والاختلاط بالنساء ، رفعوا عنها حجابها وأبرزوها من خدرها ، وقارنوا بينها و بين الرجل ، وأغراها قوم منهم إلى المطالبة بحقوق هي ليست لها وتنافي وظائفها الخاصة بها .

وفي هذه الآونة الأخيرة التي لعبت خمرة الشهوات بعقول بعض الممالك

الاسلاميـــة . ونشب في نفوسهم داء تقليد الغرب فى جميع شؤنهم نهضوا لذلك التعاليم وسحق السنن والآداب الاسلامية . أخرجوا ربائب خدورهم إلى مجالس الاختلاط . وأجبروا ذوات الحجاب على السفور .

قيضت العناية أن يقوم في كل عصر شـذاذ من دعارة البشر ، ودعاة الشر ، وحملة عرش الضلال والباطل . فتنابذ الحقيقة الراهنة وتسعى جهدها في تشويش النظام العائلي ، وإفساد العقائد واختلاس الصحة الدينية من النفوس المستقيمة . وتبديل الاستقامة الفطرية بالاعوجاج والانحراف عن لاحب الحجة وواضح المحجة . ولـكن أبت نواميس العناية إلا أن تجري على مجاريها وتسير على مناهجها . فلا يصح إلا الصحيح ولا يحق إلا الحق ـ ولا يحيق المـكر السيء إلا بأهله ﴿ أما الزبد فيذهب جفاءً وأما ما ينفع الناس فيمكث فى الأرض ﴾ .

ان صراحة القرآن وظواهر آياته كافية فى الاستدلال على وجوب الحجاب وحرمة عكسه . وأيّ آية أصرح من قوله تعالى : ﴿ يا أيها النبي قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين يدنين عليهن من جلابيبهن ذلك أدنى أن يعرفن فلا يؤذين ﴾

ووجه الاستدلال بهذه الآية : ان الجلباب هو خمار المرأة الذي يغطي رأسها ووجهها اذا خرجت لحاجة . كما ذكره المفسرون . أو هو القميص أو ثوب أوسع من الخمار كما في قواميس اللغة ومعاجمها . وكيف ما كان فقد ورد عن ابن عباس حبر الامة في تفسير هذه الآية : إن الله تعالى أمر نساء المؤمنين إذا خرجن من بيوتهن فى حاجة أن يغطين وجوههن من فوق رؤوسهن بالجلابيب ويبدين عيناً واحـدة . وعن ابن سيرين قال : سألت عبيدة السلماني عن قوله تعالى : ﴿ يدنين ﴾ فغطى وجهه ورأسه وأبرز عينه اليسرى وقال : هكذا يصنعن .

والسبب في نزول هذه الآية : ان النساء في أول الاسلام كانت المرأة

منهن تخرج إلى الطريق من غير حجاب . على ما كان عليه بعض عرب الجاهلية . لافرق بين الأمة منهن والحرة . وكان الفتيان يتعرضون الإماء ويمازحونهن ، وربما كان يتجاوز المنافقون إلى ممازحة الحرائر وإيذائهن ، فاذا قيل لهم في ذلك قالوا : حسبناهن إماءً . فقطع الله تعالى عــذرهم بأمر الحرائر بالحجاب فكنّ يتحجبن والاماء يسفرن .

القسم الثاني ـ من أقسام الحجاب ووجوبه في الشريعة الاسلامية لزوم المرأة بيتها . وعدم خروجها منه إلا وقت الحاجة . والدليل عليه قوله تعالى : ﴿ يا نساء النبي لستن كأحد من النساء أن اتقيتن فلا تخضعن بالقول فيطمع الذي في قلبه مرض وقلنَ قولا معروفا وقرنَ في بيوتكن ولا تبرجن تبرج الجاهلية الاولى وأقمن الصلاة وآتين الزكاة وأطعن الله ورسوله . . . ﴾ .

ووجه الاستدلال بها : ان الله تعالى خاطب نساء النبي «ص» انهن ان اتقين فقدرهن عنده فوق غيرهن من النساء . شرط عليهن التقوى ليبين أن فضيلتهن بالتقوى لاباتصالهن بالنبي «ص» . ثم نهاهن تعالى عن الامور التي تنافي التقوى للنساء فقال تعالى : ﴿ فلا تخضعن بالقول فيطمع الذي في قلبه مرض ﴾ أي لا ترققن القول ولا تلنّ الكلام للاجانب عنكن فيطمع فيكن من في قلبه مرض الريبة والفجور . فيبين تعالى ان الرجل المريض القلب اذا كلمته المرأة بالقول الرقيق أو الكلام اللين يطمع فيها ، وتطميع المرأة الأجانب في نفسها منافٍ للتقوى ، ومخالف للورع الذي يراد منها . ثم قال تعالى : ﴿ وقلنَ قولاً معروفا ﴾ أي تكلمن بكلام بريء من التهمة بعيد عن الريبة . وقوله تعالى : ﴿ وقَرنَ في بيوتكن ﴾ أي اثبتن في بيوتكن والزمنها ولا تخرجن منها . فعن أنس بن مالك قال : جاءت النساء إلى رسول الله «ص» فقلن : يا رسول الله

ذهب الرجال بالفضل والجهاد في سبيل الله فما لنا عمل ندرك به فضل المجاهدين ؟ فقال «ص» : من قعدت منكن في بيتها فانها تدرك عمل المجاهدين في سبيل الله .

وقوله تعالى : ﴿ ولا تبرجن تبرج الجاهلية الاولى ﴾ التبرج ضد التستر ، وهو إظهار المرأة محاسنها ، والمعنى لاتخرجن على عادة النساء اللات في الجاهلية ، ولاتظهرن زينتكن كما كن يظهرن ذلك . في الجاهلية الاولى ماقبل الاسلام . هذه الآية وإن جاء الخطاب فيها لنساء النبي «ص» لكنه بيان عام للامور المنافية لتقوى النساء ، إذ لا اختصاص للنساء الذين يطمع فيهن الذي فى قلبه مرض ، ولا دليل على جواز بقاء غيرهن على تبرج الجاهلية . فالتقوى تراد من نساء النبي «ص» ومن عموم النساء غيرهن على السواء . وهذا لا إشكال فيه ولا ريب .

تبرج المرأة حرام في الاسلام لقوله تعالى : ﴿ ولا تبرجن تبرج الجاهلية ﴾ ثم هو فى ذاته عيب يقدح في حمية الرجال ويطعن في غيرتهم ، والامم اذا فقدت غيرتها على حريمها فقد فقدت اكرم خصال الحياة . وأخص صفات الآداب الحافظة لكيان الاجتماع . لقد منيت مدنية هذا العصر بالأباطيل الرافلة فى لبوس الحقائق ، وبالرذائل الظاهرة بمظهر الفضائل . فكم من عمل باطنه الشهوات البهيمية وحقيقته الرعونات الجسدية ـ عدّ من الكمالات المدنية . واعتبر من مميزات الحضارة الانسانية ؟! تبكتنا ضمائرنا على غشيانه ، وتوبخنا إنسانيتنا من إتيانه ، ولكننا ـ مراعاةً للتدليس الشايع بيننا ـ نصم آذاننا عن صوت ضمائرنا ، ونأتيه عياناً جهاراً تحت ظل العادات المنحطة ، وحماية التقاليد الساقطة ، ولا زاجر من صوت الرأي العام ، ولا وازع من أدب النفس .

عمّ حب الزينة الرجال والنساء ، فصار الرجل يعنى بملابسه ووجهه أكثر مما يعنى بصحته وسلامة روحه ، باذلا في هذا السبيل ما لا غنى له عنه في تقويم

نفسه ومجتمعه . وجرت النساء على هذه الخطة ذاتها ، والجميع إنما يتكلف بهذه المظاهر خارج البيوت لا داخلها . وكانما يعلم ان الغرض من هذا التكلف إستعداد كل من الجنسين للمنازلة في ميدان الاهواء السافلة . وما الرجال إلا أهلنا وأصحابنا ، ولا النساء الا قريباتنا وأخواتنا ، ولكننا رغماً عن هذا العلم الثابت والحق المقرر ، نسمح به ولا نجد في آدابنا حرجا منه وإن كانت ضمائرنا تتألم شعوراً باثمه وإحساساً بفداحة جرمه .

يحاول أنصار هذه المدنية أن يستروا هذه المخازي تحت إسم الحرية الشخصية وحقوق المرأة فيقولون : أليس لكل فرد في الهيئةالاجتماعية الحق فى أن يلبس ما يشاء . ويتكلف من صنوف الزينة ما أراد ؟ فبأي سلطان تحرم علينا الزينة وقد نص الكتاب على القدح فيمن حرمها فقال تعالى : « قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده » ؟

إننا لا نجادل في الحق ـ الذي لكل فرد أن يلبس ما يشاء وان يتكلف ماأراد ـ ولكننا ننعى على أهل هذه المدنية تمالؤهم على البهتان وتجرؤهم على الزعم : بأن هذه الأحابيل الهوائية من الكمالات الانسانية . ننعى عليهم تواطئهم على إعطاء الدنية وتظاهرهم على قدح أنف الحمية .

لماذا يكون من إحترام الحرية الشخصية أن نسمح للرجال والنساء أن يتجاذبوا الأهواء ، من خلال هذه الاستار . ولا يكون من الحرية الشخصيةأن نأذن لهم بالمشي عراة الاجساد ؟ نحن لانحارب أصحاب الأهواء الذين حدوا حدود الآداب على قدر ما يسمح لهم بانتهاك الاعراض . لا على قدر ما يحميها من عدوان العادين وغارات المغيرين .

إن مبادىء هذه المدنية من هذه الوجهة لاتستمد وجودها من أصل الحرية

الشخصية المقدس ، بل من أصل الاباحة الحيوانية الصرفة . فنريد أن تكون الاداب بحيث تحمي الأعراض من الانتهاك . وتصون النفوس من الفساد .

يقولون : حقوق المرأة · نعم إن حقوق المرأة يجب أن تصان عن الهضم ، ولكن هل يعنون بحقوقها أن تخوض في حمأة الأهواء وتتلطخ بأقذاء الشهوات ؟ !

إن تبرج النساء الذي دفعهن فيه الرجال اتباعا لأهوائهم . ومرضاة لشهواتهم . قد عرف سوء أثره عند أبناء المدنية أنفسهم . فقد جاء في دائرة معارف القرن التاسع عشر الفرنسية ما نصه : ـ انا اسنا أول من لمح هذا الأثر السيء الذي يحدثه حب النساء للزينة يوماً فيوماً على اخلاقنا . فان اشهر كتابنا لم يهملوا الاشتغال بهذا الموضوع الكبير ، وكثير من اقاصيصنا التي قوبلت بالاستحسان العام قد وصفت بطريقة مؤثرة الخراب الذي يجره على الاسر الشغف الجنوني بالتزين والتبرج فكيف النجاة من هذا الداء الذي يقرض مدنيتنا الحالية ويهددها بسقوط سريع جدا وإن شئت فقل بانحطاط لا دواء له .

هذا هو اثر تبرج النساء وستلاقي هذه المدنية جزاءها العادل من إباحته إن لم تتداركه بحكمة وروية .

اللهم إن كانت المدنية ستقضي على المرأة المسلمة ، بأن تخرج من خدرها بعد أن تستهتر في تبرجها . فاللهم حوالينا لا علينا . اما نحن فلا نُعنى بحقوق المرأة إلا لأجل حفظ عرضها موفورا ، وإيتائها كل وسائل السعادة البيتية . والاعتراف لها بالسلطة المطلقة فى مملكتها المنزلية . ووضعها من أفئدتنا فى المكانة التي لها بالفطرة . أما ما عدا هذا من إغرائها على التبرج في الطرقات والرقص فى السهرات ، ومزاولة الأعمال فى الفابريقات ، والاختلاط بالرجال

في المعاملات فنعده من مدنسات شرفها ومن مسقطات كرامتها . وبين أيدينا العلم والعقل . والله يهدي من يشاء الى سواء الصراط .

معي أبيات رقيقة نظمها عبد الرحمن أفنـدي المعروف بالبنا، تحت عنوان — شكوى فتاة عراقية — قال عن لسانها :

برقعي وسط محيطي شرفي — لم أحد عنه ولو ذقت العذابا
أنا كالدرة لـكن وضعت — بيد الفحام ظلماً واغتصـابا
انا كالزهرة فى الكم فان — طلعت تلقى اقتطافا وذهابا
ما ترى الجوزة منها كيف قد — كسروا القشر ليقتاتوا اللبابا
أنا لوارفـــع عن وجهي الحيا — لجرى ماء الحيا منه انصبابا

الى أن يقول :

أيها القوم اصلحوا أنفسكم — خاب من رام سفورالوجه خابا
هـذبوا أنفسكم ثم ارجعوا — هذبوني وارفعوا عني الحجابا

الى أن قال :

أنا مثل الشاة أمشي بينهم — أينما وجهت شاهدت ذئابا
اعين الناس ذباب فلذا — منع البرقع عن وجهي الذبابا

ويقول امين تقي الدين :

قل لمن بعد حجاب سفرت — ابهذا امر الغيد الشرف
أسفور والحيـــا يحضره — وتـــقى الله وآداب السلف
ليست المرأة الا درة — ايكون الدر إلا فى صدف

ويقول آخر :

أسفينة الوطن العزيز تبصري — بالقعر لا يغررك سطح المـاء

وحديقة الثمر الجني ترصدي   عبث اللصوص بليلة ليلاء

القسم الثالث ـ وجود الحائل الساتر بين المرأة و بين غير محارمها من الرجال ، عند اجتماعهم او انفرادهم اذا كانت هناك حاجة تدعو إلى ذلك . والدليل عليه قوله تعالى : ﴿ واذا سألتموهن متاعاً فسئلوهن من وراء حجاب ذلك أطهر لقلوبكم وقلوبهن ﴾ .

ووجه الاستدلال بها : ان الله تعالى خاطب المؤمنين انهم اذا سألوا نساء النبي « ص » ان يسألوهن من وراء حجاب . وان ذلك اطهر لقلوبهم وقلوبهن وهن أمهات المؤمنين كما قال تعالى : (ونسائه أمهاتكم) والمؤمنون اولادهن . فالحجـــاب إذن لغيرهن يكون بالأولوية لأن الانسان مهما كان ساقطاً فاجراً لا تحصل عنه الزيبة مع محارمه . بخلاف النساء الأجنبيات . وهذه الآية كآية التبرج لا اختصاص لها بنساء النبي « ص » بل هي عامة لعموم المؤمنات بعـــد ما عرف أصل السبب .

القسم الرابع : ستر المرأة جميع اجزاء بدنها ، عدا ما وردت الرخصة به عند الضرورة ـ عن كل ناظر لا يحل له النظر اليها . والدليل عليه قوله تعالى : ﴿ وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ويحفظن فروجهن ولا يبدين زينتهن إلا ما ظهر منها وليضربن بخمرهن على جيوبهن ولا يبدين زينتهن الا لبعولتهن او آبائهن او آباء بعولتهن او أبنائهن او أبنـــاء بعولتهن او إخوانهن او بني اخواتهن او نسائهن او ما ملكت ايمانهن او التابعين غير أولي الاربة من الرجال او الطفل الذين لم يظهروا على عورات النساء ولا يضربن بارجلهن ليعلم مايخفين من زينتهن ﴾ ،

ووجه الاستدلال بهذه الآية : ان الله تعالى أمر الرجال بغض الابصار

وحفظ الفروج عمن لا يحل لهم ، كما في صدر الآية : ﴿ قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم ذلك ازكى لهم ان الله خبير بما يصنعون ﴾ وامر النساء بمثل ما امر به الرجال وزاد في النساء أن نهاهن عن ابداء زينتهن ، فعلم من ذلك النهي عن ابداء البدن بطريق أولى ، لأن النهي عن الزينة انما جاء خوفاً من الوقوع في الفتنة بها ، ولم يجيء النهي عن الزينة لذاتها وإلاّ لكان النظر اليها حراماً وهي في حانوت بائعها . لأن الغرض منها هي الامور التي تتزين بها المرأة . من ثياب ، وحلي ، وكحل . وخضاب ، وامثالها . وقوله تعالى : ﴿ إلا ما ظهر منها ﴾ ذهب ابن مسعود أن المراد من قوله ـ إلا ماظهر ـ الثياب ـ وقال ابن عباس : هو الكحل والخاتم والخضاب في الكف . وعن غيرهما الوجه والكفان . ومحصل ما تمسك به هؤلاء هو قوله تعالى : ﴿ إلا ما ظهر منها ﴾ المفسر بالوجه والكفين . ولنا أن ننظر أولاً في اصل دلالة الآية مع قطع النظر عن الرواية المفسرة . ثم في دلالتها ولو بملاحظة الرواية المفسرة لها . فنقول:

اما نفس الآية ـ فليس فيها مع قطع النظر عن الرواية المفسرة لها دلالة على عدم وجوب ستر الوجه والكفين ، وذلك لأن استثناء ﴿ إلا ما ظهر ﴾ من قوله : ﴿ ولا يبدين زينتهن إلا ما ظهر منها ﴾ استثناء منقطع ، حيث ان معنى الآية : ﴿ لا يبدين زينتهن إلا ما ظهر منها ﴾ بغير اختيارهن في حالة الحركة والذهاب والاياب . وهذا ظهور غير داخل في الابداء الذي هو الاظهار . ومعلوم ان الظهور غير الاختياري لم يقع تحت الأمر بالستر ، لانه خارج عن تحت القدرة ولا يتعلق به التكليف .

واما بملاحظة الرواية المفسرة فكذلك ، وذلك لأن الروايات المفسرة في نفسها متعارضة متضاربة ، حيث أن بعض الروايات فسرت الظهور ـ بالثياب

والكحل والخاتم وخضاب الكفين والسوار . وبعضهـا بالكفين والاصابع . وبعضها بالوجه والكفين . وبعضها بالكحل والخاتم والمسكة — وهي القلب — ومن هنا قال في الجواهر : وتفسير ما ظهر منها بما عرفت كاف في عدم الوثوق ضرورة اختلافه اختلافا لا يرجى جمعه مع ضعف السند في جملة منه فلا يبعد إرادة الثياب الظاهرة .

وهـذا هو القدر المتيقن منها فيبقى الباقي تحت عمومات الغض والستر . هذا مع دلالة مفهوم رواية هشام وحماد بن عثمان وحفص بن البختري عن أبي عبدالله الصادق «ع» : لا بأس بأن ينظر الى وجهها ومعاصمها إذا أراد أن يتزوجها وفي خبر آخر عن الصادق «ع» : عن الرجل يريد أن يتزوج المرأة وينظر إلى خلفها وإلى وجهها؟قال: نعم لا بأس بأن ينظر الرجل إلى المرأة إذا أراد أن يتزوجها ، ينظر إلى خلفها وإلى وجهها . فلو كان الوجه جائز النظر مطلقاً لما كان لتعليقه ـبما إذا أراد أن يتزوجهاـ وجه من الوجوه . ومن جميع ما ذكرنا ظهر لك انه لا دليل لمن يقول باستثنائه عن عمومات وجوب الغض والستر .

قوله : ﴿ وليضربن بخمرهن على جيوبهن ﴾ الخُمر جمع خمار والخمار هو المقنعة وهي ماتغطي به المرأة رأسها وينسدل على جنبيها . والجيوب جمع جيب وهو « فتحة الثوب على الصدر » . وإنما أُمر النساء بإلقاء المقانع عليها قيل لأنها كانت واسعة تبدو منها الأبدان ، وقيل كنى بالجيوب عن الصدور . وقيل هذا الأمر إنما ورد على النساء ليغطين شعورهن ونحورهن وأقراطهن وصدورهن . لأنهن كن يلقين مقانعهن على ظهورهن فتبدو منهن هذه الامور .

قوله : ﴿ ولا يبدين زينتهن ﴾ . المراد من الزينة هنا غير الزينة المتقدمة . لأن تلك الزينة الظاهرة ، وهذه الباطنة التي يجوز النظر اليها للاصناف الذين

استثنتهم الآية . والمراد بنسائهن النساء المسلمات دون غيرهن من المشركات والكتابيات ما يكنّ إماءها وهو معنى قوله تعالى : ﴿ أو ماملكت أيمانهن ﴾ .

والمراد بالتابعين غير اولي الاربة : قيل هم الرجال التابعون للخدمة لأجل الطعام ولا إرب لهم في النساء . والاربة فعلة من الأرب ـ ومعناها الحاجة . وقيل هم الشيوخ الطاعنون في السن ، وقيل هم البله من الخدم .

قوله : ﴿ أو الطفل الذين لم يظهروا على عورات النساء ﴾ . المراد جماعة الأطفال الذين لم يبلغوا مبلغ الشهوة ، ولم يعرفوا ماهي العورة .

قوله : ﴿ ولا يضربن بأرجلهن ليعلم ما يخفين من زينتهن ﴾ أي إذا مشين لا يضربن الأرض بأرجلهن ليعلم أنهن قد تزينّ بالزينة وهي الخلاخيل . وإنما نُهي عن ذلك لأنه يجذب ميل الرجال اليهن . هذا نظم الآية الشريفة على الاجمال ،فلينظر من له عينان وليسمع من له اذنان .

ولكن ويل أُم البشر . قتل الانسان ما أكفره وتعساً للمرء ما أجهله ينقاد بشعرة إلى هواه مع وضوح بطلانه . ولا ينجذب بسلسلة إلى تقواه مع سطوع برهانه . ولقد صدق عليهم ابليس ظنه فاتبعوه وما له عليهم من سلطان . ما ذهب موسى لميقات ربه حتى اتخذ قومه العجل من بعده إلهاً ، وما ارتفع عيسى إلى السماء حتى جعلته النصارى مع الله اقنوماً وربّا . ودعوها أبا وإبنا ، وما غاب محمد للقاء ربه حتى انقلبت أُمته فاستهزأت بأحكامه وتباعدت عن تعاليمه .

فحجاب المرأة ضروري بالطبع ويحكم به العقل والوجدان ، إذ المرأة المحجبة لا زالت تحافظ على مركزها الطبيعي ووظائفها التي تختص بها ، وتخضع لناموس القدرة ونظام الخلقة ، وتعلم أنها خُلقت أُنثى وان المحافظة على انوثتها إنما هي بالحجاب .

وفى بديع ماذكره مصطفى الرافعي فى ـ وحي القلم ـ ج ١ قال : ولقد جاءت إلى مصر كاتبة انكليزية . وأقامت أشهراً تخالط النساء المتحجبات وتدرس معاني الحجاب ، فلما رجعت إلى بلادها كتبت مقالا عنوانه : « سؤال أحمله من الشرق إلى المرأة الغربية » قالت في آخره : إذا كانت هذه الحرية التي كسبناها أخيراً . وهذا التنافس الجنسي ، وتجريد الجنسين من الحجب المشوقة الباعثة التي أقامتها الطبيعة بينهما ـ إذا كان هذا سيصبح كل أثره أن يتولى الرجال عن النساء ، وأن يزول من القلوب كل ما يحرك فيها أوتار الحب الزوجي ـ فما الذي نكون قد ربحناه ؟ لقد والله تضطر هذه الحال إلى تغيير خططنا ، بل قد نستقر طوعاً وراء الحجاب الشرقي ، لنتعلم من جديد فن الحب الحقيقي .

حدّث أحدهم قال : كنت ذات يوم أتمشى على قارعة الطريق ، وبينما كنت اسلم على شابين أعرفهما من أيام المدرسة إذ مرت بنا فتاة سافرة فغمز أحدهما الآخر وتنهد وقال له : انظر كأنها لم تعد تعرفني ، لم تعد تكترث بي ، كأن لم يكن بيننا ملاصقات صدر لصدر وبطن لبطن في بعض الليالي الأنيقة ، أتراها نسيت أو تناست تلك السويعات الخلوة ، وتلك الخلوات التي كنا نقضيها بمعزل عن الرقباء من أهلها ؟ أتراها نسيت عهودها ؟ إلى غير ذلك . وهناحانت مني التفاتة إلى الشاب الثاني فاذا بوجهه قد امتقع لونه ، فتحول من صفرة الخجل إلى حمرة الغضب ، وانسحب عن صديقه دون أن ينبس ببنت شفة خوف العار والفضيحة ، ولقد كانت الفتاةاخته ، ومضى على وجهه إلى موضع الانتحار فانتحر . فليع من له قلب ، أو ألقى السمع وهو شهيد .

رب قائل يقول : ان المرأة الشريفة تستطيع أن تعيش بين الرجال من شرفها في حصن حصين ، لا تمتد اليه الأعناق ولا تطاوله الأيدي .

فنقول : تلك هي الخدعة التي يخدعكم بها الشيطان أيها الضعفاء ، والثلمة التي يعثر بها في رؤسكم فينحدر منها إلى عقولكم ومداركم فيفسدها عليكم . فالشرف كلمة لا وجود لها إلا في قواميس اللغة ومعاجمها . فان أردت أن تفتش عنها في قلوب الناس وأفئدتهم فانك لا تجدها . والنفس الانسانية كالغدير الراكد لا تزال صافياً رائقاً حتى يسقط فيه حجر فاذا هو مستنقع كدر . والعفة لون من ألوان الشمس لا جوهر من جواهرها وقلما تثبت الألوان على أشعة الشمس المتساقطة

نبؤني في أي جوّ من أجواء هذا البلد تريدون أن تبرز فتياتكم ؟ أفي جو المتعلمين ؟ وفيهم من اذا سئل لم لم تتزوج ؟ أجاب : نساء الأُمة جميعاً نسائي . أم في جو الطلبة ؟ وفيهم مَن اذا عاد من اوروبا يحمل في محفظته لا أقل من عشر صور لصديقاته ومائة كتاب غرام منهن يتوارى عن أعين أصدقائه حياء وخجلا . أم في جو المعلمين ؟ وفيهم مَن يرى من ثمرات التربية رأي المجوس في ثمرات الأصلاب . أم في جو الرعاع والغوغاء ؟ وكثير منهم يدخل البيت خادماً ذليلا ويخرج منه صهراً كريماً .

فما هذه الرعة أيها المتجددون ؟ وما هذا الولع بقصة المرأة والتمطق بحديثها والقيام والقعود بأمرها وأمر حجابها وسفورها وحريتها وأسرها ؟ كأنما قد قمتم بكل حق واجب للأُمة ؟ ! عليكم أنفسكم هذبوا أنفسكم هذبوا رجالكم قبل أن تهذبوا نساءكم ، فان عجزتم عن الرجال فأنتم عن النساء أعجز . أبواب الفخر أمامكم كثيرة فاطرقوا أيها شئتم ، ودعوا هذا الباب موصداً فانكم ان فتحتموه فتحتم على أنفسكم وبالاً عظيما وشقاء طويلا . أروني رجلا واحداً منكم يستطيع ان يزعم في نفسه انه يمتلك هواه بين يدي امرأة يرضاها فأُصدق بأن امرأة تستطيع ان تملك هواها بين يدي رجل ترضاه .

ماشكت المرأة اليكم ظلماً ، ولا تقدمت اليكم طالبة ان تحلوا قيدها وتطلقوها من أسرها . فما دخولكم بينها وبين نفسها وما تمضغكم ليلكم ونهاركم بقصصها واحاديثها . انها لا تشكو إلا فضولكم ولصوقكم بها . ووقوفكم في وجهها حيثما سارت وايناً حلت ، حتى ضاق بها وجه الفضاء فلم تجد لها سبيلا إلا أن تسجن نفسها بنفسها فى بيتها — فوق ما سجنها أهلها ، فاوصدت من دونها بابها . واسبلت استارها تبرماً بكم وفراراً من فضولكم . فواعجباً لكم تسجنونها بايديكم ثم تقفون على باب سجنها تبكونها وتندبون شقاءها ! ! انكم لا ترثون لها بل ترثون لأنفسكم ، ولا تبكون على شقائها بل على انفسكم وارضاء شهواتكم .

عاشت المرأة حقبة من دهرها هادئة مطمئنة فى بيتها . راضية عن نفسها وعن عيشتها . ترى السعادة كل السعادة فى واجب تؤديه لنفسها ، أو وقفة تقفها بين يدي ربها . أو عطفة تعطفها على ولدها . أو جلسة تجلسها الى جارتها فتبثها ذات نفسها . وتبثها سريرة قلبها . وترى الشرف كل الشرف في خضوعها لأبيها ، وائتمارها بأمر زوجها ، ونزولها عند رضاها . وكانت تفهم معنى الحب وتجهل معنى الغرام . فتحب زوجها لأنه زوجها كما تحب ولدها . فقلتم لها : ان هؤلاء الذين يستبدون بأمرك من أهلك ليسوا باكبر منك عقلا . ولا افضل رأيا ، ولا أقدر على النظر لك من نظرك لنفسك . فلا حق لهم فى هذا السلطان الذي يزعمونه لأنفسهم عليك . فازدرت أباها ، وتمردت على زوجها . واصبح البيت الذي كان بالامس عرساً من الاعراس الضاحكة — مناحة قائمة لا تهدأ نارها ولا يخبو أوارها .

وقلتم لها : إن سعادة المرأة فى حياتها أن يكون زوجها عشيقها . وما كانت تعرف أن الزوج غير العشيق ، فاصبحت تطلب فى كل يوم زوجاً

جديداً يحيي من لوعة الحب ما أمات القديم ، فلا قديماً استبقت ولا جديداً افادت . وقلتم لها : إنا لا نتزوج من النساء إلا من نحبها ونرضاها ويلائم ذوقها ذوقنا ، وشعورها شعورنا . فكان لابد لها ان تعرف اهواءكم ومسارح انظاركم لتتجمل لكم بما تحبون . فراجعت فهرس أعمالكم في حياتكم صفحة صفحة . فلم تر فيه غير اسماء الخليعات المستهترات ، والضاحكات اللاعبات ، والاعجاب بهن ، والثناء على ذكائهن وفطنتهن ، فتخلعت واستهترت لتبلغ رضاكم وتنزل عند محبتكم ، ثم تقدمت اليكم بهذا الثوب الرقيق تعرض نفسها عليكم كما يعرض النخاس أمته في سوق الرقيق . فاعرضتم عنها ونبوتم بها وقلتم لها : إنا لا نتزوج النساء العاهرات . كأنكم لا تبالون ان تكون نساء الأمة جميعاً ساقطات — اذا سلمت لكم نساؤكم ، فرجعت ادراجها خائبة منكسرة ، قد اباها الخليع ، وترفع عنها المحتشم . فلم تجد بين يديها غير باب السقوط فسقطت.

ذلك بكاؤكم على المرأة ايها الراحمون . وهذا رثاؤكم لها وعطفكم عليها . نحن نعلم كما تعلمون : ان المراة في حاجة الى العلم فليهذبها ابوها اواخوها ، فالتهذيب أنفع لها من العلم ، والى اختيار الزوج العادل الرحيم ، فليحسن الآباء الاختيار لبناتهم ، وليجمل الأزاواج عشرة نسائهم ، والى النور والهواء تبرز اليهما فليأذن لها أولياؤها بذلك ، وليرافقها رفيق منهم فى غدواتها وروحاتها كما يرافق الشاة راعيها ـ خوفاً عليها من الذئاب ، فان عجزنا عن أن نأخذ الآباء والاخوة والازواج بذلك فلننفض أيدينا من الامة جميعها نسائها ورجالها ، فليست المرأة بأقدر على اصلاح نفسها من الرجل على إصلاحها .

أعجب ما أعجب له من شئونكم : أنكم تعلمتم كل شيء إلا شيئاً واحداً هو أدنى الى مداركم أن تعلموه قبل كل شيء !! وهو أن لكل تربة نباتاً

ينبت فيها . ولكل نبات زمناً ينمو فيه . فكل نبات يزرع في ارض غير ارضه او ساعة غير ساعته اما ان تأباه الارض فتلفظه . واما أن ينشب فيها فيفسدها . سمعتم بالعلماء في أوروبا يشتغلون بكماليات العلوم بين أمم قد عرفت من ضرورياتها . فاشتغلتم بها في أمة لايزال سوادها الأعظم في حاجة الى حروف الهجاء . وسمعتم بالفلاسفة ينشرون فلسفة الكفر بين الشعوب ملحدة لها من عقولها وآدابها ما يغنيها عن إيمانها ، فاشتغلتم بنشرها بين امة ضعيفة لا يغنيها عن إيمانها شيء .

إنا نضرع اليكم ايها المتجددون باسم الشرف الوطني والحرمة الدينية ، أن تتركوا تلك البقية الباقية من نساء هذه الأمة آمنات مطمئنات في بيوتهن ، ولا تزعجوهن بأحلامكم وآمالكم . واعلموا أن كل جرح من جروح الامة له دواء إلا جرح الشرف فلا دواء له ، فان أبيتم إلا ان تفعلوا فانتظروا بأنفسكم قليلا ريثما تنتزع من صدوركم هذه الغيرة التي ورثتموها عن آبائكم وأجدادكم ، لتستطيعوا أن تعيشوا في حياتكم الجديدة سعداء آمنين : ﴿ ذلك بأن الله لم يك مغيراً نعمةً أنعمها على قوم حتى يغيّروا ما بانفسهم﴾ .

— ٣ —

لبيان الحقيقة بقية كاد طول الكلام أن يحجبها بستار الإغفال وهذه البقية هي التي تنبه على ميزة الحقيقة بحسنها الجامع وبهجتها المعشوقة .

لقد أثبتت الحوادث التاريخية والتجارب الصحيحة في هذه العصور الأخيرة ـ نقصان جنسية الاناث عن جنسية الذكور في المشاعر الباطنية، والقوى الفكرية والآراء الاجتماعية . وجرت عليه نواميس الاديان والشرايع من أول دور حكومتها في البشر الى الآن . فقد اسست فيها قوانين تنظر الى جنسية الاناث بكل لطف ورقة ، باعتبار ضعف قواها الجسدي واسقطت نظريتها في مهام الامور السياسية والآراء الاجتماعية . باعتبار ضئآلة مشاعرها العقلية .

ووافقت تلك النظرية الفلاسفة الكبار من دور اليونان وماقبله الى الآن ، فحينما كانت المدنية الحاضرة السائدة — بقواها القاهرة — تسعى في ترقية شأن جنس الاناث ، وتقدمها في مجتمع البشر ، واشتراكها مع الرجال في معارك الحياة ، ومجالي التطور ، حتى زعمت أبناء الشرق ان ذلك أحد عوامل الرقي في الامة الغربية — لا تسمح للاناث اطلاقا عاماً وحرية تامة في الشئون الاجتماعية كالرجال . فانه تألفت جميعاتهم العلمية وأحزاب المستخدمين والعمال من بعض النساء المثقفات بالتربية الحديثة ، إلا أن الملوك ورؤساء الجماهير ورجال البرلمان ورؤساء المؤتمرات وقواد الحروب لا تزال تكوّن من الرجال على الاكثر فلا تجد

فيها ملكة أو رئيسة في المهام الاجتماعية إلا على نحو من الصدفة .

كما لا تجد في النساء ابطالا وذوات افكار عالية إلا على ندرة ، وقد كانت تلك النوادر في العصور القديمة مثل ملكة سبأ ، وملكة تدمر ، وقادة بعض الحروب التاريخية ، فهذه شذاذ ثبتت في عمود التأريخ قديماً وتلحقها نوادر حديثاً لا تثبت لجنسية الاناث موقعية في العالم تضاهي بها الرجال في الشئون الاجتماعية ، والحوادث الكبرى ، وقد كانت شريعة الاسلام لا تسمح بناموس النبوة والامامة للنساء ، ولا تقص نبأ نبيه ، في الامم السالفة ، مع اكثارها عن اخبار الانبياء والرسل — وفي القرآن دلالات على قصور الاناث عن تناول شأن النبوة واختصاصها بالرجال ، لأنهم دعائم البشرية ، ومركز عقل الاجتماع ومحور سيادة البشر وسياسته .

ففي سورة يوسف آية ١٠٩ ﴿ وما أرسلنا من قبلك إلا رجالا نوحي اليهم من اهل القرى ﴾ وفي سورة الأنبياء آية ٧ ﴿ وما ارسلنا قبلك إلا رجالا نوحي اليهم فاسئلوا اهل الذكر ﴾ وفي سورة النحل آية ٤٣ ﴿ وما ارسلنا من قبلك إلا رجالا نوحي اليهم ﴾ .

فهذه الآيات دالة على حصر النبوات في الرجال ، وعدم تناول النساء لهذا الشأن العظيم . نعم قد أثبت القرآن نزول الوحي وتكلم الملائكة مع بعض النساء الشريفات — كما في سورة القصص آية ٧ ﴿ وأوحينا إلى أُم موسى ﴾ وفي سورة آل عمران آية ٤٣ ﴿ وقالت الملائكة يا مريم ان الله اصطفاك وطهرك واصطفك على نساء العالمين ﴾ وفي قصة نزول الملائكة على ابراهيم في سورة هود آية ٧٢ و ٧٣ ﴿ قالت يا ويلتى أءلد وانا عجوز وهذا بعلي شيخاً ان هذا الشيء عجيب ، قالوا اتعجبين من امر الله رحمت الله وبركاته عليكم اهل البيت

انه حميد مجيد ﴾ .

ولكنه لا تثبت بذلك صلاحية النساء للرسالة والوساطة بين الله والناس ، في تبليغ الأحكام وانهاء الشرايع وغير ذلك من الامور التي يتوقف عليها نظام المجتمع ، وما ذاك إلا لنقصان استعدادها من جميع جهاتها — فانها ناقصة العقل والدين والحظ . ففي خطبة علي (ع) يوم البصرة حينما كانت هذه الكارثة العظمى والجريمة الكبرى على الاسلام — منشأها رأي امرأة أراد (ع) أن ينبه على ضعف رأيها ونقص عقلها فقال عليه السلام : معاشر الناس ان النساء نواقص العقول ، نواقص الايمان نواقص الحظوظ .

اما كونهن نواقص العقول — لذلك سبب من داخل ، وهو نقصان استعداد أمزجتهن وقصورهن عن قبول تصرف العقل كما يقبله مزاج الرجل ، كما نبه عليه تعالى بقوله : ﴿ فرجل وامرأتان ممن ترضون من الشهداء ان تضل احداهما فتذكر احداهما الأخرى ﴾ فانه تعالى نبه على ضعف القوة الذاكرة فيهن ، ولذلك جعل شهادة امرأتين بشهادة رجل واحد . وله أيضاً سبب عارض من خارج ، وهو قلة معاشرتهن لأهل العقل والتصرف ، وقلة رياضتهن لقواهن الحيوانية بلزوم القوانين العقلية في تدبير أمر المعاش والمعاد ، لذلك كانت أحكام القوى الحيوانية فيهن اغلب على أحكام عقولهن ، فكانت المرأة أرق ، وابكى ، وأحسد ، وألج ، وابغى واجزع ، وأوقح ، واكذب ، وأمكر ، واقبل المكر ، واذكر لمحقرات الامور ، ولكونها بهذه الصفة اقتضت الحكمة الالآهية ان يكون عليها حاكم ومدبر تعيش بتدبيره ، وهو الرجل ﴿ الرجال قوامون على النساء ﴾ .

ولشدة قبولها للمكر وقلة طاعتها للعقل — اقتضت الحكمة ايضاً أن يسن

في حقها التستر والتخدر . جاءت امرأة الى رسول الله (ص) فقالت : يا رسول الله ما بال الامرأتين برجل في الشهادة وفي الميراث ؟ فقال : ان ذلك قضاء من ملك عدل حكيم ، لايجور ولا يحيف ، ايتها المرأة لأنكن ناقصات الدين والعقل . ان احداكن تقعد نصف دهرها لا تصلي بحيضة ، وانكن تكثرن اللعن ، وتكفرن العشير ، تمكث احداكن عند الرجل عشر سنين فصاعداً يحسن اليها وينعم عليها ، فاذا ضاقت يده يوماً أو ساعة خاصمته وقالت : مارأيت منك خيراً قط .

ومرّ (ص) على نسوة فوقف عليهن ثم قال : معاشر النساء ما رأيت نواقص عقول ودين أذهب بعقول ذوي الألباب منكن ، اني رأيت انكن اكثر اهل النار عذابا ، فتقربن الى الله ما استطعتن . فقالت : امرأة منهن يا رسول الله ما نقصان ديننا وعقولنا ؟ قال : اما نقصان دينكن — فالحيض الذي يصيبكن ، فتمكث احداكن ما شاء الله لا تصلي ولا تصوم . واما نقصان عقولكن — فشهادتكن ، انما شهادة المرأة نصف شهادة الرجل .

ذهب أهل اوربا الى ان عقول النساء اكثر من عقول الرجال ، واستدلوا على ذلك بانه : قد تبين في علم التشريح بان مخ النساء اكثر مقداراً من مخ الرجال ، فيلزم ان يكن اعقل منهم ، لأن ذلك محل العقل والفهم والحفظ . وهذا وهم زائف ، وذلك على فرض التسليم — لا يستلزم زيادة عقولهن بسبب مزاجهن ، وقلة حرارتهن بالنسبة الى الرجال . ومعلوم ان الرطوبة تزيد في حجم الشيء ، ولهذا تكون اعضاؤهن ألين من أعضاء الرجال .

وحل الاشكال : هو ان الأرواح والقوى البدنية والدماغية وغيرها انما تكون بواسطة البخارات المعبر عنها بالروح ، لا بواسطة الاخلاط ، ولهذا

يكون البدن غالباً محتاجاً الى التنقية وتقليل الدم وإلا لطرء عليه الضعف ولو كانت زيادة الاخلاط موجبة لزيادة القوى لطرأت عليه القوة لا الضعف ، ولم يحتج الى التنقية . مضافا الى أن الانسان اذا مات لا ينقص من أخلاطه شيء ، فيتبين ان زوال الارواح والقوى عنه — انما هو بواسطة زوال البخارات الزائلة عنه لا بواسطة الاخلاط ، فازدياد الاخلاط والاجرام — مثل المخ ونحوه — موجب لقلة البخارات لاتحاد الفضاء الحاوي لهما في الحالين . فاذا زاد حجم المخ قل فضاء الدماغ — الذي هو محل للروح الدماغي — فيقل الروح الدماغي ايضاً ، فيقل العقل . اللهم إلا ان تكون رؤس النساء اكبر من رؤس الرجال حتى لا ينافي زيادة حجم المخ لزيادة الروح الدماغي ، والحال انه ليس كذلك ، بل رؤس النساء اما اصغر من رؤس الرجال نوعا ، واما مساوية . ولهذا قالوا في المثل المغلوط : ان صغر الرأس علامة الحماقة ، كما ان كبر الرأس علامة العقل والفهم . لانه كلما قل فضاء الدماغ قل العقل والفهم لقلة تولد الروح الدماغي وبالعكس . فيلزم من هذا ان تكون عقول النساء أقل من عقول الرجال ويؤيد ذلك ايضاً : سرعة انخداعهن بمن اظهر المحبة عندهن ، وعدم ملاحظتهن للعواقب كالاطفال . هذا بحث وجيز من ناحية نقصان عقل المرأة .

واما كونهن نواقص الايمان — فقعودهن عن الصلاة والصيام ايام حيضهن ، وحيث ان الصوم والصلاة من كمال الايمان ومتممات الرياضة — كان قعودهن عن الارتياض بالصوم والصلاة في تلك الايام نقصاناً لايمانهن . وانما رفعت الشريعة التكليف عنهن بالعبادتين المذكورتين لكونهن في حال مستقذرة ولا يتأهل صاحبها للوقوف بين يدي الملك الجليل . ويعقل للصوم وجه آخر وهو انه يزيد الحائض الى ضعفها ضعفاً بخروج الدم . هذا مانفهمه من ظاهر

الأمر وإلا فاسرار الشريعة أدق واجل من ان تطلع عليها عقول سائر الخلق .

وأما كونهن نواقص الحظوظ فميراثهن فانه على النصف من ميراث الرجال يقول تعالى : (يوصيكم الله في أولادكم للذكر مثل حظ الانثيين) والذي يلوح من سر ذلك : كثرة المؤنة على الرجل وهو اصل التصرف . وكون المرأة من شأنها ان تكون مكفولة محتاجة الى قيم هو لها كالخادم .

وعلى كل فالمرأة أقصر من أن تعدل هذا القانون الطبيعي العام لايجوز ان ترمى المرأة في المحيط العلمي قبل ان تتعدل ذهنية الرجال ويتغير اعتقادهم بها اما اذا بقي الرجل متصفا بصفات الرجولة المعروفة اليوم ـ أي ذئبا مفترساً ـ واذا بقيت المراة متصفة بصفات الانوثة ـ اي بقيت حملا وديعاً ـ فلا يجوز ان ندعي ان الحياة العملية فتحت ابوابها .

وفي كلام الفيلسوف الفرنساوي (جول سيمون العمراني الشهير) عبرة لمن اعتبر يقول : كان الناس في سنة ١٨٤٨ م يشكون من عدم الاعتناء بتهذيب النساء وتربيتهن . ولكنهم بالعكس اليوم يشكون من ان ذلك التهذيب قد بلغ حد الافراط ، نعم لا نشك من اننا خرجنا من تفريط الى إفراط هائل .

ولصاحب الفضيلة العلامة الشيخ مهدي الحجار « ره » هذه الأبيات ، وهي أبيات جميلة لها دخل في الموضوع :

« مناقشة بين القديم والجديد »

إنا من الغابر ننقم السير ونحن في الحاضر أدهى وأمر
تخالف القديم والجديد في النزعة والخلاف عرضة الخطر
وان ما بينهما لخطة ليس عليها غير صفوة البشر
جسر اعتدال نحن بين واقف لم يتقدم قدما ومن عبر

فنزعة الجديد سيل جارف ... ونزعة القديم ترمي بشرر
ونقطة التعديل ما بينهما ... ان تأخذ الصفو وتترك الكدر
تنبهوا شبابنا فانكم ... أفلاذ تلك العرب البيض الغرر
غرائر الآباء مالي لا أرى ... عليكم عيناً لها ولا أثر
الوطن العزيز محبوب لنا ... والحب للسحنة فيه لا الهجر
فاين تلك السحنة التي بها ... دان لكم بادي الورى ومن حضر
طرتم مع الجديد طيرة القطا ... من خلف صقر كاسر عليه مر
وانه النار التي ان تبق لا ... تبق على أخلاقكم ولا تذر
تطوروا ما شئتموا تجدداً ... الا عن الدين وما عنه صدر
عار على الغارس يحمل العنا ... في غرسه والغير يأكل الثمر
والعرض ناموس الفتى وفخره ... فان يعارضه الجديد فالحذر
ما أسفه الراعي وما احمقه ... ان حسب الذئب أميناً ان ظفر
ما فكرة السفور إلا مبدءٌ ... ليس لها غير الفجور من خبر
خذوا من الجديد ما فيه لكم ... تفوق لا ما لكم به ضرر

أجل — السفور والاختلاط يهدمان الهناء العائلي . إن الرجل إذا لمس يد خطيبته شعر بهزة كهربائية تسري في جميع اعضائه . اما بعد الزواج فيصيران جسداً واحداً وتزول مباراة التحبب والشوق . وشكوى الوجدان بزوال الكلفة بين الزوجين ، بل إن الحب ذاته ينام في قلب كل واحد منهما وتقوم الالفة مقامه ، ولكن هموم الحياة لا تنام ، تمزج تلك الالفة بشيء من النكد ، وقد تسوء أخلاق احد الزوجين أو كلاهما ويغدو كل منهما وقراً على عاتق صاحبه .

ولكن ليست هنا الضربة القاضية على السعادة الزوجية ؛ فإن من لم يزر

المدينة يظل راضيا بمعيشته البسيطة فى قريته ، والذي لم ينظر ترف الغنى يظل راضيا بشظف عيشه .

الحق أقول : انه لو أتيحت حرية الضمير فى القول بلا إثم ولا حرج بين طبقات الناس القائلين بالاختلاط لسمعتم كل زوج يقول لزوجته : ان فلانة ذات عواطف حساسة ، وشعور رقيق ، وجمال فتان لا تماثلينها بشيء منه . ولسمعتم كل زوجة تقول لزوجها : انت فظ شرس سمج بعكس صديقنا او جارنا فلان ، فانه لطيف المعشر ، فصيح اللسان ، بشوش الوجه ، حسن الصورة . هذا إن لم تقل له : إن فلاناً أخف منك بالرقص ، وإذا لم يقل لها فلانة أبرع منك بالعزف . فالاختلاط إذاً ـ كما ذكرنا ـ يهدم الهناء العائلي فاذا كان هذا بين الأزواج المتكافئين خلقا وخُلقا وسنّا ، فما يكون إذا كان الزوج شيخياً أو كهلاً والزوجة صبية . وإذا كان قبيحا وتلك حسناء . أو كان عاديا من سائر الناس يتزوج بفتاة كلها شعور وخيال . أو بالعكس مثلا ، ما تكون النتيجة والشرايع واقفة بالمرصاد ؟ ! !

أما الحجاب ياإخواني تعرفونه صبغة الله في الخلق ـ ومن أحسن من الله صبغة ـ وخلقه ولا تبديل لخلقه ، ذلك الدين القيم ولكن اكثر الناس لا يعلمون . وأما السفور فقد عرفتكم شيئاً منه وان تسألوني رأيي أجبتكم : انه تغيير سنن الله في خلقه وهذا غير ممكن . واما الحجاب فانه خير للانسان ان لا يرى النور ابداً على ان يتمتع بالنظر ساعة ويفقؤن بعدها عينيه . .

واحفظ المثل السائر : ـ باعدوا الرجال عن النساء ترونهن حرائر وادنوهم منهن ترونهن عواهر ،

قال الفاضل الأديب الشيخ مصطفى الغلائيني فى كتابه « الاسلام روح

المدنية » : ان تحجب المرأة عن اعين الناس امر مفيد فائدة لاتنكر. الى ان قال : جاء في كتاب « مبدء إرتباط التمدن بدين الاسلام » تأليف صاحب الفضيلة عبد الحميد أفندي الجابري : تسع فوائد للحجاب . وقد اخترت ذكر بعضها فى إختصار ، منها انه يستدعي زيادة عزة جنس الرجال . وزيادة ميل الرجال ورغبتهم لعمومهن كما ان التحجب يمنع والنفوس تتطلع الى ما لا يبتذل لديها ، ويتصور فيه ما احتواه من المعنى ، ألا ترى ان من اراد اكبار مقامه واعزاز شأنه يرى التحجب والانزواء من ملائمات مراده ومرامه ؟ ويدل على ذلك ايضاً تنزل الرغبة فى النساء لدى بعض الامم التي لم تعتد نساؤهم التحجب حتى آل الامر فيهن الى ان صرن هن يخطبن ويستدعينهم اليهن . ويدفعن المهر اليهم من قبلهن ، فاصبحن هن الطالبات والرجال هم المطلوبون . على العكس مما إعتدن ذوات الحجاب به وفرق بين الطالب والمطلوب !

ومن انه إذا كان في تحجب أحد الطرفين عن الآخر تزييد الرغبة بالمتحجب كان ذلك أدعى لطلب الاقتران وهو الواقع ، ألا ترى ان القوم الذين إعتادوا تحجب نسائهم هم أرغب في الزواج من القوم الذين لم يعتادوه ، ولايخفى ما في الزواج من الفوائد الاسلامية لقيام المدنية .

ومنها إتقاء تهمة تنازع الرجال ببعض النساء وتنازع النساء ببعض الرجال إذ بكثرة اختلاط الطرفين يكون هـــذا التنازع أكثر وقوعا واشد تأثيراً في النفوس ، وربما سبب هذا التنازع ضرراً عظيما بالمتنازعين او المتنازع به .

ومنها إتقاء كثرة وقوع الزنا . فان اختلاط الرجال بالنساء بتمام الحرية مما يسهل وجود الروابط الخفية بينهما ، ويرفع حجاب الحياء الحائل ، ويهيج شهوة كل منهما ، لا سيما عند خلوة المرأة بالرجل خلوة تمنحها إياها حرية الاختلاط

فلا يرون بهما بأساً .

ومنها ـ انقاء تهمة المحصنات عما يخل بشرفهن ، لأن سوء الظن جبلت عليه الطباع ، سيما مع الاختلاط التام سراً وجهراً .

ومنها ـ ان الرجل قد تكون له امرأة حسناء فيغار عليها من مخالطة أبناء جنسه من الرجال ، ويحرص من أن تطمح اليها انظارهم . وقد تكون له امرأة قبيحة تخجله لدى أمثاله من الرجال أن ترى تلك القرينة معه ، وكل من الرجلين ربما يرى فى نفسه حزازة من حضوره مع قرينته فى المجامع ـ التي احتوت أنواع الرجال والنساء ـ هذا لحسن قرينته حرصاً عليها ممن لم يظفر بمثلها ، وهذا لقبح قرينته تعييراً بها ممن لديهم خير منها وكلا الرجلين يكون تحجب المرأة خيراً له .

ومنها ـ تمهيد العذر عن تجشم مشاق الكسب الذي هن أضعف عن القيام به من الرجال ، واراحتهن عن التكلف لغير الاشغال البيتية المنوطة بهن اناطة طبيعية ، وتفريغهن لاتقان ما انيط بهن .

أقول : ومنها ـ رخاء بالهما لأن الرجل ربما كان فقيراً لا يمكن أن يقوم بزينة زوجته ، كما يقوم الآخر المثري ـ الذي هو قرينه في الجاه والاعتبار ـ ولا يحب اطلاع احد على حاله واسراره ، وخروجها يوجب الاطلاع والفشل او تكلف الرجل المسكين فوق طاقته وزيادة على قابليته ولا ينقص بنفس الرجل إذ الزينة والتجمل ولبس الثياب الفاخرة من شأن النساء دون الرجال .

ومنها ـ ان النساء رقيقات القلب سريعات الميل إلى ما يرينه لاسيما ما كان من أقسام الزينة وأنواع الثياب . وربما كان الرجل فقيراً لا يمكنه القيام بذلك ، وخروجها يوجب اما تكلف نفسها أو الرجل فوق الطاقة ، أو الشقاق أو اللجاج بينهما ونكد صفو عيشهما .

ومنها ـ ان النساء أضعف من الرجال قلباً وقوة وبدناً ، ولا يمكنهن الدفاع عن أنفسهن وردع من يريد ابتزاز حليهن وزينتهن ، فاذا التقى في بعض الطرق الخالية بعض من لاخلاق له ـ طمع فيما عليهن من الحلي والزينة ، فيأخذها بأقل تهويل وتخويف ، وتعود المرأة با لخسران ، وملازمة صاحبها وزوجها لها دائماً ضرب من المحال .

ومنها ـ ان النساء ـ كما عرفت ـ أضعف قلباً وأسرع تأثراً من الرجال ، وخروجهن واختلاطهن بالرجال يوجب اطلاعهن على الحوادث والوقايع المؤلمة والمؤثرة فى الانسان ، وربما جرى هذا التأثير والانفعال الى مرضهن ، وانحراف صحتهن ، ولا ينتقض بسماعهن ، إذ الرؤية ليست كالسماع « وما راءٍ كمن سمعا »

ومنها ـ الأمن من خيانة النساء لأزواجهن في أنفسهن . فقد أثبت الاحصاء ان النساء الخائنات لأزواجهن فى المائة سبعة في المانيا ، وستة في بلجيكا ، وخمسة في انكلترا ، وأربعة في النمسا ، وواحدة في تركيا ، وما ذلك إلا بسبب الاختلاط .

ومنها ـ قلة الفاحشة . ان اوربا رأت من اللازم عليها ـ إن أرادت صيانة النساء والشبان بعد اعطاء المرأة الحرية التامة ـ تعيين أمكنة خاصة لذوات الأعلام كي يمضي اليها الرجال عند ما يرون في الطرق بعض النساء الجميلات وتهييج عليهم شهوتهم . فلو قلنا بالحجاب أمنّا من هذه الغائلة ولم نلتزم بفتح هذه الدور ، والفرار من شيء والوقوع فيما هو اكثر ضرراً وأعظم وبالاً . ولنترك القول هنا الى غيرنا . فاستمع الى ما نقله الاستاذ الفاضل الشيخ محمد عبده في تفسيره من سورة النساء :

قال : لما تنبه أهل اوربا الى اصلاح شؤنهم الاجتماعية وترقية معيشتهم

المدنية اعتنوا بتربية النساء وتعليمهن ، فكان لذلك أثر عظيم فى ترقيتهم وتقدمهم ولكن المرأة لا تبلغ كمالها إلا بالتربية الاسلامية ، وأعني بالاسلامية ما جاء به الاسلام لا ما عليه المسلمون اليوم ، ولا قبل اليوم بقرون ، لأنهم ما رعوا تعاليم دينهم حق رعايتها . ولهذا وجدت مع التربية الاوربية للنساء جراثيم الفساد ، ونمت هذه الجراثيم فتولدت منها الأدواء الاجتماعية والأمراض المدنية ، وقد ظهر أثرها بشدة فى الدولة السابقة اليها — وهي فرنسا — فضعف نسلها ، وقلت مواليدها قلة تهددها بالانقراض ، والذنب فى ذلك على الرجال .

حذّر من مغبة هذه الأمراض العقلاء ، وحذر من عواقبه الكتاب الأذكياء ، وصرح من يعرف شيئاً من الديانة الاسلامية بتمني الرجوع الى تعاليمها المرضية وفضائلها الحقيقية ، وصرحوا بأن الرجل هو الذي أضل المرأة وأفسد تربيتها ، وان بعض فضليات نساء الافرنج صرحت بذلك .

جاء فى جريدة « لاغوص » نقلا عن جريدة « لندن » بقلم كاتبة فاضلة ما ترجمته ملخصاً :

لقد كثرت الشاردات من بناتنا ، وعمّ البلاء وقلّ الباحثون عن أسباب ذلك ، واذ كنت امرأة تراني انظر الى هاتيك البنات — وقلبي ينقطع شفقة عليهن وحزناً ، وما عسى يفيدهن بثي وحزني وتوجعي وتفجعي ، وان شاركني فيه الناس جميعاً — لا فائدة إلا في العمل بما يمنع هذه الحالة الرجسة .

ونشرت الكاتبة الشهيرة « مس آني رود » مقالة مفيدة فى جريدة « الاسترن ميل » نقتطف منها ما يأتي لتأييد ما تقدم ، قالت : لئن تشتغل بناتنا في البيوت خوادم أو كالخوادم خيرٌ وأخف بلاءً من اشتغالهن في المعامل ، حيث تصبح البنت ملوثة بأدران تذهب برونق حياتها الى الأبد ، ألا ليت بلادنا

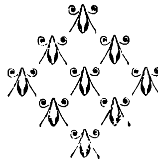
كبلاد المسلمين ـ هذا القول في سنة ١٩٠١م ـ فيها الحشمة والعفاف والطهارة، تدع الخادمة والرقيق يتنعمان بأرغد عيش ، ويُعاملان كما يعامل أولاد البيت ، ولا تمس الأعراض بسوء . نعم انه العار على بلاد الانكليز ان تجعل بناتها مثلا للرذائل بكثرة مخالطة الرجال ، فما بالنا لا نسعى وراء ما يجعل البنت تعمل بما يوافق فطرتها الطبيعية ، من القيام في البيت وترك أعمال الرجال للرجال سلامةً لشرفها .

وقالت الكاتبة الشهيرة « لادي كوك » بجريدة « الايكو » ما ترجمته — وهو يؤيد ما تقدم — : ان الاختلاط يألفه الرجال ، ولهذا طمعت المرأة بما يخالف فطرتها ، وعلى قدر كثرة الاختلاط تكون كثرة أولاد الزنا ، وهنا البلاء العظيم على المرأة . فالرجل الذي علقت منه يتركها وشأنها تتقلب على مضجع الفاقة والعناء ، وتذوق مرارة الذل والمهانة والاضطهاد .

أما آن لنا ان نبحث عما يخفف — اذا لم نقل — عما يزيل هذه المصائب العائدة بالعار على المدنية الغربية ؟ أما آن لنا ان نتخذ طرقا تمنع قتل الوف الالوف من الاطفال الذين لا ذنب لهم ، بل الذنب على الرجل الذي أغرى المرأة المجبولة على رقة القلب المقتضي تصديق ما يوسوس به الرجل من الوعود ، ويمني به من الاماني ـ حتى اذا قضى منها وطراً تركها وشأنها تقاسي العذاب الاليم .

يا أيها الوالدان لا يغرنكما بعض دريهمات تكسبها بناتكما باشتغالهن في المعامل ونحوها ومصيرهن الى ما ذكرنا ، علموهن الابتعاد عن الرجال ، ففي المثل السائر : « باعدوا النساء عن الرجال ترونهن حرائر ، وادنوهم منهن ترونهن عواهر » اخبروهن بعاقبة الكيد الكامن لهن بالمرصاد . لقد دلنا الإحصاء على ان البلاء الناتج من حمل الزنا يعظم ويتفاقم ، حيث يكثر اختلاط

النساء بالرجال ، ألم تروا ان اكثر امهات اولاد الزنا من المشتغلات فى المعامل ، والخادمات في البيوت ، وكثير من السيدات المعرضات للانظار . ولولا الاطباء الذين يعطون الادوية للاسقاط لرأينا أضعاف ما نرى الآن ، وهذا غاية الهبوط بالمدنية .



وجهة الاسلام فى الروابط الاجتماعية

١ — الأسرة :

بحث واجبات الأسرة يتضمن بيان ما يجب على كل فرد منها للآخر ، سواء أكان زوجة أم ولداً ، أم أبا أم أمّاً ، أم يتيما مكفولا أم غير هؤلاء . وقد وجدت الاسرة على وجه البسيطة من يوم وجدت المرأة بجانب الرجل وولدت له اولاداً . والأعمال التي يزاولها كل من الرجل والمرأة في اسرتهما تختلف باختلاف حال الامة التي يعيشان فيها ـ بداوة وحضارة ـ رقيًا وانحطاطًا .

والأصل فى أعمال المرأة إدارة الأعمال البيتية ، وأعمال الرجل الشؤن الخارجة عن المنزل ، فهو يشتغل ثمة ويتعب ويستثمر جهوده ، ثم يلقي بهـذه الثمرات الى زوجته ، ويتكل فى هناءته وراحته المنزلية عليها . فالزوجة هي الرئيسة العاملة فى المنزل ، أما الزوج فهو بمثابة رئيس شرف له ، وقد جاء التصريح بذلك في الحديث الشريف ، فقد قال صلى الله عليه وآله : (كل نفس من بني آدم سيد ، فالرجل سيد اهله ، والمرأة سيدة بيتها) فانظر كيف جعل سيادة البيت للمرأة وخصها بها ، وإن كان لزوجها سيادة اخرى لا تنكر .

وإذ كانت المرأة هي سيدة ورئيسة ـ كان من اول واجبات الزوجان يحسن

اختيار تلك الرئيسة ، فيختارها من ذوات العقل والدين والتربية الصالحة ، فانها اذا توافرت فيها هذه الشروط اصبح المنزل فردوس الرجل ، ومظهر كرامته في قومه ، والمنبت الخصب لذريته واولاده ، ومن ثمّ كان المنزل والأسرة المقام الأول في نظر علماء الاجتماع ـ حتى جعلوا نظام الحياة المنزلية اساساً لنظام الحياة الاجتماعية في الامة كلها ، فاذا فسد النظام الأول فسد النظام الآخر وانحطت الامة على اثره ، والعكس بالعكس . قالوا : واذا دخلت إحدى المدن كان لك أن تحكم على ارتقاء الاسرة بمجرد نظرك الى حال سكانها وما هم عليه من الأطوار والأخلاق . في اسواقهم وحوانيتهم ومحافلهم ومقاهيهم وسائر مظاهرهم الاجتماعية فاذا رأيتهم على نظام خلقي ثابت حكمت باستحكام النظام الخلقي في بيوتهم واسرهم لأن هذا اصل ذاك .

ولا غرو فالمنزل هو المغرس الأول للذرية والأولاد ، فهم ينقلون منه الى المغرس الثاني ـ وهو المدرسة ـ ومنها الى ساحة التجارب والعمل والسعي في خدمة أُمتهم ووطنهم ، كما ينقل الفسيل من أرض الى ارض ، فاذا طابت تربة المغرس « الاسرة » طابت إذ ذاك ثمار ابناء الامة ، وغزرت ثمار عقولهم واخلاقهم . وإن خبثت تلك التربة خبثت الثمار ، وقبحت الآثار ، وساءت الأخبار .

قال بعض علماء الاجتماع : (إن احقر المنازل اذا تولت رياسته امرأة مدبرة باشة كان ملؤه الراحة والهناء والسعادة ، وكان فيه اشرف العواطف الاسرية ، عزيزاً لدى الرجل ، لما يحتويه من دواعي السرور ، وكان شفاء للقلب ورداً من عواصف الحياة ، بل كان خير مكان للراحة من عناء الأعمال ومتاعب الحياة ، وفي الشدة مسلياً ، وفي الرخاء فخراً ، وفي كل حال نعيما . فالمنزل

الصالح إذاً خير معاهد التربية لا للشاب وحده بل للكهل ايضاً ، وفيه يتعلم الشاب والكهل البشاشة والصبر وضبط النفس ، ويتعرفان روح الحياة ومعنى الواجب)

فلتنظر الامم كيف تضع نظام أسرها على اساس وطيد ثابت ، ولينظر الآباء واجبهم الشرعي والاجتماعي من هذا القبيل ، وأول واجب عليهم حسن اختيار سيدة المنزل ـ كما قلنا .

وقد ورد فى الاحاديث النبوية الحث على العناية باختيارها ، لينجب أولادها ، ويطيب العيش معها ، قال صلى الله عليه وآله : « تزوجوا فى الحجر الصالح فان العرق دساس » . وقد امتن حكيم من حكماء العرب على أولاده في قيامه بهذا الواجب فقال :

وأول إحساني اليكم تخيري لماجدة الأعراق باد عفافها

ومن الواجبات الأسرية أيضاً — العناية بتربية الأهل والعيال وتعليمهم مابه صلاح امرهم وتثقيف عقولهم ، وفى هذا المعنى ورد قوله صلى الله عليه وآله : « ارجعوا الى اهليكم فكونوا فيهم وعلموهم وبروهم » .

اما احاديث الحث على حسن معاملة الاهل والعيال والرفق بهم وترك الغلظة عليهم فكثيرة — منها قوله صلى الله عليه وآله : « خياركم خياركم لنسائهم » وقوله صلى الله عليه وآله : « خيركم خيركم لأهله وأنا خيركم لأهلي » وقوله صلى الله عليه وآله : « من كان له صبي فليتصاب له » أي ليتنزل الى أن يفعل فى ملاعبته فعل الصبيان تطييباً لنفسه ، وادخال السرور على قلبه .

وروي : أنه صلى الله عليه وآله خرج مع أصحابه يوماً الى طعام دعوا له — فاذا بابنه الحسين عليه السلام وهو صبي يلعب مع صبية فى السكة ، فاستنتل

رسول الله أمام القوم « أي انفرد عنهم وتقدمهم » وأقبل على الحسين ، فطفق يفر مرة هاهنا ومرة هاهنا ، ورسول الله يضاحكه ، ثم أمسكه فجعل إحدى يديه تحت ذقنه والاخرى تحت فأس رأسه وأقنعه وجعل يقبله ويقول : (أنا من حسين وحسين مني ، أحب الله من أحب حسيناً) .

ومن جملة الرفق والعناية بالأهل والعيال ـ ما ورد في الحديث الشريف وهو : (كان النبي صلى الله عليه وآله لا يكاد يدع أحداً من أهله في يوم عيد إلا أخرجه) يعني أنه كان في صبيحة أيام الأعياد يخرج كل واحد من أفراد اسرته إلى خارج المدينة ، حيث يجتمع المسلمون لصلاة العيد في مصلاها الخاص ، فيصلون ويشاهدون الناس فى هذا الاجتماع الحافل ، فيدخل عليهم السرور والفرح برؤية ذلك . قال صلى الله عليه وآله : (مشيك الى المسجد وانصرافك الى أهلك في الأجر سواء) فقد سوّى في الأجر والثواب بين المشيتين ، مشي الرجل إلى عبادة ربه ، ومشيه راجعاً الى مسامرة اسرته .

وكأن الشارع صلى الله عليه وآله بقوله هذا ـ يعرّض باولئك القساة الذين لا يجعلون من أوقاتهم نصيباً مفروضاً لمعاشرة اسرتهم ، بل ينفقونها جزافا في أماكن اللهو والبطالة ، وبذلك تسوء عيشة الأُسرة ، وتتنغص حياتها ، بل ربما أدى بها الأمر أحياناً إلى المفاسد والقبيح من الأعمال .

ومن الواجبات الاسرية ترفيهها والتوسعة عليها بالنفقة ، وإعداد ما تحتاج اليه من وسائل الراحة والهناءة ومرافق الحياة والعيش .

٢ - الاولاد :

الولد ثمرة الحياة ، وريحانة البيت ، وأمل الاسرة ، والغاية المقصودة من الزواج . قال رسول الله صلى الله عليه وآله : « بيت لاصبيان فيه لابركة فيه »

لـكن ينبغي للآباء والامهات أن يعلموا : أن أولادهم ليسوا ملـكا لهم كملكهم أشيائهم ، وأنه لم تمنحهم إياهم العناية الالآهية ليكونوا متاعا أوزينة في البيت يتنافس فيها ويحرص عليها ، وتتلذذ النفس بالنظر اليها فقط ـ وإنما خلقوا ليقضوا زمن الصبوة بين ظهراني الاسرة . ثم يخرجوا منها أحراراً مستقلين ، ويكونوا مدداً إلى الرجال والنساء العاملين .

فالاسرة إذن مكلفة تربية الطفل وتهيئته جسماً ونفساً وخلقاً للقيام بوظائفه المختلفة في خدمة قومه ووطنه ، وإن العناية بالأولاد وتربيتهم ـ هـــذه التربية الصالحة ـ من أكبر واجبات الأبوين التي يفرضها الشرع ونظام الاجتماع عليهما كما أن إهمالهم والتفريط في تربيتهم من أكبر الجنـايات التي يمقتها الشرع ، وتعاقب عليها القوانين المدنية . قال صلى الله عليه وآله : « أكرموا أولادكم وأحسنوا آدابهم فان أولادكم هدية اليكم » .

ولا يخفى أن الشكر على الهدية إنما يكون في تقبلها بالفرح ثم العناية بهـا والمحافظة عليها ، كما أن التفريط فيها كفران لحق من أهـداها ، وباعث على غضبه ونقمته .

فالواجب على أولياء الأحداث اليوم أن يعلّموهم ماهم في حاجة ماسة اليه ، وان الاسلام ليقدر الاختلاف الزماني قدره كما ورد عن علي أمير المؤمنين عليه السلام

« لا تقصروا أولادكم على أخلاقكم فانهم خلقوا لزمان غير زمانكم » فاذا كانت الأخلاق تختلف بين زمن الأب وابنه فكيف يكون مبلغ اختلافها بين السلف وزمننا هذا ؟ وقال صلى الله عليه وآله : « أيما امرأة قعدت على بيت اولادها فهي معي فى الجنة » يرشد الشارع المرأة في هذا الحديث الى واجبها في تربية اولادها . وهي أجدر بهذا الخطاب الشرعي من الرجل فهو يقول لها : ان تركها الاشتغال بما لا ينفعها والعكوف على تربية اولادها فى بيتها خير وسيلة الى دخول الجنان .

وقال (ص) : « ان الله يحب أن تعدلوا بين اولادكم حتى فى القبَل » وفى هذا الحديث نهي عن إيثار بعض الأولاد على بعض، ومثله : « ساووا بين اولادكم فى العطية ، فلو كنت مفضلا احداً لفضلت النساء » ولعل السبب فى استحقاق النساء للتفضيل انهن سريعات التأثر رقيقات الشعور ضعيفات الجانب فهن لذلك أجدر بالعطايا وانواع البر واللطف من إخوتهن الذكور .

ومع هذا فالشارع ينهى عنه خشية التنافس والتحاسد بين الاولاد . وفي الحديث إشارة لطيفة الى وجوب العناية بالنساء ومراعاة شعورهن وعواطفهن .

وان من أهم الاغراض التي جاء الاسلام من أجلها هدم ما كان عليه اهل الجاهلية ؛ من هضم المرأة وإذلالها ، والتفريط أحياناً بحياتها حتى عاب عليهم القرآن ذلك وعيّرهم إذ يقول تعالى : ﴿ واذا بُشّر احدهم بالانثى ظل وجهه مسوداً وهو كظيم يتوارى من القوم من سوء ما بُشر به أيمسكه على هون أم يدسه في التراب ألا ساء ما يحكمون ﴾ . هذا حال اهل الجاهلية قبل الاسلام . كانوا اذا وُلد لأحدهم أنثى اكفهر وجهه واستخفى عن أعين الناس حياءً وخجلا ثم فكر : كيف يتخلص من هذا الضيف الثقيل أيصبر عليه أو يئده تحت التراب؟

فجاء الاسلام ناعياً عليهم حالتهم هذه ، ورفع مقام المرأة وحتم وجوب العناية بها وإعطاءها حقها من الوجود وحظها من الحقوق .

وإنما نهى الشارع عن تفضيل احد الاولاد بالعطية تفادياً من التحاسد والتحاقد بينهم . بل قد يحقدون احياناً على ابيهم نفسه ، والأب مأمور بألاّ يعمل ما يثير شيطان العقوق فى نفس ولده ، ومن قوله (ص) فى ذلك : « رحم الله والداً أعان ولده على بره » وقال (ص) : « أعينوا اولادكم على بركم من شاء استخرج العقوق من ولده » أي انه فى إمكان الأب ان يحمل ابنه على العقوق وترك الطاعة وذلك يكون بتفضيل اخيه عليه بوصية أو عطية أو تقريظ أو ابتسامة احياناً . فليكن الأب حكيما فطناً ضابطاً لعواطفه وتوزيعها بالعدل بين اولاده وإلا جرّ على نفسه واسرته من بعده تعباً وبلاءً ، كما يطالب الولد ببر والده يطالب الوالد نفسه ببر ولده ايضاً ، وبر كل منهما على حسبه . ومن جملة بر الوالد لولده ألاّ يعد صبيته ثم لا يفي لهم فان هذا ـ فضلا عن كونه يحمل الولد على احتقار ابويه واعتقاد الكذب فيه ـ يسهل أمر الكذب على الولد نفسه ، ومن شابه أباه فما ظلم ، فينشأ كذابا لا يصدق فى قول ولا يفي بعهد .

ومما نبه اليه الشارع من أمر تربية الاولاد ألاّ يتشائم الوالد بأحد أولاده ولا ييأس منه اذا رآه عنيداً شرساً ذا شرّة وبطر ، فقد يتحول كل هذا فيه اذا أُحسنت تربيته ـ الى اخلاق فاضلة : كالشجاعة والثبات وقوة الارادة وكبر العقل والشمم وطلب المعالي قال (ص) : « عُرام الصبي فى صغره زيادة في عقله في كبره » . ومما ورد في فضل الولد قوله (ص) : « اذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث : صدقة جارية ، أو علم ينتفع به ، أو ولد صالح يدعو له » . والحنو على الولد والرأفة به والصبر على ما يبدو منه أحياناً من العناد والطيش ودواعي

الصبوة أمر طبعي فى الآباء إلا من ندر منهم ، فقد رأى الاقرع بن حابس رسول الله (ص) يقبّل ولده الحسن ، فقال له : إن لي عشرة من الولد ما قبلت واحداً منهم ، فقال (ص) : « إن من لا يَرحم لا يُرحم » .

وقال معاوية للاحنف بن قيس : ماتقول فى الولد ؟ قال : ياأميرالمؤمنين ، ثمار قلوبنا ، وعماد ظهورنا ، ونحن لهم ارض ذليلة وسماء ظليلة ، وبهم نصول على كل خليلة ، فان طلبوا فاعطهم ، وإن غضبوا فأرضهم ، يمنحوك ودهم . ويحبوك جهدهم ولا تكن عليهم قفلا ثقيلا ، فيملوا حياتك . ويودوا وفاتك . ويكرهوا قربك . فقال له معاوية : لله أنت ياأحنف . لقد أرضيتني عمن سخطت عليه من ولدي . ثم وصله وأكرمه .

٣ — الوالدان :

ان كان الولد ثمرة الأُسرة فان الأبوين اصلها وعمادها . وإن كان لأحد حق على الولد بعد الله فهو لأبويه . وان كان الله خالق الولد فان الأبوين هما مظهر ذلك الخلق وأداته ووساطته ، فلا عجب بعد هذا إذا رأينا الدين الاسلامي يصيح من فوق رؤس الابناء موجهاً نظرهم إلى حقوق الوالدين على لسان سيد الانبياء صلى الله عليه وآله قائلا :

« رضا الرب فى رضا الوالدين وسخطه في سخطهما » وقال : « ألا انبؤكم باكبر الكبائر : الاشراك بالله وعقوق الوالدين » وقال تعالى : ﴿ ووصينا الانسان بوالديه إحساناً ﴾ أي ووصيناه بأن يحسن اليهما إحساناً يكافىء حقهما وفضلهما عليه . ثم أثنى الله على ذلك الانسان ـ الذي وصاه تلك الوصية ـ واصفاً من

جميل بره لوالديه إذ يقول في دعائه لهما اعترافاً بحقهما : ﴿ رب أوزعني أن أشكر نعمتك التي انعمت عليّ وعلى والديّ وان اعمل صالحاً ترضاه واصلح لي في ذريتي ﴾ فهذا الولد البار قرن في دعائه لربه بين البرين : بره بأهله إذ شكر له تعالى ما سبق من إنعامه على ابويه ، وبره بفرعه إذ سأله تعالى ان يصلح له ذريته .

وقد ذكر القرآن الكريم في آية اخرى واجبات الولد لوالده بأكثر إيضاح وتفصيل ، فقال تعالى : ﴿ وقضى ربك ان لا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحساناً إما يبلغن عندك الكبر احدهما او كلاهما فلا تقل لهما أُفّ ولا تنهرهما وقل لهما قولا كريماً ، واخفض لهما جناح الذل من الرحمة وقل رب ارحمهما كما ربياني صغيرا ﴾ نهى الولد عن الاساءة إلى والديه حتى في قول « أُف » فما بالك بغيرها؟ وقد قال رسول الله (ص) : « إن من اكبر الكبائر ان يلعن الرجل والديه . قيل : كيف يلعنهما يا رسول الله ؟ قال : يسب الرجل أبا الرجل فيسب أباه » .

والاسلام وإن أمر ببر الوالدين معاً ـ يخص الأُم أحياناً بالذكر عناية بها ورعاية لها ، كما هو شأنه في التوصية بجنس النساء والحث على تقديمهن في مواطن الرفق والترفيه . وقد سمع النبي (ص) يوماً حادياً يحدو بأظعانهن فقال له : « رفقاً بالقوارير » أي ارفق يا هذا بهؤلاء النساء اللواتي يشبهن رقيق الزجاج وإن حداءك بهذا التلحين العجيب يهيج عواطفهن ولطيف شعورهن ويثير في نفوسهن كامن الشوق والحنين إلى أهليهن وذويهن ، كما أنه يتعب أجسامهن ويجهدها مما يحدثه في النياق من السرعة والكردحة .

وانظر كيف ان الشارع قدّم المرأة على الرجل إذ أوصى ببر الأقارب وصلة الارحام عامة فقال (ص) : « أُمك ثم امك ثم امك ثم أباك ثم الأقرب فالأقرب » وقال(ص) : « الجنة تحت اقدام الامهات » .

ومن أسوأ آثار العقوق ـ ان العاق أباه يعقه ابنه ويجرأ عليه فلا يجله ولا يطيع له أمراً ، وهـــذه التجربة معهودة في الناس ، وطالما مثلت ادوارها تحت مواقع انظارهم . وهذه المكافأة التي يتلقاها العاق من ابنه من جملة التعجيل بالعقوبة الدنيوية قبل العقوبة الاخروية . وقد قال (ص) : « كل الذنوب يؤخر الله ماشاء منها الى يوم القيامة إلا عقوق الوالدين فان الله يعجله لصاحبه فى الحياة الدنيـا قبل الممات » .

٤ - النساء والأيتام :

قلّما يخلو ارباب الاسر من وجود نساء او ايتام يعيشون فى كنفهم ، فـكان البحث فيها فيما يجب لهؤلاء النساء والايتام من العناية والرعاية ـ من جملة الواجبات الاسرية التي ذكرنا فيما سبق طرفا من حض الاسلام على الرفق بجنس النساء وتقديمه لهن ، وذلك لأنهن موصوفات بضعف الجسم ولين الجانب ودماثة الاخلاق ورقة العواطف . فهن يتأثرن من سوء المعاشرة . وتنكسر انفسهن عند أدنى مشاكسة او مشادة .

واذا وازنّا بين ماجاء به الاسلام من العناية بهن وتوفير حقوقهن وماعليه حالهن فى الامم الذين يتساءلون : هل للمرأة نفس ناطقة وهل لها حق التملّك ؟ رأينا ان الاسلام إنما جاء بانقاذ النساء من تعسهن وسوء حالهن فقرر لهن الحق في الحياة والتملك والعمل ، وحرية التمتع بكل ماخلق الله لهن وللرجال في هذاالعالم ، ضمن القواعد الشرعية والسنن الادبية والاجتماعية ، وقد هتف الاسلام بحقوقهن هذه على لسان النبي الكريم (ص) إذ قال : « إنما النساء شقائق الرجال » . وهن

وإن قدم الرجال عليهن في مواطن الخوف والقوة والنجدة والأعمال الشاقة ـ قد بقي لهن حق التقديم في مواطن الدعة والرفق والادب والحياة والاحتشام .

ولا حاجة للاستشهاد على ذلك من السنة واعمال السلف ، فان الامر بيّن ومادة الاستشهاد غزيرة ، ويكفي فيه مانقل الينا بالتواتر من حسن معاملته (ص) للنساء وإكثاره من مجاملتهن والوصاية بهن وتصريحه بحبهن . فقد كان (ص) هو ومن سبقه من الأنبياء والرسل يعطفون على النساء والايتام والاطفال والارامل والارقّاء ، وكل من كان مظنة الضعف والعجز والتعب تحت اثقال هذه الحياة ، ويعدون ذلك من اركان شريعتهم واغراض بعثهم . فما ورد عن الشارع بشأن الرفق بالنساء والعطف عليهن قوله (ص) : « اتقوا الله في الضعيفين المرأة وما ملكت أيمانكم » .

أما اليتيم فقد ورد في الحض على حسن معاملته والرفق به قوله تعالى : ﴿ فأما اليتيم فلا تقهر ﴾ أي فلا تدّعه ولا تؤذه ولا تظلمه ، ولا تأكل ماله ولا تهمل تربيته ـ اذا كنت ولياً له ـ فان إبقاءه في الجهل إذلال له وظلم وقهر . قال (ص) : « أنا وكافل اليتيم في الجنة هكذا واشار بالسبابة والوسطى وفرج بينهما شيئاً » .

حقاً إن اليتيم معرض للضياع في تربيته وآدابه ، وفيما يملك من مال ونشب وعقار فاذا كفله كافل فرباه وأدبه ، وصان ماله ووفره له ، حتى بلغ اشده ونزل بنفسه الى ساحة العمل والسعي ـ كان ذلك الكافل كأنما أحيا اليتيم بعد الموت وتلافى سعادته قبل الفوت . فلا جرم بعد ان قام بواجبه هذا ان تجب له دار الجنان ، وينادى عليه : « هل جزاء الاحسان إلا الاحسان » .

٥ — فى الاسرة الوطنية :

يتألف هذا المجموع في الغالب من طوائف متعددة ذات ملل وأديان مختلفة ، وهذا الاختلاف لايمنع من أن تسمى تلك الطوائف أمة واحدة او أسرة واحدة ـ مادام وطنهم واحداً ، ولغتهم واحدة ، ومصالحهم السياسية والاقتصادية واحدة ـ فان فرق الدين او المذهب بينهم فان الوحدات الاخرى تجمعهم وتضم شتاتهم ، فما نذكره فيما يأتي من أن الانسان مكلف بواجبات اجتماعية يؤديها لغيره ـ لا نريد بغيره ابناء دينه والمشاركين له فى معتقده فقط ، بل نريد كل مشاركيه فى الوطن ومصالحه السياسية والاقتصادية من أية ملة كانوا .

ذلك بأن الاسلام دين خاص بالمسلمين من حيث العقائد والشعائر وطرق التعبد ، أما من حيث احكامه السياسية والادارية والمدنية والاجتماعية والخلقية والأدبية ـ فهو دين عام يقبل أن يدخل في اوامره ونواهيه المذكورة أبناء ملته وسائر أبناء الطوائف الاخرى المختلطين بهم والمشاركين لهم في وطنيتهم فهو اذا أمر بوجوب الوفاق والتحاب ، والأمانة والعدل ، والرحمة والصدق ، وفعل الخير ، وترك الحسد والتجسس ، وسائر الشؤن الاجتماعية ـ لا يريد بذلك أتباعه من المسلمين وحدهم ، لأن المسألة ليست مسألة صلاة وتيمم واستقبال قبلة . ولا صوم واعتكاف وطواف حول الكعبة . وانما هو يريد المسلمين ومن التف بهم عهداً ووطناً وحكومة ومصلحة .

ومن أهم تلك الواجبات الاجتماعية التي أمر بها الاسلام — الاتحاد . أي وجوب الاندماج فى الجماعة الكبرى وتجنب الافتراق عنها . وفى هـذا المعنى

يقول (ص) : « الجماعة رحمة والفرقة عذاب » . ومعنى هذا : أن اجتماع المسلمين على عقائد دينهم رحمة ، وتفرقهم شيعاً فيها عذاب . ومثل هذا الحديث أحاديث أخر : منها قوله (ص) : « من فرق فليس منا » وقوله : « يد الله على الجماعة ، وانما يأكل الذئب من الغنم القاصية » ويد الله نعمته وبركته على أبناء الوطن الواحد اذا كانوا جماعة واحدة متضامنة على حفظ الحوزة وصيانة المصلحة ، أو على أبناء الدين الواحد اذا كانوا جماعة واحدة في الوحدة الدينية لا تفرق فيهم ولا انقسام . ثم قال : ان الذي ينفرد عن الجماعة هذه أو تلك يصبح كالشاة القاصية « أي البعيدة » عن جماعة القطيع لا تلبث أن يأكلها الذئب . وقال (ص): « لا تختلفوا فان من كان قبلكم اختلفوا فهلكوا » .

وجلي أن الشارع الحكيم يوجه نظرنا الى تاريخ الامم التي كانت قبلنا وقد اختلفت وتفرقت كلمتها فهلكت وبادت وأديل منها ، لنعتبر بها ونزدجر عن مثل فعلتها . وقال (ص) : « إثنان خير من واحد ، وثلاثة خير من اثنين ، واربعة خير من ثلاثة ، فعليكم بالجماعة فان الله لن يجمع امتي إلا على هدى » . وقال (ص) في بيان ترابط المسلمين وشعور كل واحد بما يشعر به الآخرون : « مثل المؤمنين فى توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد الواحد اذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى » يعني أنهم من شدة التحامهم وقوة ارتباطهم يصبح كل واحد منهم — بالقياس الى مجموعهم — ككل عضو بالقياس الى مجموع الجسد . فاذا نزل بواحد منهم مكروه شعر به كلهم على السواء ، وعملوا جميعاً على إزالته ، كما يتأثر الجسد اذا ما أصاب عضواً منه وجع وألم .

ومن آيات القرآن فى الحض على الوحدة — قوله تعالى : « واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا » وقوله ﴿ ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم ﴾ ريحكم

قوتكم وصولتكم . ولا ريب أن اتحاد ابناء الامة واتفاق كلمتهم من اكبر العوامل في ثبات امرهم ، وبقاء دولتهم . والشواهد على ذلك لا يحصيها العد ، وكم من أمة ذهب تفرق الكلمة بعزها وسلطانها .

وكما حض الشرع الاسلامي على اتفاق الكلمة أرشد الى رأب الصدع وإصلاح ذات البين اذا اعترى الروابط القومية وهن أو ضعف ، من ذلك قوله صلى الله عليه وآله : ﴿ ألا أخبركم بأفضل من درجة الصيام والصلاة والصدقة قالوا: بلى ، قال إصلاح ذات البين فان فساد ذات البين هي الحالقة ، لا أقول حالقة الشعر ولكن حالقة الدين ﴾ .

وصفوة القول : أن من الواجبات الاجتماعية — على كل واحد من أبناء الأمة — أن يتمسك بعرى الوحدة الوطنية . فلا يفصمها . ويحافظ على كعبة استقلال قومه فلا يهدمها . وليعمل جهده على إصلاح ذات البين كيلا يؤدي بهم النزاع الى البلاء والحين .

وإن وطناً كوطننا مؤلف من جماعات وملل مختلفة لا يمكن نجاحه ما لم تتفق طوائفه ، ولا يتفقون مالم تكن كل طائفة منهم متفقة في نفسها غير منقسمة على ذاتها ، واذا وقع شقاق أو نزاع في طائفة من طوائف الوطن لا تضر نفسها فقط بل يتعدى أثره الى اخواتها . ثم الى الوطن نفسه والى مجموع مصالحه ، فكان من الخير للطوائف الذين يتألف منهم الوطن الواحد أن يحرصوا على توثيق روابط الالفة بينهم من طريق توثيقها بين ابناء كل طائفة منهم .

وإن النصوص الاسلامية الآمرة بالاتفاق الناهية عن الافتراق — لا تؤثر أثرها المطلوب مالم يوجه فيها الخطاب الى مجموع ابناء الوطن ، مسلمين وغير مسلمين ، فان في اتفاقهم وجمع كلمتهم الخير لهم اجمعين .

(بذل المعونة لافراد الاسرة الوطنية والتحبب اليهم)

سبق القول في بيان مايجب على طوائف الامة وأحزابها من التعاون على مصالحها العامة ، واطراح أسباب التنازع والشقاق . والآن يراد بيان ما يجب على كل فرد من الأفراد لقريبه وجاره وصديقه في معاملتهم ، فيخلص في حبهم ويحرص على نفعهم ، ويمد اليهم يد المعونة في حين ضائقتهم ونكبتهم ، فيعيشون متوادين متحابين ، وعلى البر والعمل الصالح متساندين متعاونين . وقد عاب القرآن الكريم قوما من الأشراف يمنعون الناس رفدهم ومعونتهم فقال تعالى : ﴿ ويمنعون الماعون ﴾ ـ الماعون ـ مشتق من المعونة ، فالمعنى أنهم اذا سئلوا أيّ ضرب من ضروب التعاون والمساعدة أبوا وامتنعوا .

ونصوص الشريعة الواردة في بذل المعونة عامة شاملة لكل واحد من أبناء الامة على اختلاف مذاهبهم واديانهم ، ما دامت مصالحهم مشتركة ومراميهم متحدة .

والاسلام بطبيعته يحرص على هذه المصالح والمقاصد ، وهو يأمر بالتحاب والتعاون بين اهل الوطن ، كيلا يؤدي تواكلهم وتباغضهم الى ضياعها وفسادها أو الى النكد الدائم والشقاء الواصب . أما تخصيص المسلمين اوالمؤمنين ـ احياناً ـ بالذكر في بعض النصوص فلأنهم كانوا المخاطبين بهذه النصوص حين ورودها ، أو لأنهم ارباب الواقعة التي ورد النص بشأنها ، فلا يفهم ان غيرهم من ابناء الملل الاخرى غير داخلين فى عموم حكمها المتعلق بالمصالح العامة والمنافع المشتركة ، فمثال النص المطلق العام قوله (ص) : « الخلق كلهم عيال الله واحبهم الى الله انفعهم لعياله » . فهل يريد الشارع بالعيال المسلمين وحدهم بعد قوله : ـ الخلق

كلهم ـ الصريح في أن مراده كل فرد من بني آدم ، بل كل فرد منهم ومن العجماوات أيضاً ؟ كلا .

فالاسلام إذاً يحض كل فرد من الخلق على نفع كل فرد من الخلق . وكذلك قرر ان منزلة المرء من ربه تكون على مقدار ما يوصل من النفع والخير الى البشر . وفى معنى هذا الحديث احاديث اخرى : منها قوله (ص) : ﴿ خير الناس انفعهم للناس ﴾ ، وقوله (ص) ﴿ رأس العقل بعد الايمان بالله التحبب الى الناس ﴾. ومن كلام علي أمير المؤمنين (ع) : ﴿ قلوب الرجال وحشية فمن تألفها اقبلت عليه ﴾ وقال أيضاً : ﴿ البشاشة حبال المودة والاحتمال قبر العيوب ﴾ وقال (ع) : ﴿ أعجز الناس من عجز عن اكتساب الاخوان واعجز منه من ضيع من ظفر به منهم ﴾ . وقال رسول الله (ص) : ﴿ لا تباغضوا ولا تحاسدوا ولا تدابروا وكونوا عباد الله إخواناً . ولا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاثة ايام ﴾ وقال (ص) : ﴿ من عامل الناس فلم يظلمهم ، وحدثهم فلم يكذبهم . ووعدهم فلم يخلفهم ، فهو ممن كملت مروءته . وظهرت عدالته ووجبت محبته ﴾ .

ومثل بعض الحكماء للاخوة الانسانية فقال: أمسى علي المساء في الصحراء ، فلاح لي من بُعد شبح اسود على رأس رابية فذعرت منه ولما اقبلت نحوه وجدته انسانا ، ولما صرت بجانبه وجدته اخي ، وهكذا البشر يتعجلون في بغض بعضهم بعضاً وهم لو فكروا لعلموا انهم إخوة ، يستحقون التحاب بدل التباغض ، والتصافي مكان التحاقد .

ولا دليل فى الشرع الاسلامي ينهى عن معاملة غير المسلمين بغير ماذكر من مكارم الأخلاق بعد قوله (ص) في الحديث السابق ﴿ الخلق كلهم عيال الله ، وأحبهم إلى الله أنفعهم لعياله ﴾ وبعد قوله : ﴿ لا ضرر ولا ضرار في الاسلام ﴾

وقوله : ﴿ المؤمن آلف مألوف ولا خير فيمن لا يألف ولا يُؤلف ﴾ .

وبالجملة — فالمسلم باعتبار الدين الاسلامي هو من كان مثال الكمال الانساني في حبه لغيره من بني البشر ، والمسارعة إلى معونته ونفعه ، وكف أذاه عنه ، وتحمل الأذى منه ومسامحته على أذاه ، بل مقابلته عليه بالبر والاحسان ، كما قال تعالى ـ في صفوة الأبرار : ﴿ ويدرؤن بالحسنة السيئة ﴾ . وكما قال رسول الله (ص) ﴿ افضل الفضائل أن تصل من قطعك وتعطي من حرمك وتصفح عمن ظلمك ﴾ وان قيام المسلم بهذا الواجب لبني جنسه ـ هو في الوقت نفسه من جملة قيامه بالواجب لخالقه تعالى .

والاسلام لا يسمح للمسلم ان يقف موقف صولة او خصومة بحال من الأحوال ـ ما لم تتعرض حقوق بني الانسان للضياع او يلحق المصالح العامة او الخاصة غبن او فساد ، فانه إذ ذاك يسمح بالمقاومة ضمن شرائط العدل والاعتدال

ومن تتبع الأحاديث الواردة عن الشارع بشأن حب الناس وإيصال الخير اليهم وجدها تربي على النصوص الواردة بشأن الواجبات الاجتماعية الأخرى ، وإن مجرد سردها هنا يستوعب عدة صفحات فلذلك نقتصر على ماهو آت :

« ما تحاب اثنان في الله تعالى إلا كان أفضلهما الى الله أشدهما حباً لصاحبه »

﴿ اصنع المعروف الى من هو أهله والى غير أهله : فان أصبت أهله أصبت أهله وإن لم تصب أهله كنت أنت أهله ﴾ ﴿ إن الله يبغض المعبس في وجوه إخوانه ﴾ ﴿ إن الله يحب إغاثة اللهفان ﴾ ﴿ إن الله يحب المداومة على الاخاء القديم فداوموا عليه ﴾ ﴿ صلوا أرحامكم ولو بالسلام ﴾ وقال أيضاً : ﴿ لا يؤمن احدكم حتى يحب لأخيه مايحب لنفسه ﴾ ﴿ لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا ، ولا تؤمنوا حتى تحابوا ﴾ ﴿ مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد اذا اشتكى منه عضو

تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى ﴾ ﴿ المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً ﴾ ﴿ من نفّس عن غريمه أو محا عنه كان فى ظل العرش يوم القيامة ﴾ ﴿ من أغاث ملهوفا كتب الله له ثلاثا وسبعين مغفرة : واحدة فيها صلاح أمره كله ، وثنتان وسبعون له درجات يوم القيامة ﴾ .

لاجرم انه بقدر مايكون لتوثيق علائق التحاب بين الناس فى نظر الشارع من الشأن والاعتبار — يكون للمجترىء على تقطيعها من المقت والاستنكار . والكلمة الجامعة في الحض على التعاون والتساند هذه الآية الكريمة : ﴿ وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان ﴾ ومثلها في الحض على مبادلة عواطف الحب والتوصل اليه — من أسهل طرقه — قوله تعالى : ﴿ وإذا حييتم بتحية فحيوا بأحسن منها او ردوها ﴾ الأفضل ان تقابل صديقك بأحسن مما قابلك به من وسائل الالفة ودواعي التحاب ، فان لم تفعل كان عليك ان تقابله بمثله على الاقل

على أن عرب الجاهلية لم يكونوا خلواً من روح التعاون ومساعدة غيرهم انظر الى قول حاتم الطائي :

إذا كنت رباً للقلوص فلا تدع رفيقك يمشي خلفها غير راكب
أنخها فأركبه فان حملتكما فذاك وإن كان العقاب فعاقب

وافضل من هذا مارواه البيهقي قال : شتم رجل ابن عباس فأجابه : أتشتمني وفيّ ثلاث خصال : اني لأسمع بالحاكم يعدل في حكمه فأحبه ولعلي لا اقاضي اليه ابداً ، واني لأسمع بالغيث يصيب البلد فأفرح به ومالي به سائمة ولا راعية ، واني لآتي على آية من كتاب الله فأود ان المسلمين كلهم يعلمون منها مثل ماأعلم .

وقد اخذ ابو العلاء المعري المعنى الثاني من معاني ابن عباس فنظمه شعراً فقال :

ولو اني حبيت الخلد فرداً　　لما احببت بالخلد انفرادا
فلا هطلت علي ولا بأرضي　　سحائب ليس تنتظم البلادا

وليس من مظاهر التحاب والتعاون بين الاخوان ان يرى المرء صديقه مقيما على الشر والمنكر وفعل السوء فيتحبب اليه بالسكوت عليه والاغضاء عنه ، او استحسان مافعل احيانًا ، فانهذا النوع من المجاملة والتحبب ممقوت فيالشرع منهي عنه في الكتاب العزيز . وقد ذم الله تعالى هذا الخلق في قوله : ﴿ كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون ﴾ وفي الحديث الشريف : انصر أخاك ظالمًا او مظلومًا ، قيل : كيف أنصره ظالمًا ؟ قال : تحجزه وترده عن الظلم فانذلك نصره » « من نصر أخاه بظهرالغيب نصره الله في الدنياوالآخرة» والمعنى : ان من سمع شتما او علم ظلمًا او اتهامًا باطلا أُلصق بصديق له ـ وصديقه غائب غير شاعر بالأمر ـ فدافع عنه وصان كرامته ، وحفظ له حقه ـ كان له ما ذكر من الثواب .

وقال ص : « المؤمن أخو المؤمن لايدع نصيحته على كل حال » .

وقد نهى الشارع عن منازعة الناس وكثرة اللجاج في الخصومة لهم – خشية ان يؤدي ذلك الى تسلسل العداوات ، فيسوء العيش وتنغص الحياة ، من ذلك قوله ص : « أبغض الخلق الى الله الألد الخصم » ـ الألد الخصم ـ الشديد الخصومة ، الصبور على النزاع ، الذي يظهر له وجه الحق مع خصمه فيتصامّ عنه . ويثابر على مناصبته الى ماشاء .

ولم يغفل الشارع أمراً متعلقاً بالحب والبغض إلا أرشد الى وجه الصواب فيه ، تأمل قوله ص : « أحبب حبيبك هونًا ّما عسى ان يكون بغيضك يومًا ّما وابغض بغيضك هونًا ّما عسى ان يكون حبيبك يومًا ّما » .

ومن دلائل اهتمام الشريعة الاسلامية بتوثيق عرى التحاب ـ إباحة المزاح بين الاخوان . لامتزاج قلوب بعضهم ببعض حتى يكون لهـم في مجالسهم شيء من اللهو واللعب المعتدلين . بحيث لا يخرجون فيهما عن حدود المطايبة والمفاكهة . فقد كان النبي (ص) يمزح ولا يقول إلا حقاً . وذكروا من مزاحه أشياء غاية فى اللطف والصدق وإدخال المسرّة على المخاطبين ، كالأطفال والنساء والعجائز . فمن ذلك قوله ـ لغلام مات له طير فحزن عليه ـ : « ياأبا عمير ما فعل النفير » وقوله أيضاً ـ لتلك المرأة التي شكت شيئاً من أمر زوجها ـ : « زوجك الذي فى عينيه بياض » ؟ .

وان فى المزاح على هذه الصورة تفريجاً للكروب . وتسرية عن القلوب . وفي ذلك يقول علي أمير المؤمنين «ع» : ان هذه القلوب تمل كما تمل الأبدان فابتغوا لها طرائف الحكم .

الربا وفلسفة تحريمه فى الاسلام

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ الذين يأكلون الربوا لا يقومون إلا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس ذلك بانهم قالوا إنما البيع مثل الربا وأحل الله البيع وحرم الربوا فمن جاءه موعظة من ربه فانتهى فله ما سلف وأمره إلى الله ومن عاد فاولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ، يمحق الله الربوا ويربي الصدقات والله لايحب كل كفار أثيم ، ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات وأقاموا الصلوة وآتوا الزكاة لهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون ، يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقي من الربوا ان كنتم مؤمنين ، فان لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله وان تبتم فلكم رؤس أموالكم لا تَظلمون ولا تُظلمون ، وان كان ذو عسرة فنظرة إلى ميسرة وأن تصدّقوا خير لكم ان كنتم تعلمون ، واتقوا يوما ترجعون فيه الى الله ثم توفّى كل نفس ما كسبت وهم لا يُظلمون ﴾ (١) .

يقول كثير من الناس ـ الذين تعلموا وتربوا تربية عصرية ، وأخذوا

---

(١) البقرة : آية ٢٨١

الشهادات من المدارس ، بل ومن هم اكبر من هؤلاء – : ان المسلمين منوا بالفقر وذهبت اموالهم الى ايدي الأجانب ، وفقدوا الثروة والقوة بسبب تحريم الربا ، فانهم لاحتياجهم للاموال يأخذونها بالربا من الأجانب ، ومن كان غنياً منهم لا يعطي بالربا ، فمال الفقير يذهب ومال الغني لا ينمو . ويجعلون هذه المسألة أهم المسائل الاجتماعية والعمرانية عند المسلمين ، يعنون انه ماجنى على المسلمين إلا دينهم

وهذه أوهام لم تصدر عن اختبار ، فان المسلمين في هذه الأيام لا يحكّمون الدين في شيء من أعمالهم ومكاسبهم ، ولو حكّموه فى هذه المسألة لما استدانوا بالربا ، وجعلوا أموالهم غنائم لغيرهم . فان سلمنا انهم تركوا أكل الربا لأجل الدين فهل يقول المشتبهون انهم تركوا الصناعة والتجارة والصناعة لأجل الدين ؟ ألم تسبقنا جميع الامم الى إتقان ذلك فلماذا لم نتقن سائر أعمال الكسب ، لنعوض منها على أنفسنا ما فاتنا من كسب الربا المحرم علينا ، وديننا يدعونا الى ان نسبق الامم فى اتقان كل شيء ؟

الحق ان المسلمين في الأغلب قد نبذوا الدين ظهرياً ، فلم يبق عندهم منه إلا تقاليد وعادات أخذوها بالوراثة عن آبائهم ومعاشريهم . فمن يدعي ان الدين عائق لهم عن الترقي فقد عكس القضية ، وأضاف الى جهالاتهم جهالة شراً منها . وإنما يجيء هذا من عدم البصيرة والتأمل في حال الامة – من بدايتها الى ما انتهت اليه ، ولو عرفت الامة نفسها لعرفت ماضيها كما تعرف حاضرها ، ولكن جهلها بنفسها وعدم قراءة ماضيها – هو الذي أوقعها فيما هي فيه من البلاء العظيم ، فهي لا تدري من أين اخذت ، ولا كيف سقطت بعد ما ارتفعت .

أجل — انها ارتفعت بالدين وسقطت بتركه مع الجهل بالسبب ، وأفضى بها الجهل الى أن صارت تجعل علة الرقي والارتفاع هي عين العلة للسقوط والانحطاط

ومن ذلك استدانة أفرادنا وحكوماتنا من الأجانب بالربا ، فانها أضاعت ثروتنا وملكنا ، وكان الدين ـ لو اتبعناه ـ عاصما منها ، فنحن ننسى مثل هذه الفائدة الكبرى للدين في الموضوع نفسه ، ونذكر من سيئات الدين انه حرّم الربا ولو لم يحرمه لجاز أن يكسب بعض اغنيائنا اكثر مما يكسبون الآن !! ان أثر الربا فينا لا يمكننا ان نزيله بمئات من السنين ، ولو اننا حافظنا على أمر الدين فيه لكنا بقينا لأنفسنا .

ان الناس في تعاملهم ـ كالذئاب كل واحد ينتظر الفرصة التي تمكنه من افتراس الآخر وأكله . ولكن ههنا إلهٰ رحيم يضع لعباده من الأحكام ما يربيهم على التراحم والتعاطف ، وأن يكون كل منهم عونًا للآخر لاسيما عند شدة الحاجة اليه ، ولذلك حرم عليهم الربا الذي هو استغلال ضرورة اخوانهم ، وأحل البيع الذي لا يختص الربح فيه بأكل الغني الواجد مال الفقير الفاقد .

الربا مسألة اجتماعية كبيرة اتفقت في حكمها الأديان الثلاثة : اليهودية ، والنصرانية ، والاسلام ، لكن اختلف فيها اهل الأديان ، فاليهود كانوا يرابون غيرهم ، والنصارى يرابي بعضهم بعضًا ويرابون سائر الناس ، والمسلمون حفظوا انفسهم من هذه الرذيلة ردحًا طويلا من الدهر ، ثم قلدوا غيرهم فيها ، ثم انتشرت بينهم في العصر الحديث في اكثر الأقطار .

ويمكن ان تلخص الأسباب التي لأجلها حرم الدين الربا فيما يلي :

١ — انه يمنع الناس من الاشتغال بالمكاسب الصحيحة ـ كأنواع الحرف والصناعات ، لأن رب المال اذا تمكن بعقد الربا من إنماء ماله خف عليه الكسب وسهلت لديه اسباب العيش ، فيألف الكسل ، ويمقت العمل ، ويتجه همه إلى أخذ أموال الناس بالباطل ، وتزداد شراهته في الاستيلاء على كل ما يستطيع ان

يبتزه من اموالهم ، فلا يرأف بفقير ، ولا يشفق على بائس ، ولا يرحم مسكيناً . وقد جرت عادة المرابين بأن يزداد طمعهم حين الأزمات ، كقحط في البلاد ، أو حروب تشتد فيها الحاجة الى الاقوات . فيضطر الفقراء الى الاستدانة من هؤلاء الطغاة الذين يستنزفون دماءهم . ويستأثرون بالبقية الباقية من أموالهم .

٢ — انه يؤدي الى العداوة والبغضاء والمشاحنات والخصومات ، إذ هو ينزع عاطفة التراحم من القلوب . ويضيع المروءة ويذهب المعروف بين الناس ، ويحل القسوة محل الرحمة . حتى ان الفقير ليموت جوعاً ولا يجد من يجود عليه ليسد رمقه . ومن جراء هذا منيت البلاد ذات الحضارة التي تعاملت بالربا بمشاكل اجتماعية . فكثيراً ما تألب العمال وغيرهم على اصحاب الاموال . وأضربوا عن العمل الفينة بعد الفينة . والمرة بعد المرة . ومنذ فشا الربا في البلاد ضعفت فيها عاطفة التعاون والتراحم . واصبح المرء لا يثق بأقرب الناس اليه . ولا يقرضه إلا بمستند وشهود . بعد أن كان المقرض يستوثق من المقترض ـ ولو أجنبياً عنه ـ بألاّ يحدث احداً بأنه اقترض منه . وما كان المقرض في حاجة في وصول حقه اليه الى مطالبة بله محاكم ومقاضاة .

٣ — ان الله جعل طريق التعامل بين الناس — في معايشهم — أن يستفيد كل منهم من الآخر في نظير عوض . لكن في الربا اخذ مال بلا عوض وهذا نوع من الظلم . لأن للمال حقاً وحرمة ، فلا يجوز لغير مالكه الاستيلاء عليه قهراً بطريق غير مشروع . قال صلى الله عليه وآله : « حرمة مال الانسان كحرمة دمه » .

ولا ينبغي اعتبار القدر الزائد بسبب الربا عوضاً من بقاء رأس المال في يد المدين زمناً — لو كان فيه في يد الدائن لاستفاد منه بطريق وسائل الكسب ،

كتجارة وزراعة ونحوها ، لأن هذا ربما لا يحصل ، وإن حصل فربما لا تتحقق الاستفادة ، أما أخذ الزائد في الربا فمتيقن ، ولا يجوز مقابلة المحتمل الحصول بالمؤكد المتيقن .

٤ — أن عاقبته الخراب والدمار ، فكثيراً ما رأينا ناساً ذهبت أموالهم وخربت بيوتهم بأكلهم الربا . جاء في الرواية « إن الربا وإن أكثر فعاقبته تصير الى قل » .

والسر في هذا — أن المقترضين يسهل عليهم أخذ المال من غير بدل حاضر ، ويزين لهم الشيطان إنفاقه في وجوه من الكماليات التي كان يمكن الاستغناء عنها . ويغريهم بالمزيد من الاستدانة ، ولا يزال يزداد ثقل الدين على كواهلهم حتى يستغرق أموالهم ، فاذا حل الأجل لم يستطيعوا الوفاء وطلبوا التأجيل ، ولا يزالون يمطلون ويؤجلون — والدين يزيد يوماً بعد يوم — حتى يستولي الدائنون قسراً على كل ما يملكون . فيصبحون فقراء معدومين ، وصدق الله تعالى : ﴿ يمحق الله الربوا ويربي الصدقات ﴾ .

شدد الله سبحانه في هذه الآيات في أمر الربا بما لم يشدد بمثله في شيء من فروع الدين إلا في تولي أعداء الدين ، فان التشديد فيه يضاهي تشديد الربا ، وأما سائر الكبائر فان القرآن — وإن أعلن مخالفتها وشدد القول فيها — فان لحن القول في تحريمها دون ما في هذين الامرين ، حتى الزنا وشرب الخمر والقمار وما هو أعظم منها كقتل النفس التي حرم الله والفساد ، فجميع ذلك دون الربا وتولي أعداء الدين .

وليس ذلك إلا لأن تلك المعاصي لا تتعدى الفرد أو الأفراد في بسط آثارها المشؤمة ، ولا تسري إلا الى بعض جهات النفوس ، ولا تحكم إلا في

الاعمال والافعال ، بخلاف هاتين المعصيتين فان لهما من سوء التأثير ما ينهدم به بنيان الدين ويعفى اثره ، فيصير نسياً منسياً .

وقد صدّق جريان التاريخ كتاب الله ـ فيما كان يشدد في أمرهما ـ حيث أهبطت المداهنة والتولي والتحاب والتمائل الى أعداء الدين ـ الأمم الاسلامية في مهبط من الهلكة ، صاروا فيها نهباً منهوباً لغيرهم . لا يملكون مالا ولا عرضاً ولا نفساً ، ولا يستحقون موتاً ولا حياة . فلا يؤذن لهم فيموتوا . ولا يغمض عنهم فيستفيدوا من موهبة الحياة . وهجرهم الدين وارتحلت عنهم عامة الفضائل .

وحيث ساق أكل الربا الى إدخار الكنوز وتراكم الثروة والسؤدد ـ فجر ذلك الى الحروب العالمية العامة ، وانقسام الناس الى قسمي المثري السعيد والمعدم الشقي وبان البين . فكانوا بلوى تدكدك الجبال . وتزلزل الارض . وتهدد الانسانية بالانهدام ، والدنيا بالخراب ، ثم كان عاقبة الذين أساؤا السوأى

نزلت هذه الآيات في تحريم الربا الذي كان معروفا في الجاهلية يأتيه اليهود والمشركون ، وذكرت في النظم بعد آيات الصدقة التي كان آخرها آية الكاملين في السخاء والجود ، الذين ينفقون في عامة الاوقات والاحوال . لما بينها من التناسب بالتضاد ، فالمتصدق يعطي المال بغير عوض يقابله . واننا نذكر تفسير الآيات ثم نفيض الكلام في مسألة الربا وحكمة تحريمه ، لأن لهذه المسألة ـ كما قدمنا ـ شأناً كبيراً في حياة الامم السياسية والاجتماعية في هذا العصر .

قوله تعالى ﴿ الذين يأكلون الربا لا يقومون إلا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس ﴾ تنفير من الربا وتبشيع لحال آكله . والربا في اللغة الزيادة يقال : ربا الشيء يربو اذا زاد على ما كان عليه واما قيام آكلي الربا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس تشبيه المرابي فى الدنيا بالمتخبط المصروع كما يقال

لمن يسرع بحركات مختلفة قد جن . وللانسان في حياته طريق مستقيم لا ينحرف عنه ، فانه لا محالة ذو أفعال وحركات فى طريق حياته بحسب المحيط الذي يعيش فيه . وهذه الأفعال محفوظة النظام باحكام اعتقادية عقلائية ، وضعها ونظمها الانسان ثم طبق عليها أفعاله الانفرادية والاجتماعية . فهو يقصد الأكل إذا جاع ويقصد الشرب إذا عطش ، والفراش اذا اشتهى النكاح ، والاستراحة إذا تعب ، والاستظلال إذا أراد السكن وهكذا . وينبسط لأمور ، وينقبض عن أخرى في معاشرته ، ويريد كل مقدمة عند إرادة ذيها ، وإذا طلب مسبباً مال إلى جهة سببه

وإنما اهتدى الانسان الى هذا الطريق المستقيم بقوة مودوعة فيه هي القوة المميزة بين الخير والشر ، والنافع والضار والحسن والقبيح . وأما الانسان الممسوس وهو الذي إختلت قوته المميزة فهو لا يفرق بين الحسن والقبيح . والنافع والضار . والخير والشر . فيجري حكم كل مورد فيما يقابله من الموارد ، لكن لا لأنه ناس لمعنى الحسن والقبح وغيرهما . فانه بالآخرة انسان ذو إرادة ، ومن المحال أن تصدر عن الانسان غير الأفعال الانسانية ، بل لأنه يرى القبيح حسنا والحسن قبيحاً ، والخير والنافع شراً وضاراً وبالعكس ، فهو خابط في تطبيق الاحكام وتعيين الموارد .

وهذا حال المرابي في أخذه الربا (إعطاء الشيء وأخذ ما يماثله وزيادة بالاجل) . فان الذي تدعو اليه الفطرة ويقوم عليه أساس حياة الانسان الاجتماعية أن يعامل بمعاوضة ما عنده من المال الذي يستغني عنه مما عند غيره من المال الذي يحتاج اليه ، وأما إعطاء المال وأخذ ما يماثله بعينه مع زيادة فهذا شيء ينهدم به قضاء الفطرة وأساس المعيشة ، فان ذلك ينجر من جانب المرابي الى اختلاس

المال من يد المدين ، وتجمعه وتراكمه عند المرابي ، فان هـــذا المال لا يزال ينمو ويزيد ، ولا ينمو إلا من مال الغير ، فهو بالانتقاص والانفصال من جانب والزيادة والانضمام الى جانب آخر . وينجر من جانب المدين — المؤدي للربا — الى تزايد المصرف بمرور الزمان تزايداً لا يتداركه شيء مع تزايد الحاجة وكلما زاد المصرف — أي نما الربا بالتصاعد — زادت الحاجة من غير أمر يجبر النقص ويتداركه ، وفي ذلك انهدام حياة المدين . فالربا يضاد التوازن والتعادل الاجتماعي، ويفسد الانتظام الحاكم على هـــذا الصراط المستقيم الانساني الذي هدته اليه الفطرة الالآهية .

وهذا هو الخبط الذي يبتلي به المرابي كخبط الممسوس . فان المراباة تضطره أن يختل عنده أصل المعاملة والمعاوضة ، فلا يفرق بين البيع والربا . فاذا دعي الى أن يترك الربا ويأخذ بالبيع — أجاب : أن البيع مثل الربا لا يزيد على الربا بمزية ، فلا موجب لترك الربا وأخذ البيع ، ولذلك استدل تعالى على خبط المرابين بما حكاه من قولهم : ﴿ إنما البيع مثل الربا ﴾ . هذا هو المعنى المتبادر . وقال آخرون من المفسرين إن المراد بالقيام — القيام من القبر عند البعث ، وإن الله تعالى جعل من علامة المرابين يوم القيامة انهم يبعثون كالمصروعين . واستدلوا على ذلك بروايات كثيرة : منها قال رسول الله (ص) : « يأتي آكل الربا يوم القيامة مختبلا يجر شقّيه ، ثم قرأ : لا يقومون إلا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس » . وقال (ص) لما اسري بي الى السماء رأيت قوماً يريد أحدهم أن يقوم فلا يقدر أن يقوم من عظم بطنه ، فقلت : من هؤلاء يا جبرئيل ؟ قال : هؤلاء الذين يأكلون الربا لا يقومون إلا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس ، وإذا هم بسبيل آل فرعون يعرضون على النار غدواً وعشياً . وقال (ص) : إياك والذنوب

التي لا تغفر — الغلول فمن غل شيئاً أتى به يوم القيامة ، والربا فمن أكل الربا بعث يوم القيامة مجنونا يتخبط .

والربا حرام ، وحرمته ثابتة بالكتاب والسنة وإجماع من المسلمين . وهو من الكبائر العظام حتى ورد فيه أنه أشد عند الله من عشرين زنية بل ثلاثين زنية كلها بذات محرم ، مثل العمة والخالة . بل في خبر صحيح عن مولانا الصادق (ع) : درهم ربا أعظم عند الله من سبعين زنية كلها بذات محرم في بيت الله الحرام . وفي النبوي : من أكل الربا ملأ الله بطنه من نار جهنم بقدر ما أكل ، وإن اكتسب منه مالا لم يقبل الله منه شيئاً من عمله ، ولم يزل في لعنة الله والملائكة ما كان عنده من قيراط واحد . وقال علي أمير المؤمنين (ع) : آكل الربا وموكله وكاتبه وشاهداه في الوزر سواء . وقال (ع) : لعن رسول الله (ص) الربا وآكله وبايعه ومشتريه وكاتبه وشاهديه .

والربا قسمان : قرضي ومعاملي ، فالربا القرضي أن تقرض لأحد شيئاً سواءً كان من النقود أو من العروض ، واشترطت على المقترض زيادة بأن أقرضت عشرة وتريد منه أحد عشر ، فهذا ربا ويسمى ربا القرض ، ففي القرض كل مايجلب زيادة فهو ربا . واما المعاملي : هو أن تبيع لأحد شيئاً بأزيد منه مثلا تبيع منًا من الحنطة بمنّين ، ويشترط فيه أمران : أحدهما — أن يكونا من جنس واحد . وثانيهما — أن يكونا مكيلا او موزونًا كحنطة بحنطة منًا بمن وقس على ذلك .

﴿ ذلك بأنهم قالوا إنما البيع مثل الربا ﴾ أي ذلك الأكل للربا مسبب عن استحلالهم له وجعله كالبيع وما هو كالبيع ، فان البيع معاوضة بين شيئين ، وأما الربا — الذي كانوا يأكلونه في الجاهلية — فهو زيادة عن دينهم

يزيدونها عند تأخير الأجل لا يقابلها شيء ، وما يؤخذ بغير مقابل فهو من الباطل لذلك حرم الله الربا دون البيع فقال : ﴿ وأحل الله البيع وحرم الربا ﴾ ولو كانا متساويين لما اختلف حكمها عند أحكم الحاكمين ، فكل ما فيه معاوضة صحيحة خالية من أكل أموال الناس بالباطل ـ الذي لا يقابله عوض ـ فهو بيع حلال ، وإنما تحرم الزيادة التي يأخذها صاحب المال لأجل التأخير في الأجل . وهي لا معاوضة فيها ولا مقابل لها فهي ظلم .

قوله تعالى : ﴿ فمن جاءه موعظة من ربه فانتهى فله ما سلف ﴾ أي فمن بلغه تحريم الله تعالى للربا ونهيه عنه فترك الربا ـ فوراً بلا تراخ ولا تردد ـ انتهاءً عما نهى الله عنه ـ فله ما كان أخذه فيما سلف من الربا « أي قبل التحريم وبلوغه الموعظة من ربه » . ثم صرح تعالى بأشد الوعيد على كل من أكل شيئاً بعد النهي فقال : ﴿ ومن عاد فاولئك اصحاب النار هم فيها خالدون ﴾ أي ومن عاد الى ما كان يأكل من الربا المحرم بعد تحريمه فاولئك البعداء عن الاتعاظ بموعظة ربهم ، الذين لا ينهاهم إلا عما يضر بهم فى افرادهم او جميعهم ، هم اهل النار الذين يلازمونها فيكونون خالدين فيها .

ثم بيّن تعالى الفرق بين الربا والصدقة ـ إذ جاء الكلام عنه بعد الكلام عنها ـ ببيان أثرهما فقال : ﴿ يمحق الله الربا ويربي الصدقات ﴾ المحق نقصان الشيء حالا بعد حال ، ووقوعه في طريق الفناء والزوال تدريجاً . والاربا الانماء . وقد قوبل فى الآية بين إرباء الصدقات ومحق الربا فارباء الصدقات وإنماؤها لا يختص بالآخرة بل هي خاصة لها عامة تشمل الدنيا كما تشمل الآخرة ، فمحق الربا ايضاً كذلك لا محالة .

فكما ان من خاصة الصدقات انها تنمي المال إنماءً يلزمها ذلك لزوماً قهرياً

لا ينفك عنها من حيث انها تنشر الرحمة وتورث المحبة وحسن التفاهم وتؤلف القلوب وتبسط الأمن والحفظ ، وتصرف القلوب عن ان تهم بالغصب والاختلاس والافساد والسرقة ، وتدعو الى الاتحاد والمساعدة والمعاونة ، وتنسد بذلك أغلب طرق الفساد والفناء الطارية على المال ، ويعين جميع ذلك على نماء المال ودره أضعافا مضاعفة . كذلك الربا من خاصته انه يمحق المال ويفنيه تدريجاً . من حيث انه ينشر القسوة والخسارة ، ويورث البغض والعداوة وسوء الظن ، ويفسد الأمن والحفظ ويهيج النفوس على الانتقام بأي وسيلة أمكنت من قول او فعل مباشرة او تسبيباً ، ويدعو الى التفرق والاختلاف ، وتتفتح بذلك اغلب طرق الفساد وابواب الزوال على المال وقلّما يسلم المال عن آفة تصيبه ، او بلية تعمه .

وكل ذلك لأن هذين الامرين ـ أعني الصدقة والربا ـ مربوطان مماسّان بحياة طبقة الفقراء والمعوزين ، وقد هاجت بسبب الحاجة الضرورية إحساساتهم الباطنية ، واستعدت للدفاع عن حقوق الحياة نفوسهم المنكوبة المستذلة ، وهموا بالمقابلة بالغاً ما بلغت ، فان أُحسن اليهم بالصنيعة والمعروف بلا عوض ـ والحال هذه ـ وقعت إحساساتهم على المقابلة بالاحسان وحسن النية ، وأثرت الأثر الجميل وإن أُسيء اليهم بأعمال القسوة والخشونة . وإذهاب المال والعرض والنفس ـ قابلوها بالانتقام والنكاية بأي وسيلة . وقلّما يسلم من تبعات هذه الهمم المهلكة احد من المرابين ، على مايذكره كل احد مما شاهد من أخبار آكلي الربا ، من ذهاب اموالهم وخراب بيوتهم وخسران مساعيهم .

قوله تعالى ﴿ ان الله لا يحب كل كفار أثيم ﴾ ذلك ان آكل الربا كثير الكفر ، لكفره بنعم كثيرة من نعم الله ، لستره على الطرق الفطرية في الحياة الانسانية ، وهي طرق المعاملات الفطرية ، وكفره بأحكام كثيرة في العبادات

والمعاملات المشروعة ، فانه بصرف مال الربا في مأكله ومشربه وملبسه ومسكنه يبطل كثيراً من عباداته بفقدان شرائط مأخوذة فيها . وباستعماله فيما بيده من المال الربوي يبطل كثيراً من معاملاته . ويضمن غيره . ويغصب مال غيره في موارد كثيرة . وباستعمال الطمع والحرص في اموال الناس والخشونة والقسوة في استيفاء مايعده لنفسه حقاً يفسد كثيراً من اصول الاخلاق والفضائل وفروعها ، وهو أثيم مستقر في نفسه الاثم ، فالله سبحانه لايحبه لأن الله لايحب كل كفار أثيم

ثم قال تعالى : ﴿ ان الذين آمنوا ﴾ أي صدقوا تصديق إذعان بما جاء من عند الله في هذه المسألة كغيرها ﴿ وعملوا الصالحات ﴾ أي الأعمال التي تصلح بها نفوسهم ، وشأن من يعيش معهم ومنها مواساة المحتاجين ، والرحمة بالبائسين ، وإنظار المعسرين . ومن سنة القرآن ان يقرن الايمان بالعمل الصالح في مقام الوعد ، لأن الايمان الحقيقي المقرون بالاذعان يتبعه العمل الصالح حتماً لا يتخلف عنه ﴿ وأقاموا الصلاة ﴾ التي تذكر المؤمن بالله تعالى فتزيد في إيمانه وحبه لربه ومراقبتـــه له حتى تسهل عليه طاعته في كل شيء ﴿ وآتوا الزكوة ﴾ التي تزكي النفس من رذيلة البخل والحرص وتمرنها على اعمال البر حتى تسهل عليها ويكون ترك أكل اموال الناس بالربا أسهل ، وذكر الصلاة والزكاة بعد الاعمال الصالحة التي تشملها لأنها اعظم اركان العبادة النفسية والمالية فمن أتى بهما كاملتين سهل عليه كل عمل صالح ﴿ فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولاهم يحزنون ﴾

نسأل الله تعالى ان يرحم عباده وينقذهم من هذه المسألة التي هي عقـدة العقد واحدى الـكبر ـ وهي الربا ـ فقد هزهزت الامم هزهزة . وستكون من نتائجها الهزاهز والمحن على الأمم جمعاء ، ألم تر كيف كان الاستعباد منوطاً بثلاث : ملك جائر ، ورئيس ديني ظالم ، ومثر شحيح طامع ، هؤلاء هم الفجرة

الاشرار الظلمة ، فأما الملوك الظالمون ـ فقد قال الله فيهم : ﴿ ان الملوك اذا دخلوا قرية أفسدوها ﴾ كما يشاهد في بلاد الجزائر ومراكش وتونس وامثالها من الامم التي دوخها الفاتحون . واما الرؤساء الضالون ـ ففيهم قال الله تحذيراً لتابعيهم : ﴿ اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله ﴾ أي مشرعين مستبدين بالشرايع لا يعطون أمتهم إلا ماتهواه انفسهم . كما رُوي ان عدي بن حاتم قال للنبي (ص) لما نزل : ﴿ اتخذوا احبارهم ورهبانهم اربابا من دون الله ﴾ : ما كنا نعبدهم يارسول الله ، قال : أليس كانوا يحلون لكم ويحرمون فتأخذون بقولهم قال : نعم . قال : هو ذاك . فاما القسم الثالث ـ وهم أُولوا الحرص من الاغنياء والمستبدين من ذوي الثروة والجاه ـ فقد قال الله فيهم : ﴿ فان لم تفعلوا فأْذنوا بحرب من الله ورسوله ﴾ أي اعلموا او فأْعلموا غيركم بحرب من الله ورسوله في الدنيا .

وذلك الحرب اما شرعي ـ كما في محاربة المرابي اذالم يتب ـ واما ان يعامل يوم القيامة معاملة المحارب فيعذب ويلقى في النار كأنه كان يحارب الله ورسوله . واما بما يستأصل الامم ويدهورها ويزيلها من الوجود ـ كهذه الامم الحاضرة ـ فانك ترى الاشتراكيين يودون قلب النظام الحالي في الحكومات إذ علموا ان الظلم واقع ماله من دافع .

العدل ميزان الله فى الأرض

أجد وكل باحث : ان كل دين من الأديان ، وكل ملة من الملل ودعوة فى العالم ، بل كل سلطة في البسيطة وغلبة في السلطان ـ ما هي فى بادىء أمرها وأول حداثتها ونشوئها إلا كفرخ طائر يترعرع في مدرجة الكون ، ولا يستطيع من الحركة والنهوض إلا دون دبيب النمل على الأرض ، ثم لا تبرح العناية في نواميس الطبيعة تصرفه فيما قضت له ، فاما ان تؤدي به زوابع الكون وفجائع الصروف ، او تدفعه الى بلوغ الغاية التي يُسرت له . نعم ولا ينهض إلى تلك الغاية إلا بمسعدين : جناحين يطير بهما فى الاجواء ويحلّق في الفضاء الى حيث شاء ، الجناح الاول ـ تواصل العلم والعمل ، والثاني ـ تناصر السيف والقلم .

ما سادت أمة ولا سعدت دعوة ، ولا حلقت فى سماء العلوّ والرفعة ملة ، ولا اتسعت في البسطة على البسيطة سلطة ، ولا طار صوت ملك وانتشر فى العالم صيت مملكة ـ إلا باسعاد هذين الجناحين . وعلى قدر الحظ ووفور النصيب منهما يكون الحظ من القوة والنفوذ فى السطوة والسعة فى الملك والسلطان .

فأما العلم والعمل ـ فهما فرض فى نواميس الحياة ، واصول تنازع البقاء على كل فرد من البشر في كلا شعبتيه وكل شعوبه ـ وان اختلفت العلوم

وتنوعت الاعمال ـ ولكن لا ندحة لذي صحة على عمل مّا يبتني على علمه اللازم له اللائق به ، وإلا فالعمل بلا علم كالبناء على غير أساس ، أخلق به وشيكا أن ينهدم على صاحبه ، ويقضي على ظمأ حياته . والعلم بلا عمل كالأساس بلا بناء ، ولا يزال صاحبه ضاحياً في وهج الشمس عرضة للصروف لايعتم أن تمزقه نفحات الزمهرير ولفحات الهجير من عواصف هذا الكون ، فالعلم والعمل هما المعنيان ، بل العينان واليدان للرجل ، والرجلان هما الأداة لكل ساع إلى سبل الغايات الحيوية بل السعادة الابدية ـ فرداً او أُسرة ، جماعة او وحداناً .

وأما السيف والقلم ـ فهما مواضع الميزة ومنازل التفرقة يتكافآن على سنن التبادل والمعادلة ، لا يلزمان على كل أحد ولا على كل حال ، وإنما هما آلة الملك وأدوات القوة ، وسياج الملة ، وأطار الدعوة ، ومعدات الرقي ، وموطدات العز ، ورواصد كيان الشرف . فللسيف رجال ، وللاقلام رجال ، وان قبض شهم على كليهما وقام بحقهما ـ ونادراً ما يكون ـ فمرحباً ومرحى . اما حيث تسوق العناية ـ كما هو الغالب ـ زمرة لهذا وطائفة لذاك على نواميسها في كافة الصنايع ، وسائر الحاجيات التي يتوقف عليها نظام المدنية وقوام كل هيئة اجتماعية متوازنة في التبادل والتكافؤ بميزان العدل ، الذي به يتم بقاء الاكوان وحفظ الكيان ، وسلامة سلسلة الانواع في معركة الوجود .

ان شريعة الاسلام جمعت السعادتين : سعادة الدنيا ، وسعادة الآخرة . وأخذت بالعدل الذي هوالحياة للاوطان ، وناموس السعادة والعمران ، به تلتئم الشعوب وتتألف القلوب ، وتسعد المملكة وتقوى الملكة ، وزادت عليه بالعفو والفضل ﴿ الكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين ﴾ ﴿ ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ﴾ . وزين العابدين علي بن الحسين ـ سلام الله

عليه — يقول في دعاء مكارم الأخلاق من زبور آل محمد : اللهم صل على محمد وآل محمد ووفقني لأن أعارض من غشني بالنصح ، وأجزي من هجرني بالبر ، واكافىء من قطعني بالصلة ، وأخالف من اغتابني الى حسن الذكر .

أما نحن فقد عكسنا هذه القواعد الذهبية ، وصرنا نجازي من نصحنا بالغش ، ومن برنا بالهجر ، ومن وصلنا بالقطع . وكلما أصابنا من الذل والانحطاط فبما كسبت أيدينا ، وقد أرشدنا المصلحون ولكن نحن الضايعون والمضيعون . فنحن حقيقة كما قال الشاعر :

عبسن لنا وجوه الدهر حتى تناهشنا بأنياب حداد
فلا ندري السقوط بأي غور ولا ندري الهبوط بأي واد
وكنا نجتني ثمر المعالي فصرنا نجتني شوك القتاد

عليكم أيها المسلمون بالعدل ، الذي هو ميزان الله بين خلقه . وبه قامت السموات وثبتت الأرض — حيث أوجد العدل الحكيم على طبعه . وما أدري بأي لسان أثني على العدل وماذا أقول ، بعدما قضت الضرورة بعظيم شرفه ، وتطابق على وجوبه المعقول والمنقول ، حتى صار من أوضح موارد أحكام العقل فيما انفرد به واستقل . ولم يتوقف على شارع ملّه . ولا على واضع نحله . بل مما اتضح وتجلى : أن العقل يحكم مستقلا بوجوب العدل وحسن الاحسان ، وحرمة الظلم وقبح العدوان . كيف والعدل روح المدنية وحياة الانسانية ، ونفوذ قوى المملكة وترياق سمومها المهلكة ؟!

العدل مطلع شموس الرحمة ، ومنبع عيون الحكمة والسلطنة والسلطة ، والمنفعة والغبطة والعلو والرفعة ، والحصون والمنعة والمساجد والقلعة . والبيت والحرم ، والكعبة والامم ، والجيش والسرية ، والقسمة بالسوية ، والرعاية

للرعية ، والعسكر والجنود ، والرايات والبنود ، والطبل والعلَم ، والحكم والحكم ، والمال والجباية ، والخراج والجراية ، والقائد والزعيم ، والحاكم والحكيم .

العدل ظل الله في أرضه ، والحاكم في بسطه وقبضه ، اليه يأوي الضعفاء ، وبه يلوذ الفقراء ، وفيه ينتصف المظلوم ، وبه يرزق المحروم ومنه تشرق شمس المعارف والعلوم . العدل خصب البلاد وأمن العباد ، ومعطي الواحد من الرعية قوى الآحاد وقوة الأجناد. العدل هو الشوكة والقوة ، والبهاء والسطوة ، والرأفة والمروة ، والصدق والفتوة ، والمفازة والحظوة .

العدل مدافع وسيوف ، ومدارع وحتوف ، وجيش وصفوف ، والثابت كل واحد ثبات الألوف ، العدل هو الزرع والنماء ، والري والرواء ، وسيح الارض وسحّ السماء . العدل نظام شتات الأمة ، ومنبع الفضائل الجمة ، وسحاب سماء الرحمة ، وجماع تفارق الكلمة . وطلاع تسامق العظمة .

العدل نواميس الحياة ، ومقابيس البركات . العدل هو الحرز في المهالك ، والحرس للقوافل في الفيافي والمسالك ، والعسس إذا عسعس الليل بالظلام الحالك العدل سلم السلامة ، ومعراج كل كرامة ، والظلم ظلمات يوم القيامة . العدل منبع البركة ، والظلم موضع الهلكة . العدل هو الرقي وبه السعادة والرقا ، والظلم هو الشقي وبه العاهة والشقا . العدل به قوت الدول الضعيفة ، واستفحلت الامم المخنثة السخيفة ، وعرفت الممالك الخاملة غير المعروفة ، وتألفت الشعوب المتفرقة ، وأمنت وأخافت . وكانت هي الخائفة الفرقة .

تالله لا ينطق لساني ولا يطيق إحصائي — لتعداد ما جرى على ملك قومي وملك آبائي ، وما جهم محيا مسابع بهاليل الحق من سادتي وزعمائي ، وما هجم على حصون الدين المنيعة التي أقامت قواعدها أئمة الهدى من أوليائي ، التي

بنوها بالجماجم ، وسقوها من دمائهم بالطوس لا المحاجم ، من المذلة والمهانة والسقوط والضعة .

لا أحاول أن أمثل لكم وأنعى اليكم رزية الاسلام فى أهله ، وبليته من قومه ونعيه على أسلافه ، ومصيبته من أبنائه ، المصيبة التي هي أشد عليه من وطأة أعدائه وكيد أغياره .

لا أحاول أن أجسم لكم كيف تركه أهلوه فتركهم ، ونبذوه فانتبذهم ، وأهلكوه فاهلكهم . لا امثل لكم كيف حاربوه في القول والعمل ، وجانبوه فى الظاهر والباطن ، فتزيوا بغير أزيائه وتخلقوا بضد أخلاقه ، وعملوا على هدم أساسه وإخماد نبراسه .

أليس من الأسف والحيف — أسفاً والله يميت الغيور ويشق الصدور قبل القبور — أن من أمامكم من الامم الراقية أوج الحضارة والعمران ، تقتدي بل ترتقي بحسنات مذهبكم السامي ودينكم الاسلامي ، وتقتدون انتم بسيئات مذهبهم الأسوأ ، مذهب الكفر والضلالة والشرك والجهالة ، أفليس من هذا ما شاع اليوم في عواصم الاسلام ، من مجالس اللهو ومحافل الطرب ، ومحاضر القصف وملاعب الراقصات ومساكب المسكرات ، والناس يتهافتون عليها على تكشف وجهار ، كتهافت الفراش على النار ؟ لا بل هو هو والسميع العليم ، ثم لا زاجر ولا مزدجر ، ولا ناكر ولا مستنكر ؟ !

يا ناعي الاسلام قم فانعه   قد مات عرف وبدا منكر

فيا لله ولما يلقى الاسلام من بلوى المسلمين وسوء أعمالهم ، التي زرت مزاياه وما محت محاسن محياه ، بل كانت لاعدائه أعظم عون عليه وأسوأ مسيء اليه . أما والعفة والحياء والتكرم والمجد والعلاء — ان ذلك لمما يأباه لكم الله ،

والحمية وشرف الآباء والنفوس الأبية ، والشيم العربية ، والأخلاق الأدبية . يأباه لكم هذا الدين الحنيف والمذهب الشريف ، يأباه لكم شرف أسلافكم الذين بنوا دعائم الاسلام المشيدة . وأساطينه الوطيدة ، بالجماجم منهم والدماء ، بدل الحجارة والماء . وأنتم اليوم تعمدون الى هدمها بالمعاول . وتعملون على نقضها بكل الاسباب والعوامل .

بنوا لكم مجد الحياة فما لكم　　أسأتم الى تلك العظام الرمائم
أرى الف بان لا يقوم بهادم　　فكيف ببان خلفه الف هادم

فالله الله يا عباد الله نافسوا بأنفسكم عن تلك الدنايا والخلاعات المضرة باخلاقكم ودينكم ودنياكم ، وانتبهوا من هذه الرقدة ، وانتشلوا انفسكم من حضيض هذه الوهدة . يا أرباب العزائم والنجدة . جعلكم الله من الذين قال فيهم : « فبشر عبادي الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه اولئك الذين هداهم الله واولئك هم المفلحون » ولا يجعلكم من الذين قال فيهم : « صم بكم عمي فهم لا يعقلون » .

عليكم معشر المسلمة بالعدل والاحسان فيما بينكم « فاعدلوا هو أقرب للتقوى » بل عين التقوى وحقيقة الايمان ﴿ يا داود إنا جعلناك خليفة في الارض فاحكم بين الناس بالحق ﴾ فانه على ولاة الامر اعظم كل فرض ، إن الله يأمر بالعدل ، ومن لم يسعه العدل فبالاحسان . فبالعدل تنزل السماء غيوثها بالبركات . وتظهر الارض معادن خزائن الخيرات . وترتع الحيوانات . ويمرع النبات . وبه يتوفر النماء وتتضاعف الاشياء ، فيدر الضرع . وينم والزرع .

وجد في بعض خزائن كسرى أنو شروان العادل سفط . حسبوا ان فيه بعض الاحجار التي ليس لها معادل ، ومذ فتحوه وجدوا فيه حبة كاكبر مايكون

من النواة ، ومعها رقعة مكتوب فيها : هذه حبة رمان عمل فى خراجه بالعدل فنما .

ومثل ذلك يشهد لما يحكى عنه . حين كظه الظما فجاء الى بستان عصر له صاحبها بعض رمانة فعاد القدح بها مفعما ، فنوى الملك في نفسه ان يزيد في خراجه وطقسه . فلما اراد الخروج امره بقطع رمانة اخرى . فعصرها بحضرة الملك فكان ماؤها قليلا نزراً ، فسأله عن سبب ذلك — والرجل لا يعرف انه الملك — فقال : لعل الملك فى مكانه قد عزم أو حكم بتغيير عادته من عدله وإحسانه ، فانا لا نعرف سبباً لنمو هذه الثمار وإسعافها إلا من عدل الملوك وإنصافها .

وأعجب من ذلك ـ ما يحكي : أن الملك المكين ، السلطان محمود سبكتكين أرسل الى بعض ملوك الهند أو الصين رسولا يسأله : ما سبب طول اعماركم مع جحودكم للصانع وتكذيبكم للرسل والوسائط ؟ ونحن قصار الأعمار مع تصديقنا وإيماننا . فحبس الملك فى بلده رسول السلطان وابقاه ، بعد أن قربه وأدناه ، وقال له : لا اجيب عن سؤالك حتى تنقلع هذه الشجرة المثمرة من نفسها . وتنقطع من اصول غرسها . فبقي الرسول على ذلك زمانا وقد ضاق صدره . وامتلأ احزانا من الحبس والانتظار . والفرقة وبعد الدار ، فصار فى سائر وقته يعمل افكاره ليله ونهاره فى السبيل الى قلع تلك الشجرة ، فبينا هو كذلك إذ سمع هدة عظيمة . والناس يهرعون واليها يفزعون . فجاء معهم وإذا بتلك الشجرة قد قلعت من اصولها وقرارها ، ووقعت على الارض بأثمارها . فسعى الى الملك قائلا : بشراي ايها الملك فقد نجحت آمالي فهاتني جواب سؤالي . فقال : إذهب فقل له : هذه همة مظلوم قد اثرت فى قلع شجرة عظيمة . فكيف لا تؤثر في قلع اعمار الظالمين همم جماعة من الناس مظلومة . ودعاء المظلومين محمول على الغمام ، وانفاسهم عندنا مؤثرة كتأثير ارباب الاستسقاء في الافلاك العظام . ومثل هذا كثير لا يعد .

فلم أر مثل العدل للملك رافعا　　ولم أر مثل الجور للملك واضعا

الغرض ـ العدل هو التوسط بين طرفي الافراط والتفريط في قوى الانسان الثلاث القوى الشهوية والقوة الغضبية والقوة العقلية. وان شئت فقل العدل هو اعطاء كل ذي حق حقه ووضع الاشياء مواضعها وتفويض أعمال الملك للقادرين على أدائها مما يوجب صيانة الملك وقوة السلطان ويحكم دعائم السطوة ويحفظ النظام وينشر الأمن.

العدل نائب المحبة وعنوان الحكمة التي قامت بها السماوات والأرض والتي امتنّ الله بها على عباده، وقرنها بالخير الكثير فقال تعالى: ﴿ ومن يؤت الحكمة فقد اوتي خيراً كثيرا ﴾.

العدل أساس الملك ودعامته الكبرى وركنه الركين، وهو ميزان الله الذي وضعه للخلق ونصبه للحق. ولولا العدل ماعاش ضعيف بجانب قوي، ولا صينت حقوق فقير من عدوان غني، ولا وقفت حرية أمام استبداد. وما نشأ العدل في أُمة او طائفة إلا وكان الاخلاص رائدها، والرقي مطمحها، والسعادة قبلتها والحرية غايتها، والمحبة مقصدها. فكانت الحقوق محترمة والأمانة منتشرة، والنظام شاملا والرخاء عاماً، والأمن مستتباً والطمأنينة سائدة، والجرائم نادرة، والرياء متلاشياً، والنفاق كاسداً، والنفوس عن حب الاثرة والطمع بعيدة، والرشوة مقبورة، والمحسوبية مدفونة، والكفاءة منصورة، والجهالة مخذولة، والوطن محمياً، والدين عزيزاً مرهوباً.

تلك آثار العدل اذا ساد في أُمة من الأُمم، ولو بحث الناس عن السر في دخول الناس في دين الاسلام افواجا وجماعات، وفي انتشار الاسلام بسرعة البرق في الشرق وفي الغرب ـ ماوجدوا لذلك من سبب سوى استمساك المسلمين الأولين بعروة العدل، الذي جاء به الاسلام مع سعة صدور وسماحة جذابة. وما ظنك

بدين يقول خليفته : « أأقنع من نفسي بأن يقال لي امير المؤمنين ولا اشاركهم فى مكاره الدهر وجشوبة العيش ، ولعل من بالحجاز او اليمامة من لا طمع له بالقرص ، ولا عهد له بالشبع ، أوأبيت مبطاناً وحولي بطون غرثى واكباد حرى » وهذا لعمري غاية في العدالة ، ونهاية في الشجاعة الأدبية ، وسموّ في العواطف ومبلغ الكمال الخلقي في الانسان الكامل . ولا عجب في ذلك ، فالاسلام قد رسم للامم صورة الكمال البشري حين أمر بالعدل فقال : ﴿ان الله يأمر بالعدل والاحسان وايتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي يعظكم لعلكم تذكرون﴾ وأنزل الله على رسوله محمد (ص) أن يقول للناس : ﴿وأُمرت لأعدل بينكم﴾ .

نعم أمر الاسلام بالعدل في المعاملة وفي القول أيضاً ـ قال الله تعالى : ﴿واذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى﴾ بل فرض الله العدل على المسلمين حتى مع أعدائهم ومخالفيهم في الدين والعقيدة قال الله تعالى : ﴿ولا يجرمنّكم شنآن قوم على أن لا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى واتقوا الله ان الله خبير بما تعملون﴾ أي لايحملنكم بغض قوم على عدم العدل ، بل اعدلوا حتى مع اعدائكم ولو كفاراً ، فالعدل اقرب للتقوى والوقاية من عذاب النار .

أقسام العدل

ينقسم العدل الى ثلاثة أقسام : عدل المرء مع نفسه ، وعدله مع الفرد ، وعدله مع الجماعة .

اما عدله مع نفسه ـ فهو سلوك سبيل الاعتدال في العقيدة والعمل ، فلا

يتمرد على الله ورسله . ولا يجحد البراهين الصحيحة . ولا يلحد في آيات الله ، ولا يتخذ إلهه هواه . ولا يلقي بنفسه في تيار الشهوات والمطامع ، ولا يحمّل نفسه مالا يطيق ، ولا يسرف في الانفاق . ولا يقتّر على نفسه بل يكون بين ذلك قواماً وحداً وسطاً . وبذلك ينجو من شقاء الدنيا ، ويسلم من امراض الشهوات البدنية والعقلية . ويقي نفسه يوم القيامة ناراً وقوداً الناس والحجارة ، ومن لم يفعل ذلك فقد ظلم نفسه . وعرضها للهلاك والخسران في الدنيا والآخرة .

اما عدله مع غيره ـ فانه يترتب عليه السلامة في الدنيا من شرور الناس . وحقدهم وبغضهم . والامن على نفسه وماله وأهله ، ثم هو بعد ذلك ملء العيون إجلالا وإكباراً . وهو موضع ثقة ومحبة وأمانة وإكرام من الأصدقاء والأعداء ناهيك بالسعادة الخالدة فى دار النعيم . وبالنجاة من هول يوم يقوم الناس فيه لرب العالمين .

وعدل الانسان مع غيره ينتظم هذه الامور :

١ — عدل الامام .

٢ — عدل ولاة الامور والسلاطين والحكام مع رعيتهم وأُمتهم .

٣ — عدل رؤساء الأُسر والقبائل .

٤ — عدل القضاة والشهود .

٥ — عدل الصناع والتجار .

٦ — عدل الموظفين .

٧ — عدل الأطباء .

اما عدل الامام ـ فهو أهم أنواع العدل وأعلاها قيمة وقدراً ، إذ مركز الامام مركز القلب من الجسد ، فاذا صلح القلب صلح الجسد كله ، واذا فسد

فسد . فصلاح الرعية بصلاح الامام وعدله ، فلذلك كان أجره عند الله أعظم الأجر ، كما ان مسؤليته فى نظر الشريعة أخطر المسؤليات أثراً ، لأن الامام العادل هو ظل الله فى أرضه ، به تنصلح رعيته ويستقيم أمر دينها ودنياها ، وينتظم معاشها ومعادها ، وتطمئن على حقوقها ومرافقها ، وسير الامور على أساس من الثقة والمساواة بين جميع الأفراد ، ولذلك كان أعظم السبعة الذين يظلهم الله يوم لا ظل إلا ظله .

قال رسول الله (ص) : سبعة يظلهم الله يوم القيامة فى ظله : إمام عادل . وشاب نشأ فى عبادة الله ، ورجل ذكر الله في خلوة ففاضت عيناه ، ورجل قلبه معلق فى المساجد . ورجلان تحابا في الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه . ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال إلى نفسها فقال : اني أخاف الله ، ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما صنعت يمينه .

نعم كان أعظمهم قدراً وأجلهم منزلة . ومن أجل ذلك أيضاً بدأ به النبي (ص) فقال : « الامام العادل » وقال (ص) : « يوم من إمام عادل أفضل من عبادة ستين سنة . وحدّ يقام في الأرض بحقه أزكى من مطر أربعين صباحا » ومن هنا جاء القول المأثور والحكمة المشهورة :

« إمام عادل خير من مطر وابل » وقال (ص) : « أحب الناس إلى الله يوم القيامة وأدناه منه مجلساً إمام عادل . وأبغض الناس إلى الله تعالى وأبعدهم منه مجلساً إمام جائر » ومنه : « السلطان ظل الله فى الأرض يأوي اليه كل مظلوم من عباده . فان عدل كان له الأجر وكان على الرعية الشكر . وان جار أو حاف أو ظلم ، كان عليه الوزر وعلى الرعية الصبر . وان جارت الولاة قحطت السماء ، واذا منعت الزكاة هلكت المواشي ، واذا ظهر الزنا ظهر الفقر والمسكنة ، واذا

اخفرت الذمة اديل الـكفار » .

ولقد كتب هارون الرشيد إلى الحسن البصري ان يصف له الامام العادل فقال : اعلم ياامير المؤمنين ان الله جعل الامام العادل قوام كل مائل ، وقصد كل جائر ، وصلاح كل فاسد ، وقوة كل ضعيف ، ومفزع كل ملهوف .

والامام العادل كالراعي الشفيق على إبله ، الذي يرتاد لها أطيب المراعي ، ويذودها عن المراتع المهلـكة ، ويحميها السباع ، ويكنفها من أذى الحر والقر .

والامام العادل كالأب الحاني على ولده ، يعولهم صغاراً ويعلمهم كباراً . يكتسب لهم في حياته ويدخر لهم بعد مماته .

والامام العادل كالام البارة بولدها . حملته كرهاً وربته طفلا ، تسهر بسهره وتسكن بسكونه . ترضعه تارة وتفطمه اخرى ، وتفرح بعافيته وتغتم بشكايته .

والامام العادل هو القائم بين الله وبين عباده يسمع كلام الله ويسمعهم ، وينظر الله ويريهم ، وينقاد الى الله ويقودهم . فلا تكن يا أمير المؤمنين — فيما ملـكك الله — كعبد ائتمنه سيده واستحفظه ماله فبدد المال وشرد العيال » .

واما عدل ولاة الامور والحـكام مع رعيتهم وامتهم — فهو يلي منزلة الامام العادل في الاهمية والخطر والمسئولية ، فعليه تترتب سعادة وصلاح افراده ، فالوالى أو الحاكم العادل الذي لا يقصر في شيء من واجبه ، ولا يهمل شيئاً يرقي ابدانهم وعقولهم واخلاقهم ، ويحفظ على النـاس اموالهم ودماءهم واعراضهم وحريتهم المشروعة ، ويكون لهم مثلا اعلا في معاملة الناس بعدل وانصاف ، ومساواة دون ظلم واعتساف ومحاباة .

ولقد حذر النبي « ص » من مسئولية ولاة الامور وعظمها ، فقد روي عن ابي ذر (ره) قال : قلت يارسول الله ألا تستعملني ؟ قال : فضرب بيده على

منكبي ثم قال : يا أبا ذر — انك ضعيف وانها امانة ، وانها يوم القيامة خزي وندامة إلا من اخذ بحقها وأدى الذي عليه فيها .

وورد ايضاً عنه (ص) انه قال : « ما من عبد يسترعيه الله عز وجل رعية يموت يوم يموت وهو غاش رعيته إلا حرم الله عليه الجنة » . وقال (ص) : « من ولي أمة من امتي — قلت أو كثرت — فلم يعدل فيهم كبّه الله على وجهه في النار » .

اما عدل رؤساء الاسر والقبائل فانه يوجب استمرار المحبة والمودة ، ويحكّم بينهم روابط الالفة والتعاون وتبادل العون والمنفعة ، فضلا عما يترتب على اقامة العدل بينهم من اقتدائهم بهم قدوة حسنة ، فيشب الصغير على حب العدل مع نفسه ومع غيره ، ويعامل الكبير الناس بالعدل والمرحمة ، وبذلك يتقون شر المظالم الداخلية والخارجية ، ويحيون حياة طيبة مباركة ، ويعيشون عيشة راضية مرضية .

لذلك اكد الله طلب العدل مع الزوجة والزوجات ، فقد ورد عن النبي (ص) قال : من كانت عنده امرأتان فلم يعدل بينهما جاء يوم القيامة وشقه ساقط . وقال (ص) : ان المقسطين عند الله على منابر من نور عن يمين الرحمن وكلتا يديه يمين . الذين يعدلون في حكمهم واهليهم وما ولّوا » .

وكذلك اكد طلب العدل فى الاصلاح بين الطائفتين المتقاتلتين أو المتخاصمتين فقال تعالى : ﴿ وان طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فاصلحوا بينهما فان بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء الى امر الله فان فاءت فاصلحوا بينهما بالعدل واقسطوا ان الله يحب المقسطين ﴾ .

اما اذا كان الرئيس ظالماً فانه يكون شراً ووبالا على نفسه وعلى مرؤسيه فان

المظلوم منهم يحقد عليه وعلى من ظلمه ، فتنقطع بينهم روابط القربى وعلاقات المودة ، ويسري فيهم خلق الظلم فيتسلطون على خلق الله فيظلمونهم كما ظلمهم رؤساؤهم ، وبذلك يكونون من أشقى خلق الله .

• ويتبع عدل الولاة والسلاطين والامراء والحكام عدل القضاة والشهود ، فاذا عدل القاضي وعدل الشهود في شهادتهم ارتفعت المظالم وأمن الناس على أموالهم ودمائهم وأعراضهم ، وساد في الناس وغلب عليهم حب الحق والعمل به .

اما اذا جار القاضي ولم يعدل الشهود فان النظام يختل وتسود الفوضى ، ويعقبها الفناء والانحلال ، لذلك يقول النبي (ص) : « القضاة ثلاثة : واحد فى الجنة واثنان فى النار ، فاما الذي فى الجنة فرجل عرف الحق فقضى به ، ورجل عرف الحق فجار في الحكم فهو فى النار ، ورجل قضى للناس على جهل فهو فى النار .

اما العدل فى الشهادة فقد عني به الاسلام أيما عناية . وطلبه طلبا لا هوادة فيه ولا محاباة ، بل امر الله المؤمنين بالعدل فى الشهادة ولو كانت على أنفسهم ، أو على الوالدين والأقربين ، كما قال تعالى : « يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين ان يكن غنياً أو فقيراً فالله أولى بهما فلا تتبعوا الهوى ان تعدلوا وان تلوا أو تعرضوا فان الله كان بما تعملون خبيرا » . وقال تعالى : ﴿ وأشهدوا ذوي عدل منكم وأقيموا الشهادة لله ﴾ .

وأما الصناع والعمال الذين يتعاقدون مع الناس على عمل شيء معين — فهم مطالبون بالعدل في صنائعهم بان يجيدوها ويفرغوا الوسع في اتقانها وتحسينها على أكمل وجه ، بحيث لا يتركون بابا من ابواب الخلل إلا أصلحوه ، فمتى فعلوا ذلك فقد أقاموا العدل في صنائعهم ومع متعاقديهم ، والله سبحانه وتعالى كفيل

بان يبارك لهم فى اجورهم فى الدنيا و يثيبهم على ذلك في الآخرة..

اما اذا غشوا ولم يتقنوا أعمالهم فان لهم عقاب الظالمين ، وعليهم اثم الغاشين (ان الله تعالى سائل كل راع عما استرعاه حفظ أم ضيع) .

واما عدل الموظف ـ فهو معاملة الناس بالمساواة ، دون المحاباة و تقديم زيد وتأخير عمرو . لصحبة أو نسب أو قرابة أو جاه ومنزلة . مع ضبط الحساب دون غش فى الأوراق . أو تلاعب في التوقيعات .

أما عدل الطبيب ـ فهو الاجتهاد في تعرف الداء ووصف الدواء ، وان يلبي نداء الانسانية مع الضعفاء والفقراء . وان يعالج كل انسان بما تقتضيه الذمة والشرف واصول الفن . لا على قدر ما يملك من مال أو عقار .

وهكذا عدل كل انسان فيما يزاول من عمل ، أو يلابس من علم ومهنة وسلطة . فكل انسان مطالب بالعدل بنسبة ما يكلف به من الاعمال . لذلك ترى رسول الله (ص) قد وزع العدل والمسئولية على كل رئيس ومرؤس بحسب ما يرعاه ويقوم به من جلائل الاعمال فقد قال (ص) : « كلكم راع ومسئول عن رعيته » الامام راع ومسئول عن رعيته . والرجل راع في أهله ومسئول عن رعيته . والمرأة راعية في بيتها ومسئولة عن رعيتها . والخادم راع في مال سيده ومسئول عن رعيته « وكلكم راع ومسئول عن رعيته » .

العدل معناه فى نظر الامم الغربية

بيّنا ان العدل عند الشرقيين هو وضع الأشياء مواضعها ، وإعطاء كل ذي حق حقه .

ولكن للعدل معنى آخر فى نظر الامم الغربية ، ينبغي للشرقيين عموماً وللمسلمين خصوصاً ان يتعرفوه ويتفقهوا فى مراميه ، ويتفطنوا لفهمه علهم يعدلون من خططهم ويقيمون جهادهم على أساس من المعرفة الحقة والعلم الصحيح .

اما العدل عند الغربيين فهو تكافؤ القوى . هذه كلمة مجملة تحتاج الى توضيح وتفصيل وهو انه لا يخفى ان كل نزاع فهو حرب ، وكل مناقشة فيما هو عماد الحياة فهي جلاد ، وكل عمل يأتيه احد المتنافسين للظفر بمنافسه فهو جهاد ، وكل وسيلة تظفره بطلبته فهي سلاح ، وكل تجاذب أو تدافع بينهما فهو كفاح ، وكل منفعة حفظها أو استخلصها منه فهي غنيمة . وكل انخذال عن حق أو تفويت لمصلحة فهو هزيمة . فالظافر في ميدان المنافسة من كان رأيه أسد ، وقوته أشد ، وسلاحه أحد ، فاذا قربت القوتان من التكافؤ امكن لمصالح المتنافسين ان تتفق وسهل على كل منهما ان يرتفق وإلا استحال الاتفاق واستبد القوي بالارتفاق ، بل صعب على الضعيف ان ينال حق البقاء — سنة الله في عالم الاحياء .

فالاعتماد على العدالة فى معاملة الدول الاجنبية للامم الشرقية ضرب من الخيال ، وعقد الآمال بالانصاف الاصم تلمّس للمحال ، وما على المتهم بحماية ذماره وطالب الطهر من عاره إلا أن يدرك مدركهم ويعمل عملهم ، ليبلغ من الحول حولهم ، فيفوتهم فى القوة ويكون مثلهم ، فيعارض في المنافع معهم معاوضة الممالك مع الممالك ، لا أن يتسلى بالأعاليل ويلهو بالأباطيل ، ويكتفي من العمل بالصوت الجهوري — وهو من روح قائله خلي — حتى اذا دهموه وهو فى غفلته ، وأخذوه وهو فى نومته أو يقظته — بسط يده يتلمس الرحمة منهم ، ويرقب أن يفيض عليهم سيب العدل عنهم ، فهذا عمل الجاهل الأحمق .

يقول الله عز وجل : ﴿ وأعدّوا لهم مااستطعتم من قوة ﴾ . وفى قوله :

﴿ فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم ﴾ .

اما الظلم — فهو وضع الأشياء في غير مواضعها . والاعتداء على أموال الناس ودمائهم وأعراضهم وحرياتهم ومعتقداتهم . وللظلم آثار سيئة ونتائج وخيمة ، وأخطار جسيمة ، ومتى كان العدل أساس الملك فالظلم سبب الدمار والهلاك ، وأصل البلاء وشقاء العباد . الظلم شعار الاستبداد وعنوان زوال النعم وتوالي النقم ، وما فشى في أمة من الأمم إلا ارتفع الجهلاء على العلماء . وانطفأ فيها مصباح الاخلاص ، وساد فيها ظلام الرياء والنفاق ، وقتلت فيها روح الحرية وماتت فيها الشجاعة الأدبية ، وظهر فيها الجبن ، وتغلب الذل ، وضعف فيها الحق وقوي الباطل ، ورضي الناس بالتواكل فاختل النظام ، واعتل الصحيح وعمت الرشوة ، وطغى سيل المحسوبية على حقوق الفقراء والاذكياء ، ولذلك قيل بحق :

الملك يبقى مع العدل والكفر ، ولا يبقى مع الايمان والظلم . ومن وقف على تاريخ الامم الماضية ، واعتبر بما قصه الله تعالى علينا فى كتابه العزيز حكم حكمًا قاطعًا بأن ما حاق السوء بأمة ولا ذلت بعد عز ، ولا ضعفت بعد قوة ولا سقطت بعد رفعة ، إلا وكانت هي الظالمة لنفسها بما جاوزت من حدود الله وانتهكت من محارمه ، ونبذت من أوامره وانحرفت عن شريعته . وسنة الله وجزاؤه فى ترك العدل في الدنيا إنما هي ذل الأمة وهوانها ، وزوال الثقة بين أفرادها ، وانتشار المفاسد وضروب العدوان بينها ، فــلا تلبث أن يسلط الله عليها بعض عباده ، الذين هم أقرب الى إقامة العدل والشهادة بالقسط منها ، فيزيلون إستقلالها ويذيقونهم وبال أمرهم ، قال الله تعالى : (فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات أُحلت لهم) .

وقال تعالى : (فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا) . وقال تعالى : (ما للظالمين

من حميم ولا شفيع يطاع) وقال تعالى : (يوم لا ينفع الظالمين معذرتهم ولهم اللعنةولهم سوء الدار) .

لهذه الآثار السيئة فى حياة الافراد والامم نهى الله سبحانه وتعالى عن الظلم ، ظلم الانسان لنفسه ، وظلمه لغيره ولو ذمياً أو كافراً ، فقال تعالى : (لا تَظلمون ولا تُظلمون) فامرنا أن لا نظلم وألا نقبل الظلم من الغير ، إذ لا يرضى بالظلم إلا من هانت عليه نفسه وفقد الشعور بالعزة والكرامة ، والتحق بالحيوان أو الجماد .

ولا يقيم على ضيم يراد به　　إلا الاذلان عير الحي والوتد

ومن الظلم أن يتعدى الانسان حدود ربه (ومن يتعد حدود الله فقد ظلم نفسه) وقد نهت الشريعة عن ظلم الكافر أو المعاهد قال (ص) : (إذا ظلم المعاهد كانت الدولة دولة العدو) .

ومن نتائج الظلم ان الله تعالى يستجيب لدعوة المظلوم ، قال رسول الله (ص) : ثلاثة لا ترد دعوتهم : الامام العادل ، والصائم حتى يفطر ، ودعوة المظلوم يرفعها الله فوق الغمام ، ويفتح لها أبواب السماء ، ويقول الرب : وعزتي لأنصرنك ولو بعد حين .

أما نتائجه في الآخرة فعذاب النار وسوء الحساب ، والخذلان والحيرة ، فقد قال (ص) : (الظلم ظلمات يوم القيامة) لذلك حرم الله الظلم على نفسه . أي تنزه عنه ولم يتصف به لقبحه وشناعة وصفه وسوء عاقبته ، ففي الحديث القدسي الصحيح قال الله تعالى : ﴿ يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرما فلا تظالموا ﴾ وقال تعالى : ﴿ إن الله لا يظلم الناس شيئاً ﴾ وقال تعالى : ﴿ وما كنا مهلكي القرى الا وأهلها ظالمون ﴾ وقال تعالى : ﴿ ونضع الموازين

القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئاً وان كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين ﴾ . فعلينا أن نتحلى بالعدل و نتخلى عن الظلم عسى الله أن يجعل بعد عسر يسرا (عسى ربكم أن يهلك عدوكم ويستخلفكم فى الارض فينظر كيف تعملون) .

طرق الاخلاق القويمة

إذا عرف المرء حقائق الأمور الآتية . ووقف على كنهها تبين له نهج الخلق القويم ، واستطاع بارادته الحازمة وعزيمته الوثابة أن يسلكه ، ويصل الى غايته .

١ — إذا نظر الانسان الى الدنيا ـ نظر تبصر وإمعان ـ إستبان له أنها ليست دار خديعة وغرور الا عند ذوي العقول الناقصة ، والجاهلين بحقائق الأشياء ، ولو كانت دار خديعة لكان الانسان مدة مقامه فيها لا يناله فيها إلا نعيم وسرور ، ثم تفجؤه بالمساءة فتزيله عن ذلك النعيم ، وليس الامر فيها كذلك ، فانّا نرى الانسان ينشأ في هذه الدنيا على أحوال مختلفة لانظام لها : تراه يوما محزونًا ، ويوما مسروراً ، ويوما مبتهجاً ، ويوما متوجعاً متألماً . والشيء إذا أظهر لك جميع ما في طبعه فقد أنصفك ونصح لك .

ولم ينل أحد من هذه الدنيا فرصة إلا أعقبتها غصة . فليست المخادعة إذاً من قبل الدنيا ، ولكنها من قبل الانسان لنفسه . فان الدنيا أظهرت له جميع ما في طبعها من نعيم وبؤس ، فاغتبط الانسان الضعيف العقل بنعيمها ، واعتقده دائمًا ، ونسي بؤسها وأهمله ، فكان لذلك المخادع نفسه والمهلك لها لا الدنيا .

٢ — ينبغي للمرء ألا تستخفه الغبطة ولا ينجعه الأسى ، وأن يتلقى

الحوادث بالرضا والاتزان ، فلا تكون أخلاقه كأخلاق الصبي الذي لا عقل له ، إن أطعم ورفق به ضحك ورضي ، وان شدد عليه بكى وغضب ، فهو ما يكون ضاحكا حتى يكون باكيًا ، وما يكون راضيًا حتى يكون غاضبًا .

٣ — لقد فطرت الدنيا على طباع مختلفة ، هي خير وشر ، ونعيم وبؤس ، وشدة ورخاء ، تنبيها للمرء وإيقاظًا له ، فيكتسب بذلك العقل المضيء والمعرفة بحقائق الأشياء . فالدنيا دار علم وبحث واختبار للمتأملين ، وقد وردها المرء ليعلم ويخبر ، ومن ورد محلا من المحال ليعلمه ويخبر كنهه ثم ترك العلم والبحث والاختبار وتشاغل بالنعيم والتلذذ ـ فقد ضيع مطلبه ونسي إربه الذي قصد له .

فالعاقل من لم تشغله لذة عن الجري وراء الحقيقة واستبطان الأمور ، ولم يكن من الذامين للدنيا عند سخطهم عليها والمادحين لها عند رضاهم عنها ، وليسوا هم في الحقيقة ذامين ولا مادحين ، بل هم تائهون ضالون قد أضاعوا مطلبهم ، ونسوا إربهم ، وذهبت أعمالهم باطلا غير متحققين علمًا ولا مكتسبين قنية .

٤ — إن مهلكات النفوس ثلاثه أجناس : الشرك ، والظلم ، والتلذذ وأصل هذه الأجناس حب الدنيا فليتحرز المرء منها ، ولينظر اليها بعين الخائف الوجل منها ، كالطائر الذي عرف الفخ المنصوب وفطن له فانحرف عنه وحذره ، وليعلم أن تحرزه من الشرك يذهب به الى رتبة التوحيد ، وأن تحرزه من التلذذ يذهب به الى الراحة من مقاساة الخوف والحزن .

٥ — وينبغي للمرء أن يتأمل حكمة مبدع الأشياء ويعتبر بها ، ويعلم أن الانسان لم يخلق الا للعلم والعمل به ، كالثمرة الطيبة لم تخلق الا للأكل .

وكما أن عنقود العنب يبدو وهو لا يصلح لشيء مما يراد به ، ثم ترده المادة السائرة به الى حد الحموضة العادية ، فيكون حينئذ صالحًا لبعض مايراد به لا

لـكله ، ثم ترده المادة السائرة به الى حد الـكمال فيكمل حينئذ ـ كذلك الانسان يبدو الى عالمه وهو لا يصلح لمعنى من المعاني التي تراد منه ، ثم ترده المادة السائرة به الى حيث يصلح أن يكون متعلماً لا عالمًا . فاذا إرتاض على هذه الرتبة ووردته المادة الـكبرى الـكاملة المـكملة فانه يصبح حينئذ عالمًا عاملا ، فيكمل حينئذ .

٦ — ليس كل المستمعين لخطيب بحال واحدة فى فهم ما يقول ، فمنهم من يحتاج الى ترجمان يؤدي اليه ، ووسيط يتوسط بين الناطق والسامع ، وذلك لضعف السامع عن فهم القول . ومن هو كذلك فهو أعجمى لا يفهم حاجته الا بترجمان يفسر له حقيقة القول ، فالعاقل من عمل على إخراج نفسه من رتبة العجمة الى رتبة الفصاحة حتى لا يحتاج الى ترجمان ـ ربما خان في تأدية ماسمع وغيّر القول وحرفه .

٧ — كثيراً ما يخاف المرء على ما وصلت اليه يده من أنواع المقتنيات ـ ما دامت معه ـ فاذا فارقته زال الخوف عنه ، وأعقبه ذلك أحزانًا وغموماً ، فلينزع عن نفسه هذا الشيء الذي يدفعه الى الخوف ، ويصيبه بأمراض الهموم وآلامها ، فلا يحزن على فائت كما لا يُسر لآت ، ولا يكره دوام الغنى والأمن والسرور ، فانه من آثر الفقر على الغنى والخوف على الأمن والذل على العز كان جاهلا ، ومن جهل فقد ضل ، ومن ضل فقد هلك .

٨ — هذا عالم الطبيعة ، وهو محل الفقر والخوف والذل والحزن ، وهذا عالم العقل وهو محل الغنى والأمن والعز والسرور ، وقد شاهدهما المرء جميعاً وساكنهما ، فليتخير على علم وخبرة ، وليعلم أنه لا بث فى أيهما شاء غير مدفوع ولا ممنوع ، وأنه من الممتنع أن يكون الانسان فقيرا غنياً ، خائفا آمنًا ، مسروراً حزينًا ، وإذا كان الأمر كذلك فلا يمكن أن يجمع الانسان حب الدنيا وحب

الآخرة . قال أمير المؤمنين « ع » : مثل الدنيا والآخرة كمثل المشرقين كلما بعدت من أحدهما قربت من الآخر .

٩ — إن من نزع سلاحه وكتف نفسه واستسلم لعدوه أسر وهان ، ومن قاتل بسلاحه وحمى نفسه ولم يستسلم لعدوه ساد وعز ـ ولو مات دون كفاحه وجهاده ـ وأي نفس وردت الدنيا فلا بد لها أن تسلك احد هذين الحالين : اما الأسر ، وأما الكفاح . فمن اختار الأسر اختار طول العذاب وذل العبودية ومن اختار الكفاح ومات في سبيله فقد مات عزيزاً ، وكان موته حياة له ، واستراح من الأسر وهوانه وطول ذله .

١٠ — متى نوى المرء ترك الأفعال الخسيسة فليقصد نبعها وأصلها ، وليجتنبه وهو حب الدنيا ، ومتى نوى الافعال الشريفة أيضاً فليقصد أصلها وهو الزهد في الدنيا ، وليبرأ مع هذا من النفاق والتمويه والافراط والتفريط .

١١ — هذه رتب ثلاث ـ فكن أيها المرء على أشرفها وأجملها ، فادناها رتبة رجل عالم غير عامل ، وهو كرجل ذي سلاح لا شجاعة له وما عسى أن يصنع الجبان بالسلاح . والرتبة الثانية ـ رجل عامل غير عالم ، وهو كرجل شجاع لاسلاح له ، غير أن الشجاع بلا سلاح أقدر من الجبان ذي السلاح ، ولذلك كان العامل الذي لاعلم عنده خيرا من العالم الذي لاعمل له . والرتبة الثالثة ـ رتبة رجل عالم عامل ، وهو كرجل ذي شجاعة وسلاح ، وهذه من غير شك أشرفها وأسماها .

١٢ — إن القمر ينير ما وردته الشمس ، فاذا عرض له أن يحول بينهما جسم الارض انخسف واظلم ، وكذلك النفس نيرة مضيئة ما دام يردها نور العقل فاذا توسطت أسباب الفساد بينهما عدمت النفس نورهـــا وأظلمت . وكما أنه ما

دامت الارض فى وسط العالم لن يعدم القمر الخسوف ، كذلك النفس ما دامت ملازمة للطبيعة لن تعدم الظلمة والاذى ، فراحتها في مفارقتها عالم الطبيعة عن حب الدنيا عاجلا ، فان التلذذ والتنعم بالدنيا هو الموت الدائم .

١٣ — من تأمل اللذات كلها لم يجد ألذ من ثلاثة أشياء : العلم ، والغنى ، والأمن . ولكل واحد من هذه الأشياء أصل وينبوع يحركه ، فمن طلب العلم فليعتصم بالتوحيد ، فانه بالتوحيد تكون المعرفة والعلم والتحقيق ، وبالشرك يكون الكفر والجهل والشك . ومن طلب الغنى فليقنع ، فانه حيث لا قنوع لا غنى . ومن طلب الأمن فليعدّ نفسه للموت وليشعرها الاطمئنان الى مزايلة الدنيا .

١٤ — أيها الانسان ، حتى متى أنت فى عالم السكون ؟ تطوف وارداً وصادراً ، وذاهباً وراجعاً ، تتخذ القرناء والخلاّن ، فخليلا تترك ، وخليلا تتخذ وتصحب ، وليس من خليل تصحبه فيلين لك منه جانب إلا قد تلون لك منه جانب ـ مكنّا لك الغدر والخذلان ، وأنت مكّن له الوفاء والمساعدة ، يغشك فتنصحه ، ويعتل فتصححه ، ويدنسك فتطهره ، فهو دائمًا يقابلك بما في جوهره وطبعه ، وأنت دائمًا تقابله بما فى جوهرك وطبعك ، ثم يعقبك بعد هذا كله بالقطيعة التامة والفراق القاطع ، على غير جرم أجرمته ، ولا ذنب جنيته . فأنت فى كل حين متجرع من الفراق غصصاً ، وفاقداً إلفًا وخليلا ، على غدرهم بك ووفائك لهم ، وظلمهم إياك ، وإنصافك إياهم ، لاعن الآخر بالأول تنزح ، ولا بطول تجربتك واختبارك لهم تتعظ وتعتبر .

فحتى متى وإلى متى تصاحب الأشرار الظالمين والخونة الغادرين ؟ إنه لو شرب شارب من الماء شربة واحدة فان تلك الشربة تقرر في نفسه المعرفة بطبيعة الماء كله ، إذ اختبار الجزء من الشيء الواحد ينبىء عن سائر أجزائه ، وان الناظر

الى كف من التراب قد رأى التراب كله ، وان اختلفت ألوان التراب فليس جوهره مختلفاً ، وإن مصاحب القرناء والخلان الذين كلهم من طبيعة واحدة وجوهر واحد ـ لعارف بأن واحدهم ينبيء عن جميعهم ، وقليلهم ينبيء عن كثيرهم

١٥ — إن كل شيء يحن الى مشاكله ، فجدير بك أن تعرف هذا وتعمل به . فأنت صاف فلا تصحب كدراً ، وأنت نيّر فلا تصحب مظلماً ، وأنت حي ناطق فلا تصحب ميتاً أبكماً ، وأنت عاقل وعادل فلا تصحب جاهلا متعسفاً ، وأنت طاهر نقي فلا تصحب نجساً دنساً ، وأنت متصرف بالتمييز والارادة العقلية فلا تصحب المتحرك حركة الهيام والالتباس والاضطراب . فالروح في جوهرها نيرة طاهرة ، والجسم فى أصله مظلم كدر .

١٦ — ما أشغل الغريق فى الماء عن صيد السمك ، وكذلك ساكن الدنيا ، ما أشغله عن مقتنياتها ولذاتها بخلاص نفسه ، إن فطن لسوء وقوعه فيها .

يكفيك وأنت فى عالم الحس ما تقاسيه من آلامك وأوساخها ، فلا تضف الى آلامك شيئاً آخر ، فتكون كالغريق المرتهن فى البحر قد حمل على عاتقه حجراً وما أرى ان غريقاً ينجو من البحر مجرداً بنفسه ، وإن نجا فبصعوبة ، فكيف به اذا حمل على عاتقه شيئاً آخر ؟

من فاتته فرصة العمل بالنصيحة في أوان العمل فاتته حلاوة التثمير والثواب على صالح الأعمال ، فانه من لم يغرس الشجرة فى أوان غرسها لم يلتذ بالثمرة عند أوان إدراك الثمر ، فتيقن هذا القول وافهمه إن كنت حياً عاقلا ، وإن كنت ميتاً جاهلا فما أبعد تيقنك إياه وفطنتك له .

١٧ — ان من كان له حبيب وفقده ، ثم وجد بعد فقده إياه عوضاً منه وبديلا ـ يوشك أن يسلاه وينساه ، ولا سيما اذا كان الآتي أوفق وأحمد من

الماضي . ومن فقد حبيباً ثم لم يجد منه عوضاً يوشك أن يطول حزنه وتعظم حسرته ومن السياسة إن كان لك خليل ـ أنت متحقق لفقده وفراقه ـ أن ترتاد منه بديلا وعوضاً ، وتلتمس لك غيره صاحباً ، وخليق أن يكون المستأنف أوفق وأحمد من الماضي ، فانه من فقد شيئاً ثم وجد ماهو خير منه تحولت مصيبته الى نعمة ، وحسرته الى فرح وسرور . فجدير بالنفس ألا تذهب فريسة الشهوات الجسمية الفانية ، وأن تنحاز الى العقل وتلزم نهجه وسبيله .

١٨ — احذر الخطأ في السياسة ، فان ثمرة الخطأ العذاب بعينه ، لأن الخطأ والزلل لا يعقبان إلا خطأ وزللا وسوء عاقبة . وان ثمرة الاصابة وحسن التهدي هي النعيم بعينه ، لأنهما لايستخرج منهما إلا صواب وهدى وحسن عاقبة . ومن غرس النخل وأجاد خدمته أكل الرطب والتمر وحمد عاقبته . ومن غرس الصفصاف والعليق عدم التمر وذهبت خدمته وتعبه باطلا .

فتهدّ في جميع أحوالك الى أخذ ما هو نافع لك ، وترك ماهو ضار لتكون من الموفقين المقترنين بالسعادة الأبدية الدائمة .

١٩ — ومن أصعب الأشياء وأشدها أن تعالج صنعة الصياغة بأداة الفلاحة او صنعة النجارة بأداة الخياطة ، فلكل صناعة أداة لن يستوي عملها إلا بها . واذا كان الانسان عارفاً لكل الصناعات ـ ايضاً ـ مستعملا كل ادواتها وجب عليه ـ اذا اراد ان يعالج الخياطة ـ ان يرمي من يده أداة الفلاحة ، ويأخذ للخياطة أداتها التي تصلح لها ، واذا اراد ان يعالج الفلاحة ينبغي ان يرمي من يده أداة الخياطة ليأخذ للفلاحة أداتها التي تصلح لها .

وكذلك ينبغي لمن اراد ان يدرك العلم وعمل الخير ـ أن يرمي من يده أداة الجهل والشر ويأخذ للعلم والخير أداتهما التي تصلح لهما ، وأداة العلم والخير

بغض الدنيا والزهد فيها ، وأداة الجهل والشر حب الدنيا والرغبة فيها ، فمتى هممت بطلب العلم والخير فدع من يدك أداة الشر ، كما قد تقرر في علمك : ان الصنعة لا تعمل إلا بأداتها ، وخذ للعلم والخير أداتها . فانه متى عملتها بأداتها كان عملا بغير تعب ولا نصب . ومتى كان بيدك أداة الشر واردت ان تعمل بها الخير امتنع ذلك عليك وصعب ، كما امتنع على من كان بيده أداة الفلاحة فأراد ان يعمل بها الصياغة فطال تعبه ونصبه ولم يتم له عمله . فتيقن هذا المعنى ، واعلم ان حب الدنيا والخير لايجتمعان في قلب ابداً ، كما ان بغض الدنيا والشر لايجتمعان في قلب ابداً ، فتصور حقيقة هذا ، وادركه بعقلك وبصيرتك .

٢٠ — ان التجار لا يظهرون بضائعهم ويزينونها لتراها العميان ، بل ليراها ذوو الأبصار الصحيحة ، وكذلك القصاص والمتكلمون إنما يتكلمون في المحافل لاليسمعهم الصم ، وإنما ليسمعهم ذوو الآذان السامعة الصحيحة . وكذلك الحكماء لا ينطقون بالحكمة ويشيرون الى المعاني السامية للنفوس السالكة في رتبة الموت ، وإنما يؤمنون بالحكمة للنفوس السالكة في رتبة الحياة وهي نفوس راغبة في المعاني واردة إياها ، لكن تلك النفوس السالكة في رتبة الموت هي نفوس غير راغبة في المعالي ، صادرة عنها زاهدة فيها ، فتأمل هذا المعنى . واعلم انه شتان بين الوارد والصادر ، وبين الراغب والزاهد .

٢١ — إن كرهت العقاب فاتق الزلل واحذره . وتجنب الخطأ واطرحه . وإن آثرت الثواب فتهد الى الصواب . واعلم ان مقاصد النفس لا تعدو حالين : هما الخطأ ، والاصابة . وانه لن يخلو الخطأ من عاقبة العقاب والخسران ، ولن تخلو الاصابة من ثمر الثواب والربح ، فان لم يكن ذلك كذلك يكن الخطأ ثمره الثواب ، والاصابة ثمرها العقاب ، وهذا ما لا يسوغ في العقل ، ولا يوجد في

مشاهدة الحس ، فقد وجب ضرورةً ان يكون الخطأ عاقبة العقاب بالحقيقة ، وأن تكون الاصابة ثمرها الثواب ونفس المرء بانضيافها الى العقل يقوى ضوءها فتدرك الاصابة ببصرها ، وبانحرافها عن العقل وانضيافها الى الحس تعدم النور العقلي فتظلم وتضعف ، وتعثر بالخطأ بعماها وظلمتها . فالطبيب يأمر العليل أن لا يأكل ما يضره ، فان أطاعه اصاب وانتجت له الاصابة البرء والصحة : وإن عصاه أخطأ وأنتج له الخطأ السقم والألم .

٢٢ — تيقن أولاً – ان الموت الطبيعي ليس شيئاً غير غيبة النفس عن الجسد ، فاذا تقرر هذا فى علمك فتأمل ان الرجل الحكيم العالم العاقل هو حكيم عالم عند حضوره ، وهو حكيم عالم عند مغيبه ، معه تنتقل حكمته وعلمه أينما توجه وأينما سلك ، فتنبه لهذا المعنى . وتيقن ايضاً ان غارس شجرة الخير وغارس شجرة الشر – بينهما بون عظيم واختلاف كبير فى نتيجتهما ، لأن شجرة الخير ليس ثمرها إلا خيراً ، وشجرة الشر ليس ثمرها إلا شراً .

فان لم يكن هذا وكان ثمر الشجرة غير مافى طبعها – ينبغي لغارس شجرة الكرم ان يأخذ منها الحنظل ، ولغارس شجرة الحنظل ان يأخذ منها العنب ، ولسنا نرى شجرة ثمرها غير مافى طبعها . وغير ما هي معروفة به منذ بدء العالم ، لأن شجرة الكرم ليس ثمرها إلا عنباً وشجرة الحنظل ليس ثمرها إلا حنظلا ، فكيف يكون غارس شجرة الخير يعطي غير الخير ، وغارس شجرة الشر يعطي غير الشر ؟ ! فقد اتضح ضرررةً وتبين حساً وعقلا – أن الشيء لا يلد إلا من نوعه وشكله ، ولا يلد إلا مثله ، وإلا فمتى رأيت كلباً أنتج سبعاً ، أو ناقة نتجت فكان نتاجها كلباً ؟

فان كان قد اتضحت لك هذه المعاني – فاطلب العلم بحقائق الأشياء ،

وافعل الخير واغرس شجرته لينجلي بصرك ، فتنال من علمك علماً ، ومن فعلك الخير خيراً ، ومن استبصارك بصيرة ونوراً وهداية ، فتسكن بذلك المحل الأفضل وتستكمل السعادة الدائمة والافراح الابدية .

٢٣ — إن الأعمى اذا مشى ووقع في جب كان معذوراً عند نفسه وعند غيره ، فأما البصير اذا أتى جباً وهو يبصره فألقى نفسه فيه بهواه وشهوته فأي عذر له عند نفسه وعند غيره ؟ فما أعظم حسرة الواقع فى المكروه بعلم وبصيرة وما أشد عذابه ؟ !

٢٤ — إن من عف عن شهوات الدنيا عفت مصائب الدنيا عنه ، وخرج من الدنيا سالمًا رابحًا ، وربحه قربه من الله . ومن أسرع الى شهوات الدنيا أسرعت مصائب الدنيا اليه ، وخرج من الدنيا سقيما خاسراً ، وخسرانه بعده من الله .

٢٥ — ينبغي للمرء ان يعلم ويتيقن ـ ان حد اللذة بالحقيقة هو مالا يحل ، ومتى طلبت نفسه فى الدنيا لذة فقد سمت الى غير موجود وطلبت ما لا يمكن ، والدليل البين على هذا ان جميع ما تباشره النفس في هذه الدنيا مملول ، والمملول لا ينبغي ان يسمى لذة ، إذ كان حد اللذة مالا يحل . أوما تنظر الى اكثر اهل الدنيا كيف يبحثون فى طلب اللذات ويتوهمون انها موجودة فى الدنيا وليست هي بموجودة ؟ فتيقن ان الناس يطلبون في الدنيا ماليس فيها .

٢٦ — ان غرض الحق ومقتضى العقل ان تكون الاشياء على ترتيبها الطبعي ثابتة ، فاذا كانت كذلك فما احسنها واجملها واعدلها ، وذلك كالصانع الذي ينبغي له ان يكون هو الذي يستعمل الأداة ، لا الأداة مستعملة له . وكالفارس الذي ينبغي له ان يدبر الفرس ويجربه ويروضه . لا أن يكون الفرس

يدبر الفارس . فاذا جرت هـــذه الاشياء على كيانها الطبيعي ظهر الحق والعدل الجميلان ، واذا انعكست بالضد والخلاف ظهر الشر والجور القبيحان الرديئان .

٢٧ — تأمل أيها المرء هذا المثل ، فاما ان تضحك منه تعجباً ، او تعتبر وتوجس منه مخافة وهو ان طائرين من نوع واحد رُبطا معاً في رباط واحد وتركا فيه فعظم عذابهما جميعاً وبعدت الراحة عنهما ، فكان فرح كل واحد منهما وراحته انفصاله عن الآخر . فاذا كان طائران ـ هما نوع واحد وشكل واحد . ربطا جميعاً فأعقبهما الربط شدة ، وأذاقهما انواع العذاب ، فكيف اذا ربطت اشياء مختلفة في الشكل والمعنى ، كجمل ربط بذئب ، أو ثور ربط بسبع ، أو حي ربط بميت ؟

أيكون أشقى من عالم ربط بجاهل ؟! ان كانت راحة الجمل ان يحل من ربطه بالذئب ، وراحة الثور ان ينحل من ربطه بالسبع ؟ فان راحة الحي ان ينحل من ربطه بالميت ، وراحة العالم ان ينحل من ربطه بالجاهل . فان كنت تقر بحقيقة هذه المعاني فقد انجلت الغشاوة عن بصرك ، وان كنت منكراً لذلك فاستعمل الادوية المزيلة العمى عن الابصار ، والاخلاق المخرجة القلوب من الظلمات الى النور

٢٨ — خليق بالمرء ان يحرص على تقوى الله ولزوم أمره ، ويعمر قلبه بذكره ويعتصم بحبله ، وأي سبب أوفق من سبب بينه وبين الله إن هو اخذ به ؟ وأن يحيي قلبه بالموعظة ويقويه باليقين ، وينوّره بالحكمة ويبصره بأحداث الدنيا ، ويحذره صولة الدهر وسوء تقلب الليالي والايام ، ويعرض عليه اخبار الماضين ، ويذكره بما اصاب من كان قبله من الاولين ، وأن يسير في ديارهم وآثارهم ـ لينظر فيما فعلوا وعما انتقلوا ، واين حلوا ونزلوا . فانه يجدهم قد انتقلوا عن الاحبة وحلوا ديار الغربة ، وكأنه عن قليل قد صار كأحدهم

٢٩ — وعليه أن يصلح مثواه ، ولا يبيع آخرته بدنياه ، ويترك القول فيما لا يعرف والخطاب فيما لم يكلف ، ويمسك عن طريق إذا خاف ضلالته ، فان الكف عند حيرة الضلال خير من ركوب الأهوال . وأن يأمر بالمعروف ويكون من اهله وينكر المنكر ويباين من فعله بجهده ، ويجاهد فى الله حق جهاده ، ولا تأخذه فى الله لومة لائم ، بل عليه أن يخوض الغمرات للحق حيث كان ، ويعوّد نفسه التبصر على المكروه ، ويلجىء نفسه فى الأمور كلها الى الإله القدير ، فانه تعالى كهف حريز .

٣٠ — وأن يعلم أن أحداً لم ينبىء عن الله كما أنبأ عنه الرسول (ص) ، فليرض به رائداً والى النجاة قائداً ، وأنه لو كان لربه شريك لأتته رسله ، ولرأى آثار ملكه وسلطانه ، ولعرف أفعاله وصفاته ، ولكنه إله واحد كما وصف نفسه ، لا يضاده فى ملكه أحد ولا يزول أبداً ، ولم يزل أولاً قبل الاشياء بلا أولية ، وآخراً بعد الاشياء بلا نهاية ، عظم عن أن تثبت ربوبيته باحاطة قلب أو بصر . فاذا عرف ذلك فليفعل كما ينبغي أن يفعله في صغر خطره وقلة مقدرته ، وكثرة عجزه وعظيم حاجته الى ربه فى طلب طاعته والخشية من عقوبته والشفقة من سخطه ، فانه لم يأمره إلا بحسن ، ولم ينهه إلا عن قبيح .

وأن يعتبر بما أتاه به النبي الكريم (ص) ، من أنباء الدنيا والآخرة ، ليرى أن مثل من خبر الدنيا كمثل سفر نبا بهم منزل جديب ، فأموا منزلا خصيباً وجنابا مريعا ، فاحتملوا وعثاء الطريق ، وفراق الصديق وخشونة السفر وجشوبة المطعم ، ليأتوا سعة دارهم ومنزل قرارهم ، فليس يجدون لشيء من ذلك ألماً ولا يرون نفقة مغرماً ، ولا شيء أحب اليهم مما قربهم من منزلهم وأدناهم من محلهم . وأن مثل من إغتر بها كمثل قوم كانوا بمنزل خصيب فنبا بهم الى

منزل جديد ، فليس شيء أكره اليهم ولا أفظع عندهم من مفارقة ما كانوا فيه ، الى ما يهجعون عليه ويصيرون اليه .

٣١ — وليعلم أن حفظ ما في يديه أحب الى المروءة من طلب ما في يد غيره . ومرارة اليأس خير من الطلب الى الناس . والحرفة مع العفة خير من الغنى مع الفجور . والمرء أحفظ لستره . ورب ساع فيما يضره . وأن من أكثر أهجر ومن تفكر أبصر ، ومن قارن أهل الخير كان منهم ومن باين أهل الشر بان عنهم . وبئس الطعام الحرام . وظلم الضعيف أفحش الظلم .

وليبتعد عن الاتكال على المنى فانها بضائع الموتى . وأن ينتفع بما وقع له فالعقل حفظ التجارب . وخير ما جربت ما وعظك . وعليه أن يبادر الفرصة قبل أن تكون غصة ، فليس كل طالب يصيب ولا كل غائب يئوب . ومن الفساد إضاعة الزاد ومفسدة المعاد . ولكل أمر عاقبة ، ورب يسير أنمى من كثير ، وان لا يخاطر بشيء رجاء أكثر منه . وأن يأخذ نفسه بنصيب حسن من التربية ـ وهي العلم الصحيح والعلم الكامل ، والاخلاق المهذبة ، وحسن الاسوة في الاقران ، وإحكام المراقبة التي يكون بها إجتناب كل ما يخل بالأدب والكمال ، مع تعهد يستمر في تقويم الطباع المتأصلة ، والعقائد الموروثة الى الصحيح السالم منها .

وبدهي ـ أن التربية بهذا المعنى تشمل الوقوف عند الأوامر والنواهي الشرعية بعد معرفة الحلال والحرام ، ومقاومة الشهوات النفسية ، وصرف قواها الى صالح الأعمال الكافل لسعادة الانسان في معاشه ومعاده ، ولهذا ترى الأمم العاملة على إعلاء مجدها ـ تصرف عنايتها في نشر العلوم النافعة ، وبث أفكارها في عقول بنيها ، على يد أساتذة كرام من صفوتها ، أدبا ودينا وعلما

وأخلاقا ، ليكونوا أمناء على المتعلمين .

قال بعض الحكماء لولده : يا بني ، إعلم أن العز فى طاعة الله والذل في معصية الله والناس يتفاضلون بالعقل ، ويتميزون بالعلم ، ويتفاوتون بالعمل ، ويسودون بالحلم . فعليك فى دينك بالازدياد ، وفي دنياك بالاقتصاد .

وقال الحكيم المستعصي : يجب على المعتني باصلاح أخلاقه مراعاة هذه الأمور :

١ ـ ان يغتنم الحياة التي فارق بها الاموات والجماد . فيصرف زمانه فى المهم دون غيره ، فقد قيل : إن إمرأً ذهبت من عمره ساعة لحري ان تطول حسرته عليها .

٢ ـ وان يكون متفقداً لجميع اخلاقه متيقظاً لسائر احواله ، منتقصاً لمذموم عاداته .

٣ ـ وان يكون ابداً معتنياً بتهذيب نفسه ، عاشقاً لصورة الكمال ، مستلذاً محاسن الأخلاق ومحمودها ، غير مستكثر ما يقتنيه من الفضائل والعلوم النافعة .

٤ ـ ان يطلب من التربية العليا غايتها ، جاعلا غرضه الكمال منها .

٥ ـ وان لا يقف عند غاية من العلم الا ويومىء بطرفه الى ما فوقها ليزداد بصيرة .

٦ ـ وان يأخذ نفسه بأوامر الله ورسوله واُولي الأمر من بعده ، من اهل العصمة يؤدبها بآدابهم .

٧ ـ وان يسدد طرفاً من علم اللسان ، ويعتني بالبلاغة والفصاحة ، والكتابة والدرس .

٨ ـ وأن يقصد فى شهواته المباحة ويقف بها عند حد الاعتدال .

٩ ـ وأن يقمع ابداً سورة القوتين الغضبية والشهوانية ، ويستعمل قوة العقل عليهما .

١٠ ـ وأن يكون سهل اللقاء والبشر والتسليم ، سابقاً بذلك غيره .

١١ ـ وأن يستعمل القصد في كل اموره .

واوصى بعض الحكماء بنيه فقال : الادب اكرم الجواهر طبيعة وانفسها قيمة ، يرفع الاحساب الوضيعة . ويفيد الرغائب الجميلة ، ويعز بلاعشيرة ، ويكثر الانصار لغير ذرية فالبسوهُ حلة ، وتزينوه حلية يؤنسكم في الوحشة ، ويجمع لكم القلوب المختلفة .

وأوصى آخر ابنه فقال : يا بني . الأدب دعامة أيد الله بها الألباب ، وحلية زيّن بها عواطل الاحساب . وقال ابن المقفع : مانحن الى ماتتقوى به حواسنا من المطعم والمشرب ـ بأحوج منا الى الادب الذي هو لقاح عقولنا ، فان الحبة المدفونة في الثرى لا تقدر ان تطلع زهرتها ونضرتها إلا بالماء الذي يعود عليها من مستودعه . وقال آخر : الشرف كل الشرف والفضل كل الفضل ان تفخر بعملك الطيب ، فهو الذي يجعلك غرة في جبين أُسرتك . ودرة في جيد بيئتك ويصيرك نادرة زمانك وجوهرة ايامك .

٣٢ — قمين بالمرء ان يعامل الناس بما يحب ان يعاملوه به ، فلا يستخف بفاضل شريف ، ولا يميل الى سخيف ، ولا يقول هجرا ، ولا يعمل نكرا ، ويجتنب فضول الكلام ، فانه يظهر من عيوبه ما بطن ، ويحرك من عدوه ماسكن ، وكلام الانسان مقياس فضله وترجمان عقله ، فليقصره على الجميل ويقتصر منه على القليل . ويهجر اللجاج فانه يوغر القلوب ، ويفسد الملكات ، وحري به ألاّ يقول إلا ما يثبت به حجته ، ويبلغه حاجته ، فخير مظاهر رزانة الرجل قلة نطقه ومقاله

وفضلُ علم احتماله وإكرام إخوانه . اذا عاتب استبقى ، واذا صنع معروفًا ستر ، واذا أُسدي اليه جميلُ نشر ، واذا أذنب اعتذر ، واذا أُذنب اليه اغتفر ، فالمعذرة بيان العقل ، والمغفرة بيان الفضل ، لايزهد في رجل عرف فضله وجرّب عقله ، ولا يعين قويًا على ضعيف ، ولا يؤثر دنيًا على شريف ، ولا يشير بما يعقب الوزر والاثم ، ولا يفعل مايقبح الذكر والاسم .

يحفظ لسانه من المزاح والسخرية والاستهزاء بالناس ، فان ذلك يريق ماء الوجه ، ويسقط المهابة ويجر الوحشة ، ويؤذي القلوب . وهومبدأ اللجاج والغضب والتقاطع ، ويثير الحقد في القلوب ، يلقى صديقه وعدوّه بوجه الرضا من غير مذلة ولا هيبة ، ويوقر من غير كبر ، ويتواضع من غير مسكنة . الحق ضالة عقله التي ينشدها ، ونجعته التي يرتادها ، يحكم به ولو على نفسه . ليس في الحق عنده صغير ولا كبير ، يطرح المبالاة بكلام الناس فيما يتوخاه من الحق ، لأن السلامة من طعن الناس غاية لا تدرك .

٣٣ — وأن يلتزم النشاط في العمل ، وينأى عن البطالة والكسل ، ولا يكون كلاً على غيره ، فان الرجل كل الرجل من يأكل من كسبه ، ويشرب من ورده . وأن يقدم على جلائل الاعمال مع الصبر والثبات ، ويحمل نفسه على معالي الامور والتشبث بأحسن الاعمال والامور العظام ، وعدم التهاون لنيلها بالآلام ، فان الكسل من النقائص التي توجب الخسائس والشرور ، وتدل على ضعف في إدراك صاحبها وحطة في نفسه ، ومن رضي بالدون إلتحف بالخمول وفاتته معالي الامور ، وآذن بصغر نفسه وقصر همته ، وضعف غريزته . وان لا يرغب في سرعة العمل ، بل يرغب في إتقانه ، ولا يؤخر عملا عن وقته ، فان الوقت الذي يؤخره له عمل ، وليس يطيق ازدحام الاعمال فانها اذا ازدحمت دخلها الخلل .

ولتكن اوقاته عنده كلها ربيعاً ، فالوقت أسمى مواهب الخالق التي لايمكن استعادتها متى فاتت ، فلا يتصرف فيه بما يؤسفه على فواته . وليعلم ان الوقت الذي يمضيه في أداء الواجبات الاجتماعية ليس ضائعاً ، لأن حبه لغيره ومعاونته والعمل على نشر العلم وتقليل وطأة الفاقة ـ كلها من دلائل السعادة . وعليه أن يروض نفسه على المجهود العقلي ، لأن النفس متى تعطلت من النظر وعدمت الفكر والغوص في المعاني تبلدت وتبلّهت ، وانقطعت عنها مادة كل خير ، واذا ألفت الكسل وتبرمت بالرؤية واختارت العطلة قرب هلاكها ، لأن فى عطلتها انسلاخا من صورتها الخاصة بها ، ورجوعا منها الى رتبة البهائم ، وهذا هو الانتكاس في الخلق .

واذا تعود الحدث الناشىء ـ من حداثته ـ الارتياض بالامور الفكرية ، واحتمل ثقل الرؤية والنظر ، وأنس بالحق ونبا طبعه عن الباطل ، وسمعه عن الكذب ، حتى اذا بلغ أشده وانتقل الى مطالعة الحكمة ، استمر طبعه فيها ، وتشرب مايستودع منها ، فوصل الى سعادتها . وليحرص على سعادة غيره ، فان اجتهاده في إسعاد غيره إسعاد لنفسه ، وقصر جهده على إسعاده لنفسه إشقاء لها ، وذلك لأنه اذا سعى كلٌ فى نفع غيره تم النفع للجميع ، واذا سعى كلٌ لمجرد نفع نفسه أضر بغيره فتوافر الضرر للجميع .

وعليه أن يرتب اعماله واوقاته ، فان الترتيب فضيلة تحمل صاحبها على الاهتمام والعمل بما رتبه لنفسه ، وهي تنشط النفوس وتريح البال ، ويكون صاحبها مستجمعاً لفكرته محافظاً على وقته .

٣٤ — وعليه ان يتعرف مايجري فى زمانه ، فيطلع على المجلات والصحف السيارة ما تبلغه قدرته ، فالبصير البصير بزمانه . وأن يفحص عن كل الامور

صغيرها وكبيرها ، ويفرغ همه لجلائل الاعمال ، فان النفس اذا كبرت استشعرت الخلود فعملت من الجميل ما يبقى على الازمنة المتطاولة ، واذا نقصت لم تحفل بمستقبل من الازمنة ولا بجميل من الفعل ، فآثرت عاجل الانتفاع على آجل الذكر

٣٥ — وقمين به ـ ان يلقى عدوه وصديقه بوجه طلق ، ويعطي كل ذي منصب حقه من التعظيم ، ولا يعظم جاهلا ، فان تعظيم الجاهل تقوية له على الجهل ، ولا يرضى خطة يبخس بها حق الكريم ويكرم اللئيم ، فانه ليس شيء أضر على الدين والدنيا من ذلك .

٣٦ — وعليه ان يستمع لمن ينتقده ويهجر من يطريه بما ليس فيه ، فان من أظهر عيبك اراد تهذيبك ، ومن عرّفك نقصك ارشدك للفضيلة . واذا يئس من التغلب على مناوئه فليسلك معه سبيل المحاسنة دفعاً للشر بالمخاشنة ، فليس من الحزم ان تصارع القوي وانت ضعيف ، وتكافح الكمي وانت اعزل ، وتعاكس مجرى الايام وطبيعتها ما ترى .

قال علي أمير المؤمنين (ع) : إياك وفعل القبيح فانه يقبح ذكرك ، ويكثر وزرك . إياك والغضب فاوله جنون ، وآخره ندم . إياك أن ترضى عن نفسك ، فيكثر الساخط عليك . إياك ومصادقة الأحمق فانه يريد أن ينفعك فيضرك . إياك ومصادقة البخيل فانه يقصر بك أحوج ما تكون اليه . إياك والسفه فانه يوحش الرفاق . إياك والعجل فانه مقرون بالعثار . إياك والبطنة فمن لزمها كثرت اسقامه ، وفسدت أحلامه . إياك والاعجاب وحب الاطراء فان ذلك من أوثق فرص الشيطان .

ولا يعوّد نفسه الغيبة ، فان معتادها عظيم الجرم ، ولا يحارب من يعتصم بالدين فان مغالب الدين محروب ، ولا يغالب من لم يستظهر بالحق ،

فان مغالب الحق مغلوب ، ولا يضيعن حق أخيه إعتماداً على ما بينهما ، فليس لك بأخ من أضعت حقه . وأن يقبل النصيحة ممن نصحه ، ويتلقاها بالطاعة ممن حملها اليه . وليعلم أن الله سبحانه لم يمدح من القلوب الا أوعاها للحكمة ومن الناس الا أسرعهم الى الحق اجابة .

٣٧ — وليكن على بينة ، أن من قنع بمقسوم الرزق استغنى عن كافة الخلق ، ومن رضي بالمقدور قنع بالميسور ، ومن حاسب نفسه سلم ، ومن حفظ دينه غنم ، وان الزهد يعز الفقير ، والطمع يذل الأمير ، ومن اتقى الله وقاه ومن اعتصم به نجاه ، ومن أخلص التوكل كفي العمل . وان قوة اليقين من صحة الدين ، وما انقضت ساعة من دهرك الا بحصة من عمرك ، وقليل يكفي خير من كثير يطغي ، وخير العلم ما نفع ، وخير الوعظ والفقه ما وزع ، ومن فعل الخير فنفسه بدا ، ومن فعل الشر فعليها جنى واعتدى .

وعلم لا يصلح ضلال ، ومال لا ينفع وبال ، ومن رضي بما آتاه الله من خيره لم يغمه ما يراه لغيره ، ومن نصر الحق لا يقهر ، ومن خذله لا ينصر ، ومن أرضى سلطاناً جائراً أسخط ربا قادراً ، ومن تذلل لصاحب الدنيا تعرى من لباس التقوى . والصبر على الأذى دليل على صحة الورع ، ومن رفع حاجته الى الله وفق فى أمره ، ومن رفعها الى غيره فقد وضع من قدر نفسه .

كل عز لا يوطده علم مذلة ، وكل علم لم يؤيده عقل مضلة ، وأحسن العفو ما كان مع القدرة ، وأحسن الجود ما كان مع العسرة . ومن تعدى على جاره أنبأ عن لؤم نجاره ، ومن قل توقيه كثرت مساويه . وما عز من ذل جيرانه ، ولا سعد من شقي إخوانه . ومن أعز ماله أهان نفسه ، ومن ساء الظنة حرم انسه . إذا أذنبت فاعتذر ، وإذا أذنب اليك فاغتفر ، فالمعذرة بيان العقل والمغفرة

برهان الفضل ، وأقبح العذر إذاعة السر .

٣٨ — أربعة تولد المحبة : حسن البشر ، وبذل البر ، وقصد الوفاق ، وترك النفاق .

أربعة من علامات الكرم : ترك البذاء ، وكف الأذى ، وتعجيل التوبة، وتأخير العقوبة .

أربعة من علامات الايمان : حسن العفاف ، والرضا بالكفاف ، وحفظ اللسان ، وفعل الاحسان .

أربعة تزول بأربعة : النعمة بالكفران ، والقدرة بالعدوان ، والدولة بالاغفال ، والحظوة بالاذلال .

أربعة لا تنتصف من أربعة : الشريف من الدنيء ، والرشيد من الغوي، والبر من الفاجر ، والمنصف من الجائر .

أربعة تؤدي الى أربعة : الصمت الى السلامة ، والبر الى الكرامة ، والجود الى السيادة ، والشكر الى الزيادة .

أربعة تعرف بأربعة : الكاتب بكتابه ، والعالم بجوابه ، والحكيم بفعاله ، والحليم باحتماله .

أربعة تدل على الإدبار : سوء التدبير ، وقبح التذكير ، وقلة الاعتبار ، وكثرة الاغترار .

أربعة تدل على الجهل : صحبة الجهول ، وكثرة الفضول ، واذاعة السر ، واحتقار البر .

أربعة تدل على العقل : حب العلم ، وحسن الحلم ، وصحة الجواب ، وكثرة الصواب .

أربعة تدل على الدهاء : تجرع الغصص ، وتوقع الفرص ، واستنجاد الآراء ، ومداهنة الاعداء .

أربعة تتم بأربعة : العلم بالنهى ، والدين بالتقى ، والعمل بالنيــة ، والشرف بالمزية .

أربعة لا تستغني عن أربعة : الرعية عن السياسة ، والجيش عن القيادة ، والرأي عن الاستشارة ، والعزم عن الاستخارة .

٣٩ — من وصية فيثاغورس المعروفة بالذهبية ، وهي التي يقول جالينوس: انه يقرؤها كل يوم غدوة وعشية .

قال فيثاغورس : أول ما أوصيك به بعد تقوى الله عز وجل وعبادته — تبجيل أوليائه وإكرامهم بما توجبه الشريعة . وأوصيك أيضاً بتبجيل قادة الاصلاح ، فتفعل ما توجبه عليك الشريعة فى إكرامهم . وأوصيك باكرام سلفك وأقربائك . وأوصيك أن تتخذ من بين الناس أفضلهم صديقاً ليكون عوناً على الفضيلة ، ولا تستفسد صديقاً لهفوة تبدر منه ما أمكنك ، وينبغي أن تتعود ضبط نفسك على هذه الأشياء : أمر بطنك وفرجك والغضب والنوم .

واحذر أن ترتكب قبيحاً في وقت من الأوقات على خلوة ولا مع غيرك . وليكن أستحياؤك من نفسك اكثر من استحيائك من غيرك . وعليك أن تلزم نفسك الانصاف فى كلامك وفعالك . ولا تحملن نفسك على ارتكاب أمر من الأمور بلا تمييز . واعلم أن الموت حال بجميع الناس لامحالة .

وإذا سمعت من كلام الناس جيدة أو رديئة فلاتمتعض منه ، ولا تحملنك نفسك على الامتناع من استماعه ، وإن سمعت كذبا فهوّن على نفسك الصبر عليه ولا يحملنك أحد بكلام ولا بفعل على أن تفعل ما ليس بجميل ولا أن تتفوه به ،

وتروّ قبل الفعل حتى لا تغلب في فعلك . واحذر أن تقول او تفعل ما يستجهل منك ، وينبغي ان تقتصر فيما تفعله على ما لم يعد بالضرر عليك . ولا تساعد عينك على النوم قبل ان تتصفح كل واحد من الأفعال التي فعلتها فى نهارك أجمع بل تفقّدها ، فمتى كنت قد فعلت مكروها فليذعرنك ، ومتى كنت قد أتيت رضياً فليبهجنك .

ومتى التمست فعلا من الأفعال فابدأ بالابتهال الى ربك بالنجح فيه ، فانك اذا لزمت ذلك ولم تخالف هذه الوصايا ـ وقفت على كنه ما يجري عليه الامر فى تدبير الله عز وجل اوليائه .

مدرسة الصوم

لى — وأنا

عنوان مستغرب . العجب من وضعه هنا ، وفى اول سطر من الموضوع ! ولكنك لا تكاد تقف على السبب حتى يزول منك العجب ، فان هذا العنوان المستغرب ليس أجنبياً عن موضوعى هذا بل هو منه واليه ، هو هو بذاته .

أليس موضوعنا الدراسات العليا التي هيأها الله تعالى لعباده ـ بمدرسة الصوم ؟ ـ تلك المدرسة المثالية الفاضلة ، التي صنع الله طلابها على عينه ، ورباهم على مائدته ، وسقاهم من رحيق توفيقه وعلّمهم من لدنه علماً ، علماً ليس بالنظريات الفجة ، ولا بالمبادىء الخيالية ، ولكنه علم الخلق الكامل ، والتربية النموذجية والتدريب العملي على حياة متناسقة يؤدى فيها حق الروح مع حق الجسم ، وطاعة الله مع رحمة خلقه ، والتنزه عن السفساف مع الدأب لمعالي الامور ، حتى اذا ما انتهى دور الدارسات وجاز الطلاب الامتحان بسلام ـ فهنالك الرضا السامي من منشىء المدرسة ، وهنالك افراح في السماء ، وعيد فى الارض ، أن أقيموا للناجحين حفل تقدير وتكريم ، فقد خرجتهم مدرسة الصوم رجالا اولي بأس شديد وعزم من حديد ، طابت ارواحهم وصحت اجسامهم .

نعم هذا هو الموضوع ، فأين صلته بالعنوان ؟ إذاً فاقرأ : « كل عمل ابن آدم له إلا الصوم ، فانه ـ لي ـ وأنا ـ أجزي به » ولعلك الآن دريت مَن صاحب هذا العنوان ، إنه صاحب الخلق والأمر ، ورب القوى والقدر . قال ـ ونعم ماقال ـ : إلا الصوم فانه لي وأنا أجزي به .

لم يُعبد بالصوم قط أحد سواه ، وليس للعبد فيه حظ نفسي بل هو جهاد ممحض لله ، لايعلمه سوى العليم بحركات السرائر .

نعم ـ لي ـ لأن الصائم يتنزه عن المشتهيات فيتشبه بربه الصمد المبرأ من صفات الحوادث ، ـ وأنا ـ هو تعالى بنفسه الذي سيتفضل بمنح الصائمين ما أعدّ لهم من نعيم مقيم ، ولا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين ، هنيئاً بما أسلفوا في الأيام الخالية .

ولما أشخص الصائم صيامه رأساً لمولاه بلا وسيط يرقبه أو يفهم عنه شيئاً ـ عامله الله بنفس المعاملة ، وأشخص اليه الجزاء الأوفى بلا وسيط ﴿ إنما يوفّى الصابرون أجرهم بغير حساب ﴾ .

ووالله لو استشعر الصائم فى صيامه هذين المعنيين الكريمين ـ لي وأنا ـ وأنه الى الله وحده يتجه ، وله يعبد ، وأن الله بنفسه سيتولى توزيع الجائزة عليه ، لو استشعر هذا لتمنى أن يكون رمضان ماضياً فى جميع العام .

تقديم :

خلق الله العباد ليؤدوا فى هذه الحياة رسالة الله ، التي استخلفهم بالأرض لأجلها ، ألا وهي حسن الصلة به سبحانه ، والتعاون فيما بينهم على خير البشرية وإسعادها ، إذاً فهما واجبان ثابتان لامعدى عن أدائهما ـ اذا ماأراد المرء أن

يقتحم أسرار الحياة الدنيا بسلام ، ويلقى الله تعالى كذلك في سلام . لكن من ذا يستطيع القيام بتلك الرسالة السامية ويوفيها حقها ؟ ان النفس البشرية بما أودع الله فيها من خصائص تستطيع ـ اذا ما ولت وجهها شطر الهدف ـ ان تصيب به مرمى ، تستطيع أن تحلق في السماء وتغوص فى الماء ، وتخلق من الحبة قبة ، وتجعل من الهواء ماء ، ومن الجماد ناطقاً وحاكيا . ولقد أبصرنا من آيات الله فى هذه النفس ـ ما جعلنا نؤمن بعظمة باريها الذي خلقها وسواها وألهمها فجورها وتقواها .

من غير أن تتجه هذه النفس فالأعمال في ركود . ومن غير أن تتحرك فالظاهر في سكون . فما من دابة فى الارض ولا طائر يطير بجناحيه ، ولا أعمال تراها كالجبال ، إلا ومن وراء ذلك نفس محركة وروح دافعة ، وقلب أصدر أمراً فنفذ الامر .

كلف الله العباد بصلاة وقيام ، وحج وزكاة ، وبر وجهاد ، وكلفهم بالسعي لخير الانسانية جمعاء ، فكيف يؤدون ، أم كيف يطيعون ؟ .

أتى الله للبيت من اساسه فأقامه على تقوى منه ورضوان . وشرع من الدين ما يهذب هذه النفس حتى تستطيع ان تدفع بالجسم في ميادين الحياة الصالحة فينطلق من لدنها كالسهم لا يلوي على شيء ، فان الأعمال متى صدرت من داخل الشخص فهي الشجرة الطيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء ، تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها ـ فالاصل الثابت هو النفوس الحية اليقظة ، والارادات التي لا تهن ولا تضعف ، فاذا بفرعها ونتاجها وإذا بعملها ومحصولها أصبح شامخاً في السماء ، وكل يوم لا بد ان تؤتي أكلا جديداً ، وعملا طيباً حميداً .

أما الاعمال المعزولة عن صدق النفوس وصحة الضمائر فهي ـ كشجرة خبيثة

اجتثت من فوق الارض ما لها من قرار - . وليس من الدين ما ينصب على إصلاح النفوس وترويضها على أمهات الفضائل ، وحملها على مكارم الأخلاق ، مثل - الصوم - وصدق نبي الاسلام في قوله : « عليك بالصوم فانه لا عدل له ولا مثل » . وسترى فى غضون هذا البحث ، كيف يعمل الصوم فى النفس ، وكيف يخلق منها المرء المؤمن بالله وبوعده ، البار بأهله وبني وطنه ، الحريص على جلب الخير لسائر الناس ، الذي يستطيع أن يمسك كما يستطيع ان يعمل ، فالصوم إمساك ، ومن لم يتمكن من امساك نفسه وضبط عواطفه فقد ضل السبيل ومن أجل ذلك ، لم يختص الله به شعباً من الشعوب ، ولم يطلبه من أمة دون اخرى ، بل كتبه علينا كما كتبه على الذين من قبلنا ﴿ كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم ﴾ .

ولا تحسبن أن المقصود من الصيام - هو هذه الأيام المعدودات ، التي تأتينا كل عام ، ثم تنتهي وتعود بعدها للناس حياتهم الرتيبة ، يعبّون من شهواتها عبا ، لا يبالون بمال من أين اكتسبوه . ولا طعام سحت كيف أكلوه لا ، فما لهذا شرع الصيام - وسبحان من تنزه عن العبث فى تشريعه - ما شرع هذا الصيام لشهر ولا لعام ، بل ولا لحياة فرد ولا لنظام أمة خاصة ، ولا لجيل من الناس يعمر ما يعمر ثم ينقضي بل هو شريعة الانسانية فى سموها ، ودينها عند كما لها ينظم عقد الانسانية الذي انفرط ، ويجمع شملها الذي تفرق ، ويوحد بينها فى الشعور والاحساس - وما أشبه الصوم للانسانية - بالدينامو - الذي ما فتىء يمدها بكهربائه فيضيء لها على الدوام سبل الحياة الرشيدة . ومتى شحنت النفس بتيار الايمان وتربى معها الضمير الحي - سلكت في سيرها العملي طريقاً سويا لصالح الفرد والجماعة ، فكل ما يظهر في الأمم والافراد من اعمال إنما مصدره نفوسهم ، وعلى

قدر ما تحمل هذه النفوس من صفاء وإشراق بقدر ما تمنح ذلك برداً وسلاما .

الصوم يخضع من كبرياء النفس ويمسك بناصيتها . ومن الميسور على نفس لانت أن تسرع فى سائر نواحي الطاعات وصدق الرسول القائل : « إن فى الجسد مضغة اذا صلحت صلح الجسد كله واذا فسدت فسد الجسد كله ، ألا وهي القلب » .

ومتى شاهدت جدبًا في أرض أعمال الناس الطيبة ، او ملوحة فى أنهار البذل والانفاق . او ابصرت اشواكا فى الناس وكلاليب وذئابا ، فاعلم أن هذا الظاهر النجس الدنس إنما مصدره جدب النفوس . وملوحة القلوب ، وغلظة الأفئدة .

الصلاة بطهارتها وأعمالها ومواقيتها . وجُمعها وجماعاتها ، والزكاة بما فيها من بذل لشقيق الروح ، وانتقاص من المال للسائل والمحروم ، والحج بما فيه من تعب السفر فى البر والبحر ، وانفاق الغالى ، والجهاد في سبيل الله بويلاته وأهواله وصبره وجلاده ، ومعاملة الناس بالحسنى ، والانتصار للحق والغضب لله والرضا لأجله ـ كل هذه المظاهر كيف تؤدى إن لم يقذفها من داخل الجسم قلب مؤمن ونفس راضية فاهمة . ولعلك فهمت الآن خطورة الصيام وتغلغله فى سائر نواحي الدين والدنيا والآخرة .

ولهذا حثنا الاسلام على الاكثار منه في سائر أيام السنة ، في الاسبوع يومان وفي الشهر ثلاثة أيام ، سوى أيام كثيرة أُخر ، حتى يكون هذا الصوم الفرعي مذكراً بمركزه العام شهر رمضان . وماأشبه صوم النفل بالتمرينات والمناورات العسكرية ، لئلا ينسى الجنود ، فالاكثار منه يبقي الفضيلة التي اكتسبناها من رمضان غضة طرية ، لا يبليها طول العهد ولا تقادم الأيام ، وسبحان من ساوى في

الصيام بين الفقير والغني ، لأنهما أحوج ما يكونان الى النفس الكريمة التي تدفع بطر الغني ويأس الفقير وخنوعه . فتحط من جشع الاول وترفع من انحطاط الثاني ، وهنا تتقارب الطبقات ، وتقل الحواجز التي أوغرت الصدور ، ويحيا الجميع في سلام ووئام . وصدق الله تعالى حيث يقول : ﴿ ياأيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون ﴾ .

فاليك أيها المؤمن مدرسة الصوم قد فتحت أبوابها ، وهيأت فصولها وأعدت علومها وآدابها ، فادخلها على بركة الله ، وانهل من عذب معارفها وأخلاقها وخذ منها غذاء الروح وطب البدن ، حتى اذا ماأ كملت عدة الدروس ، وتمت منك المواظبة وطاب السلوك ، فترقب حينئذ ما أعده منشؤها من أعياد وأمجاد ، وتكريم وتقدير للصائمين القائمين .

منافع الصوم الصحية :

قال النبي محمد (ص) : صوموا ، والصوم جنة من النار . لا شك فى أن الامراض يأتي أكثرها من فساد المعدة بالتخمة ، وتراكم الاطعمة ، والتباكها بالاغذية المتنوعة ، واستحالة مالم ينهضم خلطاً فاسداً متعفناً . دلت التجربة على أن عسر الهضم أكثر ما يوجد فى الاغنياء واصحاب الثروة ، ولا شك ايضاً في أن الدواء النافع لرفع أكثر الامراض إنما هو الامساك والصبر عن الطعام ـ اتفق على ذلك الاطباء قاطبة ودل عليه دين الاسلام ، قال النبي محمد (ص) : المعدة بيت الداء ، والحمية رأس كل دواء ، الحمية الإمساك عن الاكل .

قال المؤرخ الفاضل ـ جرجي زيدان ـ في بعض أهلته : « لم ينطق البلغاء

ولا جاء الحكماء ، على اختلاف الأعصر والاجيال عبارة أكثر انطباقا على الحقيقة من هذا الحديث النبوي فقد قيل منذ نيف وثلاثة عشر قرنًا والطب لايزال طفلا رضيعاً فشب الطب وشاخ ولم يزدها إلا إثباتًا وتحقيقاً . لأن المعدة عضو رئيسي للهضم والهضم قوام حياة الانسان وفي صحتها صحته وسعادته ، وفى اعتلالها شقاؤه وبليته ، وللمعدة دخل كبير فى أخلاق الناس فمن تلبكت معدته ضاق خلقه وساء ظنه واحتد طبعه . وقد تبلغ هذه الامراض به الى درجة الوحشية . ولو احصيت المنازعات الاعتيادية لرأيتها إنما تحدث بعد الطعام إذ تكون المعدة ملآنة . ويظهر ذلك على الغالب فى أهل الترف المكثرين من ألوان الطعام بحيث تمتلىء معدهم ، وتحتقن أوعيتها . فيحدث التلبك ، فيضيق الخلق .

وكم من حروب انتشبت بين مملكتين لم يكن سببها إلا خصاماً بين زعيميهما . ولو تدبرت سبب الخصام لانتهيت الى سوء ظن منهما تسبب من إلتباك المعدة . وباشقاء أُمة اصيب ملكها بعسر الهضم فانه فضلا عن عجزه عن إدارة شؤنها قد يجر عليها الوبال بما يثيره من الضغائن بضيق خلقه . وحدة طبعه . ويكون تأثير ذلك شديداً اذا كان الملك مطلق التصرف كما كان أكثر ملوك الارض قديماً يوم كانت إرادة الملك شريعة المملكة . أما الآن فقد تقيدت إرادة الملك بشوراهم فى اكثر الممالك فأصبح الخطر قليلا . ولكن المعدة مازالت ذات تأثير كبير فى الأندية السياسية . الى آخر مقالته الغراء .

الغرض من هذا التفصيل ان مفتاح أبواب الامراض على الانسان إنما هو الاكثار من الاكل أو في تنوع المأكل . وأن الامساك مهما تيسر افضل طريق وأقوى عامل في دفع الامراض ورفعها . فحقق ما أقول ، وصدّق المنقول عن الرسول (ص) : صوموا تصحوا .

وان الصيام نافع لاستقامة القوى العقلية وكمالها ، ولتهذيب الاخلاق وصفائها ، وحفظ البنية واستوائها ، وصحة القوى البدنية ونمائها . وسلامة الشخص والنوع من كل مرض .

ان نبي الاسلام ، عليه الصلاة والسلام ، أوجز فوائد الصيام الخاصة والعامة في كلمة جامعة حيث قال : صوموا تصحوا ، وهي لفظة قلّ مبناها وعظم معناها من جوامع الكلم وروائع الحكم . فالصحة التي أفاد الحديث انها من آثار الصوم ومنافعه ـ هي الكنز الذي يحرص عليه كل فرد وكل أمة . وما هي إلا السلامة والعافية في كل شيء في الجسم ، وفي العقل ، وفي الروح ، وفي المجتمع . واليك بيان ذلك مفصلا .

اثر الصوم في صحة الابدان :

آ — أما آثار الصوم في الجسم ـ فقد ذكر الاطباء : ان من حكم الصوم الاساسية إعطاء أجهزة الجسم عامة والجهاز الهضمي خاصة بعضاً من الراحة يستجم فيها ، ويتخلص الجسم خلالها مما قد يكون قد اصاب أجهزته من بدانة او إحتقان والجسم كأية آلة ميكانيكية يحتاج لفترة من الراحة تهدأ فيها أجهزته وأنسجته وخلاياه ، وتأخذ الفرصة للتخلص بما تراكم فيها من نفايات . وما رسب فيها من املاح ، وما حل بخلاياها من انهاك .

ولاشك أن الناس قد تعودوا الانكباب على الملذات ، والتهام ما اشتهوا من شراب وطعام ، غير عابثين بعواقب الافراط ، وكثيراً ما أدى ذلك الى البدانة المرهقة ، وسبّب الحصوات البولية واحتقان الكبد ، وآلام المفاصل ،

والبول السكري ، كما يؤثر في الأجهزة العصبية والعضلية فيشعر المرء بالصداع والتعب ، والفتور والخمول وميل الى النوم .

ولا ريب أن شهر رمضان اذا اتبع فيه الصائمون التعاليم الصحية وامتنعوا عن المغالاة فى تناول العديد الدسم من الوان الطعام في افطارهم وسحورهم ـ فمن المؤكد أن ينتهي بهم ذلك الى التخلص من جميع ما يكون قد أصاب أجسامهم ، فيعودون أكثر نشاطاً وأوفر صحة ، إذ بالصوم تنشط أجهزة الجسم وخلاياها ، وينتظم إفراز الغدد فيزداد الذهن حدة ، والنظر قوة ، وتصبح مقاومة الجسم لأي مرض طارىء أقوى وأتم .

وقد تنبه الأطباء الى فائدة الصيام في كثير من الامراض ، فهم ينصحون به الآن لمرضى البول السكري ، وارتفاع ضغط الدم وامراض الكلى ، وأمراض الكبد ، وجميع الأمراض التي تحدثها حموضة الدم ، بل ان بعضهم ليحتم الصوم حتى للاصحاء يوما أو بعضه كل شهر .

ومن آثار الصيام وحكمه ـ أن رمضان لا يقع فى فصل من فصول السنة ، ولكنه يختلف فيها جميعاً على مدار السنين ، وبذلك يتعود الانسان على تحمل الصيام في مختلف فصول السنة ، ويصبح قادراً على الاحتمال ومكافحة الجوع ، ومغالبة شهوات النفس في أي طقس او جو ، فيصلب عوده ، وتقوى نفسه .

اثر الصوم فى صحة العقول والارواح

ب — لقد رأينا رأي الطب في فوائد الصيام للجسم ، ومعلوم أن سلامة العقول من سلامة الأبدان . والحكمة تقول : ـ العقل السليم فى الجسم السليم ـ

وانك لن تظفر من انسان عليل بفهم صائب ولا رأي سديد . فالصوم يفيض على العقل اشراقا وصفاء يستطيع به تمييز الخبيث من الطيب ، والضار من النافع ، فتحلق الروح فى آفاقها العلوية تتلمس النور من سمائها المشرقة ، وتتلقى فيوضات ربها ، غير ممنوعة بمادة ولا محجوزة بصارف ، تتفهم عن الله ما اراد سباقه الى مرضاته .

وللصوم فى تربية النفس على ملكة الصبر ـ الأثر الذي لا يجحد . فان عبداً يمكث الساعات الطويلة وقد يكون الصوم صيفاً . صابراً عن تناول شهواته مع شدة شغفه وميله اليها ، ومع وفرة الفتن وكثرة المغريات . ولا شك انه بالمصابرة مع نفسه على هذا الحال شهراً كاملا . يصبح الصبر لديه طبعاً راسخاً وخلقاً أصيلا وملكة الصبر ام الملكات الاخلاقية ، فلا يقوى على التنقل والكفاح في الحياة إلا صابر ، ولا يغالب الايام إلا صابر ، ولا يصل الى الحقائق العلمية إلا صابر ، ولا يستطيع كشف اسرار الوجود بالبحث والتفكير إلا صابر ، ولا يجود بماله ونفسه إلا صابر ، ولا يعبد الله حق عبادته إلا صابر . قال علي « صلوات الله وسلامه عليه » : الصبر من الايمان بمنزلة الرأس من الجسد . وفي الحديث : الصوم نصف الصبر ، والصبر نصف الايمان .

وللصوم اثره في ايجاد الطمأنينة في النفس والاستقرار . وعدم ذهاب العقل شعاعا مع أيّ مفاجأة — وما اكثر المفاجآت والدهر قلّب — فلا تنزعج النفس بترك ما ألفته . ومخالفة ما اعتادته فهي تقبل طعام الصباح فى المساء ، وطعام المساء في الصباح ، وتصبر على الظمأ في الحر . والجوع والقر . لتألف الصدمات إذا ما انتابتها ، وتقوى على الحوادث إذا نزلت بغير توقع ﴿ وما يلقّاها إلا الذين صبروا وما يلقّاها إلا ذو حظ عظيم ﴾ .

والصوم يربي النفس على المراقبـــة لله في كل حال ، ويعوّد صاحبه على الاخلاص في أداء الاعمال ، لا يبتغي من ورائها إلا ربه ودينه ووطنه والصالح العام ، فان الصوم سرٌّ بين العبد ومولاه يستطيع المرء ان ينافق فيه . وان يظهر منه للناس خلاف مايبطن ، فاذا ما اداه العبد مخلصاً مستويا سره مع علنه وكبح جماح نفسه بعزيمة ثابتة لا تتبدل ولا تتغير ، ولا يمسكها عليه رقيب غير وازعـه الديني وضميره الانساني — اذا ما فعل ذلك فقد صان الأمانة ، وصار من الله في مكانة الرضى . واذا ادرك الانسان هذه القوة من الارادة العملية فقد ادرك اجل منزلة اجتماعية دينية سامية . فتراه يسير في الحياة قويا غير متناقض يؤدي حق وطنه كوطني متحمس ، وهو كمسلم يقوم بأداء حق الله على ماأراد .

وأيّ فضيلة افضل من ان تكون شهوات الانسان تابعة لسليم افـكاره ، مستسلمة للضمير الحي ، موافقة للقانون الديني الذي ملك نفسه واستولى على مشاعره فصار يحيا به وله وفيه . ورحم الله هذا المؤمن الذي اغراه إنسان على معصية قائلا له : انه لن يرانا إلا الـكواكب . فقال المؤمن المراقب لله : انت نظرت إلى الـكواكب ولكن اين مكوكبها ؟ . ذلك بأن الصوم وديعة الله يجب ان تؤدى على اكمل وجه . وفي الحديث : ان الصوم امانة فليحفظ احدكم امانته

ان المجاهد من جاهد نفسه وهواه ، وشيطانه ودنياه ، فان الانتصار على عدو الميدان امر في متناول الـكثير . فما هو إلا طعنة يموت طاعنها بعدها فيستريح ويلقى الله شهيداً مكرما . او يميت بها عدوه فينال اجره . وما اكثر الذين يتقدمون على الموت راضين بل مسرعين . اما هذه الاعداء الذاتية — فهي من باطن الشخص وداخله تشاكسه وتفتنه وتناوؤه وتحاربه . وكم لاقى ابن آدم من تلك الجهات الاربع مالاقى من عنت ونصب ؟ .

إني ابتليتُ بأربع ما سلّطوا　　　إلا لجلب متاعبي وعنائي
ابليس والدنيا ونفسي والهوى　　　كيف النجاة وكلهم اعدائي

فالجهاد الاكبر هو جهاد هذه الشرور المنبعثة من هذه النواحي ، والانتصار الساحق هو الانتصار في تلك الميادين الحاسمة . ولعمر الحق ان ذلك لفي حاجة ملحة إلى عناية من الرحمن الرحيم ، وقوة في العقل وبصيرة في الفكر ، وصفاء في الروح — يستطيع بها المؤمن ان يعرف مكائد هؤلاء الألداء ، وسبل غواياتهم وحبائل صيدهم ، وميادين حربهم ، ثم يعرف الاسلحة التي يتمكن بها من دحرهم والتخلص من شرهم ، ومتى تم للعبد ذلك فطوبى له وحسن مآب .

قال أحد الفلاسفة : لا سبيل لانتزاع غرائز الشر ومبادىء الفساد إلا بالوسائل الادبية — أي بتهذيب النفس ورياضتها ومراعاة حرمتها وضبطها ، وكل وسيلة للتخلص من استبداد الشهوات سوى تهذيب النفس فهي عديمة الجدوى ، وليس تهذيب القوانين ولا تحسين طرق الانتخاب إلا إصلاح الحكومات ، ولا التعليم المدرسي برافع من اخلاق قوم ينهمكون في الملاهي بمحض رغبتهم ، فان الفكرة لا تنتزع إلا بفكرة تفوقها ، والعقائد لابد لمحوها من الاقناع ببراهين تكفل غرس عقائد اخرى تحل محلها عن رضى واقتناع .

وبهذا تعلم مزية الصوم الذي هو انتصار تام على عوامل الهوى ، والنفس ووسائس الشيطان ، وفتن الحياة الفاتنة . ومن الأحرى أن يكون هذا الصائم المنتصر اكبر نصراً على سائر الشرور الاخرى . وصلى الله على من قال : المسلم من سلم الناس من يده ولسانه ، والمؤمن من أَمِنهُ الناس على دمائهم واموالهم ، والمهاجر من هجر ما نهى الله عنه . وقال : ليس الشديد الذي يصرع الرجال ، إنما الشديد من يملك نفسه عند الغضب .

أثر الصوم في صحة المجتمع :

ج — كل مجتمع مكوّن من أفراد كالقصر مكوّن من لبنات ، وعلى قدر سلامة اللبنات وقوتها تكون سلامة القصر وقوته ، فما الكل إلا من البعض . ومتى سلّمنا بآثار الصوم في الفرد ـ جسمياً وعقلياً ـ فقد سلّمنا بآثاره العظيمة كذلك في المجتمع . وحسب المجتمع عزاً ونصراً ان يقوم بنيانه على أفراد صحّت أجسامهم وسلمت عقولهم ، وأن يرتكز على جماعات صار الصبر ديدنها ، وقوة النفس طبعاً لها ، واصبحت الارادات الماضية شأنها في كل ما تقوم به . وما أحوج الأمم الى الصبر والمصابرة ، والارادة التي لاتهن ولا تساوم على حق . واذا كان زعماء الدول ينادون الآن بضرورة الاكتفاء بسياسة التقشف ، والحرمان من كثير من المتع لما أصاب البشرية من عوز ، نتيجة لاختلال العقول وفشل النظم ـ فما اجمل رمضان من معلم لهذه الاخلاق القوية ، وحامل لصائميه على التخلق بها عملياً ، وملاقاة الشدائد بصبر وقوة يقين .

إن الصوم يفرض على الناس جميعاً ـ غنيهم وفقيرهم ، عظيمهم وحقيرهم ، عالمهم وجاهلهم . يمتنع مئات الملايين من المسلمين في وقت واحد عن الطعام والشراب ، فكأنه فقر إجباري يتساوى فيه من حيزت له كنوز قارون ومن ملك شيئاً يسيراً ، ومن لم يملك شيئاً . وهذه مساواة بين العالم الاسلامي تشعره بوحدة الهدف والفكرة والمشاعر ، وتقارب بين هذه الملايين المنبثة في اقطار الارض في وقت الأخذ والترك وعند العطاء والحرمان . قال بعض الفضلاء : كأن الصوم قانون عملي لإصلاح الصفات الانسانية في الاغنياء ، تلك الصفات

التي أفسدها اللين والنعمة والترف .

ثم هو قانون عملي. ايضاً يصلح ما أخل به الفقر من صفات الانسانية بالفقراء ، ويحمل الجميع على ذلك فيستوي الغني والفقير ، ويتقارب بعضهم من بعض فيشعرون بألم واحد ، ويحسون باحساس واحد ، فيتعاطفون ولا يتنازعون، ويتقاربون ولا يتباعدون .

وأنت لو أمعنت النظر في امر الناس واختلافهم وتباين مذاهبهم لوجدتهم يختلفون في شيء واحد هو سبب الداء والنكبة النكباء ، ذلك هو تحكم البطون في عقول الناس ومشاعرهم وإحساسهم وعواطفهم . فمن البطن نكبة الانسانية ، وناهيك اذا اشتد جوع المرء ثم ضوعف هذا الجوع ببطن زوجته الجائعة ، ثم ازداد مضاعفة ببطون اولاده ، فكأنه جائع ببطون متعددة . وهنا تأتي الثورة التي لا تبقي ولا تذر .

قال احد الكتاب : ان للبطون فلسفة تطيح بسائر الفلسفات ، وان الدنيا تموج بتلك الحشرات التي تعيش لتأكل ، وان للقمة مكانتها المرموقة في تاريخ البشر . ثم قال : ويعجبني جيبسون إذ يقول : الحياة بكل آمالها وآلامها وبكل مباهجها ومآسيها تتجه إلى هدف اسمه الرغيف . ثم قال : وقال مترلنك : أتريدون ان تغلقوا نصف السجون و نصف المستشفيات ، أتريدون ان تغلقوا نصف المحاكم وتوفروا نصف الضرائب والأتاوات ؟ إذاً فحلوا مشكلة القوت اليومي .

ومن هنا جاء الاسلام بفريضة الصوم ليهذب أحكام هذه البطون على الارض ويدربها ويروضها ، ويضع الناس تحت طبيعة واحدة وحس واحد وقانون واحد محكم متين .

وما أجل مشروعية صدقة الفطر عقب رمضان او فيه ، فهي تطبيق للعلم

على العمل ، والبذل من النعمة بعد ان ذاقت النفس مرارة العوز والحرمان ، وشعرت بما عليه حال الكثير من البؤس والحاجة . والغنى كما يقولون : ـ تاج على رؤوس الأغنياء لا يراه الا الفقراء ـ و بضدها تتميز الأشياء ـ وقد قالوا : ـ لا يدري طعم الفقر من هو غني ـ .

وإن في الحرمان من بعض الشهوات ـ على مافيه من مرارة ـ صهر الأخلاق وترويض النفوس وتربيتها على فضيلة الجلد والاحتمال . فبالصوم تكون الانسانية كلها فى مشارق الأرض ومغاربها تعمل عمـــل الروح والخلق . لا عمل الجسم والمادة . فيقوم الاخاء الانساني وتنشأ الرحمة التي مصدرها الألم الواحد . فلا ينظر الغني الى الفقير نظرة إحتقار وامتهان ، ولا ينظر الفقير الى الغني نظرة حقد وتربص و بغضاء ، إذ قد عطف الواجد على الفاقد ، وأدى اليه ما فرضه الله عليه من حق عن رضى وايمان .

وهنا مثل . نلفت نظر القارىء اليه . تنبيهاً له عله يقرب من الواقع ـ قيل : ان بعض ملوك الفرس ـ وأظنـه والد أنو شروان الملك العادل الشهير ـ لم يرض الحكماء من وزرائه بولاية عهد السلطنة لابنه الا بعد ما حبسوا الولد فى سجن ردي ندي ثلاثة أيام . وأذاقوه مرارة الجوع والعطش . ثم أوقفوه فى أذل موقف فى مجتمع عام حافيا حاسراً تصهره الشمس طول النهار ، ثم أوجعوه ضربا وخوفوه بالقتل . ثم وضعوا تاج الملك على مفرقه وخروا له تعظيما ـ كل هذا ليذيقوه كل شدة و بلاء حتى اذا استوى على العرش وطاش يومـاً غضباً ، وأمر بسجن مسكين أو اماتة شريف او قتل بريء ، يكون قد ذاق مرارة هاتيك الشدائد ، فيتذكر خشونة ما جرى عليه قبل سلطنته ، فتهيج رحمتـــه وعاطفته ، ويرتدع عن متابعة الهوى واذى الناس . ومن ذلك صار انو شروان

ملكا طبق الخافقين صيت عدله ، واستراح قومه وصاروا تحت لواء فضله ·

وهكذا يكون ايجاب الصيام بالنظر الى تنبيه الأغنياء المثرين ، الذين لا تجد معدتهم مجالا او فرصة لهضم ما يتوارد عليها من المطاعيم المتنوعة فتجلب ـ من دون مناص ـ لصاحبها الشقاء والجشاء والتخمة . متى يعقل مثله ألم الجوع ؟

إذا كتب عليه الصيام والامساك من الطعام ـ عندذلك يعقل . ويصدق ما يجري على البائس المسكين ، فتدعوه العاطفة البشرية الى رعايته والاشتراك معه فيما انعم الله عليه ، وتسخو نفسه لبـــذل شيء على اخيه الفقير ، ليسد به خلته ويعالج جوعه ومسكنته .

فاذا عمت هذه العاطفة والمواساة من الأغنياء واصحاب النجعة على العاجزين وذوي البأساء رجالا ونساءً ـ طاب العيش سويا فى تلك الملة ، وانتعش هيكل الاجتماع بروح هذا الاشتراك . وأمن القوم من هلاك شطرهم بداء التخمة ، وشطرهم بالجوع ، أو إفساد بعضهم بافراط الثروة . والبعض الآخر بافراط العدم والمسكنة . على هذه النقطة يدير الاسلام رحى نظام الجامعة البشرية .

نشرت مجلة العرب الغراء فى أحد أعدادها كلمة تحت عنوان ـ حديث رمضان ـ جاء فيها : « وأهم ما يلاحظ في فلسفة الصوم انـــه يدعو الى التعاون فى البر والتقوى . والتعاون بعموم المعنى ركن اجتماعي هام ، أهمله الناس وتركته الأمم ـ مع أن النوع البشري باختلاف طبقاته وتباين جنسياته لو اجتمع على غاية واحدة وهي التعاون العام الشامل لنواحي الحياة . ومصالح الافراد والجماعات على السواء ـ لا نتهت هذه المشاكل التي لا سبيل الى حلها ، ورجع سلام العالم على ما كان عليه قبل هذا العهد ، الذي نسميه بعصر النور والعلم .

فالتعاون معناه : أن تعان متى احتجت الى المعونة . اذاً فالعالم فى حاجة

شديدة الى تعاون عالمي . يضمن لكافة البشر سلاما عاما . ورخاء عاما ، ووحدة عامة تجمع بين أطراف العالم ، وتوحد المبادىء المتشعبة على أساس التوحيد العلمي والاقتصادي والفكري . وفي الصوم جوع وعطش ولكننا لاندرك حقيقة حال العديم البائس ـ وهو في حالة العدم والشقاء ـ لأننا قد جهلنا معنى التعاون في الحياة ، فلا نسعى لتخفيف ويلات الانسانية . وعدم تعاون الامم في السراء والضراء برهان جلي على انحطاط اخلاقها » .

خير المدارس

وبعد فهذه صفحة واحدة من سجلات ضخمة ملئت بها ـ مدرسة الصوم ـ تلقاها الصائمون ودرسوها علماً نافعاً ، وطبقوها عملا مجيداً ، وجازوا دور الامتحان بنجاح باهر ، وتخرجوا ﴿ خير امة اخرجت للناس ﴾ . ولاغرو فمدرستهم شهر رمضان الكريم ، ومنشؤها الرب الحكيم ، واستاذها خير البرية محمد الأمين (ص) ، والمتخرجون فيها قوم صفت نفوسهم وطابت اخلاقهم ، وأصبحوا نماذج الكمال وفخر الاجيال . تركوا لنا ميراث الهداية والنور ، فلا زلنا نسير في ضيائه ، ونعم بصفائه ووفائه ﴿ اولئك الذين هدى الله فبهداهم إقتده ﴾ .

هؤلاء قالوا في الصيام ، وفي رمضان

قال سلمان الفارسي (ره) : خطبنا رسول الله (ص) في آخر يوم من شعبان . قال :

« أيها الناس قد أقبل اليكم شهر رمضان بالبركة والرحمة والمغفرة والرضوان

أوصيكم في هذا الشهر بتقوى الله وترك التحاسد والتنازع ، وأن يعف الصائم بطنه وفرجه ويكف لسانه ؛ لأنه شهر كرمه الله وفضله على الشهور ، فايامه أفضل الأيام ، ولياليه أفضل الليالي ، وساعاته أفضل الساعات . شهر قد دعيتم فيه الى ضيافة الله ، وجعلتم فيه من أهل كرامته ؛ أنفاسكم فيه تسبيح ونومكم فيه عبادة ، وعملكم فيه مقبول ودعاؤكم فيه مستجاب .

شهر تقل فيه مردة الشياطين . فيه تفتح وأبواب الجنان وأبواب الرحمة ، وتغلق فيه أبواب النيران عن الصائمين . شهر يزيد الله فيه رزق المؤمنين ، أوله رحمة ، وأوسطه مغفرة وآخره إجابة وعتق من النار . شهر ينادي في كل ليلة من لياليه مناد من عند الله عزوجل هل من سائل فاعطيه ؛ هل من مستغفر فاغفر له ، هل من داع فأجيبه . فاسألوا الله ربكم بنية صادقة ، وقلوب طاهرة أن يوفقكم لصيامه وقيامه ، وتلاوة كتابه ، فالشقي من حرم غفران الله فيه . واذكروا بجوعكم وعطشكم جوع يوم القيامة وعطشه . وتصدقوا على فقرائكم ومساكينكم ووقروا كباركم وارحموا صغاركم وصلوا أرحامكم ، وغضوا عما لا يحل النظر اليه أبصاركم ، وعما لا يحل الاستماع أسماعكم ، وتحننوا على أيتام الناس يتحنن على أيتامكم ، وتوبوا الى الله من ذنوبكم وارفعوا أيديكم بالدعاء في أوقات صلواتكم فانها أفضل الساعات ، ينظر الله فيها الى عباده بالرحمة فيجيبهم إذا ناجوه ، ويلبيهم إذا نادوه ، ويستجيب لهم إذا دعوه ، ويعطيهم إذا سألوه .

أيها الناس إن أنفسكم مرهونة بأعمالكم ففكوها باستغفاركم ، وظهوركم ثقيلة من أوزاركم فخففوا عنها بطول سجودكم . واعلموا ان الله تعالى ذكره أقسم بعزته وجلاله أن لا يعذب المصلين والساجدين ، وأن لا يروعهم بالنار يوم يقوم الناس لرب العالمين . أيها الناس من فطر منكم مؤمنًا صائمًا في هذا الشهر كان له

بذلك عند الله عتق نسمة ، ومغفرة لما مضى من ذنوبه .

فقام اليه جماعة من أصحابه قالوا : يا رسول الله ليس كلنا يقدر على ذلك فقال ﴿ ص ﴾ : اتقوا النار ولو بشق تمرة ، اتقوا النار ولو بشربة ماء . أيها الناس من حسّن منكم في هذا الشهر خلقه كان له جواز على الصراط يوم تزل فيه الأقدام ، ومن خفف في هذا الشهر عما ملكت يمينه خفف الله عليه حسابه ، ومن كف فيه شره كف الله عنه غضبه يوم يلقاه ، ومن أكرم فيه يتيما أكرمه الله يوم يلقاه ومن وصل فيه رحمه وصله الله برحمته يوم يلقاه ، ومن قطع فيه رحمه قطع الله عنه رحمته يوم يلقاه ، ومن تطوع فيه بصلاة كتب الله له براءة من النار ، ومن أدى فرضاً كان له ثواب سبعين فريضة فيما سواه من الشهور ، ومن اكثر فيه من الصلوات علي ثقّل الله ميزانه يوم تخف الموازين . ومن تلا فيه آية من القرآن كان له مثل أجر من ختم القرآن في غيره من الشهور . أيها الناس إن أبواب الجنان مفتحة فاسألوا ربكم أن لا يغلقها عنكم ، وأبواب النيران مغلقة فاسألوا ربكم أن لا يفتحها لكم ، والشاطين مغلولة فاسألوا ربكم أن لا يسلطها عليكم .

أعطيت أمتي في شهر رمضان خمساً لم يعطهن نبي قبلي : الأولى ـ فانه إذا كان أول ليلة منه نظر الله اليهم ، ومن نظر الله اليه لم يعذبه أبداً . الثانية ـ فان الملائكة تستغفر لهم كل يوم وليلة . الثالثة ـ فان الله يأمر جنته يقول لها : تزيني لعبادي الصائمين يوشك أن يستريحوا من تعب الدنيا الى داري وكرامتي . الرابعة ـ فان رائحة أفواههم حين يمسون تكون أطيب من ريح المسك . الخامسة ـ فانه إذا كان آخر ليلة منه غفر الله لهم جميعاً ، فان العمال يعملون فاذا فرغوا من أعمالهم وفوا أجورهم .

وجاء عن الصادق جعفر بن محمد (صلوات الله وسلامه عليه) : إن الصيام

ليس هو الامتناع من الطعام والشراب وحده ، إنما للصوم شرط يحتاج أن يحفظ حتى يتم الصوم وهو صمت الداخل ، أما تسمع ما قالت مريم إبنة عمران - إني نذرت للرحمن صوما فلن أكلم اليوم إنسيا - يعني صمتاً ، فاذا صمتم فاحفظوا ألسنتكم عن الكذب ، وغضوا أبصاركم ولا تنازعوا ولا تحاسدوا ولا تغتابوا ، ولاتماروا ولا تكذبوا ولا تباشروا ولا تخالفوا ، ولا تغاضبوا ولا تسابوا ولا تشاتموا ، ولا تجادلوا ، ولا تظلموا ولا تسافهوا ، ولا تضاجروا ولا تغفلوا عن ذكر الله وعن الصلاة ، والزموا الصمت والحلم والصبر والصدق ومجانبة أهل الشر ، واجتنبوا قول الزور والكذب والخصومة وظن السوء والغيبة والنميمة . وعليكم بالوقار والخشوع والخضوع ، إلى أن قال : فاذا فعلتم ذلك فانتم صائمون لله تعالى بحقيقة صومه .

﴿عدة لسفر طويل﴾

قيل للاحنف بن قيس : انك شيخ كبير ، وان الصيام يضعفك . فقال : إني أعده لسفر طويل ، والصبر على طاعة الله سبحانه أهون من الصبر على عذابه .

﴿ حملوها ثم أكلوها : ﴾

عرض الله الامانة على السموات السبع الطباق والطرائق التي زينها بالنجوم، ثم عرضها على الارض ، ثم عرضها على الجبال الشم الشوامخ الصلاب الصعاب وقال لها جمعاء : أتحملين الامانة بما فيها ؟ قلن : وما فيها ؟ فقال سبحانه : للمحسن جزاؤه ، وللمسيء عقابه . فأبين أن يحملنها وأشفقن منها ، فعرضها على الانسان فحملها - إنه كان ظلوماً جهولا - فقد رأيناهم والله إشتروا الامانة بأموالهم فأصابوا آلافا . فما صنعوا فيها ؟ وسعوا بها دورهم ، وضيقوا بها قبورهم

وأسمنوا دوابهم ، وأهزلوا دينهم ، وأتعبوا أنفسهم بالغدو والرواح الى باب السلطان يتعرضون للبلاء ، وهم من الله في عافية . يقول احدهم تبيعني أرض كذا وكذا . يتكىء على شماله ويأكل من غير ماله . حديثه مسخرة وماله حرام ، حتى اذا اخذته الكظة ونزلت به البطنة . قال : ياغلام إئتني بشيء أهضم به طعامي . يالكع أطعامك تهضم إنما دينك تهضم . أين الفقير ، أين الأرملة . أين المسكين أين اليتيم ؟ الذين أمرك الله بالبر اليهم ، والعطف عليهم .

« الحسن البصري »

رياضة وصفاء

الصيام زكاة النفس ، ورياضة الجسم ، وداع للبر ، فهو للانسان وقاية ، وللجماعة صيانة . فى جوع الجسم صفاء القلب ، وإيقاد القريحة ، وإنفاذ البصيرة لأن الشبع يورث البلادة ، ويعمي القلب ، ويكثر البخار في الدماغ ، فيتبلد الذهن والصبي اذا ما كثر أكله بطل حفظه ، وفسد ذهنه . أحيوا قلوبكم بقلة الضحك وقلة الشبع ، وطهروها با لجوع تصفو وترق . « الغزالي »

شر وعاء

يا بني اذا امتلأت المعدة نامت الفكرة ، وخرست الحكمة ، وقعدت الاعضاء عن العبادة . « لقمان الحكيم »

لجام النفس

النفس الانسانية لقسوتها وتحررها لايخيفها شيء ولا يرهبها سلاح ـ بقدر ما يخيفها الجوع ، ويرهبها الحرمان . تستطيع أن تصبر على كل حادث ، وتحمل كل ألم ، إلا ألم الجوع وذله وشدته وقسوته . لذلك كان هذا السلاح من أسلحة

تخويفها وإرجاعها لرب العالمين . يقول (ص) : ان الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم . « الاستاذ عبد المنعم أبو سعيد »

﴿ ماضي رمضان وحاضره ﴾

شهد ماضي رمضان نهاراً عامراً بالايمان والاحسان ، وليلا زاخراً بالذكر والقرآن . ويشهد حاضره نهاراً مفتونًا بشهوة البطون ، وليلا صاخبًا بالخلاعة والمجون . « الاستاذ محمد خليفة »

﴿ وقاية وعلاج ﴾

كان الناس الى زمان قريب يحسبون أن الصيام من الشؤون الخاصة بالاديان ولكن لم يكد ينتشر تاريخ الطب بين الناس حتى علموا أن الصيام اعتبر في كثير من الامراض من مقومات الصحة الجسمانية . فقد علموا انه عدّ من عهد أبقراط عاملا قويا من العوامل المنقية للجسم من سموم الاغذية ، فان المواد الحيوية التي التي تتناولها بشراهة تحتوي على مواد دهنية ومواد رباعية العناصر . لاتطيق البنية البشرية أن تختزن مقداراً يزيد عن الحاجة منها . وانطلاق الحرية للانسان يجعله يتناول كل ما يقع تحت يده ، وكثيراً ما يصاب ـ بسبب هذه الحرية ـ بآفات مرضية تكون وبالاً عليه . والصوم ذو تأثير بالغ فى تخفيف الأعراض التي تنتاب الاعضاء الظاهرة والباطنة ، وتحويل محمود فى حالة المريض ، يتأدى منه الى التخلص مما أصابه من الآلام والانحرافات وصحة الروح من هذا التحويل لا تقل قيمة عن صحة الجسم . وقد استفاد الطب من ناحية الصوم مالم يستفده من ناحية العلاج بالعقاقير ، ولكن اكثر المسلمين لايأبهون كثيراً بالمستقبل ، ولا يحسبون حسابا

للشيخوخة ، ولا يعرفون للقوى حدوداً فيعيشون كما يجيء لا كما يجب .

« محمد فريد وجدي بك »

﴿ جود ، وبذل ﴾

أحب للصائم الزيادة بالجود فى شهر رمضان إقتداءً برسول الله (ص) ، ولحاجة الناس فيه الى مصالحهم ، ولتشاغل كثير منهم فيه بالعبادة فى مكاسبهم .

« محمد بن ادريس الشافعي »

﴿ لِمَ الجود فى رمضان ﴾

كان (ص) أجود الناس ، وكان أجود ما يكون في رمضان حين يلقاه جبرئيل فيدارسه القرآن فهو حين يلقاه جبرئيل أجود بالخير من الريح المرسلة . وإنما يتضاعف جوده فى رمضان : (آ) لقرب عهده بمخالطة جبرئيل ولكثرة مدارسته معه للقرآن الذي يحث على الكرم والجود . (ب) وشرف الزمان يقتضي شرف مايقع فيه من الأعمال ، ويؤذن بمضاعفة الأجر عليها ، ولذا قيل : أفضل الصدقة صدقة فى رمضان . (ج) ولأن اعانة الصائمين والقائمين على طاعتهم تستأهل نيل مثل اجورهم ، كمن جهز غازياً فكأنما غزا . (د) ولما امتاز رمضان بكرم الله فيه على عباده بالمغفرة والعتق لاسيما فى ليلة القدر ـ ناسب ذلك أن يتعامل الناس معاً كمعاملة الله لهم ، فيجود أغنياؤهم على فقرائهم ، ليجود الله عليهم بالفضل ، فان الجزاء من جنس العمل ، وإنما يرحم الله من عباده الرحماء . (ه) وفى الجود على الفقراء في رمضان الجمع بين الصيام والصدقة ، وهما من موجبات الجنة . (و) ولما يحدث في الصيام من نقص وخلل بسبب عدم التحفظ فالجود على الفقراء في رمضان يجبر مايلحق بالصوم من نقص ، ويزيل أثر مايعتريه

من خلل ، ولذا شرّعت فى آخره زكاة الفطر طهارةً للصائم من اللغو والرفث ، كما فى الحديث . (ز) ثم ان فى الجود والبذل في رمضان جمعاً بين فضيلتي الصبر والايثار ، فقد صبر عن شهواته ، وأعطى منها المعوزين ، فيكون ممن يطعمون الطعام على حبه . وذاك عين الشكر على النعم . قيل ليوسف «ع» : مالك تجوع وأنت على خزائن مصر ؟ قال : أخشى أن أشبع فأنسى الجائع .

« الاستاذ فكري يس »

﴿ الرقيب الحارس ﴾

ان الصوم يحدث لصاحبه ملكة المراقبة لله تعالى والحياء منه سبحانه ، وفى هذه المراقبة اكبر معدّ للنفوس ومهيء لها السعادة في الآخرة والاستقامة في الدنيا انظر هل يقدم من صدق مع الله فى صومه وراقبه فيه مخلصاً ـ على غشّ الناس ومخادعتهم ، هل يسهل عليه أن يراه الله آكلا لأموالهم بالباطل ، هل يحتال على الله في منع الزكاة ، أم هل يحتال على أكل الربا ، هل يقترف المنكرات جهاراً او يسدل بينه وبين الله في المعاصي ستاراً ؟ كلا . ان صاحب هذه المراقبة لايسترسل في المعاصي إذ لا يطول أمد غفلته عن الله ، واذا نسي وألمّ بشيء منها كان سريع التوبة قريب الأوبة ﴿ إن الذين اتقوا اذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فاذا هم مبصرون ﴾ .　　« الاستاذ محمد عبده »

﴿ مائدة عليها كل مشتهى ﴾

من بالغ حكمة الله سبحانه انه ما كلف المسلم بنوع واحد من العبادات فى زمن واحد من الأوقات ، بل كلفه بعدّة أنواع من العبادات في عدة أزمان ، كلفه بعبادة بدنية كالصلاة ، وبعبادة مالية كالزكاة ، وبعبادة بدنية مالية معاً كالحج ،

وبعبادة سلبية كالصيام ، وكلفه بعبادة مكررة في كل يوم وليلة ، وبعبادة مكررة في كل سنة ، وبعبادة واحدة فى العمر . ومقصود الشارع الحكيم بتنويع ما كلف به من العبادات أن تكون للايمان القلبي مظاهر شتى تدل عليه وتثبته وتقويه ، وأن تكون للمؤمن عدة امتحانات وابتلاءات تختبر بها نفسه وإرادته وعزيمته من كافة نواحيها ، وأن يكون تهذيب النفس شاملا كاملا ، لأن الانسان قد يكون قوي الارادة في العبادة البدنية دون المالية ، أو فى الايجابية دون السلبية ، أو فى الحولية دون المتكررة في كل يوم وليلة . فعلاج النفس من كل نواحيها يقتضي تنويع ما تكلف به ، وقد صرح القرآن بأن التكليف لمصلحة الانسان نفسه ليس لله فيه غرض ، قال تعالى فى الصلاة : ﴿ ان الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ﴾ وقال في الزكاة : ﴿ خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها ﴾ وقال في الحج : ﴿ ليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم الله ﴾ وقال فى الصوم : ﴿ يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون ﴾ . ففائدة الصلاة في تجنيب صاحبها المعاصي ، والزكاة بركة المال ومودة الفقراء ، والحج شهود معالم الخير واجتماعات التعاون ومؤتمرات السلام الاسلامي وذكر الله ، وللصوم فائدته فى تحقيق التقوى للصائم . « الاستاذ عبد الوهاب خلاف بك »

﴿ نعمتان ﴾

في شهر رمضان نعمتان : نعمة القرآن الكريم . ونعمة الصوم . نعمة العلم والنور والهداية ، ونعمة الوسيلة لتقبل هذا الفيض . فبالصوم ترتاض النفس وتسكن إلى الحق وتهش لقبوله ، وتبعد عن رذائل الجسم وتيارات الشهوات المختلفة : من بغض وحقد وحب للانتقام وميل الى إرضاء غريزة الشهوة للطعام

والشراب ، وترقى إلى افقها السماوي الروحاني ، مستعدة لتلقي الفيض الآلهي وتفهم معاني الآيات وما فيها من عبر وعظات .

« الاستاذ محمد مصطفى المراغي »

﴿ وفاءٌ ، وحدةٌ ، تحرير ﴾

لابد للروح من رياضة ولو شهراً واحداً ، بعد أحد عشر شهراً قضاهـا الجسد المادي في استكلاب على العيش ، وانغماس فى الهوى . الصوم هو الوفاء للجانب السماوي فى الانسان عندما يجعله الجانب الأرضي فيها كليلا مجهداً .

رمضان هو الشهر الذي يربط خمسمائة مليون من بني البشر برباط اجتماعي واحد ، فيجعل منهم قافلة ممتزجة الروح ، متحدة العقيدة ، متفقة الفكر متماثلة العيش . فالصلاة توجهنا نحو قبلة واحـدة ، والصيام يربطنا بالتزامات اجتماعية واحدة ، والحج يجمعنا فى مؤتمر اسلامي واحد . وصدق الله إذ يقول : ﴿ إن هذه امتكم امة واحدة وأنا ربكم فاعبدون ﴾ شهر الصوم هو شهر التحرير ... تنزع الزواحف فى صومها جلدهـا البالي ، وتطرح السلحفاة حراشيفها الغلاظ ، ويخفف الجمل ثقل سنامه أبان صومه ، ويتخلص الانسان في رمضان من غوائل ماديته وجرائمه .. أما كرام البلابل فانها اذا حبست فى أقفاصها ـ صامت وامتنعت عن وضع البيض حتى لا تورث أفراخها العبودية ، وصدق الله تعالى إذ يقول : ﴿ ليضع عنهم إصرهم والأغـلال التي كانت عليهم ﴾ . فحرية الأفراد ، وحرية الجماعات ، وحرية الشعوب ، ما أحرانا أن نصوم فى شهر الصوم عن خدشها ، ونقوم فى شهر القيام على كفالتها .

« الاستاذ مصطفى مؤمن »

﴿ قيود على البدن وانطلاق للروح ﴾

الصوم يهذب النفس الرعناء ، وينمي العواطف الحساسة ، ويقوي المشاعر الحية ، والانسان بغير الانسانية البارة الحنون يكون كز العواطف جامد الشعور ، ضعيف الاحساس ، الفرد والمجموع في ذلك سواء . وانك لتجد الوهم السائد في العالم ، والكوارث الأليمة المرتقبة والمثالية العالمية المفقودة ، إنما سبب ذلك ضعف الانسانية فى الامم ، أو فقدانها فيهم ، فالصوم يجتث من النفوس نزواتها السادرة ويمدها بالروح الصافية ، ويعدها لعمل الخير المشترك والنفع العام . وهو مع ذلك يفيد الجسم قوة ، ويجعل من الانسان قويا جلداً ، لايهين في الشدائد ولا يضعف عند النوازل ، وهو يربي الأمانة ويعود الصبر . والمعصوم يقول : لو يعلم الناس مافى رمضان من الخير لتمنوا أن يكون حولا كاملا .

كان المسلمون الأولون أشد حرصاً على حرية أرواحهم منهم على حرية أبدانهم ، وكانوا يقيدون حرية الفرد بكل قيد للبدن ، وبذلك كانوا حربا على كل ضعف في أنفسهم ، وفتنة فى قلوبهم ، ويرون فى الايمان بالله سمواً واستهانة بكل جهد ومشقة لبلوغ هذا السمو المنيع . كانت فرائض الله تؤدى ، وحدوده تتبع ، وشعائره تقتدى ، فعاشوا فى قوة المنعة ، وفي ظل الحرية الكريمة سعداء آمنين . أما الآن فماذا ؟ أتبدلت الدعوة أم سقطت التكاليف ، أم تغير الزمان ؟ كلا ، لم يقع شيء من ذلك ، فالدعوة قائمة ، والتكاليف في عنق المكلفين ضربة لازب ، والزمان هو الزمان ، ولكنه قد طال الأمد ، فقست القلوب ، وجهل الناس أمر دينهم فنسوا عزة النفس ، فكانوا غرباء في بلادهم ، ضعفاء في سلطانهم أذلاء في كثرتهم وأصبحوا كالأيتام في مأدبة اللئام .

هذه فريضة الصوم . سل الذين أدركوا أوائل هذا القرن ـ وليس ببعيد ـ هل كانوا يرون مسلماً يجترىء على حرمة الصوم بالافطار فى المنازل أوفى الشوارع ؟ قد يفطر بعض الناس لعذر قائم ولكنه كان يستحي ويستتر ويتشبه بالصائمين ، فلا يكاد يراه أحد من أقاربه ، وأصدقائه وعشرائه ، وسلهم هل كانوا يرون مطعماً او مقهى يفتح بابه للمفطرين كما هو حادث الآن ؟ وهل كانت بيوت السادة المترفين إلا مفتحة الأبواب للواردين والمترددين ، وتلاوة القرآن ، والعظة النافعة ؟ وهل كانت المساهر إلا مليئة بالأسمار الممتعة والمسلاة البريئة ؟

أما الآن . فماذا ترى ؟ ترى القوم قد انصرفوا عن دينهم وجافوه ، ونسوا خشية الله ومخوفاته ، واصبحوا يفطرون بلا تأثم ولا محرجة في المنازل أمام ذريتهم ، وفى المطاعم العامة بلا مبالاة وحتى فى الدوائر الرسمية ، لا يبالون شيئاً من حرمة رمضان وقدسيته ، وإنك لترى البيوت مقفلة فى وجـــوه الزائرين والمترددين من العجزة والعفاة ، الذين كانوا يرتقبون هذا الموسم بلهفة وانتظار !!

أفلا ترى معي ـ بعد هذا ـ أن النفوس قد أجدبت من الدين ومن البر وان مانجده من المسغبات والاقحاط ، ونترقبه من النذر والمخاوف ـ إنما سببه هو نبذ الدين ومجافاته ، وان الانسانية الواعية التي تعمل للخير المشترك والنفع العام لاتحل في القلوب الخربة الواهنة ، ولا تهبط في النفوس العارية من حلية الفضائل والأخلاق . لا يمكن ابداً أن تهدأ النفوس ويستشعر الناس بهدوء ، ويستقر ضمان الأمن والسلام ، ويعود للامم الاسلامية مجدهاوعزتها وسلطانها ـ إلا باتباع الدين وتقوى الله ، وإلا أن يكون حكامها وامراؤها قدوة حسنة واسوة فاضلة للشعوب ﴿ وعد الله لايخلف الله وعده ولكن اكثر الناس لا يعلمون ﴾ .

« الاستاذ محمود ابو العيون »

﴿ الباقي والفاني ﴾

أبدع الله هيكل الانسان وأحسن خلقه وأحكم صنعه ، فجعله مادة تعتلج فيها شتى الطبائع ، وتصطبغ بألوان الخير والشر ، كما سلك فيه روحا من أمره هي سر الحياة ومظهر الوجود ، وهي حقيقة الانسان وجوهره ، وهي المخاطبة بالأمر والنهي ، والحث والزجر ، والترغيب والترهيب ، وهي التي تبقى اذا مات الانسان سابحة في عوالمها ، متنقلة في آفاقها ، حتى يقضي الله في أمرها وتعود للانسان في النشأة الاخرى للجزاء والحساب ، فتنعم بالقرار في جنة الخلد اذا كسبت خيراً في الدنيا ، وتشقى بالعذاب الخالد في النار اذا اكتسبت شرا .

وللروح الانساني قوة وسلطان وللمادة آثار وطبائع ، وبينهما تفاعل وتدافع ، وقلما يتكافآن ، ومثلهما في الانسان مثل كفتي الميزان اذا شالت إحداهما هبطت الاخرى ، فاذا قويت الروح رقت حجب المادة وخفت كثافتها ، فيسمو الانسان في تفكيره ومداركه وتتسع لبصيرته آفاق المعرفة ، وتتفتح له أكمام العلوم ويستعد لفيض الكمال وإشراق الهداية ، ويكون الى الخير أميل ، وينعكس الأمر اذا طغت المادية على الروحية ، فيبدو الميل الى الشر والطغيان ، وتبدو الإثرة والأنانية ، ويكون في طباعه أقرب الى الحيوان .

واعظم معوان على تقوية جانب الروح الانساني ـ صيام شهر رمضان حسبما شرعه الله تعالى ، لا مجرد حبس النفس عن شهواتها ، بل إخلاص النية وأداء الطاعة واجتناب المآثم ، وتوجه القلب الى الخير والبر بالناس والعمل بهما والدعوة اليهما ، ومحاسبة النفس على كل ما تأتي وما تذر ، كحساب التاجر الحاذق الذي لا ينام ليله حتى يصفي عمل نهاره ليعرف ربحه فينشط او خسارته فيتراجع ، ومتى

كان الصائم كذلك ـ فلا عجب ان تفتح له ابواب الجنة ، وتغلق ابواب الجحيم ، وتصفد الشياطين ، كما ورد في خطبة الرسول (ص) المتقدمة .

« الاستاذ حسنين محمد مخلوف »

﴿ قرآن مع الخدم ﴾

كان جبرئيل يدرس النبي (ص) القرآن في رمضان ، وكان السلف كذلك يتدارسونه فيه ، ويقومون ليله به لزيادة الاهتداء والاعتبار . فماذا كان من اقتداء الخلف بهم ؟ كان ان بعض الوجهاء والأغنياء يستحضرون في رمضان من كان حسن الصوت يتغنى لهم بالقرآن في حجرات الخدم ، وهم في الغرفات مع امثالهم لاهون لاعبون ، ومن عساه يصغي منهم احيانًا الى القارىء ـ فانما يريد التلذذ بسماع صوته الحسن ، وتوقيعه الغنائي ، فجعلوا القرآن إما مهجوراً ، وإما لذة نفسية . فصدق عليهم ﴿ اتخذوا دينهم هزواً ولعباً ﴾ .

« محمد رشيد رضا »

﴿ تطعيم ضد الرذائل ﴾

كل إنسان عرضة للوقوع في مأزق تكرهه نفسه لألمه الجسماني ، او تنفر منه الروح لبعده عن الفضيلة . إذاً فلنبحث عما يمرن النفس على الاحجام عن المحرم ولا سيما اذا توفرت دواعيه وبواعثه ، ويمرنها على الرضا اذا فاجأتها الكروب . التعليم والتلقين وحده ليس كافياً بل قد يكون التعليم سلاحا يستعمل في التفنن لارتكاب المحظورات . أما العاصم والكافي فهو التمرين والتدريب العملي للجميع ذلك بأن يمنع الانسان نفسه طوعًا واختياراً عما يملك وعما هو حلال له ، ويروضها على ذلك بامتناعه عن أطيب المشتهيات . فكأنما الصوم ظرف صناعي حدده

الشارع واوجب الدخول فيه ، وتحمل كل ما يعترضه من صدمات جديدة لتقوى النفس على الظروف الطبيعية التي تأتى في الحياة . فما أشبه ذلك بالتطعيم ضد الامراض المعدية ، مثل الجدري ، والتيفوئيد ، والدفتريا ، فما هذا التطعيم إلا إيصال مواد للجسم تحدث به مرضاً صناعياً خفيفاً يمنح البدن مناعة ووقاية من المرض الحقيقي اذا أتى من الخارج شديد الوطأة ـ وداوني بالتي كانت هي الداء ـ واذا رأينا إنسانا لم ينتفع بالصوم ـ فالذنب آت من قبله ، كالمريض الذي أهمل تناول إحـــدى وحدات الدواء فاستمر مرضه ، فالذنب ذنبه لا ذنب الطبيب .

« الاستاذ عبد العزيز الشريف »

﴿ نتيجة الدراسة بمدرسة الصيام ﴾

ونجتزىء بهذا القدر اليسير في سمو الصيام ، ورفعة شأن رمضان بعد أن وضح للعيان : ان اعظم معاهد التعليم والثقافة والفلسفة عجزت عن تخريج ماخرج الصوم وتهذيب ماهذب . ولا غرو فهي شريعة الله الخالدة التي صنعتها يد العليم بالنفوس الخبير بالطبائع ـ صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة ونحن له عابدون ـ ولعلنا ندرك عظمة « رمضان » من ان القرآن لم يذكر اسم شهر سـواه ، وانه بأدائه كما ينبغي يرمض الذنوب ـ أي يحرقها ـ ويطهر الصائم من أدرانها ، ـ والله واسع عليم ـ .

الصوم في التاريخ

ليس الصوم فريضة دينية توجبها الديانات المختلفة او تشير باتباعها فقط ، بل هو ايضاً قاعدة صحية لازمة لسلامة الجسد وحفظه على ما مر . ففي الاكثار من الطعام مضرة . وفي الامتناع عنه من وقت لآخر حتى في مواعيده المقررة العادية فائدة لاشك فيها . وهذه حقيقة يدركها ويقر بها العالم والجاهل ، والنهم والقنوع ـ وإن كانوا جميعا لا يعملون بها في حياتهم .

كان الأقدمون يعدون الصوم أنجع علاج للوقاية من العدوى في اثناء انتشار الأوبئة ، فهو ينظف أجهزة الجسد ويخلي الأمعاء من بقايا الأطعمة الراكدة فيها . ويمنع انتقال المرض بوساطة الغذاء . فالانسان الاول الذي كان يعيش على الفطرة لم يكن يمارس من انواع العلاج غير الصوم والاكتفاء ببعض الاعشاب المهضمة ، وظل الانسان فيما بعد — على مر الاجيال ، وبارتقائه في مدارج التحضر والتمدن والتفكير — محافظاً على تلك العادة التى ورثها عن الانسان الاول .

والحيوان الأعجم يعالج نفسه بالصوم اذا ما اصيب بمرض . وعبثاً نحاول إرغام حيوان مريض على ازدراد طعام مّا ، فانه يكتفي بالقدر اليسير من الماء ويعرض عما عداه . فالحيوان غير العاقل يعطي الانسان العاقل في هذا المضمار درساً تلقنه إياه الطبيعة بالسليقة . والحيوان ـ في هذا ـ كثيراً ما يكون أعقل من الانسان .

وبعد العصور المظلمة الاولى انبثقت الأديان في العالم شيئاً فشيئاً ، فاتخذ

مؤسسوها ورؤساؤها وكهنتها الصوم قاعدة للعبادة وشرطاً للتقرب من الآلهة . ففي مصر كان يفرض على الراغبين في الالتحاق بخدمة معابد « إيزيس » و « وأزوريس » ان يصوموا سبعة ايام كاملة ، لا يتناولون فيها غير بضع جرعات من الماء . وكانت مدة الصوم تمتد احياناً إلى ٤٣ يوماً .

وحذا اليونانيون حذو المصريين ففرضوا الصوم في دياناتهم على انواع متعددة . ففي مدينة « ديلف » كانت خادمات المعبد يعتزلن في خلوة تامة ، وينقطعن عن الطعام يومين او ثلاثة ـ قبل استنزال وحي الآلهة في شأن من الشؤون وكان الشعب يصوم في بعض المواسم الدينية ، استرضاء للآلهة واستجداء لعفوها .

وكان الفرس يروضون ابناءهم على الصوم منذ نعومة اظفارهم لكي يعودوهم تحمل المشقات . وكان سكان « سبارته » في اليونان يفعلون اكثر من هذا ، إذ يرغمون ابناءهم على الصوم بمنع الطعام عنهم يوماً بعد يوم ، لكي يصبحوا جنوداً اقوياء يستطيعون مواصلة القتال من الصباح إلى المساء دون ان يشعروا بجوع أو عطش . ويتضح من الآثار والمعالم التى عثر عليها الباحثون في المكسيك وامريكا الجنوبية ـ أن سكان هذه الاقطار الاقدمين كانوا يمارسون الصوم قبيل كل عيد من اعيادهم ، وكانت مدة الصوم تختلف باختلاف الأعياد ومبلغ أهميتها .

وفي احد الاعياد المكسيكية القديمة كان الكهنة يصومون ١٦٠ يوماً بلا انقطاع ، وكان الذين يعجزون عن مواصلة الصوم إلى النهاية يحبسون انفسهم في دهاليز المعابد سنة كاملة تكفيراً عن ذلك العجز .

وأما الذين يبلغون نهاية الصوم ـ فإنهم يعدون في نظر الشعب انصاف

آلهة . وكان الكاهن يعقل لسانه بقطعة من الخشب تخترق اللسان وتربطه بالشفتين منذ اليوم الاول من موعد الصوم ، لتسهل مراقبته . والتثبت من أنه لم يقدم على تناول الطعام سراً .

والهنود الحمر في امريكا الشمالية كانوا ولا يزالون إلى اليوم ـ بالرغم من امتزاجهم بالسكان البيض وامتداد المدنية الى ربوعهم ـ يعدون الصوم من انواع الرياضة البدنية النبيلة ، ومن الوسائل التي يتقرب بها الانسان إلى الخالق ، وهم يدربون أبناءهم على الصوم منذ سن الطفولة ، وينصرف الصائم بعد مضي عشرين يوماً او اكثر على صومه ـ إلى التحدث بنصائح وإرشادات يحلها سامعوه محل الاعتبار ، لاعتقادهم انها صادرة عن رجل ارتفع بصومه عن مستوى البشر ، وسما بروحه بعد أن طهرها وطهر جسده معها بالزهد والتقشف إلى العالم الآخر ، حيث ترتع أرواح الموتى من اجداد الهنود الحمر في رياض الآلهة .

وفرض البوذا على أتباعه أن يصوموا مدة طويلة من السنة ، لجعل الروح تنفصل عن المادة ، وتقهر الجسد وتهزأ بقوانين الطبيعة . والبوذيون يحافظون محافظة دقيقة على هذه الوصية ، كما يحافظ البراهمة على ماتفرضه عليهم ايضا ديانتهم من الامتناع عن الطعام للغرض نفسه .

وفي الصين والهند واليابان ، أمثال رائعة من الصوم الطويل الامد ، الذي يتحمله المتعبدون من أبناء الديانتين بصورة تدعو إلى الدهشة والعجب ، وكان النورمنديون الوثنيون عندما اندفعوا من الشمال لغزو اوربا يمتنعون عن الطعام بضعة أيام لكي يخوضوا غمار المعارك بجسم نظيف وروح مطهرة .

وجاءت الأديان المنزلة ففرضت الصوم على أتباعها لاعتبارات دينية وصحية معاً . فاليهودية والمسيحية ، والاسلام ، ثلاثتها تفرض الصوم على العباد

في أوقات معينة بشروط محدودة ، وأهم مواسم الصوم عند أتباع هذه الديانات يوم « بوريم » ويوم « كيبور » عند اليهود ، ويفرض فيهما الانقطاع التام عن الطعام والشراب مدة ٢٤ ساعة . والصوم الكبير عند المسيحيين ، وهو يقضي بالانقطاع عن الطعام والشراب من منتصف الليل الى الظهر - أي ١٢ ساعة - لمدة أربعين يوما . وصوم رمضان عند المسلمين . وهو يقضي بالانقطاع عن الطعام والشراب من طلوع الفجر الى مغيب الشمس طوال ذلك الشهر .

ولليهود والمسيحيين مواسم أخرى يفرض فيها الصوم ، أو الامتناع عن تناول أنواع معينة من الأغذية لمدة تقصر أو تطول حسب الدين والموسم . وقد صام موسى (ع) قبل أن يتلقى الألواح ، جاء في التوراة في سفر الخروج من الاصحاح الرابع والثلاثين « وكان موسى هناك عند الرب أربعين نهاراً وأربعين ليلة ، لم يأكل خبزاً ولم يشرب ماء ، فكتب على اللوحين كلمات العهد ، الكلمات العشر » . وصام عيسى (ع) قبل أن يتلقى الوحي من ربه ، جاء في الاصحاح الرابع من إنجيل متى « فبعد ما صام أربعين نهاراً وأربعين ليلة جاع أخيراً » .

تقول دائرة المعارف البريطانية : « إن أكثر الديانات دانيها وعاليها قد فرضت الصيام وأوجبته ، فهو يلازم النفوس حتى في غير أوقات الشعائر الدينية يقوم به بعض الافراد إستجابة للطبيعة البشرية في بعض مظاهرها » . وانتشرت فريضة الصوم عند أهل الكتاب من اليهود والنصارى ، وجاء الاسلام يعلمنا أن الصوم انما فرض لأنه يعدنا للسعادة بالتقوى ، وان الله غني عنا وعن عملنا وما كتب علينا الصيام الا لمنفعتنا . « كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم » .

﴿ قد أفلح من تزكى ﴾

﴿ زكاة الفطر ﴾

حكمة الله اقتضت أن يتبع شهر رمضان — شهر الصبر والجود — بشيء من الصدقة ، يبذله المرء عن طيب نفس وذلك لما يأتي :

١ — لشكر الله على فضله وتوفيقه للصائم واعانته له على أداء شعيرة الصيام وسنة القيام ، حتى يستوجب من ربه المزيد من الهدايا . ـ لئن شكرتم لأزيدنكم ـ

٢ — لا يخلو الصائم من هفوات بدرت منه في صيامه فشرعت الزكاة تطهيراً له وتزكية لصيامه .

٣ — هي أشبه بامتحان عملي للصائم : هل استفاد من صيامه خلق العطف والشعور بحاجة المعوزين ؟

٤ — ليكمل الشعور بالوحـــدة في العيد وحدة السرور والغبطة بين الفقير والغني كما تساووا جميعاً فى الصيام : فيكون الفرح شاملا والانشراح عاماً .

حدث ابن عباس ان رسول الله (ص) فرض صدقة الفطر مطهرة للصائم من اللغو والرفث وطعمة للمساكين ، فمن أداها قبل الصلاة ـ صلاة العيد ـ فهي زكاة مقبولة ، ومن أداها بعد الصلاة فهي صدقة من الصدقات . وفي الحديث أيضاً ﴿ صوم رمضان معلق بين السماء والارض لا يرفع الا بزكاة الفطر ﴾ .

وقد فرضت زكاة الفطر فى العام الذي فرض فيه الصيام ـ أي العام الثاني من الهجرة ـ وأوجب الاسلام إخراجها عن الذكر والأنثى ، والحر والعبد ، والصغير والكبير من المسلمين . وسئل رسول الله (ص) عن قوله تعالى : ﴿ قد أفلح من تزكى ، وذكر اسم ربه فصلى ﴾ فقال : (نزلت فى زكاة الفطر) .

ويخرجها المرء عن نفسه ومن يعوله من زوجة وأطفال وخدم ووالدين ، فعليه أن يحصي عدد أفراد اسرته الذين ينفق عليهم ثم يخرج الزكاة عنهم وعن نفسه ، وكل من وجبت عليه نفقته وجبت عليه زكاته ، أما الغني فيزكيه الله بها ، وأما الفقير فيخلف عليه أضعاف ما أنفق المرء من غالب قوت المكان الذي يعيش فيه. والمقدار الواجب عن كل شخص صاع .

ولو ألهم الله المسلمين رشدهم ووقاهم شح نفوسهم وعمموا اخراج هذه الزكاة ونظموها كما ينبغي ـ لأحدثت أثراً طيباً يغتبط به كل مصلح . ولو أن كل قرية أو مدينة قام منها قوم أمناء محتسبون بجمع هذه الزكاة على وجه الدقة بحيث لا يتركون إنساناً عليه زكاة الا أخذوها ، ثم نظموا توزيع الاحسان حسب المصلحة العامة إذاً لتكوّن من ذلك رأس مال ضخم ، فينفق منه على المعدومين وذوي العاهات والعجزة حتى يفد عليهم العيد وقد عمتهم رحمة الله ، وسرهم سخاء المؤمنين .

﴿ العيد ﴾

أما وقد حاز المسلمون صوم الشهر بنجاح ، وبذلوا فيه من الصبر والرضا ما بذلوا ، إذاً فليروح الله عن نفوسهم ، وليعجل لهم سرورهم . وليقم لهم حفل تكريم ، يشهده الملأ الاعلى في السموات وصالح المؤمنين في الارض يجتمعون معا مهنئين مكبرين الله على اتمام النعمة وكمال التوفيق . (قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون) .

ويسمى هذا اليوم السعيد . فى الأرض بالعيد ، وفى السماء بيوم ـ الجائزة ـ ينادي الحق تبارك وتعالى ملائكته : ـ ما جزاء الأجير إذا عمل عمله ـ فيقولون :

آلهنا وسيدنا جزاؤه أن يوفى أجره ـ ، فيقول تعالى : ـ أشهدكم اني جعلت ثوابهم لصيامهم وقيامهم رضائي ومغفرتي ـ ثم يقول سبحانه ـ وقد نظر الى جميع المصلين للعيد نظرة رحمة وحنان ـ : سلوني ياعبادي ، فوعزتي ، لا تسألوني اليوم في جمعكم هذا لآخرتكم الا أعطيتكم ، ولا لدنياكم الا نظرت لكم ، قد ارضيتموني فرضيت عنكم ، انصرفوا مغفوراً لكم) فما اجل رحمة الله ، وما احكم شريعته . وما اسطع انوار دينه الحنيف السمح المملوء هدى ورحمة وبشرى للمؤمنين الصادقين .

دخل رجل على علي امير المؤمنين (ع) يوم عيد الفطر . فوجده يتناول خبزاً فيه خشونة ، فقال : يا امير المؤمنين يوم عيد وخبز خشن ؟ فقال (ع) : اليوم عيد من قُبل بالامس صيامه وقيامه ، عيد من غفر ذنبه ، وشكر سعيه ، وقبل عمله ، اليوم لنا عيد ، وغداً لنا عيد ، وكل يوم لا نعصي الله فيه فهو لنا عيد ـ .

﴿ معرض نصائح الاطباء من الغربيين ﴾

فمن ذلك قول الدكتور ـ غليا الفرنسي ـ : ان من شأن الصوم تطهير البدن من المواد السامة . وبهذه الوسيلة يتعزز الجهاز الدموي ويتجدد نشاطه ، ويزداد مجموع الهيموغلوبين بنسبة فائقة ، وتتكاثر عدة الكريات الدموية الحمراء ، وهذا يولد فى الاعضاء حياة جديدة .

وقال الدكتور ـ اسكندر زخور : الصوم من اسمى النعم التي تكرم بها المولى جل شأنه ، الصوم حياة النفس وسلامة الجسم ، بل هو خطوة فى سبيل

البقاء والارتقاء ، وبالصوم تتقوى الارادة وتتمرن على غلبة شهوات النفس واميالها .

وقال الدكتور ـ بوبو قمابر الامريكي ـ : انا نعالج بالصوم ذلك الدواء الذي يطهر الجسم من السموم ، ويجدد الحياة فى اعضائه .

وقال الدكتور مبارك : الصيام يقوي الارادة ويضعف الاهواء ، ويقود المرء إلى الطاعة ، ويقوض فوضى الاخلاق ، ويرفع الانسان إلى حضيرة العشيرة ويذهب بالنفس الأمارة ، ويخلص الذاتية من رجس الماديات المستهوية الخافضة ، ويدخلها بالمعنويات المرضية الرافعة ، ويأخذ بها إلى التفكر ، ويبعدها عن الزهو ، وعلى الاجمال يخرج الروح والجسم من المرض ، ويسوقها إلى الصحة إلى العافية ثم إلى السعادة .

وقال الاستاذ ملفادن : إن تسعين بالمئة من الامراض التي تنتاب الجنس البشري ـ يمكن إتقاء شرها بواسطة الصوم . وقوله أيضا في مؤلفه « الصوم للصحة » : ان كل دواء يصيب الاطفال والاولاد يمكن توقيفه ومنع تسرّيه وتقدمه ، وملاشاة أغراضه في وقت قصير بواسطة الصوم قبل استعمال المستحضرات الكيماوية التي من شأنها أن تزيد في جسم الطفل اللطيف شراً ووبالا .

وقال أحدهم : الصوم سر من أسرار الطبيعة المدهشة ، ونور من أنوارها الساطعة ، بل حقيقة سامية يبدد سناها الاوهام المظلمة .

وقال نابليون : ليس لي بالطب ثقة ، وإنما دوائي الصوم والاستحمام .

وقال العلامة الأب مبارك مارون : ان المراد بالصوم هو صوم الأعين عن النظرات المريبة ، وصوم الآذان عن سماع الثلب والنميمة ، وصوم القلب عن المكر والخديعة ، فاذا تمكن الانسان من الصيام على هذه الصورة أفاده فوائد جمة ،

أخصها انه ينعش نفسه وينظفها من أدران الأفكار المضرة ، ولا تنحصر فائدة الصوم في استصلاح البدن وتربية العواطف فحسب ، بل للصوم تأثير عظيم في تقوية الاخلاق وتنمية الملكات النفسية . لاسيما قوة الارادة فان المرء اذا قدر على نفسه بالزامها طاعة الصيام ـ أصبح بادارة أمرها أبصر ، وعلى منعها من الشرور والآثام أقدر .

ولقد أدرك هذا كثير من علماء الغرب . فقد حدّث الدكتور جبهاروت الفرنسي بقوله : إن رجال الدين أدركوا تأثير الصوم فى تقوية الارادة وسلامة الانسان من سيطرة حواسه . فجعلوا الصوم فى مقدمة رياضاتهم ، ونحن قد وجب علينا — لتقوية إرادتنا — أن نمارس الصوم ، إذ قد ثبت تأثيره فى ذلك فيما لايستطاع دحضه ، وناهيك هذا من سعادة في الحياة وسبب لنيل أقصى غايات المجد

وقال الدكتور ادوارد ديوي الامريكي : مامن داء إلا وخارت قواه بالصوم

وقال الدكتور تجول شاد الامريكي : إن كل وجبة من الطعام التي يمتنع الانسان من تناولها — توفر على الجسم عملا يعوض بمقدار تنقيته من المرض .

إلى كثير من تلك الاقوال الناشئة عن تجارب علمية ، وحوادث متكررة لعلماء تصدوا لمعرفة النفع والضرر ، وجدّوا فى تحقيقها فوجدوا فوائد الصوم أمراً جلياً ظاهراً لم يبق لمنكر له سبيل .

نذكر هذا ونستشهد به ـ لعل المسلمين فى جميع الاقطار يهتمون بأمر دينهم ويرتشفون محاسنه وحكمه العالية ، ليتمسكوا بأهدابه ويحرصوا على آدابه .

ابراهيم (ع) والصابئة

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وإذ قال ابراهيم لأبيه آزر أتتخذ أصناماً آلهة إني أراك وقومك فى ضلال مبين * وكذلك نري إبراهيم ملكوت السموات والأرض وليكون من الموقنين * فلما جن عليه الليل رأى كوكباً قال هذا ربي فلما أفل قال لا أحب الآفلين * فلما رأى القمر بازغاً قال هـذا ربي فلما أفل قال لئن لم يهدني ربي لأكونن من القوم الضالين * فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربي هذا أكبر فلما أفلت قال يا قوم إني بريء مما تشركون *إني وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض حنيفاً وما أنا من المشركين * وحاجه قومه قال أتحاجوني في الله وقد هدان ولا أخاف ما تشركون به الا أن يشاء ربي شيئاً وسع ربي كل شيء علماً أفلا تتذكرون * وكيف أخاف ما أشركتم ولا تخافون انكم أشركتم بالله ما لم ينزل به عليكم سلطاناً فأي الفريقين أحق بالأمن ان كنتم تعلمون * الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون * وتلك حجتنا آتيناها ابراهيم على قومه نرفع درجات من نشاء ان ربك حكيم عليم *﴾(١)

(١) الانعام - ٧٣ - ٨٣ .

إن هذه الآيات ترمز الى أدق المباحث العلمية والآيات الحكمية ، وكيف كان إبراهيم قد ابتلي بالصابئين الذين هم كانوا مغرمين بالعوالم العلوية الروحانية من الملائكة ، وانهم كانوا يجعلونها وسائط لهم بينهم وبين الله تعالى . فهم آلهتهم بهم يتقربون اليه ، وهولاء الآلهة لهم هياكل كهياكلنا الجسمية ، وهي الكواكب السبعة .

ولما طال الأمد عليهم إتخذوا في الارض أصناما لتمثل الهياكل الكوكبية التي هي أشباح وأشخاص للنفوس القدسية والملائكة العلوية . فبالاصنام يتقربون الى الكواكب ، وبالكواكب يتقربون الى من يسيرونها ويجرونها في السماء في أوقات معينة ، فانحطت عزائمهم ، ونامت فطرهم فجاء الخليل (ع) الى أصنامهم فكسرها . والى عقائدهم فسفهها ، والى عقولهم فارشدها . والى تقاليدهم فحقرها .

وكان عمه آزر أعلم القوم بعمل الاشخاص والأصنام ، ورعاية الاصناف النجومية حق الرعاية . فأخذ يذكر له ما يفعلون ، ويبين فساد ما كانوا يفترون .

وإني لا أريد من شرح هذا المقام ذكر القصص التاريخية ولا أحوال الامم الماضية ـ سرداً للتاريخ ولا غراما بالسير ، ولكني أريد أن يكون المقام مقام عمل لنا نحن الذين نعيش فوق الكرة الأرضية اليوم ،

فاذا كان ابراهيم الخليل كسر اصنام قومه ، وقرأ الرسول محمد (ص) ذلك على قومه ، ثم فعل كما فعل . فكسر أصنام قومه في مكة حذو القذة بالقذة ـ كما فعل أبوه ابراهيم ـ فمن الجهالة العمياء والنذالة الحمقاء أن يقرأ المسلمون القرآن تغنياً لا تعليما ، وتعبداً لا تذكيراً ، بل عليهم أن يقتدوا بمن أرسلوا اليهم إقتداء بكل ما فعل .

فلأشرح لك أولا ـ مذاهب الصابئة . وثانياً ـ فعل الخليل معهم .

وثالثاً ـ الحكاية التي يذكرها بعض المفسرين عن الخليل أيام صغره . وان هذه القصة يقصد بها نشأة عالية اسلامية .

الفصل الاول

عن الصابئة

ان النوع البشري كان يبحث من العصور القديمة فى صانع العالم ، ولهم طرق في ذلك مختلفة كثيرة ، وأهمها ـ في تلك العصور ـ جمال الأنوار والبهجة والاضواء والكواكب واشراقها ، حتى انك لتجد الأمم الجرمانية والعائلة الآرية قد جاء في لغتها ان الله عندهم هو النور والشمس ، وتجد اللفظة الأصليـــة للنور (ديف) ومعناها النور اللامع ، ويشتق منها عند الشعوب المذكورة ألفاظ للدلالة على الله .

ففي لغة السنسكريت « ديفاس » أو « ديواس » أو « ديوا » ويعبرون عن السماء بلفظة « ديوس » وعند اليونان « ذيوس » وعند اللاتينيين « دووس » و « دوفس » وتصرفوا فيها الى أن قالوا « جوبتر » وفي الألمانية القديمة « ذيو » وفى السلاف « ديواس » ولفظة « تير » المشتقة منها معناها اٰله الحرب عند أمم الشمال ، والفرنساويون يعبرون عن الخالق « ديو » مرخمة ، والايطاليون « ديو » والاسبان والبرتغاليون « ديوس » وكلها مشتقة من أصل واحد كما تقـدم .

فهؤلاء الأمم الذين أغرموا بهذه الاجرام السماوية وأنوارها وصاروا لا

يذكرون الله إلا باسم النور ، أو بما هو مشتق من النور ـ كانوا عاشقين لهذا الجمال في الدنيا ، فارجعوه لموجده وسموه باسمه . وترى في القرآن ـ الله نور السموات ـ ومن أسمائه النور .

فالقرآن يسمى الله بالنور كما سمته تلك الامم القديمة الأوربية والجماعات الآرية والجرمانية ، وأمم الهند القديمة . فاتفاق الأمم ـ قديماً وحديثاً ـ على الاتجاه الى النور فى الاسلام وغير الاسلام كان دليلا على ان الأمر عظيم ، فلنوجه العناية لهذا المقام ولنبحث في الصابئة . فانهم من هذا المقام وجهتهم .

الصابئون ـ قوم ينتسبون للروحانيات ، ويظهر ان مذهبهم في القرون الخالية والأجيال البائدة كان القدس والطهارة ، وجمال النفوس والعروج الى المقام الاعلى ، والتشبه بالملائكة والصعود الى الملأ الاعلى ، كما هي القاعدة : ان كل دين يتبعه الناس . فانه فى أول امره هداية للناس ، مناسب لفطرهم ، نافع لمتبعيه ، هاد لمعتنقيه ، ثم يسقط سقطة عظيمة لا يصلح بعدها للانسانية .

كانوا يعتقدون ان للعالم صانعاً مقدساً عن صفات المخلوقين ، وان له ملائكة وهؤلاء الملائكة هم المدبرون للعالم العلوي والسفلي ، فالكواكب السبعة لها ملائكة تدبرها ، كل كوكب يدبره ملك ويصل التأثير من الأعلى الى الأدنى فتكون الهيا كل ـ أي الكوكب ـ آباء والعناصر أمهات . ومن هذا يكون كل موجود من حيوان ونبات وإنسان . وهؤلاء الملائكة يشمل نظرهم كل شيء ، فهم وان كانوا متصرفين فى المادة طاهرون لا يعصون ، ليس لهم طعام إلا التسبيح والتقديس لهم ، وهم أنفسهم فى لذة وحبور وسعادة ليس لها نظير فى الارض ومن عليها .

وهذه الطائفة ـ تقول : نحن نهذب أنفسنا ، ونزيل الغضب والشهوة والاحقاد ، ونرقي فينا النفس الانسانية العقلية ، فنقرب من هؤلاء الملائكة

الذين بهم نتقرب الى الله تعالى .

وقالوا : نحن إنما اخذنا هذا المذهب من (عازيمون وهرمس) العظيمين وعلى ذلك أخذوا يتقربون الى الهياكل التي هي السيارات السبع فعرفوا منازلها ومطالعها ومغاربها ، واتصالاتها على أشكال الموافقة والمخالفة ـ مرتبة على طبائعها وقسموا الايام والساعات والصور والاشخاص والاقاليم .

وتعلموا العزائم والدعوات ، وعينوا لكل يوم من أيام الاسبوع كوكبا فجعلوا لزحل يوم السبت ، وجعلوا ساعته الاولى . وتختموا بخاتمه المعمول على صورته وهيئته وصفته ، ولبسوا اللباس الخاص به وبخروا ببخوره الخاص به ودعوا بدعواته الخاصة ، وسألوا حاجتهم منه . وللمشتري يوم ، والمريخ ، وهكذا كما فى زحل . وقالوا : الله رب الارباب وهؤلاء هم الارباب ، ومنهم من جعل الشمس هي آلهة الآلهة فيتقربون الى الهياكل تقربا الى الروحانيات والى الروحانيات تقربا الى الله .

ولما طال الامد وقست القلوب ـ قالت طائفة منهم : ان الهياكل أي الكواكب السبعة قد تغيب عنا فاتخذوا هياكل فى الارض ـ وهي الاصنام ـ وهؤلاء يسمون أصحاب الاشخاص على مثال الهياكل السبعة وهي النجوم ، فكل شخص في مقابلة هيكل ، فتقربوا وتبخروا ولبسوا وتطهروا وراعوا الوقت والساعة ، والشكل والدعوات والعزائم ـ مثل ما كانوا يصنعون للهياكل ، وقالوا : هذه الاصنام شفعاء عند الله ، أي بواسطة الكواكب ، والكواكب للملائكة ، والملائكة لله .

فياعجباً لهذا الانسان ، شأنه في كل أمر أن يتنزل فيه الى أدنى حتى يذهب من الوجود .

الفصل الثاني

مجادلات الخليل ابراهيم (ع) معهم

كسر إبراهيم الأصنام ـ وهي الاشخاص النائبة مناب الهيا كل ـ وقال : ﴿ أتعبدون ما تنحتون والله خلقكم وما تعملون ﴾ وكان أسم أب إبراهيم تارخ وعمه آزر هو أعلم القوم بعمل الأشخاص والاصنام ورعاية النجوم ، وكانوا يشترون منه الاصنام لعلمه بمواقع النجوم حتى يعمل الاصنام على طريقها ، ولذلك كان الجدال معه .

ومما قاله له : ﴿ أتتخذ أصناما آلهة اني أراك وقومك فى ضلال مبين ﴾ وقال : ﴿ ياأبت لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنك شيئاً ، ياأبت لا تعبد الشيطان إن الشيطان كان للرحمن عصيا ﴾ وقوله ﴿ ياأبت إني قد جاءني من العلم ـ الى قوله ـ أهدك صراطا سويا ﴾ .

فهؤلاء هم الصابئون ، وهذا هو الدين الحنيف فاذاً ـ الصابئون لايقرون بانبياء ، ويقولون : نتقرب الى الله بانفسنا ، ثم تنزلوا الى عبادة الاحجار والاصنام. وأما الحنفاء ـ كأتباع إبراهيم وموسى وعيسى ومحمد عليهم السلام ـ فانهم يقولون : نتبع هؤلاء الأنبياء . هذا ملخص ماذكره علماء الفن ، وقد ذكرناه في غاية الاختصار لمناسبة المقام ، لتحيط علماً بما كان في الزمان الغابر .

حكمة هذه الديانات

إن الله عز وجل جعل هذه الأمم مغرمة بالكواكب السبعة تدريباً لهم وتعليما في زمن كان الفلك غير معروف منه إلا هذه الكواكب السبعة . وقد علم الله تعالى ان الفلك سيتغير في الازمان الحاضرة ، فهيأ أنبياء وأمرهم أن يكسروا الاصنام التي على منوال تلك الهياكل لأمرين :

الاول — ان هذا الدين أصبح أرضيا لا سماويا معكوساً منكوساً فوجب زواله .

الثاني — ان هذه الكواكب السبعة والشمس علم الله أن ستصبح في العلم الجديد لا قيمة لها ، فما هي شمسنا وأرضنا وكواكبنا السبعة ، بل كواكبنا صارت أكثر من سبعة ، والشمس التي كانت إلهًا اصبحت في اخريات الكواكب الكبيرة ، بل اصبحت جزءاً صغيراً جداً .

وقد مهد الله تعالى للنوع البشري — لذلك — من ايام ابراهيم (ع) فلهج الناس بالله وقالوا : لا شمس ولا قمر وانما الله قاهر فوق عباده ، حتى تأهل العقل البشري للنظر في الغاء تلك الالوهية . واتساع العقل الانساني لا يحجبه شمس ولا قمر ، ولا سيار ولا هيكل ولا صنم ولا صورة .

هكذا فعل إبراهيم ، وهكذا فعل موسى وعيسى ومحمد عليهم الصلاة والسلام ، ولولا هذا ما تجرأ العقل البشري على تلك الآلهة في نظره ان يبحث فيها وهذا من السر في تكسير الأصنام ايام ابراهيم ومحمد عليهم السلام .

ولما جاء الاسلام كانت الامم لا تزال في رأيها على رأي الصابئة وهو ان الهياكل السبعة هي ذات السلطان على الدنيا ، فتكون الكواكب سبعاً والسموات سبعا

والايام سبعاً وهكذا ، فلعدد السبعة كان السلطان إذ ذاك ، فنزل القرآن باللهجة المعروفة بين الامم فقيل فيه : سبعا شداداً وقيل : ﴿ سبع سموات ومن الارض مثلهن ﴾ .

ومعلوم ان الاقاليم عند القدماء سبع . فالقرآن جاء في أواخر ايام العلم القديم فجاء على مقتضاه . ولكنه أشار بطرف خفي إلى ان السماوات والكواكب ليست سبعاً ، فقال فى آية اخرى : ﴿ ويخلق مالا تعلمون ﴾ فبهذه الآية يقول لنا أنا وإن كنت أخبرتكم بأني خلقت سبع سماوات . فانى أترك ذكر غيرها حتى تعلموه . لأنى أخلق مالا تعلمون ، وما ذكرت لكم إلا ما يمكن أن تعلموه .

الفصل الثالث

الراويات التى وضعها الناس في هذا المقام

ان كل امة من الامم لها اسلوب فى التعليم خاص ، وأعم الاساليب نفعا الروايات بحيث يجعل العلم على هيئة رواية .

ولقد كان بنو اسرائيل أبرع الناس في الروايات المنسوبة للانبياء ، وقصة الخليل هذه كان لها شأن يُذكر في الامم السالفة ، بلفظها تارة ومعناها تارة اخرى

ولكن انظر ماذا استنبط المسلمون من قصة الخليل «ع» ونظره في النجوم ومن قصص سائر الانبياء .

نعم ـ قد اكتفوا بأن نبينا (ص) فعل بالاصنام مافعله الخليل ، وكسرها وقال : آمنوا بالله فآمنا ، وانتهى الامر واصبح القرآن يتلى للعبادة ، اما التفكر

فأصبح في كتب الفقه وكتب اصول الفقه ، وكتب علوم التوحيد ، وغاب عن الناس إشراق شمس الذات المحمدية ، والعلوم الكونية والانوار القدسية ، والنجوم السماوية ، والانوار الخليلية ، فعظمت البلية وقتلتنا الامم الغربية .

كل ذلك حاصل ، ولكن الناس لا يتذكرون ، يحسون به ولكنهم لا يشعرون يعذبون ولكنهم لا يتوبون .

ياليت شعري — أرضي المسلمون بذلك فناموا ، أم السكرة أحاطت بالفكرة فأصبحوا خامدين ؟ !

قال صاحب لي — وهو من أهل العلم والفضيلة — ألا تذكر نبذة من جمال الفلك تكون تبصرة للقارئين ، وذكرى للذاكرين لمناسبة قصة الخليل ؟

قلت : سأذكر لك نبذة في الفلك وشيئا من أبعاد الكواكب وعددها ، لتنظر كيف قصّر المسلمون ونبغ الغربيون فى القرون الاخيرة . وفلاسفتهم الأقدمون كانوا تلاميذ علماء الاسلام بالأندلس كما هم به معترفون .

يقول العلامة « سديو » الفرنسي — الذي ألف كتاب « تاريخ الامة العربية » : ان علماء اوربا في القرن الرابع عشر والخامس عشر المسيحي — قد ادّعوا انهم كشفوا مسائل فى الفلك والطبيعة وغيرها ، وهم فى ذلك كاذبون سارقون ، وأثبت تلك السرقة بعشرة أدلة : مثل ان اوربا لم يكن بها مراصد فى ذلك الزمان وإنما كانت في ديار الاسلام ، ومثل ان بعض المسائل المكشوفة وجدت في كتب عربية ـ بعد الكشف ـ تاريخ تأليفها قبله بقرون وهكذا .

أقول : فهؤلاء الاوربيون الذين هم تلاميذ آبائنا قد أصبحوا اليوم أرقى من المسلمين فى جميع العلوم ، والمسلمون نائمون خامدون جاهلون ، ولأذكر لك آخر مايصنعون بالفلك وهو :

﴿ عجيبتان ﴾

(الاولى) منظار للبحث فى القمر (الثانية) خريطة السماوات .

اما الاولى — وهي منظار القمر ، وذلك انه فى سنة ١٩٣٦ م صنع في باريس منظار « تلسكوب » يزيد حجمه عن ضعف أي منظار فلكي فى العالم حتى اليوم ، ويؤمل أن يرى بواسطته الكواكب التي لا تشاهد الآن على مسافة خمسة عشر الف مرة منها ، وهذا المنظار يقيمه العالم الفلكي الامريكي « جورج رتشي » ويرى القمر بواسطته على بعد عشرة أميال فقط ، وهكذا يتضاعف أمام النظر الكون المرئي مليونًا وخمسمائة الف مرة فى الحجم .

اما العجيبة الثانية — وهي خريطة السماوات ، وقد اشترك ١٨ مرصداً في عمل هذه الخريطة ، وابتداء العمل كان في سنة ١٨٨٧ وسيستغرق ٧٥ عامًا ، وقد أتم ثلاث مراصد العمل ، وهي مراصد الكاب فى جنوب افريقيا وخرينوتش واكسفورد في انكلترا . وقد بلغت تكاليف الخريطة مليونًا من الجنيهات ، وتحتوي على قسمين مختلفين : احدهما — صورة تخطيطية عامة ، والآخر — الأسماء والأوصاف والمقايسات لما يقرب من نصف مليون كوكب ، وعلى كل مرصد أن يأخذ ألفًا ومائتي لوحة تصويرية مرتين ، وعلى كل لوحة ما يتراوح بين أربعمائة وخمسمائة كوكب ، يقاس كل منها ويقيد باصوله ، ويبلغ ما يخص كل مرصد عندئذ نصف مليون من الكواكب . هذا عمل اوربا ، ولعل هذا هو الذي يرمي اليه الخليل « ع » — وهو الذي يطلبه الاسلام — كان هذا واجبًا على المسلمين وجوبًا كفائيًا .

ان هذه الصور السماوية التي يأخذها الاوربيون نافعة من الوجهة العلمية والتوحيد، ومن جهة ارتقاء النفوس، ومن جهة التجارة. فان كثرة المعارف السماوية الكوكبية تسهل طرق الملاحة، والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم.

قطرة من بحر ملكوت السموات والارض الذي اراه الله لابراهيم (ع) والكلام على الكواكب والقمر والشمس المذكورات في هذه القصة

١ — الكواكب على قسمين: ثوابت وسيارات. اما الثوابت ـ فهي اكثر التي نراها في السماء كل ليلة وهي تبلغ مئات الملايين بالمناظير المعظمة، وان القدماء قد قسموها إلى عدة صور، والمنقول عن بطليموس ان تلك الصور ٤٨ صورة، منها ٢١ في الشمال و ١٥ في الجنوب و ١٣ في الجزء المتوسط بالقرب من دائرة المعتدل. ويشتمل مجموع هذه الثمان والأربعين صورة على ١٠٣٩ نجمة عند القدماء، منها ٣٦١ للصور الشمالية و ٣١٨ للصور الجنوبية و ٣٥٠ للصور المنطقية والاثنتا عشرة صورة المنطقية هي المنازل المعروفة:

وهي — الحمل، والثور، والجوزاء، والسرطان، والأسد، والسنبلة، والميزان، والعقرب، والقوس، والجدي، والدلو، والحوت. والاحدى والعشرون الشمالية — منها. الدب الأصغر أو بنات نعش الصغرى، والدب الاكبر، والثعبان، والملتهب، والعواء، والجاثي على ركبتيه، والمرأة المسلسلة. والخمس عشرة صورة الجنوبية منها — قيطس، الجبار، نهر الاردن، الأرنب، الكلب الأصغر،

الـكلب الاكبر ، السفينة ، الشجاع ، الـكاْسى، الغراب ، المجمرة ، سنطورس ...
وقد جعلوا هذه النجوم اقداراً فاضوأها القدر الاول ، ويليه الثاني وهكذا
والمتأخرون حافظوا على هذا التقسيم ولـكنهم رأوا ان النجوم اكثر ،
حتى جعلوهـا ستة آلاف نجمة لذوي الأبصار الحادة ، ومئات الملايين بالآلات
الراسمة ، ومن هذه الثوابت الآتى :

١ — النجوم المتغيرة ـ فلا يحفظ ضوءها شدة واحدة ، وهذا التغير فيهـا
اما لمدة معلومة ، واما ليس يعلم له دور .

٢ — ومنها النجوم الوقتية الجديدة ـ فقد تظهر نجوم فى محال من السماء لم
ير فيها نجوم من قبل ثم تختفي ، مثل النجمة المشهورة التي رصدوها سنة ١٥٧٣ فى وسط
ذات الـكرسي فـكانت أضوأ كوكب في السماء ، ثم أخذت تنقص تدريجاً ، ثم
اختفت بعد ١٧ شهراً .

٣ — ومنها النجوم التي ظهرت ثم بقيت ـ مثل نجمـة ظهرت فى صورة
الاكليل الشمالي سنة ١٨٦٦ م ظهرت كلؤلؤة ثم ضعفت ، ولا تزال إلى الآن
ولـكن ترى بالمناظير .

٤ — ومنها النجوم التي اختفت ولم ترجع .

٥ — ومنها النجوم المزدوجة ـ إذ بعض النجوم التي نراها واحدة بالعين
تكون فى الواقع نجمتين ، وقد عدوا منها ٧٠٠ مجموعة إلى الآن .

٦ — ومنها النجوم المضاعفة ـ بأن تكون النجمة واحدة بنظر العين ولـكنها
تكون ثلاثاً أو أربع شمس بالمنظار ، ومنها نجمة من الجبار مركبة من ست شموس .

٧ — ومنها القنوان والسدام ـ فالقنوان جمع قنو مثل صورة الثريا الموضوعة
في صورة الثور ، وهي مركبة من ٨٠ نجمة و ٦ منها ترى بالعين . والسدام ـ جمع

سديم وهو الضباب الرقيق ، وعند الفلكيين نجوم صغيرة القدر جداً متقاربة حتى ترى كأنها سحابة أو ضباب ، أو قطعة نيرة سحابية لا تحل إلى نجــوم مفردة بالنظارات القوية .

وملخص هذا النوع ثلاثة أقسام : فان أمكن حله بالنظارات سمي مجموعة كوكبية ، مثل « قنوتوكان » وهذا في قسم السماء الجنوبي ، ويرى دائماً بالعين العادية وإن أمكن حل البعض منها فانها ترى على هيئة شكل منتظم كثيراً أو قليلا ، وإن لم يمكن حلها أصلا فشكلها الذي يُرى يكون غير منتظم .

٨ — ومنها طريق المجرة ـ وهي منطقة ضيقة بيضاء يراها الناس جميعاً في الليالي الصافية ، تقسم الكرة السماوية إلى قسمين متساويين تقريباً ، ولا تقل النجوم التي فيها عن ١٨ مليون نجمة ، ولبعد هذه النجوم ترى كأنها لبن أو تبن ، هذه هي النجوم الثابتة .

اما السيارات ـ فانها قليلة جداً ، والفرق بينها وبين الثوابت أن الأولى ضوءها هادىء ساكن ، وأن الثانية متلألئة الضوء ، وتظهر كأنها نقط مضيئة قطرها الظاهري صغير جداً بحيث لا يمكن قياسه ، ولبعض السيارات أشكال كأشكال القمر .

وقد لاحظ الناس قديماً ان بعض النجوم لها حال خاصة ، مثلا يرون في ليلة ما ان كوكباً من هذه الكواكب ظهر بجوار نجم ثابت ، وفي الليلة الثانية يرون انه قد تأخر قليلا إلى المشرق ، وهكذا كل ليلة . ولا زالوا يراقبون كوكباً فكوكباً حتى عرفوا هذه الكواكب على هذا الوصف ، وهي : عطارد ، والزهراء والمريخ ، والمشتري ، وزحل ، وأضافوا إلى هذه الخمسة القمر والشمس .

ولما رأى علماء العصر الحاضر ان الشمس مركز العالم ، وان القمر يدور

حول الارض ، وان الارض تدور حول الشمس بعكس ما كان يظنه الأقدمون ان الارض مركز العالم والشمس والقمر وغيرهما يدرن حولها .

أقول : لما عرفوا ذلك ـ لم يعتبروا الشمس ولا القمر من السيارات ، بل جعلوا الارض سياراً كاخواتها الخمس المذكورات ، وزادوا عليها ما كشف سنة ١٧٨١ وهو « اورانوس » وما كشف سنة ١٨٤٦ وهو « نبتون » فتكون السيارات إذن ثمانياً والارض منها ، وكل هذه السيارات تتم دورتها حول الشمس في أزمان غير متساوية وغير متغيرة .

وقد وجدوا انه كما ان للارض قمراً فللمريخ قمران ، وللمشتري ولأورانوس لكل منهما أربعة أقمار . ولزحل ثمانية ، ولنبتون واحد كالارض ، وترى للزهراء ابتعاداً عن الشمس بعد غروبها .

ولا تزال تبتعد ليلة فليلة بحركة تسمى طردية إلى أن تبلغ ٤٨ درجة تقريباً يراها جميع الناس مساء . وكان يسميها الأقدمون « نجمة الليل » ثم تكر راجعة بحسب مرأى العين حتى تختفي ثانياً تحت أشعة الشمس ، وبعد أيام قليلة تظهر قبل شروق الشمس وتسمى « نجمة الصبح » وهذه تسمى حركة تقهقرية لأنها من الشرق إلى الغرب حتى تبلغ ٤٨ درجة ثم تصير حركتها طردية ثانياً — أعني من المغرب إلى المشرق ـ وتدخل تحت أشعة الشمس .

وهذا كله بحسب الظاهر وإلا فان الحقيقة ان لا رجوع ولا وقوف وإنما ذلك بسبب النظر الظاهري الذي يحصل بسبب دوران الكوكب في مداره ، كما هو معروف في محله بالبرهان ، وبهذا نفهم قول الشاعر :

وللنجم من بعد الرجوع استقامة   وللشمس من بعد الغروب طلوع

وهذه الظواهر التي تراها بعينك للزهراء ـ تراها ايضاً لعطارد الذي هو

وهي سياران سفليان ، وإنما يتباعد هو ٢٣ درجة فقط ، ومدة الدورة الاقترانية للزهراء ٥٨٤ يوما ، ولعطارد ١١٦ يوما .

واما المريخ فانه يبتعد إلى ١٨٠ درجة ، فله ولسائر الكواكب العليا اجتماع واستقبال كالقمر ، اما الزهراء وعطارد فليس لهما إلا الاجتماع ، اما الاستقبال فهو مستحيل ، إذ الاستقبال لا يكون إلا بالمقابلة على بعد ١٨٠ درجة . وهذان لا يبتعدان إلا إلى ٢٣ درجة لأحدهما . و ٤٨ درجة للثانى ، فكيف يكون استقبال كاستقبال القمر ؟ وللمريخ حركة طردية وتقهقرية بحساب أوسع مما تقدم .

بيان وصف السيارات

﴿ عطارد ﴾

أقرب السيارات إلى الشمس ، يتم دورته ٨٨ يوما تقريباً وترى الشمس فيه اكبر سبع مرات مما ترى من الارض ، وشدة ضوئها وحرارتها تكون اكبر سبع مرات ايضا منها على الارض ، وله أشكال كأشكال القمر .

﴿ الزهراء ﴾

الشمس ترى فيها اكبر مما ترى من الارض مرتين تقريباً ، وكذا الحرارة والضوء ، وحجم عطارد صغير جداً ، اما حجم الزهراء فانه يقرب من حجم الارض ، وأيام دورتها ٣٣ يوما تقريباً .

﴿ الارض ﴾

محيط الأرض يبلغ ٤٠ مليون متراً ، ونصف قطر خط الاستواء ٤٠٠ر٣٧٨ر٦ متراً .

أعلى الجبال المعروفة لايزيد ارتفاعه عن سطح البحر عن ٩٠٠٠ متراً ، وهو جزء من سبعمائة جزء من نصف قطر الارض ، واذا رسم على كرة قطرها متر لايزيد ارتفاع أعلى الجبال ـ كجبال هملايا ـ عن السطح العمومي بأكثر من مليمتر ونصف ١ر٤ مليمتر . العمق المتوسط للبحار ٦٠٠ متراً .

نهاية عمق البحار ١٠ر٠٠٠ متراً .

السطح الكلي للارض يبلغ ٥٠٩ مليون كيلو متراً مربعاً .

مياه البحار تشغل منه ٣٨٣ر٠٠٠ر٠٠٠ كيلو متراً مربعاً .

اليابسة ١٣٦ مليون متراً مربعاً . حجم الارض يزيد عن الف مليار كيلو متراً مكعباً ١ر٠٧٩ر٥٠٠ر٠٠٠ر٠٠٠ أي اكثر من الف الف الف كيلو متراً مكعباً .

سمك الجو قدره ٤٨ر٠٠٠ متراً .

مدة دورة الارض حول الشمس ٣٦٥ يوما و ٢٥٦ جزءً من الف جزء من اليوم .

بُعد الارض عن الشمس يساوي ٣٨ر٠٠٠ر٠٠٠ فرسخاً تقريباً ، أو ٩٣ مليون ميل تقريباً ، ويقطع الضوء المسافة المذكورة في ثمان دقائق و ١٨ ثانية والقطار السريع فى ٣٥٠ سنة تقريباً ، وقلة المدفع فى ١٢ سنة تقريباً .

﴿ المريخ ﴾

السيار الذي يلي الزهراء بالنسبة للشمس هو الارض ، وقد تقدم الكلام عليها ، والذي يليها هو المريخ وبعده المتوسط عن الشمس قدر بعد الارض عنها مرة ونصف مرة ، ومقداره ٣٣٥ مليون كيلو متراً ، ويرى قرص المريخ من

الارض ذا أشكال ، ولا يظهر وقت البدر كامل الاستدارة ، بل يشبه قرص القمر قبل أو بعد البدر بيومين أو ثلاثة .

حجم المريخ يبلغ نحو سدس حجم الارض ١٤٧ر٠ ويظن ان فيه بحاراً وقارات وسحبا وقطبين يخيم عليهما الثلج ويترا كم ، ويمتد شتاء هناك ويقـل امتداده فى صيف المريخ ، فهو في هذا كالارض .

وكشف قمراه سنة ١٨٧٧ م وهما (فوبوس) و (ديموس) وأولهما أقرب اليه من ثانيهما ، وسنة المريخ ٦٨٦ يوما و ٩٨٠ جزأ من الف جزء من اليوم .

﴿ المشتري — أبعاده ﴾

هو اكبر جميع السيارات وحجمه قدر حجم الارض ١٣٠٠ مرة ، وقطره يساوي ١٤٠٠٠٠ر١٤٠ كيلو متراً . فهو قدر خط الاستواء الارضي ٢١ مرة ، وبعده عن الشمس في المتوسط ٧٧٠ مليون كيلو متراً .

سنة المشتري تعادل ١٢ سنة من السنين الارضية ، له جو يظن انه سميك جداً . وفيه كتل سحابية تحملها رياح - كما في الارض - وهي منتظمة انتظامها ، وللمشتري أربعة أقمار ولها كسوف كما فى قمرنا .

وقد عيّن العلماء مدد دورات تلك الاقمار وأبعادها بالفراسخ وانصاف اقطارها ، كما فعلوا فى أرضنا وقمرنا ، وسموا تلك الاقمار بأسماء منها : (يو) و (جاليستو) . . .

﴿ زحل ﴾

إمتاز زحل بان له حلقات منفصلة عن الكرة وتدور حوله في خط استوائه . والبعد المتوسط لزحل عن الشمس قدر بعد الأرض عنها تسع مرات ونصف أعني ١٤٠٠ مليون كيلو متراً تقريباً ، ويقطع مداره في ١٠ر٧٥٩ يوما ، أعني ٣٩ سنة ونصفاً تقريباً . وحجم زحل قدر حجم الارض الذي عرفته ٧١٨ مرة وقطره ٩ر٣٩٩ بأخذ نصف قطر الارض وحده . وفصول زحل مشابهة لفصول أرضنا ، وكل فصل تزيد مدته عن سبع سنين من السنين الارضية .

مجموع حلقات زحل

وهي ثلاث حلقات سمكها رقيق جداً ، وعروضها غير متساوية والحلقة الخارجة مفصولة عن المتوسطة بفراغ ، وأما الحلقة الداخلة التي هي أقرب الى السيار فيظهر انها ملاصقة للثانية والوسطى ألمع الثلاثة وأكثر إستضاءة من كرة زحل ، والحلقة الخارجة لونها سنجابي مثل الاحزمة المعتمة من القرص تقريباً ، وكلا هاتين الحلقتين مظلمتان وتحدقان على زحل ظلا ظاهراً جداً .

ومجموع عروض هذه الحلقات ٦٠٠٠٠ كيلو متراً تقريباً .

أقمار زحل

وهي ثمانية وقد سماها العلماء باسماء مثل (سيماس) و (ديوني) و (ريا) الخ وعينوا مدة دوراتها وأبعادها بالكيلو متر وأنصاف أقطارها ، وقالوا ان أكبرها هو المسمى (تيتان) فحجمه قدر حجم قمرنا ثلاث مرات ، وهو أضوأها ثم

كشف بعد ذلك قمران أحدهما سنة ١٨٩٨ م والثاني سنة ١٩٠٤ م كشفهما عالم أمريكي ، وأغرب هذه الاقمار العشر القمر التاسع ، فان الاقمار كلها تدور حول الكوكب من الغرب الى الشرق ولكن هذا يدور من الشرق الى الغرب .

(أورانوس) قد كشف سنة ١٧٨١ م كشفه (هرشل) والمسلمون نائمون مختلفون .

حجم (أورانوس) قدر حجم الارض ٦٩ مرة ، بعده المتوسط عن الشمس ٦٧٥ مليون فرسخ ، ودورته ٨٤ سنة تقريباً أو ٣٠٦٨٧ يوما بالضبط وله أربعة أقمار وقد سماها العلماء و بينوها بالمساحات ، ومعرفة الإبعاد ، ومدة الدورات ، مثل قولهم (اوبرون) و (اريل) وهكذا .

السيار — نبتون

هو لا يتم دورته حول الشمس فى أقل من ١٣٥ سنة تقريباً ، ولا يمكن أن يرى بالعين المجردة ، وقطره يساوي ٨٠ر٣ إذا أخذ قطر الارض وحده ، وحجمه قدر حجم الارض ٥٥ مرة تقريباً ، وله تابع واحد يتم دورته حوله فى خمسة أيام وأحدى وعشرين ساعة ، وهو قمره .

سيارات صغيرة

هناك منطقة بين المريخ والمشتري رأوا فيها كواكب صغيرة جداً كأنها كانت كوكبًا مثل المشتري أو نحوه ثم تحطم ، وهذه شظايا وقطعة ، فهي تدور في مداره بين الكوكبين ، وهناك ذوات الاذناب المسماة عند القدماء ـ بذوات الشعور ـ وهي عدد عظيم من الكواكب التي تتحرك حول الشمس ، ولها

أذناب كأنها سحابات مستضيئات . وقد شوهدت نجوم ذات ذنبين بل أكثر ، وذوات الاذناب تزيـــد عن ٨٠٠ وبزيادة الكشف يحتمل أن تعد بالملايين في المستقبل .

قال (كبلر) : إن عدد ذوات الاذناب كعدد سمك البحار .

ومن ذوات الاذناب ما علم ان مدةدورتها حول الشمس تعد بألوف السنين أو بمئات الالوف منها . ومن المعروفة جداً المذنب المسمى (هالي) ومدة دورتها ٧٦ سنة تقريباً حول الشمس ، ومنها ذات الذنب (انك) ومدتها ٣ سنين و ٣١٠ ايام .

وهناك ذوات أذناب قال الفلكيون برجوعها ولم ترجع ، وقد ظهرت فى الجيل التاسع عشر ذوات أذناب لامعة لمعاناً شديداً ، وأشهرها التي ظهرت سنة ١٨١١ م وقد أثرت تأثيراً غريباً عجيباً ، وهي لاترجع إلا بعد ثلاثة آلاف سنة وذات الذنب التي ظهرت سنة ١٨٤٥ هي ألمع جميع ما رؤي من ذوات الاذناب حتى ان قلبها وجزءً من ذنبها كان يرى فى النهار ، وهي قريبة من الناظر اليها . وضوء ذوات الاذناب من إنعكاس ضوء الشمس .

الشهب ـ الحجارة الجوية

يرى الناس في أكثر الليالي ما يشبه شعلا نارية تمر بسرعـــة فى الجو ، ترسم منحنياً مستضيئاً وتختفي بسرعة بعد بضع ثوان . وتسمى ـ نجوما ساقطة وشهباً ـ وما هي الا أجسام صغيرة جداً حول الشمس كما تجري ذوات الاذناب والسيارات الكبيرة والصغيرة ، فمتى قابلت الجو الارضي سخنت بمقابلة الهواءلها حتي تصير لامعة من الاحتراق ، ويرى وراءها ذيل مضيء ناشيء من إحتراقها

ويرى ثواني أو دقائق ثم يختفي ، وقد تكثر تلك الأجسام في بعض الليالي .

والكرات النارية كالشهب غير أن حركتها بطيئة وتحدث فرقعة بالقرب من الارض ، وما وقع منها على الارض يسمى « الحجارة الجوية » والكرات النارية القليلة .

الى هنا إنتهى الكلام على السيارات ، وذوات الأذناب ، والشهب والحجارة الجوية ، والكرات النارية .

وإني أحمد الله عز وجل الذي ألهم وعلم وسهل ، حتى إختصرت المقام إختصاراً ، وأحضرت بعونه تعالى بين يديك ملكوت السموات والارض لتكون من الموقنين .

الكلام على القمر المذكور في الآية

سطح القمر يساوي واحداً من ١٤ من سطح الارض تقريباً ، وحجمه يساوي واحداً من خمسين من حجمها تقريباً ، والبعد المتوسط لمركز القمر عن مركز الارض يساوي نصف قطر خط الاستواء الارضي ٢٧٣ ر ٦٠ مرة .

للقمر ٣٣ جبلا إرتفاعها يزيد عن ٤٨٠٠ مترا وهو إرتفاع الجبل الأبيض وقد سماها العلماء باسماء وقاسوها بالأمتار ، مثل إرتفاع جبل (دورفيل) وهو ٧٦٠٣ أمتار وتلك الجبال صفاتها بركانية بالكلية ؛ ولها من أعلاها فوهات مستديرة قطرها يبلغ ١٥ فرسخاً وعمق التجاويف يزيد عن الارتفاع الخارجي ، وقد يصل الفرق الى ٧٠٠٠ او ٨٠٠٠ متراً ، وليس للقمر جو وماء على سطحه ،

وعرفوا هذا بكسوف النجوم التي تمر خلف الحافة المظلمة بقرص القمر ، فانها تنطفىء بغتة فلا يحصل فيها نقص تدريجي بسبب غاز يحيط به ، واذا انتفى

هذا فلا يكون هناك بخار ولا نوع من السوائل ، وكيف يكون هناك ماء والماء لايحفظه من الانطلاق فى الجو على هيئة بخار مرة واحدة إلا ضغط الجو الهوائي ، فاذا لم يكن جوّ ذهب الماء حالا ، فاذاً ـ لا يمكن أن يكون هناك نبات ولاحيوان فالغالب ، على الظن ان القمر غير مسكون .

الـكلام على الشمس وهي الثالثة فى الآية

نصف قطر الشمس ٦٩٢٠٠٠ كيلو متراً ، وسطحها قدر سطح الارض فيما تقدم ١١٨٠٠ وحجمها قدر حجم الارض ٠٠٠ر٢٨٠ر١ مرة ، وبُعدها عن الارض قد تقدم هناك .

ضوء الشمس ـ كما قال « اراجوا » ـ أشد من ضوء ٠٠٠ر١٥ شمعة وهو قدر ضوء البدر ٠٠٠ر٣٠٠ مرة ورأى « والستون » انه بقدره ٠٠٠ر٨٠٠ أي انه يلزم ثلثمائة الف بدراً وثمانمائة الف بدر في السماء لاحداث نهار مضيء كنهار الشمس في وقت صحو .

﴿ لطيفة ﴾

وههنا عجب عجاب فنقول : ان مسألة الانوار ذات حكمة عالية تُرينا اختلافا باهراً . فبينما نرى الـكواكب فى السماء وهي تبلغ نحو ستة آلاف أو أقل أوأكثر تُرى بالعين المجردة ، وكل منها له نور ومع ذلك لا تضيء لنـا الطرق والمسالك لضعف ضوئها الواصل الى أرضنا . فالنجمة الواحدة ضوءها جزء من ستة آلاف جزء من المجموع . وهذا كله ليس شيئاً مذكوراً — بالنسبة للبدر الذي نوره جزء من ثمانمائة الف جزء من نور الشمس ، ونور الشمس جزء من ثمانية آلاف

جزء من نور السماك الرامح ، والسماك الرامح وراءه كواكب أضوأ منه .

وهذا غاية العجب أن يكون ضوء الكواكب الواصل الينا جزءً من مئات الآلاف من ضوء البدر ، وهو جزء من مئات الآلاف من ضوء الشمس ، وهو جزء من آلاف من ضوء كوكب آخر يبعد عنا مائتي سنة بسير النور ، وهوالسماك الرامح كما تقدم . فاذاً ـ اختلاف الأنوار المشاهدة يفوق التصور ، فان نسبة البدر إلى السماك الرامح ٨٠٠٠ في ٨٠٠ر٠٠٠ر٠٠٠ر٠٠٠ر٤٠٠ر٦ أي جزء من ستة آلاف وأربعمائة مليون من ضوء السماك الرامح .

فصل

فى نسبة ضوء الشمس إلى أضواء الكواكب على حسب منظرها من الارض

لقد علمت نسبة البدر إلى الشمس ، وان أعظم مقدار له قدّره العلماء انه جزء من ثمانمائة الف جزء من ضوء الشمس ـ أي انه لو كان هناك ثمانمائة الف بدر لكان ضوءها مجتمعة يساوي ضوء الشمس . اما النجوم فان أضوأها وألمعها ـ كالشعرى اليمانية ـ يحتاج ضوءها الواصل الينا إلى مقدار عشرة آلاف مليون مرة حتى يصل ذلك كله إلى أن يكون كضوء الشمس .

وأوسط الكواكب ـ كالعيوق ـ يحتاج ضوءه إلى مضاعفته ستاً وخمسين الف مليون مرة ، فلو ان هناك ٥٦ الف مليون نجمة في ليلة واحدة لصار الليل نهاراً

وأضعف الكواكب قد قيس نوره فوجد أنه لو جمع نور ٥٠٠ الف مليون من أمثاله يساوي نور شمسنا .

هذه هي المباحث التي برزت على يد العلماء في امريكا واوربا ، التي بذلت للناس قاطبة ـ ونحن منهم ـ والتى بها عرفنا جمال الله وبدائع صنعه وغرائب حكمه وهذا بعض ملكوت السماوات والارض الذي يورث اليقين .

يظن صغار العقول من المتعلمين والجهلاء ان نظر الخليل «ع» إلى الكواكب وإلى القمر وإلى الشمس بالنظر الظاهري ، وعلى هـذا لا يكون هناك فرق بين نظر الخليل ونظر العامة والجهلاء .

فاذن — اليقين أمر سهل . وهذا من الغرور الذي طمس على البصائر في امتنا ، فتركوا العلوم فأرسلها الله إلى اوربا لما أغفلها وجهلها المسلمون . ألا وان ماذكرناه ونحوه ظواهر الملكوت ، وأحوال الناس تختلف فمنهم من ارتقوا وأدركوا بواطن لايدركها إلا هم ﴿ وفوق كل ذي علم عليم ﴾ .

لقمان والحكمة

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ ولقد آتينا لقمان الحكمة أن اشكر لله ومن يشكر فانما يشكر لنفسه ومن كفر فان الله غني حميد * وإذ قال لقمان لابنه وهو يعظه يا بني لا تشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم * ووصينا الانسان بوالديه حملته امه وهناً على وهن وفصاله فى عامين أن اشكر لي ولوالديك إلي المصير * وإن جاهداك على أن تشرك بي ماليس لك به علم فلا تطعهما وصاحبهما في الدنيا معروفاً واتبع سبيل من أناب إلي ثم إلي مرجعكم فأُنبئكم بما كنتم تعملون * يا بني انها إن تك مثقال حبة من خردل فتكن في صخرة أو فى السمٰوات أو فى الارض يأت بها الله إن الله لطيف خبير * يابني أقم الصلاة وأمر بالمعروف وانْهَ عن المنكر واصبر على ما أصابك إن ذلك من عزم الامور * ولا تصعّر خدك للناس ولا تمش في الارض مرحاً إن الله لا يحب كل مختال فخور * واقصد فى مشيك واغضض من صوتك إن أنكر الأصوات لصوت الحمير ﴾ (١) .

---

(١) لقمان : ١٢ — ١٩

هنا لطيفتان : الاولى — فى معنى قوله تعالى : ﴿ وإذ قال لقمان لابنه ﴾...
الثانية — في الكلام على لقمان «ع» :

اللطيفة الاولى

في معنى آية : ﴿ إذ قال لقمان لابنه . . . ﴾

ابتدأ لقمان فنصح ابنه بنصائح مبتدئاً بأهمها : وهو التوحيد ، فأمره بألا يشرك به . وعلل ذلك بأن الشرك خلاف العدل ، وأعقب ذلك بوصف الله بصفة العلم العام للعالم العلوي والسفلي ، وانه لا تخفى عليه خافية في صخرة أو سماء أو في أرض . فهو يعلم كل خافية ويقدر أن يأتي بأدق الاشياء أين كانت .

ولما أتم ذلك أخذ يأمره بتكميل نفسه وذلك بالعبادات التي أهمها الصلاة لمن يعلم مافي قلبه ولا يخفى عليه خافية ، فاذا عرف ربه وكمل نفسه لم يبق بعد ذلك إلا إفاضة الخير على الناس ، وذلك بالامر بالمعروف والنهي عن المنكر . فان العظيم من يكون مثلا أعلى للناس ينفع نفسه وينفعهم ، فيكون كالكواكب المشرقة على الناس .

ولا جرم ان الهداة معرّضون لأذى الناس ، فلذاك أمره بالصبر على ما يصيبه منهم وما يبتلى به في جسمه أوماله أوأهله ، فمن لا صبر له لا يكون كاملا . ثم مدح الصبر مدحا كبيراً .

فاذا كمل الانسان وكمل غيره واعتصم بالصبر على أذاهم — فانه لاجرم يستهدف لذنوب عظيمة وهي الخيلاء والكبرياء ، فامره بعدم التكبر وعدم الخيلاء والاعجاب بالنفس ، فيقول : من ذا مثلي علماً وعملا وهداية للناس وصبراً تاماً ،

فمن فى الناس مثلي ؟ !

ولما كان الانسان قد يحمله طلب الكمال على الاسراع في قضاء الحاجات فيمشي لها مسرعا ، وقد يحمله الاعجاب والكبرياء ان يدب دبيباً متعاظما — أمره أن يكون مشيه وسطاً ، والوسط حسن فى كل شيء وهو العدل . انتهى الكلام على اللطيفة الاولى .

اللطيفة الثانية

اضطربت أقوال علماء التفسير في لقمان من هو ؟ ومن أي الامم هو ؟ تبعاً لعلم التاريخ وأقاصيص الامم ودياناتها .

فبنو اسرائيل عدوه من انفسهم وقالوا : انه كان في زمن داود ، وأنه خُير بين النبوة والحكمة فاختار الحكمة .

وقال قوم : انه كان عبداً حبشيا . وقال قوم : انه كان خياطاً . وقال آخرون : انه نجار ، ولم يذكروا من أي الاقوام هو . وآخرون قالوا : هو راعي غنم . وقال قوم : كان عبداً أسود عظيم الشفتين .

فهذه الأقوال منقولة عن الامم التي قبلنا ، ولكن الجميع متفقون أن حكمته ذاعت فى الامم كلها وذكروا بعضها .

ان هذا الحكيم الذى ذاع ذكره فى جميع الامم — قال عنه اليونان : انه منهم ، وكانوا يسمونه (ايثوب) من قرية تسمى (امرتوم) وكانت ولادته بعد تأسيس (مدينة رومه) بمائتي سنة ، ويقولون : انه كان من سقط المتاع فى الجسم ،

مشوه الخلقة والوجه ، معقود اللسان . ولما اشتراه أحد الفلاحين أرسله الى الحقل ليريح الناس من قبح وجهه ، ولكن الله لما خلق القبح في وجهه عوضه حكمة في عقله ، كما عوض العمي عن البصر ذكاء في الأفئدة .

ولقد بقي هذا العبد معقود اللسان أمداً طويلا ، ولا يتكلم إلا بالاشارة، وبينما هو نائم ذات ليلة إذ رأى ملكا جاءه في صورة انسان وحل العقدة من لسانه ووهبه علم الحكمة .

فلما استيقظ أحس بانطلاق لسانه وصار من فرحه يحدث نفسه ، فسمعه رئيس الخدم يتكلم مع نفسه بفصاحة فذهب الى سيده وقال : هذا العبد خبيث لأنه يدعي انعقاد لسانه وهو فصيح ، فامره ببيعه ، فلما عرضه على تاجر ليشتريه أعرض عنه احتقاراً لشأنه ، فقال له (ايثوب) اشترني وأنا انفعك ولا أضرك بشيء ، فان كان لك أولاد فخوّفهم بي كأني عفريت من العفاريت ، فاشتراه بثمن بخس ، وأخيراً باعه هذا الرجل من فيلسوف وله معه نوادر :

النادرة الاولى

سأل الفلاح في البستان الفيلسوف سيد « ايثوب » فقال له : لماذا أرى القطعة التي لاأخدمها من هذا البستان تنبت اكثر واكبر من القطعة التي أخدمها؟ فقال الفيلسوف سيد ـ ايثوب ـ « لقمان » : هذا فعل الطبيعة ، فضحك «ايثوب» وأخذ سيده على جانب وقال له : قل للفلاح ان هذه مسألة صغيرة لا قيمة لها وعبدي هو الذي يجيب عليها ، ففعل سيده فذهب « ايثوب » للفلاح وقال له :

ان الارض تشبه امرأة ذات أولاد فتزوجت برجل آخر ذي أولاد من امرأة غيرها ، فهي تلتفت إلى أولادها ليكونوا أحسن من أولاد الزوج .

النادرة الثانية

ان امرأة سيده غضبت فاشترى سيده أصنافا من الحلوى إرادة صلحها ، وقال : اعطها لحبيبتي ، فأعطاها الكلبة عند سيده - وكان يحبها - فلما رجع سأل زوجته عن الحلوى فقالت : لم يأتني شيء ، فسأل لقمان ؟ فقال : أنا أعطيتها لحبيبتك كما أمرت ، لأنها تتحمل الذل والاهانة وتضرب ثم ترجع لك ، فأما المرأة فانها غير حبيبة لأنها تطلب الطلاق لغير سبب .

النادرة الثالثة

ان زوجة سيده غضبت وأبت الرجوع من بيت اهلها . فقال له : اشتر أشياءً لوليمة وادع لها من احببت ، وأشع انك تريد الدخول بامرأة غيرها فلا بد انها ترجع عناداً او غيرة .

النادرة الرابعة
وقد ذكرها المفسرون

جاء لسيده ضيوف اعزاء ، فقال له : اشتر احسن كل شيء ، فاشترى ألسنة الدواب ، كالثور ، والكبش ، والجاموس . وأمر الطباخ أن ينوع الطعام فلما أكل الضيوف سأموا لأنهم وجدوا أول الطعام وآخره اللسان ، فقال له : ألم أقل لك إشتر أحسن كل شيء ؟ قال : وأي شي أحسن من اللسان ، هو رابطة العائلات ، ومفتاح العلوم وآلة الحق ، وبه تبنى المدن وتضبط ، وبه يحصل التعليم وإلزام الحجة والحكم في الامم .

فقال : لك الحق . وفى اليوم الثاني دعاه وقال : إشتر أقبح كل شيء فى السوق ، فاعد الطعام كاليوم الاول فلما سألوه قال : إن اللسان أقبح كل شيء ، هو أبو المتناقضات ، ورأس المشاكل والدعاوي ، ومنبع الشقاق والحروب ، وإن قيل عنه آلة الحق فهو آلة الغلط والنميمة ، وبه تخرب المدن ، وبه المسبة وبه العار .

فقال بعض الضيوف : إن هذا فى إمكانه أن يقنع كل فيلسوف ، ثم علا أمره وعظم شأنه ، حتى صار يحضر مجالس الأعيان ويشاورونه في امر الحرب والصلح . وله حيل في ذلك عظيمة جداً ، وكم أنقذ سيده من مشكلات حتى انه أعتقه .

وقد كان في أهل « ساموس » فتحرك يوما ملك « اللديان » على أهل « ساموس » وأرسل لهم رسولا يخيفهم من بطشه فيدخلون تحت طاعته ، فقالوا

اليه وخافوا من الحرب ، فقال له لقمان : (إن الدهر فتح للناس طريقاً للحرية كثير الصعوبات والاهوال ولكنه هنيء العاقبة ، وطريقا للاستعباد أوله سهل وآخره لا يطاق) .

فرجع السفير وأخبر الملك فطلبه — فارسل اليه فحقره لما رآه ، وكان أراد قتله ولكن حكمه وحسن تخلصه جعله يعفو عنه ، وبقي عند ذلك الملك مدة، ثم إنه أخذ يسيح فى الارض فقابل ملك بابل وغيره ، ونال شهرة عظيمة ونالت حكمه ذيوعا فى الارض .

الحكمة في ذكر لقمان الحكيم في القرآن مع ان امره غير بيّن من حيث النسب

ان الله عز وجل لما ذكر نعمه الظاهرة ونعمه الباطنة ، فالأولى بما في السموات والارض . والثانية بالحكمة والعلم ـ إختار للثانية رجلا لا يعرف نسبه على التحقيق ، تتنازعه الامم ليرينا إن الحكمة ليس لها مكان ، وان الله يأمرنا أن نأخذ الحكمة أنى وجدناها من عبد وحر ، معلوم الاصل ومجهوله وقديم وحديث .

بهذا نعلم أن النفوس الانسانية كلها متعاونة ـ قديمها وحديثها ، واولها وآخرها ، وجميلها وقبيحها ، وسيدها ومسودها ـ على العلم ونشره وان نفوس الاولين مشوقة لتعليم نفوس الآخرين بالكتب والتآليف ، والنقش على

الاحجار وبالاخبار ، كل ذلك ليعلمنا الله أن الارواح جميعها متصلات من ملك ونبي وحكيم وعالم ، وان ما نراه من إختلاف الناس وان زيداً يكره دين عمرو لأنه ليس من معتقدي ذلك الدين وما أشبه ذلك .

كل ذلك نقص فى نوع الانسان ، فعليهم جميعاً ان يأخذوا الحكمة أنى وجدوها لأنهم لله راجعون ، وهو الحق ولا يقوم شيء إلا بالحق .

وأن عالم الارواح أشبه بعالم الاجسام من حيث التعاون والارتباط فاذا رأيت الشمس تضيء على الارض بلا جزاء ولا شكور ، والارض وما عليها كلٌ يعين الباقي ، وان زيداً لا يعيش الا بنظام دولته وأسرته وحكومته وأمم الارض المساعدات لامته ، والشمس والارض ودورانها على الشمس وهكذا عوالم متلاحقة وان الى ربك المنتهي .

فالعلوم ترسل من العقول الكبيرة الى الصغيرة ، ومن المتقدمة الى المتأخرة لتلاحق الارواح ، وتحاب النفوس ، وإن العظيم العلم حريص على سعادة الجاهلين .

بهذا يوصي الله الامة الاسلامية قائلا : ﴿ ولقد آتينا لقمان الحكمة ﴾ والحكمة مستخرجة من المخلوقات التي أمامكم فالدنيا كأنها لوح ، وصور الحيوانات حروف وكلمات ، ولا يعقل ذلك الا الحكماء ، وهم هم الذين يشكرون الله ، فان شكر الله بمعرفة علمه وقبول صنعه .

ولقد رأيت كثيرا من هذه الحكم في كتب الاوربيين ، فلأحرر لك ما شاهدته من تلك الحكم لتأنس وترتاح بفوائدها .

كتاب كليلة ودمنة

ومن هذا القبيل كتاب (كليلة ودمنة) الذي ألفه الحكيم (بيدبا) الفيلسوف لملك الهند المسمى (دبشليم) ينحو منحى كتاب لقمان . إنه يصوغ الحكمة على لسان الحيوان .

فاذا قال الله : ولقد آتينا لقمان الحكمة ـ فليس معناه انه لم يعط الحكمة لسواه . كلا ، ثم كلا . انه قال : ﴿ يؤتي الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً .

ان الله لم يختص لقمان بالحكمة بل انه جعلها فى أناس اختارهم هو من أمم شتى ، ومنهم بيدبا المذكور . ان الله لم يعط الحكمة للامم السابقة وللصدر الاول ـ من أمتنا الاسلامية ـ ويحرم المسلمين اليوم منها . كلا ، ثم كلا . ان الله خلقنا وهو الذي خلق الحيوان والنبات والعقول وألهمها الحكمة ، وعقولنا مستعدة لها فلنا أن نقرأ ما اجراه على قلوب الحكماء من الامم والحكماء من الاسلام ، ليكون في الامة حكماء فى مستقبل الزمان وهذا الذي سيكون .

انه لا فرق بين حيوان في القفر ونبات في المرج ، وعقل الانسان . ان الله شوقنا الى دراسة كل هذا . لماذا ؟ ، ليكون فينا نابغون ، وهو لا يعطي الحكمة إلا لمن هو اهل لها ، ولا اهل لها إلا من قبلها واستعد لها ، والاستعداد من اهم المؤهلات له قراءة الكتب ، ونظر العالم ، ودراسة عقول السابقين واللاحقين .

فاذا قرأ المسلم (باب الأسد والثور) من ذلك الكتاب عرف سر السياسة وكيف يكون الغدر ، وكيف يحتال المغتاب على الافساد بين الاصحاب والايقاع بالشر بينهم ، وكيف أمكن (دمنة) ان يوغر قلب الأسد من الثور ويهلكه ، وكيف ظهر الأمر بعد ذلك وشهد الشهود على (دمنة) انه غدار ، وان الثور لم يذنب فحكم عليه القضاة بالقتل فقتله الأسد ؟

واذا قرأت (الحمامة المطوقة) عرفت كيف يتحد المختلفون فى الطباع والأخلاق والأحوال ، وكيف يكون الاتحاد سبب نجاتهم ، وكيف اتحدت الحمامات المتفقات النوع على التخلص من الهلاك فنجحن ؟

واذا قرأت (باب البوم والغربان) عرفت كيف تكون حيلة المحتالين من أهل السياسة ، وان تملق العدو لاينبغي أن يُغتر به — وان أظهر تضرعا وملقاً — وكيف مكر الغراب بجماعة البوم فهلكت ؟ .

واذا قرأ الانسان (باب القرد والغيلم) عرف مثل الرجل الذي يطلب الحاجة فاذا ظفر بها أضاعها ، فان الغيلم طلب من القرد قلبه باشارة زوجته فاحتال القرد عليه وخدعه ثم فر ، وتمت حيلته وندم الغيلم .

واذا قرأ (باب الناسك وابن عرس) عرف مثل الرجل العجلان في أمره من غير روية ولا نظر في العواقب ، وكيف قتل الناسك ابن عرس الذي نجى ولده من الحية وهو مخضب الفم بالدم ، فظن انه قتل ابنه ، فلما علم ان ابنه حي وان ابن عرس هو الذي نجاه بقتل الثعبان ــ ندم .

واذا قرأ (باب ابن الملك والطائر فنزة) وان ابن الملك قتل ابن الطائر المذكور لما ذرق في حجره فجاء الطائر (فنزة) ففقأ عين ابن الملك ، ثم طلب الملك من الطائر المذكور ان يصاحبه ثانياً ، فأفهمه الطائر أن ذلك مستحيل ، لأن

الأعداء الذين بينهم (ترات) يجب أن يتقي بعضهم من بعض .

وهكذا أبواب أُخر كباب الأسد وابن آوى ، وباب اللبوة والاسوار والشعهر ، وباب الناسك والضيف ، وباب السائح والصائغ ، وباب ابن الملك وأصحابه .

فهذه جملة أبواب الكتاب — اذا قرأها المسلم فانما قرأ حكمة الحكماء ، وليست هي حكمتهم بل هي حكمة آتاهم الله إياها ، كما ان النبات لله والحيوان لله . وقال تعالى : وانفقوا مما رزقناكم — فكما ان المال من الله فالحكمة من عند الله ، ونحن عباده والله تعالى يقول : قل من حرم زينة الله التي اخرج لعباده والطيبات من الرزق — فهل يبيح الله لنا الزينة والطيبات من الرزق ويحرم علينا العلم والحكمة ؟!

احل الله لنا الرزق والزينة ، بل احل لنا غنائم الامم اذا حاربناهم حربا شرعياً — ان نأخذ مالهم ، فهل يبيح لنا ذلك ويحرم علينا اجتناء علومهم وحكمتهم؟ كلا . كلا . بل الله سبحانه وتعالى ـ عادة ـ يزهدنا فى متاع الدنيا ويرغبنا فى زاد الآخرة ، وزاد الآخرة لا يكون إلا بالعلم والعمل تابع له .

ففز بعلم تعش حياً به ابداً الناس موتى واهل العلم احياء
وقيمة المرء ما قد كان يحسنه والجاهلون لأهل العلم اعداء

وبالجملة ـ فهذا الكتاب يقرأ في المدارس جميعاً ـ شرقا وغربا ـ وفيه حكايات يفهمها الجهلاء بظاهرها ، ويدرسها الحكماء والفلاسفة والسياسيون بحسب باطنها ، ويستخرجون منها نظام الدول والممالك والحيل والسياسة ، فهو بحر علم وفلسفة وحكمة وادب وخلق وجمال .

الغرض ـ ان الحكماء قد ظهرت حكمتهم في هذه الأيام وقد فتحت كنوز وظهرت

رموز ، واثيرت من القبور عجائب وصناعات ، وكذلك ظهرت كتابات على الاحجار قد قصدها الناس من كل فج عميق ، فترى اليوم اهل اوربا وامريكا يقصدون بلادنا من كل فج ليشهدوا حكما يقرؤنها . وهاك فصلين :

الفصل الاول

أقدم كتاب في العالم

منذ ٥٥٠٠ سنة عثر احد الفلاحين بمصر على اوراق بردية ـ وهو يحفر مقبرة فباعها للعالم الاثري الفرنسي « بريس دافين » الذي اذاعها سنة ١٨٤٧ م ثم قدمها هدية لدار الكتب الاهلية بباريس ، لذلك اشتهرت بورقة « بريس البردية » وهي اقدم كتاب فى العالم لأنها كتبت منذ ٥٥٠٠ سنة وقد كانت كتب الاولين كلها من هذا النوع ـ وهي تشتمل على ١٨ صحيفة مكتوبة بالخط الهراطيقي بالحبر الاحمر والاسود ، متضمنة نصائح ومواعظ وحكما ، وضعها رجلان : الاول يدعى «قاقمنه» وهو وزير الملك «حوني» من الاسرة الثالثة . والثاني يدعى « فتاح حتب » وهو وزير الملك «أسى» من الاسرة الخامسة ، كتبها وله من العمر ١١٠ سنوات اقتبسها من السلف وجعلها موعظة للخلف .

ولذا قال لابنه : « اذا سمعت هذه الحكم السامية عمّرت طويلا وبلغت اوج الكمال ، وتدرجت الى معالي العلا والمجد » ثم اعتنى بترجمتها ـ من اللغة المصرية القديمة إلى الفرنسية ـ العالمان شاباس دفيري ، وباللاتينية العالم « لوث » وبالالمانية العلامة « بروكش باشا » ، وبالانكليزية الاثري « المستر جن » ،

ومن هؤلاء نقلت إلى العربية .

ولأهمية هذه النصائح الدرّية اعتنى بها الانكليزاعتناءً عظيما حتى قرروها في برنامج الدراسة للاطفال ، فأكسبتهم المبادىء الشريفة التي أُشربتها قلوبهم في الصغر فسادوا العالم وقادوا الامم ، وذلك بفضل اتباعهم مناهج اجدادنا العظام التي دوّنوها لنا وكنزوها لأجلنا فكان نفعها لغيرنا . وياحبذا لو اهتدينا اليها واقتدينا بها فنحن أحق بها . وهذا بيانها :

نصائح قاقمنة الحكيم المصري القديم

١ ــ اسلك طريق الاستقامة لئلا ينزل عليك غضب الله .

٢ ــ احذر ان تكون عنيداً فى الخصام فتستوجب عقاب الله .

٣ ــ الابن الذي ينكر الجميل يُحزن والديه .

٤ ــ متى كان الانسان خبيراً بأحوال الدنيا سهل عليه قيادة ذريته .

٥ ــ ان قليل الادب لبليد ومذموم .

٦ ــ اذا دعيت الى وليمة وقدّم لك من اطائب الذي تشتهيه فلا تبادر إلى تناوله ، لئلا يعتبرك الناس شرهاً . واعلم ان جرعة ماء تروي الظمأ ، ولقمة خبز تغذي الجسم .

٧ ــ احفظ هذه النصائح واعمل بها تكن سعيداً ومحموداً بين الناس .

أمثال (فتاح حتب) الحكيم المصري القديم

١ — ان التعرف باعاظم الناس نفحة من نفحات الله .

٢ — لا توقع الفزع فى قلوب البشر لئلا يضربك الرب بعصا إنتقامه .

٣ — إذا شئت أن تعيش من مال الظلم ، أو تغتني منه نزع الرب نعمته منك وجعلك فقيراً .

٤ — إن الله يعز من يشاء و يذل من يشاء . لأن بيده مقاليد الامور فمن العبث التعرض لارادته تعالى .

٥ — إذا كنت عاقلا فرب إبنك حسبما يرضي الله تعالى ، وإذا شب على مثالك وجد في عمله فاحسن معاملته واعتن به ، أما إذا طاش وساء سلوكه فهذب أخلاقه وأبعده عن الاشرار . لئلا يستخف بامرك .

٦ — ان تدبير الخلق بيد الله الذي يحب خلائقه .

٧ — إذا نلت الرفعة بعد الضعة ، وحزت الثروة بعد الفاقة ـ فلا تدخر الاموال بمنع الحقوق عن أهلها ، فانك أمين على نعم الله ، والامين يؤدي أمانته . واعلم ان جميع ما وصل اليك سينتقل منك الى غيرك ، ولا يبقى فيه لك الا الذكر .

٨ — ما أعظم الانسان الذي يهتدي الى الحق والى الصراط المستقيم .

٩ — من خالف الشرايع والقوانين نال شر الجزاء .

١٠ — لا ينجو الاثيم من النار فى الحياة والآخرة .

١١ — ان حدود العدالة لثابتة وغير قابلة التغيير .

١٢ — إذا دعاك كبير الى الطعام فاقبل ما يقدمه لك ولا تطل نظرك اليه، ولا تبادره بالحديث قبل أن يسألك ، لانك تجهل ما يخالف مشربه ، بل تكلم عندما يسألك فحينئذ يعجبه كلامك .

١٣ — إذا كلفك كبير بحاجة فانجزها له حسب رغبته .

١٤ — إذا تعرفت برجل رفيع في المقام فلا تتعاظم عليه بل إحترمه لمركزه .

١٥ — إذا جلست في مجلس رئيسك فاستحضر الكمال والصمت ، فلا تتفوق في الكلام ، لئلا يعارضك من هو أكبر منك نفوذاً وأكثر منك خبرة واعلم ان من الجهل أن تتكلم في مواضيع شتى في آن واحد .

١٦ — لاتعق كبيراً عن عمله متى رأيته مشغولا فانه عدو لمن يعوق أعماله .

١٧ — لاتخن من إئتمنك لتزداد شرفا ويعمر بيتك .

١٨ — من الحمق أن يتشاجر المرؤس مع رئيسه ، فان الانسان لا يعيش عيشة راضية إلا إذا كان مهذبا لطيفاً ظريفاً .

١٩ — إذا دخلت بيت غيرك فاحذر من الميل الى نسائه ، فكم من أناس تهافتوا على هذه اللذة القصيرة التي تمر كالحلم فاودت بهم الى المخاطر والمهالك واعلم ان بيت الزاني آيل للخراب . والزاني نفسه أيضاً فاقد الرشد وممقوت عند الله والناس ، ومخالف للشرايع والنواميس .

٢٠ — إذا كنت عاقلا فدبر منزلك . وأحب زوجتك التي هي شريكتك في حياتك ، وقم لها بالمؤنة لتحسن لك المعونة . واحضر لها الطيب ، وأدخل عليها السرور . ولاتكن شديداً معها إذ باللين تملك قلبها . وقم بمطالبها الحقة ليدوم معها صفاؤك ويستمر هناؤك .

٢١ — لا تعجب بعلمك ، لان العلم بحر لا يصل الى آخره أي متبحر مهما خاض فيه وسبح ، وأعلم ان الحكمة أغلى من الزمرد . لان الزمرد تجده الفعلة في الصخور ، بخلاف الحكمة فانها نادرة الوجود .

٢٢ — لاتترك التحلي بحلية العلم ودماثة الاخلاق .

٢٣ — إذا كنت زعيم قوم فنفذ سلطتك المخولة لك ، وكن كاملا فى جميـــع اعمالك ليذكرك الخلف ، ولا تسرف في المواهب والنعم التي تعود الى الكبرياء وتؤدي الى الكسل .

٢٤ — إذا كنت قاضياً فكن لين الجانب مع المتقاضين ، ولا تجعل احدهم يتردد في كلامه ، ولاتنهره ودعه يتكلم بحرية ، لكي يعبر عن مظلمته بصراحة أما إذا لم تنصفه فيكون سبباً لسوء سمعتك ، فحسن الاصغاء افضل طريقـــة لكشف الحقيقة .

٢٥ — ليكن امرك ونهيك لحسن الارادة ، لا لإظهار الرياسة والادارة .

٢٦ — لا تسبد لئلا تضل

٢٧ — لا تكن يابساً فتكسر ولا ليناً فتعصر .

٢٨ — إذا شئت ان تطاع فسل ما يستطاع .

٢٩ — إذا حكمت بين الناس فاسلك طريق العدل ، ولا تتحيز لفريق دون فريق والا نسبوك للجور والتعسف .

٣٠ — إذا عفوت عمن اساء اليك فاجتنبه ، ولكن إجعله ينسى إساءته اليك حتى لايذكرها مرة ثانية .

٣١ — بقدر الكد تكتسب الثروة ، فمن جد في طلبها انجح الله مسعاه .

٣٢ — إجتهد دائماً فى عملك ولا تترك فرصة اليوم للغد ، فمن جد وجد .

٣٣　إذا كنت منتظما فى حياتك صرت غنياً وحسنت سمعتك ، وتحسنت صحتك وطار صيتك ، وملكت حاجتك اما الذي ينقاد لشهواته فانه يصير ذميما سمجا وعدواً لنفسه .

٣٤ — إذا وقفت امام الحاكم فاخفض جناحك واحن رأسك ، ولا تعارضه وجاوبه بوداعة لتجذب قلبه اليك .

٣٥ - إذا فاه اخوك بالشر فازجره لتكون خيراً منه .

٣٦ — اصغ لكلام غيرك فان السكوت من ذهب .

٣٧ — لا تحتقر فقيراً ، وإذا زارك فلا تتركه سدى لئلا تخذله ، ولا تغضبه ولا تحتقر رأيه ، فان هذا ليس من شيم الكرام .

٣٨ — إحذر من تحريف الحقيقة بين الناس ، لئلا تزرع الشقاق بينهم .

٣٩ — لا تخبر احداً بما صرح به لك غيرك ، لئلا يبغضك الناس .

٤٠ — من ساءت سيرته ضل الصراط المستقيم .

٤١ — اذا كنت فى مجتمع فاسلك دائما حسب قوانينه .

٤٢ - اذا عاشرت قوما فاجذب قلوبهم اليك .

٤٣ — ليكن كلامك دائما سديداً مفيداً .

٤٤ — اذا شئت ان تسلك سبيل الرشاد فابتعد عن الشر واحذر الطمع فانه داء دفين لا دواء له ، والمتصف به قليل الحظ لأن الطمع مجلبة الشحناء والشقاق بين الاهل والاقارب ، وهو سبب كل الشرور والرذائل . اما القناعة فهي اساس النجاح والفلاح ، ومصدر الخير والبر .

٤٥ — لا تتطرف فى الكلام ولا تصغ الى الوقاحة ، لانها صادرة عن التهيج والغيظ ، واذا تطرف احد امامك فى الكلام فاطرق راسك الى الارض

لترشده بذلك الى طريق الحكمة .

٤٦ — من يزج نفسه في متاعب الدنيا ويستغرق فيها كل أوقاته لا يجد لذة في حياته .

٤٧ — من يعكف طول نهاره على شهواته ضاعت مصالح بيته .

٤٨ — إذا شئت أن تعرف طباع صديقك فلا تسأل أحداً عنه ، بل إستنتج ذلك بانفرادك معه في المحادثة المرة بعد المرة ولا تغضبه ، ومتى أخبرك عن أصل ماضيه عرفت جميع أخلاقه ، وإذا فاتحك الحديث فسايره ولا تجعله يتحفظ في حديثه ، وإياك أن تقاطعه في الحديث أو تزدريه ، وبهذا يمكنك أن تستطلع جميع أحواله .

٤٩ — كن بشوشاً ما كنت حياً .

٥٠ — من زرع الشقاق بين الناس عاش حزيناً ولا يصحبه أحد .

٥١ — من طابت سريرته حمدت سيرته .

٥٢ — متى كبر الانسان في السن عادت اليه حالة صغره فيعمش بصره ، وينقص سمعه ، ويصمت فمه ، ويسخف كلامه ، ويظلم عقله ، وتضعف ذاكرته ، وتخور قواه ، وتقف حركة قلبه ، وترق عظامه ، ويهزل جسمه ، ويفقد ذوقه وشمه . حقاً إن الشيخوخة آفة الانسانية . إنتهى الفصل الاول .

الفصل الثانى

أقدم كتاب في العالم أيضاً

نصائح الحكيم المصري القديم (آني)

لتلميذه « خونسوهتب » فى عصر مصر الذهبي في عهد الملك العظيم (توت أنخ أمون) أي منذ ٣٣٠٠ سنة تقريباً .

١ — اخلص لله تعالى فى أعمالك لتتقرب اليه ، وتبرهن على صدق عبوديتك حتى تنالك رحمته وتلحظك عنايته ، فانه يهمل من توانى فى خدمته .

٢ — لا تتقرب الى ربك بما يكرهه ولا تبحث أسرار ملكوته فهي فوق مدارك العقول ، واحفظ وصاياه وإرشاداته فانه يرفع من يمجده .

٣ — إحترم الأعياد وأد شعائرها وإلا قد خالفت أوامر الله .

٤ — لا تستعمل الغوغاء والضجيج في بيت الله أيام أعيادك ، وادع ربك تضرعا وخيفة بقلب مخلص ، فذلك أقرب للاجابة .

٥ — إذا استشارك أحد فأشر عليه بما تقتضيه الكتب المنزلة .

٦ — تتهذب النفوس بالحسنات والترنيمات والسجود .

٧ — من أتهم زوراً فليرفع مظلمته الى الله تعالى ، فانه كفيل باظهار الحق وإزهاق الباطل .

٨ — إجعل لك مبدأً صالحًا ، وضع نصب عينيك في جميع أحوالك غاية شريفة تسعى اليها ، لتصل الى شيخوخة حميدة ، وتهيء لك مكانا في الآخرة،

فان الابرار لا تزعجهم سكرات الموت .

٩ ـــ صن لسانك عن مساوي الناس ، فان اللسان سبب كل الشرور . وتحرّ محاسن الكلام واجتنب قبائحه ، فانك ستسئل يوم القيامة عن كل لفظة .

١٠ ـــ تزوج حديث السن لترى لك ولداً في ريعان شبابك يكون سبباً فى إحترامك وإجلالك ، وبرهاناً على صلاحك وتقواك .

١١ ـــ لا تهمل الترحم على والديك وتحرّ لهما من أعمال الخير والبر أكثرها نفعاً ، وأرجاها قبولا ، ومتى قمت لهما بهذا الواجب قام به لك ولدك

١٢ ـــ ان الله سخر لك أُمّاً كابدت كل مشقة حين حملتك وولدتك وأرضعتك ثلاث سنوات ، وربتك ولم تأنف من فضلاتك ولم تسأم معاناة تربيتك ، ولم تكل أمرك لغيرها يوما ما ، وكانت تبر أساتذتك وتواسيهم كل يوم ليعتنوا بتعليمك ، والآن صار لك أولاد فاعتن بهم كما إعتنت بك أمك ، ولا تغضبها لئلا ترفع يديها الى الله فيستجيب دعاءها عليك .

١٣ ـــ اترك لاخيك البيت المشترك بينكما متى رأيت ما ينغصك حرصا على الرابطة العائليـــة ، واستبقاء لمودته حتى يكون معواناً لك فى مصالحك الاخرى المشتركة معه .

١٤ ـــ إذا كانت زوجتك كاملة مدبرة فـلا تعاملها بالخشونة والغلظة وراقب أطوارها لتكتشف أحوالها ولا تتسرع معها في الغضب لئلا تزرع شجرة الشقاق والنزاع فى بيتك فتكون ثمرتها التنغيص فان كثيراً من الناس يضعون أساس الخراب في بيوتهم لجهلهم حقوق المرأة .

١٥ ـــ إذا كنت قوي الارادة فلا تدع المرأة تتسلط على قلبك .

١٦ ـــ إذا وقعت عينك على جاريتك فاياك أن تتمادى او تتعمد رؤيتها

تابعا وإحذر ان تخبر بذلك غيرك فتستوجب الهلاك .

١٧ ـــ إياك ان تميل الى إمرأة فتلعب بدينك وشرفك ولا تحدث ضميرك بشأنها فانها كالماء العميق الذي لا يعرف له قرار . وإذا كاتبتك امرأة تعرف ان زوجها غائب عنها لتوقعك في شباكها فاياك أن تصبو اليها لئلا توقع نفسك في حبائل الهلاك فان الشهوات طريق الموبقات .

١٨ ـــ لا تدخل بيت السكير ولو أفادك مجداً وشرفا .

١٩ ـــ لا تتردد على محال الخمور إحتراساً من عواقبها الوخيمة لأن لشارب الخمر فلتات يستفظع صدورها من نفسه متى أفاق . وهو دائمًا مبتذل محتقر عند الناس حتى بين إخوانه الذين يشاركونه في غروره وشروره .

٢٠ ـــ النظام في البيت يكسبه حياة حقيقية .

٢١ ـــ اسلك سبيل الاستقامة دائمًا تصل الى الرتب العالية .

٢٢ ـــ كن شهما شجاعا فان الجبان لا يستفيد من الحياة غير ما وهب الله له .

٢٣ ـــ لا تجلس فى حال وقوف من هو أكبر منك سناً ولو كنت أرقى منه رتبةً .

٢٤ ـــ الزم بيتك ولا تغادره إلا بموجب ، وإذا لقيت فى طريقك من يتجاهلك فغض طرفك عنه وزر أصدقاءك وأحباءك .

٢٥ ـــ إذا فاتتك فرصة فترقب غيرها .

٢٦ ـــ لا تعاشر الأسافل لئلا تذهب هيبتك .

٢٧ ـــ لا تكثر الكلام ولا تتظاهر بالفصاحة في التحقيق وتكلم بحجتك بعد التروي والتفكر فذلك أدعي لخلاصك .

٢٨ ـــ لا تجرح بكلامك شعور الناس فيستهان بك .

٢٩ ـــ لا تنطق بالشر فتعود عاقبته عليك .

٣٠ ـــ إذا قاومت نفسك في مسراتها استطعت ردعها عن شهواتها .

٣١ ـــ انك لا تجني من الشوك العنب .

٣٢ ـــ ليكن حديث كل انسان فى شؤونه ولا يشتغل بشؤون غيره .

٣٣ ـــ إذا تخلقت باللطف والسكينة صرت محبوبا عند الناس ووجدت منهم عضداً ونصيراً فى جميع شؤونك .

٣٤ ـــ ليست السعادة بالثروة وحيازة الاموال انما هي في إستنارة العقول بالفضيلة والتخلق بالقناعة والرضا والكفاف .

٣٥ ـ من تعوّد الجد والنشاط لا يحتاج الى حث واستنهاض .

٣٦ ـ اذا رأيت مالا ترضاه فى مجتمع فاجتنبه ولا سيما إذا كنت لا تستطيع التغلب على عواطفك .

٣٧ ـ إذا خاطبك رئيسك بحدة وانفعال فابتعد عنه حتى يسكن غضبه واستعمل اللين والرفق مع كل من يخاطبك بتهيج . فهذا هو الدواء الوحيد لذهاب غيظه ، وعلى العموم ان الكلام اللين يجذب القلوب .

٣٨ ـ لا تستسلم الى اليأس والقنوط مهما قام فى سبيلك من العقبات والشدائد .

٣٩ ـ الزم الصمت إذا لم يكن داع للكلام .

٤٠ ـ إذا اتخذت وكيلا فا نتخبه أمينًا عاقلا وثق به مع مراقبته فاذا كان حازما نسب لك هذا الحزم .

٤١ ـ لا تثق بالناس المجهولة مبادؤهم ولو خدعوك بتقديم أنفسهم لخدمتك

متظاهرين بالاخلاص فانهم يجرونك الى الخراب العاجل .

٤٢ ـ تنبه الى أعمالك ولا تتهاون فان التهاون عاقبته الخيبة والفقر .

٤٣ ـ إذا كنت متبحراً في العلم فانقش علمك في صحيفة فؤادك .

٤٤ ـ إذا وليت منصباً فأظهر براعتك فيه فتؤهل نفسك لأرقى منه .

٤٥ ـ العالم ذو منزلة عند الكبراء وان كان فقيرا فعز العلم ثروته ومجد العلم حمايته .

٤٦ ـ إذا جاءك ضيف فانزله منزلته من التحية والاكرام وتلطف معه لتعرف الغرض من زيارته ثم حادثه ببشاشة ولا تسمح له بالتطرف في الحرية حتى يخرج عن حدود الاحتشام .

٤٧ ـ إذا أكلت وحولك من ينظر الى طعامك فاطعمه منه ولو شيئاً يسيراً فكم رجل كان في نعمة ورئاسة فاصبح في بؤس وتعاسة والنعمة لا تدوم إلا مع المحسنين .

٤٨ ـ لا تكن شرهاً فان الانسان لم يخلق ليأكل بل يأكل ليحيا حياة طيبة يجعلها طريقاً للحياة الأبدية .

٤٩ ـ كل شيء يأتي عليه الدهر لابد أن يتغير وضعه حتى يفنى أثره ومن كان مطيته الليل والنهار فلابد أن ينهار فكم تغيرت الانهار بالجزر والمد من مبدأ خلقتها وإذا كان التغير والتحول من لوازم الطبيعة فلا يوجد رجل واحد ذو إرادة ثابتة .

٥٠ ـ الحب أعمى لانه يصور قبيح المحبوب جميلا لشدة ميل النفس اليه .

فهذه وما قبلها ١٢٠ حكمة .

وقد جاء في كتاب (الأدب والدين عند قدماء المصريين) غير ما تقدم

مانصه : أمثال وحكم مروية عن الأديب المصري القديم « أمنبت بن كانحت » منذ ٣٠٠٠ سنة تقريباً وجدت على الورق البردي المحفوظ بالمتحف البريطاني وتاريخها يرجع إلى الاسرة الثانية والعشرين .

١ ـ احفظ هذه الوصايا واعمل بها تعش سعيداً ولا تهملها لئلا تحل بك النكبات والمصائب .

٢ ـ لا تسرف مال غيرك لئلا يقبض الله روحك فى لمحة بصر ويبدد أموالك ويخرب بيتك وتصير عبرة لمواطنيك ومضغة فى أفواههم في حياتك وبعد مماتك .

٣ ـ اذا أذل الغني فقيراً أذله الله تعالى فى هذه الدنيا وأذاقه عذاب النار فى الآخرة .

٤ ـ اجتنب سيء الخلق فانه أحمق ممقوت من الله والناس .

٥ ـ سبح الله تعالى واعص الشيطان .

٦ ـ لا تغالط شريكك أو زميلك فى الحساب فيبغضك الله وتشتهر بالغدر والخيانة .

٧ ـ لا تظهر أمام الناس غير ماتبطن فتخدعهم واجعل باطنك كظاهرك فان الله يبغض الكذوب المخادع .

٨ ـ قيراط تحرزه من حلال خير من الف تملكه من حرام .

٩ ـ لا تضيع أيامك في محال الخمور لئلا تعجل حتفك .

١٠ ـ اعلم ان لقمة خبز تأكلها فى بيتك فى حرية واطمئنان خير من أفخر طعام تأكله فى قصر غني بذلّ وهوان .

١١ ـ لا تشغل قلبك بحب المال ولا تهلك قواك في تحصيله فان الرزق

مقسوم وميسر لصاحبه بالحظ والنصيب .

١٢ ـ لا تفرح بمال الظلم فانه سريع الزوال .

١٣ ـ لاتذكر أحداً بسوء واجعل كلامك دائماً فى الخير وابتعد عن الشر

١٤ ـ كن دائماً كريماً مهذباً تكن محبوباً ومحموداً عند الناس .

١٥ ـ لا تتعمد رؤية جارتك وإلا كنت كالذئب فى خبثه .

١٦ ـ ولا تشتهِ مال غيرك .

١٧ ـ لتكن جميع أعمالك صالحة في هذه الدنيا .

١٨ ـ احترس من الأشرار واحذر عداوتهم .

١٩ ـ لا تتعد على مزرعة جارك واذا أدت الحال إلى النزاع فخير أن تتخلص منه بحسن التفاهم .

٢٠ ـ كن ثابتاً فى أعمالك ثبات الصخرة فى مكانها لا يزعزعك شيء فى هذه الحياة الدنيا .

٢١ ـ اذا أطعت رئيسك جذبت قلبه اليك واكتسبت ثناءه ، واكتفيت شرّ عنفه وشدته .

٢٢ ـ لاتصادق على قول الكاذب ، لئلا يصدقه الناس بسببك فتكون شراً منه

٢٣ ـ اذا كنت محبوباً ومحموداً عند الناس وأنت فقير خير لك من أن تكون ممقوتاً ومبذولا مع غناك .

٢٤ ـ لا تستمر فى مضجعك حتى مطلع الفجر .

وجاء فى صحيفة ٣٩ من هذا الكتاب ايضاً ما نصه :

١ ـ لا تجعل كل همك فى تحصيل المال فان الله يعطيه لمن يشاء ،

٢ ـ ان الله يعطي القوة للعاقل لتدبير شؤنه .

٣ ـ يرضي الغني الله اذا أشبع الفقير ، لأنه أئتمنه على نعمه .

٤ ـ من أعطى الفقير أرضى الله عليه .

٥ ـ لا تخدع أحداً فيخدعك الناس .

٦ ـ لا تكلم الشرير ولا تعامله .

٧ ـ تعرف الأمين اذا أودعته مالاً .

٨ ـ تعرف العادل اذا قلدته منصباً .

٩ ـ تعرف الصاحب عند الشدة .

١٠ ـ تعرف ابنك متى احتجت اليه .

١١ ـ الكثير الكلام تسهل معرفة باطنه .

١٢ ـ لا تعامل الكذوب فتسبب لنفسك إحناً .

١٣ ـ لا تقلد حقيراً أو صغيراً أعلى المناصب فيستخف بك الناس .

١٤ ـ الرجل الصالح دائماً يتذكر آخرته .

١٥ ـ أيام الفاقة كنز للعاقل .

١٦ ـ أعدت الجنة لمن يضحي حياته للفقير .

١٧ ـ ليست سعادة الانسان فى تغذية جسمه بل في تغذية روحه .

١٨ ـ اللياقة تقضي ألاّ تفخر بغناك أمام الفقير ، وألاّ تظهر الفرح أمام الحزين

١٩ ـ لا تحرم الفقير من مالك في حياتك حتى ترحم به بعد مماتك .

٢٠ ـ لا تغتب أحداً ، ولا ترفض نصيحة من حنكته التجارب .

٢١ ـ لا ترفض كلام العاقل ولا كلام الرجل المنزه عن الغرض .

٢٢ ـ لا تكن مكثاراً للكلام بل اصغ دائماً لمن يكلمك ولا تقاطعه .

٢٣ ـ لا تتشاحن مع من لا يعرف قدرك .

٢٤ ـ لا تنطق بهجر القول فى بيتك ، لئلا يقتدي بك أهلك .

٢٥ ـ لا تعلق قلبك بامرأة تذهب بحياتك .

٢٦ ـ المرأة الجميلة توصف بالعقل اذا لم تمل الى المنكر .

٢٧ ـ المرأة العاقلة تسعد زوجها ، والمرأة الشريرة تجعله دائماً فقيراً .

٢٨ ـ ابتعد عن كل طريق يقربك من الشيطان .

٢٩ ـ قليل في حوزك خير من كثير يبعد تناوله .

٣٠ ـ لا تطمع في ادخار المال ، لأنك تجهل هذه الحياة ، ستترك غداً مالك فيتمتع به غيرك .

٣١ ـ لا تقدم على أذى ولو أدى لتمليكك الدنيا وما فيها .

٣٢ ـ لاتهم فى ارتكاب المحرمات فانها تضيع نصيبك في العالم الثاني .

٣٣ ـ العاقل من ادّخر المال لأيام البؤس .

٣٤ ـ لا تعنف سيء الخلق أمام الناس لئلا يهينك .

انتهى ما أردنا ذكره من حِكَم قدماء المصريين .

قبول الفطرة الانسانية للفلسفة وتاريخ علومها

جبلت النفوس على حب الاستطلاع ، وشغفت بالبحث عما تشاهده من مناظر بهجة ومحاسن باهرة ، وشاقها ذلك السقف المرفوع المزين بالنجوم المتلألئة المختلفة الأشكال ، الجميلة الألوان السارة للناظرين .

ثم راعها ماعلى الارض من زينة وجمال ، وحسن وبهاء واعتدال وكمال ، من سحاب ماطر وبرق لامع ، ورعد قاصف وهواء لطيف ، ونور شريف ،

وجبال شاهقات وانهار جاريات وبحار واسعات ، ومعادن نافعات ونبات متسق الاوراق بديع الازهار ، يانع الاثمار .

زين الارض بمحاسنه وزوقها بانيق بدائعه ، عاش به الانسان والحيوان فكان منه غذاؤهما ودواؤهما وبهجتهما ، واودع فيه من الغرام به والشهوة له ما ساقها الى السعي والبحث عنه كل حين .

الحيوان مكتف بما لديه من غذاء حاضر وجلد قوي ، ووبر وشعر وصوف وأنياب محددة ، ومخاليب قانصة ، وقوة جثمان وعدو سريع ، وإلهام يهدي الى سبل المعاش .

اما الانسان فانه خلق عاريا كثير الحاجات . يسعى لغذائه وملبسه ومسكنه وتعليمه وسفره . فضعفه ظاهر ووهنه حاضر .

لذلك اقتضت الحكمة ان يمتاز بالعقل فيسعى به لمآربه فى الغذاء والدواء واللباس ، والمسكن والتعليم والتهذيب ، والمعاشرة ونظام الجمعية الانسانية . فما أكثر حاجة الانسان وما أحوجه الى العلم والمعرفة ، وما اقل حاجة الحيوان وما احراه بالحرمان من معارف الانسان ! !

ان النتائج تتبع المقدمات ، والثمار على حسب النبات ، فمن كفاه غيره السعي والطلب عاش خاملا ومات جاهلا ؛ ومن قام بأمر نفسه وسعى لها سعيها اكسبها قوة وأنالها حرية ، وكانت حرية بالاجلال والاعظام .

هذه هي المزية التي اختص بها الانسان وبها سعادته . ألا ترى ان كمال كل شيء فيما اختص به ؟ فالفرس كماله فى العدو السريع وان يكون (مكراً مفراً مقبلا مدبراً معا) واذا عجز عن ذلك نزل الى مرتبة الحمير ، وعومل معاملتها في الحمل والاعمال الخاصة بها .

هكذا السيف كماله ان يكون صارماً سريع القطع ، فان تنزل عن هذه الدرجة الرفيعة استعمل استعمال السكين ، ونبذه الشجعان وخرج من الميدان .

هكذا الانسان لم يمتز الا بالعقل والعلم ، فاذا ما كان غافلا نزل الى رتبة أدنى من الحيوان ـ اولئك كالانعام ـ بل هم اضل منها لانها كاملة فى ذاتهـا ، لقيامها بما يناسبها فاذاانحط اليها الانسان وشاركها فيمنازلها فهو فى خسران مبين.

ان الفطرة الانسانية شاهدة بما قلنا فانه وان نال الانسان ما يبتغيه من المال وما يحب من الجاه لا يفتأ يفرح بحلو الحديث وجمال العلم وتاريخ الفضلاء ، ويشتاق لذلك ويحرص عليه .

ولقد نرى اكثر الناس جهلا وأبعدهم عن العلم مجلساً اذا عيّروا بالجهل عدوه إثماً عظيما وناوؤا من عيّرهم وشاكسوه ذلك لأن فطرهم شاهـدة ان كمالهم بالمعرفة ونقصهم بالجهل .

وترى الصبي يسأل أبويه عما حوله . ليعرف أسباب الاشياء ومسبباتها ، كل ذلك شواهد ناطقـــة على ما قررناه وترى جميع الناس في مشارق الارض ومغاربها ـ من أي دين أو نحلة ـ يجلون العظماء ويعظمون الحكماء . وإن كانوا هم أنفسهم جاهلين لما ركز فى طبائعهم . وقر في نفوسهم : من شرف العلم وجماله واختصاصه بالانسان .

تطابقت فطرة الانسان وحاجته ، فكماله النفسي بالعلم وسعادته في الحياة بالعلم . نظر الانسان فرأى في نفسه شهوات لازمة وحاجات قائمة وعادات متراكمة فاحتال فى تهذيبها وجدّ فى تكميلها . فكان علم الأخلاق . ثم رأى زوجة وولداً وخدماً فكانت سياسة المنزل . ثم كان اجتماع أهل المدينة . وكان لابد لهم من نظام وقوانين وحكام فكانت سياسة المدينة .

قرأت الامم العلوم الرياضية لتعرف السنين والحساب والمعاملات ، ثم الطبيعية لتستخرج بها ما في الارض من منافع . ونظرت في العوالم فأقرت بإله نظمها وحكيم أبدعها .

أهل المدينة كلما كانوا بالعلم مغرمين وعلى الفضيلة عاكفين كملت مدنيتهم وازدادت سطوتهم ، وكلما غفلوا عن ذلك ساءت حالهم وبئس المصير . وأقدم امة عرفها التاريخ ـ في الحكمة ـ قدماء المصريين ، وهكذا السريانيون . وقفى آثارهم الكلدانيون ثم الفرس واليونان . وقد حمل الحكمة من هؤلاء أساطينها مثل « سقراط » وتلميذه « افلاطون » وتلميذه « ارسطو » ولقد كان هذا أرسخهم في العلوم ، ولذلك يسمى المعلم الأول .

ولما انقرض أمر اليونانيين وصار الأمر للقياصرة نالوا من حكمة اليونان حظاً عظيما . ونبغ فيهم نابغون مثل « سنيكا » و « شيشرون » . ولما تنصروا وهجروا تلك العلوم بقيت كتبهم في خزائنهم .

ثم جاء الاسلام وظهر أهله عليهم ، وامتد سلطانهم وعظمت شوكتهم . ودانت لهم الامم شرقا وغربا . فاشرأبوا إلى ما نالته الامم السالفة من روائع الحكمة وبدائع العلم ، والاحاطة بما في هذا الوجود ـ على مايقتضيه العمران ويتطلبه الملك وتعظم به الدولة . وكان خالد بن يزيد بن معاوية ـ ويسمى حكيم آل مروان ـ رجلا فاضلا محباً للعلوم ، فأحضر جماعة من الفلاسفة وأمرهم بنقل الكتب في الصنعة وغيرها من اليوناني الى العربي . وهذا أول نقل في الاسلام . ولما نسخت الدولة العباسية الدولة الاموية . ودانت لها البلاد واستتب الملك ـ أرسل أبو جعفر المنصور الى ملك الروم أن يرسل له كتب التعاليم مترجمة ، فبعث اليه بكتاب « اقليدس » وبعض كتب الطبيعيات ، وقرأها المسلمون وفهموها وزادوا حرصاً

وشوقاً الى علوم الحكمة كما روي عن علي «ع» : منهومان لا يشبعان ، طالب علم وطالب مال .

فلما كان أيام المأمون ـ وقد كان أُشرب قلبه حب العلم وأغرم بالحكمة ـ أرسل الى ملك الروم في استخراج علوم اليونانيين وانتساخها بالخط العربي ، وبعث المترجمين لذلك فأخذ منها واستوعب . فترجموا منها الكثير وتلقاها النظار من أهل الاسلام بالقبول ، وعكفوا عليها ونبغوا في فنونها . ولقد خالفوا المعلم الاول في كثير من المسائل وردوا عليه . ودونوا في ذلك الدواوين وكثرت التآليف .

ثم ان العلماء الذين ترجموا الكتب للمأمون ـ كحنين بن اسحاق ، وثابت ابن قرة ـ جاءت كتبهم مخالفة مخلوطة غير ملخصة ولا محررة . ولم توافق ترجمة واحد منهم الآخر فبقيت تلك التراجم غير معمول بها ولا نافعة الى زمن منصور ابن نوح الساماني ، فالتمس من أبي نصر محمد بن محمد بن طرخان الفارابي المتوفى سنة ٣٣٩ هـ أن يجمع تلك التراجم ويجعل من بينها ترجمة ملخصة محررة مهذبة ، مطابقة لما عليه الحكمة ، فأجاب الفارابي وفعل كما تقتضيه وسمى كتابه بالتعليم الثاني فلذلك لقب بالمعلم الثاني .

وبقي هذا في خزانة المنصور الى زمن السلطان مسعود من أحفاد منصور بن نوح كما هو مسوداً بخط الحكيم الفارابي ، إذ لم تكن له عناية بجمع مصنفاته ، وإنما يغلب عليه السياحة على هيئة الصوفية مع الزهد والقناعة . وكانت تلك الخزانة باصفهان وتسمى « بصيوان الحكمة » وكان الشيخ ابو علي الحسين بن عبد الله بن سينا الطبيب الفيلسوف المولود سنة ٣٧٥ هـ والمتوفي سنة ٤٣٨ هـ وزير المسعود ، وتقرب اليه بسبب الطب حتى استوزره وسلم اليه خزانة الكتب ، فاخذ الشيخ الحكمة من هذه الكتب .

ووجد فيما بينها التعليم الثاني ولخص منها « كتاب الشفا » . ثم ان الخزانة أصابها آفة فاحترقت ، وقد أتهم بعض الناس الرئيس بانه أحرق الكتب لئلا يطلع الناس على الحكمة التي نقل عنها ، وهذا باطل لما يرى في (كتاب الشفا) من تصريحه بانه تلخيص التعليم الثاني .

ومن الحكماء فى هذه الامة أبو يوسف يعقوب بن اسحق الكندي الفيلسوف ، من أمراء بني كندة وكان من المكرمين لدى الخلفاء ، من المأمون الى المتوكل ، ولد سنة ٣٤٠ في البصرة ثم سكن بغداد واشتغل بترجمة الكتب اليونانية الى العربية . وبتأليف كتب في الفلسفة والرياضيات والطب والهيئة والموسيقى . وعدد مؤلفاته ٣٦٥ وأكثرها ضائع الآن .

ومن المترجمين إبن البطريق فى أيام المنصور بن يحيي . الذي نقل المجسطي واقليدس للمأمون ، وحسين بن بهريق فسر للمأمون عدة كتب وكثير غيرهم . هؤلاء في المشرق .

أما في المغرب فكان القاضي أبو اليد بن رشد ، والوزير أبو بكر بن الصائغ بالاندلس ، فهؤلاء نشروا كتبهم فارتقت الدولة واستبحر العمران ، حتى إذا تغير الزمان وقلب ظهر المجن ، وذهبت الدولة نادى ابن خلدون فى مقدمته بالويل والثبور وقال : (أيها الناس لا تغفلوا عن الصنائع والعلوم فقد ركدت ريح مدنيتكم وخر عليكم السقف من فوقكم فاصبحتم من الخامدين) .

ولما فتح الترك « القسطنطينية » وقد نالوا حظاً وافراً من العلم حرم بعض علماء الدين كتب الحكمة على المسلمين ، فمالت شمس الحضارة هناك الى الغروب ونادى عالمهم «ملا كاتب جلبي» المتوفى فى القرن الحادي عشر الهجري بالويل والثبور وقال ما ملخصه : «كان شرف الرجل في الاعصار السالفة بمقدار تحصيله واحاطته

بالعلوم العقلية والنقلية » وكان في الدولة فحول ممن جمع بين الحكمة والشريعة كالعلامة الفناري ، والفاضل قاضي زاده الرومي ، والعلامة خواجة نصير الدين الطوسي ، والعلامة علي قوشجي ، والفاضل ابن المؤيد ، وميرجلبي ، والعلامة ابن الكمال ، والفاضل ابن الحنائي وهو آخرهم .

ولما حل أوان الانحطاط ركدت ريح العلوم وتناقضت بسبب منع بعض المفتين من تدريس الفلسفة ، وسوقه الى درس الهداية والكمال فاندرست العلوم بأسرها الا قليلا من رسومه فكان المولى المذكور سبباً لانقراض العلوم من الروم ، وذلك من جملة أمارات إنحطاط الدولة .

فانظر كيف شكى علماء العرب والترك من الجهالة العمياء والداهية الدهماء بالامم الاسلامية ، من ترك العلوم الفلسفية : ! ولما كانت الامم الاسلامية اليوم مستعدة للنهوض الساري في أمم الشرق ، وأخذت تجد في أسباب الرقي وانها قد استيقظت من رقدتها وقامت من نومتها — حفزني ذلك أن أؤلف كتابا (١) يجمع شتات العلوم الحكمية الباقية في الكتب الموروثة عن القدماء خالصاً من الشوائب ، سهل العبارة حاويا خلاصة الفن ، لا هو بالطويل الممل ولا بالقصير المخل ، واصلا القديم بالحديث ـ بحيث يعرف القارىء الى اين إنتهى القدماء ، ومن اين ابتدأ المحدثون ، ليستغني به عن سواه فان بعض الكتب القديمة معتاصة الفهم بعيدة الغور على المتوسطين .

(١) هو كتاب الحكمة والحكماء للمؤلف — لم يطبع بعد

تعريف الفلسفة

قد استبان في المقدمة ان الانسان محب للبحث والمعرفة مغرم بالاطلاع ، وكل له غرض يسعى ليدركه على مقتضى همته ومقصوده ودرجته في الفهم ، وليس يعرو من هذه الصفة الشريفة الا غمرته اللذات وانغمس في العداوات فاستعبدته الشهوتان البهيمية والسبعية فينحطون الى أسفل الدركات في البحث ويعكفون على معرفة عيوب الناس والحكايات المبتذلة . ويتسلون بذلك عما تطالبهم به نفوسهم من المعرفة والعلم ويسرون بثلب أعراض الباحثين ليكون ذلك تعزية لهم ، وليسدلوا استاراً وحجباً على مطالب انفسهم وهم لها ظالمون .

لا يفتأ الانسان يسأل من اين والى اين ولِمَ ذلك ؟ طلب دائم . قال « ارسطاطاليس » : (ان الدهشة اول باعث على الفلسفة) والكلمة المستعملة عند الامم وهي (فيلسوف) تدل على ما تقدم فان كلمة (فيلو) معناها محب و (سوفيا) معناها الحكمة . فالفيلسوف محب الحكمة .

وقد أطلق لفظة فيلسوف في هذا العصر عند العامة على من برع في علم او نبغ في قوة الحجة والجدل ، ويقابل لفظ الفلسفة عندنا الحكمة ، ويقال : (الفيلسوف الحكيم) .

الحكمة لا يتصف بها الا من استكمل قوتي العلم بالرياضيات والطبيعيات ، والإلهيات ، والعمل بالاخلاق ، وتدبير المنزل ، وتدبير المدينة او السياسة العامة . وباطل ما دار على ألسنة الناس فى زماننا من المعانى السابقة ولم ينل هذه المزية الا قليل .

والتعريف المشهور لعلم الحكمة : انه علم يبحث عن حقائق الاشياء على ما هي عليه فى نفس الأمر بقدر الطاقة البشرية ، والمعتبر فى تلك الطاقة اواسط الناس الذين لا هم فى غاية العلو و لا في نهاية السفل .

وانت ترى ان هذا التعريف لا يشمل الا القوة العلمية ، فمن كان عالماً بتلك العلوم فهو حكيم . وقد خرج منها العمل بالاخلاق وتدبير المنزل والسياسة ، وقدم الرئيس ابن سينا ذلك العمل للحكمة العلمية .

واعلم ان الحكمة لها ثلاث درجات . الاولى — حب البحث الثانية استكمال العلم . الثالثة — العمل به وهو الثمرة .

والتعريف المتقدم شمل اهم هذه الدرجات وهو العلم . وقد جاء في (اخوان الصفاء) ما شمل الدرجات الثلاث وهو ان الفلسفة اولها محبة العلوم ، واوسطها معرفة حقائق الموجودات بحسب الطاقة الانسانية ، وآخرها القول والعمل بما يوافق العلم .

وليس المعني ان يعرف الانسان كل شيء ، وإنما يزاول المعارف ويحيط بالكليات من العلوم التي سنذكرها ، ثم يختص بفن كالطب او الهندسة مثلا ، فاما اولئك الذين يقرؤن بلا نظام مسائل شتى في المجلات والكتب فقط فهم عن الحكمة معرضون ، لان العلوم الجزئية والمسائل الداخلة فيها لا نهاية لها ، ولو ان امرءاً قرأ علم الحيوان او النبات واضاع فيه عمره لم يحط به ولم يأت على آخره .

وانما بقراءة العلوم الجامعة الآتية يصبح هذا العالم عنده حاضراً في عقله بصفة عامة ، حتى اذا صادفه شيء من مسائل العلوم الجزئية زادته علماً وعرف مكانتها من نفسه وضمها الى اخواتها ، وليس يكون ذلك النظام الا بالاطلاع على علم الفلسفة ودرس علومها . وما مثل الحكماء مع العلماء والأمم إلا كمثل الملوك مع الوزراء

والأمراء وبقية الدولة ، او كمثل رئيس الجيش بالنسبة للقواد .

أقسام العلوم الحكمية

العلوم الحكمية أربعة أنواع : الرياضيات ، والمنطقيات ، والطبيعيات ، والإلهيات . فالرياضيات أربعة أنواع : الارتماطيقي ، وهو علم العدد . والجومطريا وهو الهندسة . والاسطرونوميا . والموسيقى .

فالارتماطيقي — هو علم العدد وماهيته وخواصه وكيفيته . وهذا العلم أصل الحكمة ومبدأ المعرفة . ويبين فيه النسب العددية والهندسية والتأليفية . وثمرتها التوصل الى حقائق المعارف . وتبيان ان هذه العوالم المختلفة الاشكال والصور والصفات — اذا جمعت على النسبة المتعادلة إنتظمت واتحدت . وكان منها ثمرتها ونتائجها المرضية .

أما إذا جمعت على النسبة التي لم تعتدل فانها تتنافر وتتباعد ولا تتفق ، فاعتدال الاشياء بالنسبة الصحيحة . واختلالها بالنسبة المنحرفة . وفيه ذكر الحساب الذي لا يهتم به إلا الفلاسفة وليس لكتاب الدواوين فيه خلاف الخ .

ومنفعة هذا العلم — انه يعود الذهن على النظر في المجردات عن المادة ولواحقها ولذلك كانت القدماء تقدمه في التعليم على سائر العلوم ، وان الأعداد كما نشأت من الواحد — وهو ليس بعدد — هكذا نشأ العالم عن الله .

ومن الكتب المختصرة فيه سقط الزند فى علم العدد ، ومن المتوسطة الارتماطيقي الذي من كتاب الشفاء ، ومن المبسوطة كتاب نيفو ما خس الجهراسيني وهذا الفن تدخل فيه براهين الحساب . وقد ألف فيه المتقدمون وأدخلوه في

التعاليم ، ولم يفردوه بالتأليف كما فعل (ابن سينا) في الشفاء والنجاة وغيره .

أما المتأخرون فهوعندهم مهجور وليس بمتداول ، لأنهم أخذوا ما يحتاجون اليه منه في الحساب للبرهنة فحسب — كما فعله (ابن البنا) فى رفع الحجاب ، مثل المتوالية العددية والمتوالية الهندسية .

واما المهجور فمثل ما يأتي هنا : ان عدد ٥ دائرة ، أي يحفظ الآحاد والعشرات وهي ٢٥ اذا ضرب فى نفسه مرات بالغاً ما بلغ ، وان هذه الخاصة لا يشاركه فيها سواه .

الهندسة

واما الجومطريا — فهوفي الهندسة وبيان ماهيتها وكمية أنواعها . وأحوال المقادير ولواحقها وأوضاع بعضها عند بعض ، وموضوعه الجسم التعليمي والسطح والخط ، ولواحقها من الزاوية والنقطة والشكل .

وأول ماترجم من اليوناني للعربي في هذا العلم (كتاب الاركان)لاقليدس ايام ابي جعفر المنصور . واختلفت نسخه باختلاف المترجمين ، كحنين بن اسحق وثابت بن قرة ، ويوسف بن الحجاج . ويحتوي على خمس عشرة مقالة . وقد اختصره الناس اختصارات كثيرة كما فعله (ابن سينا) في تعاليم الشفاء ، ومثله (ابن الصلت) في كتاب الاقتصار .

وكما أن فن خواص الاعداد المتقدم يرقي الذهن في فهم الامور العالية ، والمجردات من المادة ، ويوقظ الذكر .

هكذا الهندسة يشرق عقل المشتغل بها ويستقيم رأيه ، لما يرد عليه من

البراهين البينة والأحوال المنظمة والأشكال المتقنة ، والعقل يعتاد ماعوّد ويكون مزاجه بحسب ما ارتسم فيه ، وهوهنا الدقة والنظام والصدق والحق ، كما ان الجسم يصح ويستقيم اذا جاد غذاؤه وتباعدت عنه اسباب الفساد .

علم الفلك

واما الاسطرونوميا — فهو علم النجوم وصفة البروج وسير الكواكب ، ويتبين فيه تأريخ آراء الفلاسفة في العصور المختلفة في سير الشمس ، ويبين ماذكره القدماء من الرأيين : الرأي القائل بدوران الارض حول الشمس . والرأي القائل بدوران الشمس حول الارض ، وأدلة الفريقين المبسوطة في المواقف ، وبيان ترجيح الرأي الاول . وان ذلك كان قبل ظهوره للافرنج بنحو مائةوخمسين سنة . ويبين فيه حساب الشمس والقمر والسنين الشمسية والقمرية وسير الكواكب والفصول الأربعة . ويذكر المذاهب الحديثة بطريق الاجمال ، من ان في العالم شموسا كل شمس لها سيارات ونحن في مجموعة من تلك المجموعات . وبعضهم كان يلحق بهذا الفن علم تخطيط البلدان .

الجغرافيا

وهو صورة الارض والاقاليم السبعة والدرجات الارضية التي تنتهي اليها ، ومعرفة الجبال والبراري والانهار والمدن والقرى ومسالكها ، وعلم الهيئة عند القدماء والمحدثين إنما يتم بالرصد ، وكلما اتقن ازداد العلم ، وكلما قلّ كان العلم

على حسبه ، وكتاب المجسطي الذي ألفه بطليموس جامع لمقصود هذا العلم ، وقد اختصره « ابن سينا » في الشفاء ، وابن رشد وابن السمح ، وكذا ابن الصلت في كتاب الاقتصار .

الموسيقى

واما الموسيقى — فهو علم يتبين فيه قوانين النغمات والألحان ، وتأثيرهما في نفوس السامعين تأثيراً بيناً يضارع ما تفعله العقاقير الطبية في الاجسام الحيوانية ، ويبين فيه النسب العددية والتأليفية ، وثمرتها التوصل الى حقائق المعارف ، وتبيان ان هذه العوالم المختلفة الاشكال والصور والصفات — اذا جمعت على النسبة المتعادلة اتحدت وكان منها ثمرتها ونتائجها المرضية . اما اذا جمعت على النسبة التي لم تعتدل فانها تتنافر وتتباعد ولا تتفق ، فاعتدال الاشياء بالنسبة الصحيحة واختلافها بالنسبة المنحرفة . وفيه ذكر الحساب الذي لا يهتم به إلا الفلاسفة ، وليس لكتاب الدواوين فيه من خلاف .

وهذا الفن — كفنّ الشعر — تتركب اصولها من ثلاثة : السبب ، والوتد ، والفاصلة . الاول ـ مثـل « هل . بل » والثاني ـ مثل « نعم . بلى » ومثل « نحن . كنت . شئت » والثالث ـ مثل « فهمت . رضيت » .

والذي تركب من الغناء فى اللغة العربية ثمانية أنواع ـ الثقيل الاول وخفيفه والثقيل الثاني وخفيفه ، والرمل وخفيفه ، والهزج وخفيفه ، وسنفصله .

وهذا الفن يحتاج الى ثلاثة علوم : النحو والحساب والشعر . وألف فيـه أبو نصر الفارابي ، وابن سينا فى جملة كتاب الشفاء ، وصفي الدين بن عبد المؤمن

وثابت بن قرة الصابي ، وأبو الوفا البورجاني .

ومنفعة هـــذا العلم بسط الارواح وتعديلها ، وتقويتها تارة وقبضها تارة اخرى . اما الاول — فيكون في الافراح والحروب وعلاج المرض ، وبه يظهر الـكرم والشجاعة ونحوها .

واما الثاني فيكون في المآتم وبيوت العبادات ، فيقبض النفوس عن هذا العالم ويحركها الى مبدئها فتفكر في العواقب . وهذا آخر مايحدث من الصناعات فى الدولة لأنه كمالي ، وأول ما ينقطع من العمران عند اختلالها .

ملحقات الرياضيات

قد تفرع عن الارثماطيقي من العلوم علم الحساب المفتوح . والتخت والميل وعلم الجبر والمقابلة ، وعلم الدرهم والدينار وما شابه ذلك . وتفرع عن الهندسة علم البنكامات « آلات قياس الزمن » وعلم جر الاثقال ، وعلم استنباط المياه ، وعلم الآلات الحربية ، وعلم المساحة ، وعلم مراكز الاثقال ، وعلم المرايا المحرقة ، وعلم عقود الأبنية لمعرفة أوضاع الأبنية ، وشق الأنهار وتقنية القنا ، لعمارة المدن والقلاع . ويتفرع على علم الفلك علم الزيجات والتقاويم .

تنبيه :

الفيلسوف إنما يدرس العلوم الاصلية ، اما الفروع كعلم المساحة وعلم الآلات الحربية فانما تدرس في مدارس خاصة للاعمال النافعة . انتهى فن الرياضيات .

المنطق

وهو القسم الثاني من علوم الفلسفة الاربعة

المنطق — قوانين يعرف بها الصحيح من الفاسد فى الحدود المعرفة للماهيات ، والحجج المفيدة للتصديقات والطرق الموصلة للتصور والتصديق اما أن تكون صحيحة واما أن تكون فاسدة ، وتمييز أحدهما من الآخر إنما يكون بتلك القوانين .

وقد كان المتقدمون يتكلمون به جملا جملا ، لم تهذب طرقه ولم ترتب اصوله . حتى ظهر « ارسطو » فهذب مباحثه ورتب مسائله ، وجعله أول العلوم الحكمية . والنظر في هذا العلم على قسمين :

نظر فى صورة القياس ، ونظر فى مادته . فالنظر في صورة القياس يكون أربعة أقسام :

القسم الأول — الكليات ويسمى « ايساغوجي » وهي : الجنس والفصل والنوع والعرض الخاص ـ الخاصة ـ والعرض العام .

القسم الثاني — الأجناس العالية وتسمى « قاطيفورياس » وهي المقولات العشرة : مثل الجوهر والكم والكيف ، وكل واحد منها اسم لجنس من الاجناس. وجميع مافي العوالم من أجسام وعناصر وصفات وأحوال داخلة تحت هذه الألفاظ وبمعرفتها يتصرف عقلاء المنطق بالدليل في كل ماشاهدوه أو عقلوه ، واليها ترجع جميع الاجناس وفصولها وأعراضها وخواصها .

القسم الثالث — القضايا التصديقية وتسمى (باريمينياس وأنواعها) وبيان النقيض ، والممكن ، والممتنع ، والعكس ، والايجاب ، والسلب .

القسم الرابع — القياس ويسمى (أنولوطيقيا الاولى) والنظر فيه على قسمين الاول — فى صورته حملي وشرطي ، وصورة إنتاجه سواء كان ظنياً أم يقينياً أم غيرها ، وانه ميزان الحكمة يزن به الحكماء حججهم فى المناظرات والآراء والمذاهب .

وضعه الفلاسفة إحقاقا للحق وإزهاقا للباطل ، وهذا آخر النظر المنطقي فى صورة القياس ، وهو ينتج إنتاجا صحيحاً إذا استوفيت الشرائط ، ويكون على حسب المادة التي صيغ منها ، فقد يفيد اليقين ، وقد يفيد الظن ، وقد يكون كاذب النتيجة وان وقع فى الوهم انها صادقة .

القسم الثاني — النظر في مادة القياس وهي خمسة أنواع : النوع الأول البرهان ويسمى (أنولوطيقيا الثانية) وسنذكر له شروطاً لكونه ذا مقدمات يقينية كالبديهيات والمشاهدات والمجربات ، ويذكر في هذا المقام المعرفات والحدود ، لأن المطلوب بالبرهان اليقين في التصديقيات ، وبالحدود اليقين فى التصورات ، فجعلها القدماء فى كتاب واحد .

النوع الثاني — الجدل وهو لايقصد منه اليقين وإنما يراد منه قطع المشاغب وإفحام الخصم ، ويستعمل فيه المسلمات والمشهورات ، كالمناظرات الفقهية المذهبية كل يرد على صاحبه باعتبار ما هو مسلم عنده

النوع الثالث — الخطابة وهي القياس المفيد لترغيب الجمهور وحملهم على المراد منهم ، لجميع مقالات الوعاظ الحاثة على الصدق ونحوه الخ .

النوع الرابع ـ السفسطة وهي القياس الذي يفيد خلاف الحق ويغالط به

المناظر صاحبه ، وإنما يتعلم لانه يعرف به المغالطة فيحذر منه ، كقولك في صورة فرس : هذا فرس وكل فرس صاهل .

النوع الخامس ـ الشعر ، وهو القياس الذي يفيد التمثيل والتشبيه خاصة للاقبال على الشيء والنفرة منه ، كأن تقول في العسل : هذا قيء الزنابير ، فينفر منه السامع .

ضرب مثل لمادة القياس وصورته

ولنضرب مثلا لمادة القياس وصورته بالدينار ونقشه . ان الدينار المصنوع من ذهب له مادة وصورة ، فالصورة هي الاستدارة والنقش وجمال الصنعة ، والمادة هي الذهب والفضة . والذهب أما أن يكون إبريزاً لا غش فيه ، واما ان يكون قليل الغش ، وأما أن يكون ذهباً أصلا . هكذا الاعتقاد وهو مادة القياس ، فان كان لا يخطر نقيضه بالبال فهو البرهان ، كقولك : عدد ١٦ مربع مجذور وكل عدد مربع مجذور إذا زيد عليه جذراه وواحد فهو مجذور ، واذا نقص منه جذراه إلا واحداً فالباقي عدد مجذور ينتج عدد ١٦ ، إذا زيد عليه جذراه وواحد فالعدد المجتمع مجذور ، وان نقص منه جذراه واحداً فالباقي مربع مجذور .

فهذا قياس حملي مقدمتاه يقينيتان ونتيجته كذلك . وان كان الاعتقاد مقاربا لليقين مقبولا في الظاهر ولا يشعر بأمكان نقيضه الا دقيق الفكر فهو الجدل وان كان ظنياً إقناعياً مع خطور نقيضه بالبال بسهولة فهو الخطابة . وان كان مشبهاً لليقين أو المشهور في الظاهر وليس كذلك بالحقيقة فهو السفسطة .

ثم إن الخامس وهو القياس الشعري ليس يدخل في إفادة يقين ولا ظن ولا مغالطة ، فالمخاطب قد يعلم حقيقته وإنما يذكر لترغيب الجمهور أو لتنفيره أو تشجيعه ، كما ينفر من الحلو الأصفر بتشبيهه بالعـــذرة ، وكما ينفر من شرب العسل في المحجم النظيف . ومن هذا القبيل الحض على قول القائل :

ليت هنداً أنجزتنا ما تعد   وشفت أنفسنا مما نجد
واستبدت مرة واحـدة   إنمـا العاجز من لا يستبد

فهذا القول حمل سامعه على الاسراع بالفتك باعدائه وكالحض على التهور وعدم الحزم في الحرب كقول المتنبي .

يرى الجبناء أن الجبن حزم   وتلك خديعة الطبع اللئيم

فانه جعل الحزم جبناً ولذلك فتكت بقائله المنون واغتالته غوائل الموت ، وهو يناوىء من هم أقوى منه بطشاً وأكثر جمعاً وأوفر عدداً ، فطاح بتهوره ووري في الرمس ، وذلك جزاء المتهورين .إنتهى القياس الشعري .

هذا ولقد ترجمت هذه كلها في الملة الاسلامية فترجم المقولات (حنين) وفسرها (فرفوريوس) والفارابي ، وترجم حنـــين القضايا من اليوناني الى السرياني . ونقل (متى) نقل اسحاق الى العربي وشرحه الفـارابي وتداول المسلمون هذه الـكتب بالشرح والتلخيص . وألف الفارابي وابن سينا في كتاب الشفاء وابن رشد .

ولقد تصرف المتأخرون في المنطق فنقلوا الحدود من البرهان الى الـكليات الخمس ، وحذفوا المقولات العشرة ولم يعبأوا بعلوم المادة الخمس كما هو متداول الآن في الاقطار الاسلامية ، مع إن المنطق بغير ذلك شجرة بلا ثمر ، وسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماءاً حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً ووجد الجهل عنده فاوقعه في الخيال

ثم ان هذه الصورة المنقوصة من المنطق أطال المتأخرون فيها الكلام ، كأنه علم مستقل بنفسه مع انه آلة لغيره ، وأول من فعل ذلك الامام فخر الدين بن الخطيب ، ومن بعده « أفضل الدين الخونجي » ويدرس في زماننا كتاب « ايساغوجي » لأثير الدين الأبهري المتوفى في حدود المائة السابعة الهجرية ، وكتاب « الشمسية فى الفوائد المنطقية » لعمر بن علي الكاتبي القزويني من أهل القرن السابع للهجرة تلميذ « نصير الدين الطوسي » المطبوعة . ولها شروح كثيرة ، وغيرها من الكتب . فيجب العدول عن هذا المنهج إلى ما هو أتم وأكمل . انتهى الكلام على العلوم المنطقية .

القسم الثالث

العلوم الطبيعية من العلوم الفلسفية العامية

العلم الطبيعي مايبحث فيه عن الجسم من جهة مايلحقه من الحركة والسكون فى العوالم العلوية والسفلية من السماوات والعناصر ، وما يتولد عنها من نبات وحيوان وانسان ومعدن ، وما فى الارض من زلازل وعيون ، وما في الجو من سحاب وبخار ورعد وبرق . وقد ألف فيه « ارسطو » وقد ترجمت كتبه مع غيرها من العلوم أيام المأمون وحذا الناس حذوها كابن سينا في كتاب النجاة والاشارات . ويخالف « ارسطو » في كثير من المسائل ، بخلاف « ابن رشد » فانه لخص كتبه تابعاً له غير مخالف . وقد شرح كتاب الاشارات الامام ابن الخطيب ، والآمدي ، ونصير الدين الطوسي .

أقسام العلوم الطبيعية

العلوم الطبيعية ثمانية : سماع الكيان ، السماء والعالم ، الكون والفساد ، الآثار العلوية ، المعادن ، النبات ، الحيوان ، الانسان .

١ — سماع الكيان ، يبين فيه : الهيولى والصورة والحركة والزمان والمكان ، وما يخص الجسم من الأعراض الزائلة واللازمة .

٢ — السماء والعالم ، يبين فيه شكل العالم ونظامه العام فى أفلاكه وكواكبه وطبقاته .

٣ — الكون والفساد ، يبين فيه كيف يتكون المعدن والنبات والحيوان من العناصر ، ثم يبين فيه الرأي الحديث القائل : « ان المعادن السبعة غير مركبة من العناصر » ثم ينظر أي الرأيين أقرب للصدق .

٤ — الآثار العُلوية ، يبين فيه ما في الجو من حوادث الحر والبرد والسحاب والمطر والثلج والرعد والبرق وقوس قزح والهالات ، وكيف كان منشأ السحب من البخار ثم يدفعها الهواء الى الاودية فتصدها الجبال فتمطر على اليابسة ، وغير ذلك من النور والظلمة وتصاريف الرياح من الانهار والبحار ، وما يكون منها من الغيوم والضباب والظل والندى والشهب وذوات الأذناب وما شاكل ذلك

٥ — تكوين المعادن ، مما فى التراب والطين والارض السبخة كالكباريت والاملاح والشبوب والزاجات ، أو في قعر البحار كالدر والمرجان ، أو في كهوف الجبال وجوف الاحجار وخلل الرمل ، كالذهب والفضة والنحاس .

٦ — علم النبات ، يذكر فيه أجناسه وأنواعه وخواصه ومنافعه ومضاره ،

وان مرتبة النبات متصلة بالمعادن من أدناها مرتبطة بالحيوان من أعلاها .

وبيان ان منه ما ينبت في البراري والقفار ، ومنه ما ينبت على رؤس الجبال ، ومنه ما ينبت على شطوط الانهار ، ومنه ما يكون في الآجام ، ومنه مايغرسه الناس في القرى والبساتين ، ومنه ما يكون تحت الماء ، ومنه ما ينبت على وجه الماء ، ومنه ما ينسج على الشجر ، ومنه ما ينبت على وجه الصخور ، وهكذا من الاحوال والاوصاف والاشكال والازهار والاوراق والقضبان وما أشبه ذلك وبين فيه القوة الجاذبة والماسكة والهاضمة والدافعة والنامية والغازية والمولدة ، وما أشبه ذلك من الاوصاف الظاهرة والباطنة .

٧ — علم الحيوان وعجائبه وطبائعه ، انه متصل بالنبات من أدناه مرتبط بالانسان من أعلاه وبيان ذلك :

ان الحيوانات الناقصة الخلقة مقدمة بالوجود على الحيوانات التامة الخلقة ، وان حيوان الماء مقدم بالوجود على حيوان البر ، وان الحيوان مقدم الوجود على الانسان . ثم بيان ان التي تلد أعلى من التي تبيض ، والتي تبيض أعلى من التي تتكون في العفونات ولا تعيش سنة كاملة لأنها يهلكها الحر والبرد . وكيف كان بعضها آكلاً كالآساد ، وبعضها مأكولا كالغزلان وغيرها وما حكمة ذلك وما فوائده ؟ ثم بيان تناسلها وتوالدها واختلافها في ذلك ، وتربيتها أولادها واتخاذها أعشاشها ، وبيان سكان الماء والهواء والبرد والتراب كالسمك والطير والانعام والهوام ، وبيان قوة الحس والحركة فى سائر الحيوان .

٨ — الانسان وتركيب جسده ، وبيان حواسه الخمس من السمع والبصر والشم والذوق واللمس . وان صور محساتها تصل إلى الحس المشترك في الدماغ ، وبيان ان تلك الحواس جسمانية من جهة الظاهر معنوية روحية من جهة الباطن ،

لاتصالها بالاجسام أولاً وبالحس المشترك آخراً .

فاما الحس المشترك الذي هو كالمركز للحواس المؤدية اليه فهو معنوي روحاني ، ثم بيان ان معارف الانسان من ثلاث طرق : الحواس والعقل والبرهان الذي يختص به العلماء والحكماء . وان المدركات بطريق اللمس عشرة أنواع ، وبطريق الذوق تسعة أنواع ، وبطريق الشم اثنان ، وبطريق السمع خمس ، وبطريق البصر عشرة أنواع ، فجميع ما تدركه الحواس ست وثلاثون نوعاً من المدركات . وبيان أسباب خطأ الحواس وكيف احتاجت إلى العقل ليذلل سبلها وتستبين السبل وتظهر الحقائق ، وغير ذلك من عجائب العلم وبدائع الحكمة . تم الكلام على إجمال العلوم الطبيعية .

القسم الرابع

العلم الإلهي أو الكلي

وهو علم يبحث في كل الموجودات من حيث تعيينها وتكوينها وتحقق حقايقها ، وما يعرض لها ونسب ما بينها وما يخصها من حيث هي موجودات ، وهو أنواع :

النوع الاول — فى الامور العامة مثل الوجود والماهية والوحدة والكثرة والوجوب والامكان والامتناع والقدم والحدوث والاسباب والمسببات .

النوع الثاني — النظر فى مبادىء العلوم كلها وتبيين مقدماتها .

النوع الثالث — النظر فى إثبات وجود الإله الحق والدلالة على وحدته

وتفرده بالربوبية ، وإثبات صفاته وبيان انها لا توجب كثرة في ذاته .

النوع الرابع — النظر في إثبات الجواهر المجردة من العقول والنفوس والملائكة وما أشبه ذلك .

النوع الخامس — أحوال النفس البشرية بعد الموت ومفارقتها الهياكل الانسانية ، وحال المعاد وكيفية ارتباط الخلق بالأمر .

هذا آخر القسم العلمي . وهذا العلم يسمى أيضاً « علم ماوراء الطبيعة » ولخصه « ابن سينا » في كتاب الشفا ، والنجاة ، والاشارات . وكذلك لخصه ابن رشد من علماء الاندلس .

ولقد حدث فى الامة الاسلامية بدع ومقالات خالطت العقائد فأورثت شبهاً أدت إلى انقسام الامة شيعاً وأحزاباً ، كل يؤيد رأيه ويقوي مذهبه . ومن أسباب ذلك انتشار الفلسفة اليونانية . ألا ترى الامام الغزالي ألف كتاباً سماه « تهافت الفلاسفة » يدحض به بعض المسائل الفلسفية وهي قليلة جداً ، ثم هو أيد أن باقيها موافق للدين غير مخالف له . ورد عليه ابن رشد بكتاب سماه « تهافت التهافت » . ثم جاء آخر ووضع كتابا ليحكم بينهما ؟ !

فهذا وأمثاله أدى إلى تدخل مسائل العلم الإلهي فى علم الكلام المسمى بعلم التوحيد أيضاً ، الذي وضعه علماء الاسلام لرد الشبه والبدع التي استهوت الكثير من الامة الاسلامية .

ولقد تجاوز الحد قوم من الذين لاتحقيق عندهم فظنوا كل ما نسب للفلسفة زوراً وذلك منهم جهل وغرور .

ولقد صار علم الكلام فناً يحوي كثيراً من علوم الفلسفة كما ترى في كتاب المواقف وأمثاله . وتراهم مزجوا العلم الطبيعي بالإلهي ، وأصبح من لا علم عنده

يظن ان علم الكلام والعلم الإِ آلهي واحد وليس كذلك . ان علم الكلام أدلته شرعية جاءت عن صاحب الرسالة عليه الصلاة والسلام .

اما أدلة الإِ آلهيات فانها صادرة عن العقل البشري بعد قراءة الرياضي والطبيعي . فتخلل مسائل الفلسفة من الطبيعي والآلهي فى علم الكلام والاستدلال بأدلتها فذلك ليس مقصوداً لذاته ، وإنما ذكر ليقوي ماورد بالدليل السمعي ، فتكون تلك الأدلة العقلية لتقوية النقلية ولافحام الخصم . وإثبات العقائد عند من لا يصدق بالسمع .

وإنما دعا المتكلمين إلى ذلك مقالات الذين ادعوا الفلسفة وهم لم يستوعبوها فعارضوهم بأدلة من القبيل الذي استهواهم .

وعلى ذلك كان ادخال الطبيعيات والآلهيات في هذا العالم ، وتصحيح مسائلها وإبطالها ليس من موضوع علم الكلام ولا من جنس أنظار المتكلمين ، وإنما الموضوع هو الرد على المعارضين والملحدين .

ثم ان الصحابة والتابعين كانوا على سنن الحق وطريق الهدى والاعراض عن زخرف الدنيا .

ولما كثر الاقبال على الدنيا اختص اولئك المتبتلون باسم الصوفية نسبة للبس الصوف كما قيل ـ فكان لهم كلام في المجاهدات والأذواق والمقامات والكشف وعلم الغيب والتصرف والشطحات والقول بوحدة الوجود . كما فى كلام ابن دهقان ، والوحدة كما في كلام الهروي فى كتاب « المقامات » وغيره .

فثبت ان العلم الآلهي مستمد من العقل ، وعلم الكلام مستمد من الشريعة وعلم التصوف من ذوق أربابه . وليس للدليل العقلي ولا النقلي فيه سبيل . فهذا تحقيق المقام فاذاً هذه العلوم الثلاثة متباينة .

العلوم العملية

اما العلم العملي فهو ثلاثة أقسام : الأول — علم الاخلاق فى البحث عن القوى الثلاثة : الشهوية والغضبية والعاقلة . ثم العفة للشهوة . والشجاعة للغضب ، والحكمة للعقل ، ثم العدل وما يتفرع على ذلك كله للرذائل والفضائل من البخل والتبذير والكرم والحلم وما أشبه ذلك .

الثاني — علم تدبير المنزل . في معرفة معاشرة الاهل والخدم وسياستهم ونظامهم ، مثل انه يجب على رب الاسرة أن يسير معهم على نمط واحد ووتيرة لا يغيرها حتى لا يندم اذا تغيرت أخلاقهم إلى غير ذلك .

الثالث — السياسة المدنية هو علم يبحث فيه عن أنواع الجامعة الانسانية كالجنس والدين والوطن واللغة والملك الجامع للامة ، وكيف كانت هذه تنافي حال المدنية الفاضلة ، ثم النظر فى ان سياسات الامم مبنية على عقائدها .

ثم بيان المدنية الفاضلة والمنحرفة والجاهلة ــ مما أوضحه الفارابي فى كتابه ــ كتبيان ان نظام المدنية الفاضلة يرجع إلى نظام الجســم الانساني مقيساً عليه فى الاعضاء الخادمة والمخدومة المفصلة فى علم التشريح ، وبيان ان نظام الامة يرجع الى الزراعة والتجارة والصناعة والامارة ، وان الامارة على العامة للوعاظ ، وعلى الخاصة للحــكماء ، وعليهما معاً للانبياء . وعلى الاجسام فقط للملوك والامراء . انتهى الكلام على العلوم العملية .

فهذه سبعة عشر علماً ، أربعة فى الرياضيات . فالمنطق فثمانية في الطبيعيات والعلم الآلهي ، فالعلوم العملية الثلاثة .

حول عصمة الانبياء (ع)

قد يجد الباطل أنصاراً فيتبوأ من نفوسهم داراً ويتخذ له منها قراراً ، وتذهب على ذلك الأيام بعد الأيام وتمضي عليه الأعوام إثر الأعوام - وهو يلعب بأهله ويغلب أهواءهم بحيله . حتى يقصروا نظرهم عليه ولا يجدون ملجأ منه إلا اليه ، فاذا أتوا من ناحيته رضوا وإذا عرض لهم الحق أعرضوا ، ولا يزالون كذلك الى ان تنحل به عراهم وتفسد بعلله قواهم .

والحق لايزال يعرض نفسه يستخدم مرة لينه وأخرى بأسه . وهوالشاب الذي لا يهرم والعامل الصبور الذي لا يسأم . وإنما يعرض بوجهه عن الاغبياء ويولي ظهره عن الأشقياء . ثم لا ينفك يرحمهم ولا يبرح يتعهدهم . يسفر عليهم محياه ويرسل اليهم أشعةً من سناه . فاذا وافاهم وقد وهنت منتهم ومرهت عيونهم وحلك ليلهم واشتد خبلهم - صاح بهم منه صائح ورمحهم من جنده رامح ، فقلق الباطل مكانه وزلزلت من حوله أركانه ، وفزع يطلب النصير وثار يلتمس المجير . فلا يجد الا أسبابا تقطعت به ، وأعضاءاً فت فيها بسببه ، وقد رنق قومه وعبس يومه ، فيحملق الى الحق يأخذ ببصره ويستنزله بنظره ، ولكن خاب الظن وبطل الفن .

ثم لا يلبث ـ وهو الباطل ـ ان يتحول عنده اليأس أملا ، ويجد من اليبس بللاً ، فيظن ـ وهو هو ـ ان الحق ناصره وان ستقوى به أواصره فيستنصر بجنده ويطلب النجدة من عنده ، وأقرب ما يكون خصم الى الهلكة إذا إطمأن الى عدوه وأمل الخير في دنوه . هذا شأن الباطل وأهله مع تقلبه في ملله ونحله .

يعلم كل ناظر فى كتابنا الآلهي (القرآن) ما رفع الاسلام من شأن الانبياء والمرسلين ، والمنزلة التي أحلهم من حيث هم حملة الوحي وقدوة البشر فى الفضائل وصالح الاعمال، وتنزيهه إياهم عما رماهم به أعداؤهم وما نسبه اليهم المعتقدون باديانهم.

ولا يخفى على أحـــد من أهل النظر في هذا الدين القويم انه قد قرر عصمة الرسل كافة من الزلل في التبليغ والزيغ عن الوجهة التي وجه الله وجوههم نحوها من قول أو عمل . وخص خاتمهم محمداً (ص) فوق ذلك بمزايا فصلت من ثنايا الـكتاب العزيز .

عصمة الرسل فى التبليغ عن الله أصل من أصول الاسلام . شهد به الكتاب وأيدته السنة وأجمعت عليه الأمة . وما خالف فيه بعض الفرق فانما هو في غير الأخبار عن الله وابلاغ وحيه الى خلقه .

ذلك الاصل الذي إعتمدت عليه الأديان حق لا يرتاب فيه مـلي يفهم ما معنى الدين . مع ذلك لم يعدم الباطل فيه أعوانًا يعملون على هدمه وتوهين ركنه ، أولئك عشاق الروايات وعبــــدة النقل ، نظروا فى قوله تعالى (وعصى آدم ربه فغوى) .

لا شبهة في ان النبي لابد فى إثبات نبوته ورسالته من معجزة تقتضي صدق دعواه للنبوة . وما يتعلق بها من التبليغ وتشريع الأحكام . فما يتوهم صدوره عن الأنبياء من القبائح أما أن يكون منافياً لما تقتضيه المعجزة كالـكذب فيما يتعلق بالتبليغ

أولا ـ والثاني أما يكون كفراً أو معصية غيره ، والثاني أما أن يكون كبيرة كالقتل والزنا أو صغيرة ، وكل ذلك أما عمداً أو سهواً بعد البعثة أو قبلها .

والجمهور من الاسلاميين اتفقوا على وجوب عصمتهم عما ينافي مقتضى المعجزة وما يتعلق بالتبليغ ، والا لارتفع الوثوق والأمان بالاداء . واتفقوا على أن ذلك كما لايجوز عمداً لا يجوز سهواً . واتفقوا على وجوب عصمتهم عن الكفر وكذا عن تعمد الكبائر بعد البعثة ـ فعند الأشاعرة سمعاً وعند غيرهم عقلا .

وأما الامامية فقد قالت بتنزيه الأنبياء الذين هم جالسون بين الحدين ـ حد الخالق وحد المخلوق ـ عن إرتكاب المعاصي مطلقاً . صغيرها وكبيرها قبل النبوة وبعدها . فانه لو صدر عنهم الذنب لزم أمور كلها فاسدة بالدلائل العقلية والسمعية:

الأول — ان الغرض الاصلي من إرسال الرسل وإنزال الكتب إنما هو تشكيل مدنية فاضلة . لبث تلك الحقايق الآلهية والمواد القانونية الاصلاحية ، إن شئت قلت : إن الانبياء لتكميل دواعي الخيرات وتقوية بواعث الكمالات اللائقة بالبشر في سيرهم الاختياري ، فحيث يتفق كثيراً ـ ما يخفى على العقول السليمة البشرية قسم كبير مما يكملهم فى كلتا جنبتي المادة والروح ، وتعجز عقولهم عن إدراكه فيبعث الله عز وجل الأنبياء ليأخذوا من يد العقول البشرية فى مواقع الحيرة ومواطن الجهل والضلالة ، وهم في الحقيقة كمرآة ذات وجهين يرتسم فيها من أحد الوجهين وينعكس الى الخلق من الوجه الآخر ، فلو صدرت عنهم المعصية لأوجبت تنفر الطباع عنهم ، وذلك يوجب ترك التأسي والاقتداء بهم فيكون نقضاً لغرض الله فى حكمته ، فلا يتحقق بمثل هـــذا المبعوث للاصلاح البشري وتشكيل المدنية الفاضلة .

أرأيت ماذا يحصل السارق ـ المعروف ـ إذا قام في الازقة والاسواق يمنع

الناس عن السرقة قائلا بملء فمه : ان السرقة محرمة أوعد الله لمرتكبها العذاب فى العاجل والآجل ؟ وهو مع هذا يسرق من هذا ويختلس من ذاك! أفهل يصغي أحد اليه أو يرى من الواجب عليه إمتثال أمره ؟

الثاني ـ يحرم إتباعهم . لكن النبي واجب الاتباع بالاجماع و بقوله تعالى: ﴿ قل ان كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله﴾ .

الثالث — يجب رد شهادتهم لقوله تعالى : ﴿ إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا ﴾ لكن التالي منتف للقطع بان من ترد شهادته فى القليل من متاع الدنيا لا يستحق القبول فى أمر الدين القائم الى يوم الدين .

الرابع — وجوب منعهم وزجرهم . لعموم أدلة الامر بالمعروف والنهي عن المنكر . لكنه منتف لاستلزامه إيذاءهم ، وهو محرم بالاتفاق و بقوله تعالى: ﴿ ان الذين يؤذون الله ورسوله لعنهم الله فى الدنيا والآخرة ﴾ .

الخامس — انه يلزم استحقاقهم العذاب والطعن واللعن . واللوم والذم ، لدخولهم تحت قوله تعالى : ﴿ ومن يعص الله ورسوله فان له نار جهنم ﴾ وقوله : ألا لعنة الله على الظالمين ﴾ وقوله تعالى : ﴿ لِمَ تقولون ما لا تفعلون ﴾ وقوله : ﴿ أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم ﴾ لكن كل ذلك منتف عنهم بالاتفاق .

السادس — ان مرتكب المعصية خارج عن حدود الله ، وكل من هو كذلك فهو ظالم ، لقوله تبارك وتعالى : ﴿ ومن يتعد حدود الله فاؤلئك هم الظالمون ﴾ وعهد النبوة الذي هو أعظم من الامامة لا ينال الظالم لقوله تعالى : ﴿ لا ينال عهدي الظالمين ﴾ .

السابع — يلزم أن يكون الانبياء من حزب الشيطان ومتبعيه ، واللازم قطعي البطلان ، وذلك لانه تعالى قسم الخلق صنفين : فقال فى أحدها :﴿ أوْلئك

حزب الشيطان ألا ان حزب الشيطان هم الخاسرون ﴾ وقال في الآخر (أؤلئك حزب الله ألا ان حزب الله هم المفلحون) . ولا خفاء في ان حزب الشيطان من يفعل ما يرتضيه وهو المعصية .

الثامن — ان الانبياء أشرف من الملائكة ولهذا امرهم الله بالسجود لآدم إظهاراً لشأنه وجلالته ، والملائكة معصومون ، لقوله تعالى : (لا يعصون الله ماأمرهم) وإذا كان الملك معصوماً وجب أن يكون المساوي له فى الفضيلة معصوما ـ فضلا عن الافضل ـ وذلك لقوله تعالى : (أم نجعل المتقين كالفجار) .

هذا الذي ذكرناه كالاساس الذي يبنى عليه بناء الاعتقاد في عصمة الانبياء (عليهم السلام) فان رأيت شيئاً في الكتاب والسنة ما ظاهره يوهم خلاف عصمتهم فان أمكن تصوير معنى صحيح له فهو ، والا فلابد من تأويله ، وذلك لعدم صحة رفع اليد عن البراهين العقلية والنقلية القطعية لبعض الظواهر النقلية الظنية . وفي القرآن عدة آيات توهم منها جواز صدور المعصية من الانبياء ، ونحن نوردها مع توضيح مالها من المعنى غير المخالف للادلة العقلية المتقدمة .

فمنها — ما في قصة آدم من قوله تعالى : (يا آدم إسكن انت وزوجك الجنة وكلا منها رغداً حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين فأزلهما الشيطان عنها فاخرجهما مما كانا فيه وقلنا اهبطوا بعضكم لبعض عدوٌ ولكم في الارض مستقر ومتاع الى حين ، فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه انه هو التواب الرحيم).

وفي سورة طه : (فقلنا ياآدم ان هذا عدو لك ولزوجك فلا يخرجنكما من الجنة فتشقى ان لك ان لا تجوع فيها ولا تعرى ، وانك لا تظمأ فيها ولا تضحى فوسوس اليه الشيطان قال يا آدم هل ادلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى ، فاكلا منها فبدت لهما سواتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة وعصى آدم ربه فغوى،

ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى) .

وقوله تعالى : (قالا ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين » .

فالذي يتمسك به المتوهم من هذه الآيات سبعة أمور :

الأول ـ انه كان عاصياً والعاصي صاحب الذنب الذي أوعد الله عليه بالعقاب ، بقوله : (ومن يعص الله ورسوله فان له نار جهنم) .

الثاني ـ انه كان غاوياً ، والغي ضد الرشد بدليل المقابلة في قوله تعالى : (قد تبين الرشد من الغي) .

الثالث ـ انه تائب والتوبة إنما هي من الذنب .

الرابع ـ ارتكابه المنهي عنه ، كما يشهد به توبيخه بقوله : ألم انهكما عن تلكما الشجرة ، ومرتكب المنهي عنه مذنب .

الخامس ـ انه ظالم .

السادس ـ اعترافه بأنه لو لا مغفرة الله اياه لكان خاسراً ، والخسران إنما يكون عن الذنب .

السابع ـ انه أخرج من الجنة بسبب اطاعته للشيطان وقبوله الوسوسة .

والجواب عن الأول ـ ان كون الشخص عاصياً لا يدل على صدور الذنب منه ، لأن العصيان لغة ـ كما في القاموس ـ خلاف الطاعة ، والطاعة الموافقة للأمر وامتثاله ، وهي كما تكون فى امتثال الأمر الوجوبي كذلك تكون في امتثال الأمر الندبي ، فالمعصية عبارة عن مخالفة الأمر واجباً كان او مندوباً ، ولذا يقولون : اشرت عليه في امر ولده بكذا فعصاني . بل يطلق على مخالفة الأوامر الإرشادية أيضاً كما يقال : أمرته بشرب الدواء فعصاني . ومنه قول ابن المنذر

ليزيد بن المهلب أمير خراسان :

أمرتك أمراً حازماً فعصيتني فأصبحت مسلوب الامارة نادما

فعلى هذا لا مانع من اطلاق اسم العصيان على فعل آدم (ع) . لا لكونه تاركاً للواجب او فاعلا للمحرم ، بل لكونه تاركاً للاولى من باب ـ حسنات الابرار سيئات المقربين ـ فان الأنبياء بما أن قلوبهم اتم القلوب صفاء واعرفها عرفاناً تكون ابداً مستغرقة بذكر الله تعالى ومتعلقة بالملأ الأعلى . وهم ابداً فى المراقبة كما قال (ص) : اعبد ربك كأنك تراه فان لم تره فانه يراك) . فهم (عليهم السلام) دائماً متوجهون اليه ومقبلون بكليتهم عليه . فمتى انحطوا عن تلك المرتبة العالية والمنزلة الرفيعة بالاشتغال بالمأكل والمشرب والتفرغ للنكاح وغيره من المباحات ـ عدوه واعتقدوه خطيئة فاستغفروا منه . والى هذا اشار علي بن الحسين (ع) فى دعائه بقوله :

واستغفرك من كل لذة بغير ذكرك . ومن كل راحة بغير أنسك . ومن كل سرور بغير قربك ، ومن كل شغل بغير طاعتك » فعدّ (ع) الاشتغال باللذائذ المباحة ذنباً ، وأخذ يستغفر منه .

وبالجملة ـ من لطافة الذوات النبوية عند تعاطي شيء من حظوظ النفس تسرع كدورة الى القلب لكمال رقته وفرط نورانيته ، فان الشيء كلما كان ارق واصفى كان ورود المكدرات عليه أبين . فكان « صلى الله عليه » إذا احس بشيء من ذلك عده على النفس ذنباً ، ولذا كان رسول الله (ص) يقول : انه ليغان على قلبي واني لاستغفر الله بالنهار سبعين مرة) . وما ذكر في الآية من الابعاد بالعصيان فالمراد منه مخالفة الأوامر الالزامية ، ضرورة أن المندوب لا عقاب على تركه .

وعن الثاني ـ ان الغواية ضد الهداية وهي الضلالة : والضلالة هي العدول عن الطريق الذي ينبغي سلوكه ، ولا كلام لأحد في ان آدم بأكله من الشجرة ترك ما هو الاولى والأصلح له . وعدل عن طريق الاولى الى غيره .

وعن الثالث ـ ان التوبة عبارة عن الندم على ما مضى فيجوز على ترك المندوب ، ونمنع عدم وقوعها إلا عن ذنب .

وعن الرابع ـ المنع من كون مرتكب المنهي عنه مذنباً مطلقاً ، وإنما هو في ارتكاب المناهي التحريمية ، واما مخالفة النهي التنزيهي فلا تكون ذنباً ، وذلك لأن آدم كان مندوباً إلى ترك التناول من الشجرة وكان بالتناول منها تاركاً نفلا وفضلا ، ولم يكن فاعلا للقبيح الذي يستحق فاعله العقاب .

وتوهم ان اخراج آدم من الجنة واهباطه الى الأرض ـ عقوبة له ـ مدفوع بان آدم لم يكن مخلوقاً للجنة وانما خلقه الله سبحانه ليكون خليفة فى الأرض ـ كما هو مقتضى اخباره تعالى للملائكة قبل خلق آدم بقوله : اني جاعل فى الأرض خليفة ـ وإنما كان اسكانه فى الجنة من باب التفضل والاكرام .

وعن الخامس ـ بانه لا شك انه كان تاركاً للأفضل مع القدرة على تحصيل الأفضل ، فكان ذلك ظلماً على نفسه . فالظلم هو النقص وبخس الثواب .

وعن السادس ـ منع ان الخسران لا يكون إلا عن ذنب . فان الخسران عبارة عن عدم الربح . ومن الواضح انه لو لم يقدم على اكل الشجرة حصل له الثواب الموعود من الله سبحانه من العيش السعيد . وبأكله فوّت المنفعة على نفسه فخاب وخسر .

وعن السابع ـ بان آدم خلق لأن يكون خليفة فى الأرض ـ كما هو نص الآية الشريفة ـ (اني جاعل في الأرض خليفة) وليس فى اهباطه الى الأرض

دلالة على كونه مذنباً . نعم يمكن ان يقال : إن تركه للاولى كان سبباً لتعجيل الهبوط ، لاحتمال تغير المصلحة في البقاء بحصول الأكل .

ومنها ـ قوله تعالى : هو الذي خلقكم من نفس واحدة وجعل منها زوجها ليسكن اليها فلما تغشاها حملت حملا خفيفاً فمرت به فلما اثقلت دعوا الله ربهما لئن آتيتنا صالحاً لنكونن من الشاكرين ، فلما آتاهما صالحاً جعلا له شركاء فيما آتاهما فتعالى الله عما يشركون » .

قيل : ظاهر الآية يقتضي وقوع المعصية من آدم ، لأن النفس الواحدة هي آدم ، وزوجها المخلوق منها هو حواء .

الجواب ـ أولا : لا نسلم ان النفس الواحدة هي آدم ، وليس في الآية ما يدل عليه ، فيمكن ان يكون المراد ان الله عز وجل خلقكم من نفس واحدة ـ أي من أب واحد ، وجعل منها زوجها ـ اي جعل زوجها من جنسها ، بمعنى ان حفظ النظام العائلي لما كان متوقفاً على اختصاص امرأة واحدة برجل واحد فجعلكم الله عز وجل ـ نظراً الى هذه الحكمة ـ من أب واحد وأم من جنسه ، للانس ورفع التوحش بينهما .

وثانياً ـ لو تنزلنا وسلمنا ان المراد من النفس الواحدة هو آدم فيمكن أن يرجع ضمير جعله الى الجنسين من الذكور والاناث من أولادهما ، ولا منافاة بينه وبين رجوع ضمير (دعوا) إلى آدم وحواء ، لأن الانتقال من خطاب مخاطب إلى غيره كثير فى القرآن وغيره من الاشعار العربية ، قال الله تعالى : إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً لتؤمنوا بالله ورسوله ، فانصرف من مخاطبة الرسول (ص) إلى مخاطبة المرسل اليهم ، ثم قال : وتعزروه وتوقروه ، يعني الرسول (ص) ، ثم قال : وتسبحوه يعني به الله مرسل الرسول .

فالكلام مع كونه واحداً متصلا بعضه ببعض فالضمائر في المرجع مختلفة ، واما الشواهد الشعرية فكثيرة ، منها قول الشاعر :

فدىً لك ناقتي وجميع أهلي　　ومالي انه منه أتاني

ولم يقل منك أتاني ، فعدل عن الخطاب إلى الغيبة ، وإلى ما ذكرنا يشير ما قد جاء عن الرضا (ع) ـ وهو أحد الثقلين ـ في تفسير الآية ، عند ما سأله المأمون وقال : فما معنى قول الله عز وجل فلما آتاهما صالحاً جعلا له شركاء فيما آتاهما ؟ فقال الرضا (ع) : ان حواء ولدت لآدم خمسمأة بطن في كل بطن ذكر ، وانثى ، وان آدم وحواء عاهدا الله عز وجل ودعواه وقالا : لئن آتيتنا صالحاً لنكونن من الشاكرين . فلما آتاهما صالحاً من النسل خلقاً سوياً بريئاً من الزمانة والعاهة كان ما آتاهما صنفين صنفاً ذكراً وصنفاً انثى ، فجعل الصنفان لله تعالى شركاء فيما آتاهما ولم يشكراه كشكر ابويهما له عز وجل ، فتعالى الله عما يشركون » . فقال المأمون : أشهد انك ابن رسول الله حقاً .

حول عصمة نوح (ع)

ومن الآيات القرآنية التي استدل بها من لا يرى عصمة الأنبياء على صدور المعصية من الأنبياء ـ قوله تعالى في سورة هود : (ونادى نوح ربه فقال رب ان ابني من أهلي وان وعدك الحق وانت احكم الحاكمين ، قال يا نوح انه ليس من اهلك انه عمل غير صالح فلا تسألني ما ليس لك به علم اني اعظك أن تكون من الجاهلين) .

زعم المتوهم : ان قوله تعالى : انه ليس من اهلك تكذيب لنوح عليه السلام

فى قوله : ان ابني من اهلي ، فاذا صدق قوله تعـالى : انه ليس من اهلك كـذب قول نوح (ع) انه من أهلي ، فيكون قد صدر الـكذب الذي هو من الـكبائر عن نوح (ع) .

لـكن المتوهم مادرى ان قوله تعالى : انه ليس من اهلك ليس نفياً للأهلية النسبية حتى يكون تكذيباً لنوح . فانه غاية ما هناك سؤاله عن وجه الحكمة في غرق ولده مع سبق وعد الله له بنجاة أهله فى قوله تعالى : (قلنا احمل فيها من كل زوجين اثنين وأهلك) وقد اعترف هو (ع) بذلك في قوله : (ان وعـدك الحق وأنت أحكم الحاكمين) .

فأبان الله له وجه الحـكمة بأن الموعود بنجاتهم هم المؤمنون من أهله ، الذين يحسن انتماؤهم اليه لاهتدائهم بهداه ، وان ولده الغريق ليس من أهله الموعود بنجاتهم ، او انه لايليق ان يعد من أهل بيته لأنه عمل غير صالح ليس على هدى أبيه ودينه ، وأراد انه كان كافراً فكان كفره اخرجه من أن يكون له أحكام اهله . ويشهد له قوله تعالى في مقام التعليل : انه عمل غير صالح ، فتبين أنه انما خرج عن أحكام اهله بكفره وقبح عمله .

ثم وعظه الله تعالى على سؤاله عن الحكمة ، لأن الاولى بعلو مقامه هو التسليم والتفويض لحكمة الله اجمالا ولا سيما مع عرفانه بأن الله أحكم الحاكمين ، فأناب إلى الله من فعله خلاف الاولى وخاف الانحطاط به عن مراتب الصدّيقين ومقامات المقربين ، وقال ـ كما حكاه الله عنه ـ رب اني اعوذ بك ان أسألك ما ليس لي به علم وإلا تغفرلي وترحمني اكن من الخاسرين) .

واما مايقال في شأن نوح (ع) ـ انه دعا على قومه بالضلال بقوله : (ولا تزد الظالمين إلا ضلالا) وقالوا : إن هـذا خلاف الوظيفة النبوية ، فان النبي

المبعوث ـ الذي هو جالس بين الحدين حد الخالق وحد المخلوق ، وأرسل لهدي الخلق والاصلاحات البشرية وانقاذهم من الجهالة وحيرة الضلالة ـ لايجوز له الدعاء عليهم مهما كانوا بالفساد ولاسيما طلب الضلال .

قلنا : إن كل عارف باللغة العربية يعلم أن الضلال مساوق لمعنى التيه وإضاعة الطريق . ويختلف المراد منه باعتبار متعلقه فيقال : ضل الرجل عن التوحيد إذا عبد غير الله ، وضل عن الشريعة إذا جهل أحكامها أو خالفها ، وضل عن الجادة إذا تاه ، وضل عن الصواب إذا خبط وخلط ، وضل عن الرشد إذا تحيز في أموره .

وضد الضلال هو الهدى . ويختلف المراد منه أيضاً باعتبار متعلقه على نهج ما تقدم ، وليس الضلال المدعو به هو الضلال عن توحيد الله ومعرفة ذاته وصفاته والتيه عن شرعه وإحكامه . بل المراد منه اضاعة طريق الرشد والتدبير في أمورهم وعوائدهم ليشتغلوا بحيرتهم فى شؤونهم عن أذى الخلق واضلالهم عن الحق ، فهو دعاء عليهم بالعقوبة الدنيوية لأجل صلاح غيرهم . وقد عرفت ان الضلال هو مطلق الاضاعة والتيه عن الطريق المطلوب ، وتختلف أنحاء أفراده التي تراد منه باعتبار الأمر المضيع والطريق الذي ضل عنه . ومن ذلك قوله تعالى فى باب الشهادة: (إن تضل إحداهما فتذكر إحداهما الأخرى) ومنه : (وجعل كيدهم في تضليل) .

حول عصمة ابراهيم « ع »

واما الشبهة فى حق ابراهيم (صلوات الله عليه) فهي : انه كذب في قوله : ـ هذا ربي ـ وقوله : بل فعله كبيرهم ـ واني سقيم ـ .

والجواب ـ ان الأول على سبيل الفرض والتقدير كما يوضع الحكم الذي يراد ابطاله ، أو على الاستفهام ، أو على أنه كان في مقام النظر والاستدلال . والثاني على سبيل التعريض والاستهزاء . والثالث على أن به مرض الهم والحزن من عنادهم ، أو الحمى على ما قيل .

وأما الشبهة فى حق يعقوب من جهة الافراط فى المحبة والحزن الشديد والبكاء والجواب ـ انه لا معصية في ميل النفس ولاسيما الى من يلوح عليه آثار الخير والصلاح وانواع الكمال ، ولا في بث الشكوى والحزن الى الله في مصائب تكون من جهة العباد لا سيما وقد قيل : انه كان من خوف أن يموت يوسف على غير دين الاسلام .

واما الشبهة فى حق يوسف من جهة الهم المشار اليه بقوله تعالى ـ ولقد همت به وهمّ بها ـ وجعل السقاية في رحل أخيه ، والرضا بسجود اخوته وأبويه .

والجواب ـ ان المراد وهمّ بها لولا أن رأى برهان ربه ـ والبرهان هو ما عنده من الصوارف العقلية الزاجرة للنفس عن فعل القبيح . أو المراد من الهم الميل الشهوي الحيواني الموجود في الطبائع البشرية ، ولولا الزاجر الشرعي لما انتهى عن كل ما يمكنه من القبائح ، ولولا المعرفة الكاملة للقوة العقلية المنورة بحقيقة التقوى لوقع منه فعل مالا ينبغي احيانا . وليس المراد الهم بالمعصية والقصد اليها .

وبالجملة ـ فلا دلالة ههنا على العزم والقصد الى المعصية فضلاً عما يذكره الحشوية من الحشويات ، ولهذا ورد فى هذا المقام من الثناء على يوسف ما ورد من غير أن يبقي عليه زلة أو يذكر له استغفاراً وتوبة . واما جعل السقاية فى رحل أخيه فقد كان باذنه ورضاه بل باذن الله . ونسبة السرقة الى اخوته تورية عما كانوا فعلوا بيوسف ومما يجري مجرى السرقة . أو هو قول المؤذن . والسجدة

كانت عندهم تحية وتكرمة كالقيام والمصافحة ، أو كانت مجرد انحناء وتواضع لاوضع الجبهة على الأرض .

وأما الشبهة فى قصة موسى (ع) في قتل القبطي وتوبته عنه واعترافه بكونه من عمل الشيطان فمحمول عندنا على أنه لترك ما هو الاولى . وقيل : إنه كان خطأ وقبل البعثة . واما اذنه للسحرة فى إظهار السحر بقوله : ـ بل ألقوا ما انتم ملقون ـ ليس رضاء ، بل الغرض اظهار بطلانه او اظهار معجزته ولا يتم إلا به .

وقيل : لم يكن حراماً . وإلقاء الالواح كان عن دهشة وتحير لشدة غضبه . والأخذ برأس هارون وجره اليه لم يكن على سبيل الايذاء بل يدنيه الى نفسه ليتفحص منه حقيقة الحال ، فخاف هارون ان يحمله بنو اسرائيل على سبيل الايذاء ويفضي الى شماتة الاعداء ـ فلم يثبت بذلك ذنب له ولا لهارون فانه كان ينهاهم عن عبادة العجل ، وقوله للخضر : ـ لقد جئت شيئاً نكرا ـ أي عجبا ، ومافعله الخضر كان باذن الله تعالى فلم يثبت لهما ذنب أصلاً .

وأما الشبهة فى قصة داود (ع) فلم يثبت سوى انه خطب امرأة كان اوريا ابن حنان قد خطبها ليتزوجها ، وبلغ داود (ع) جمالها فخطبها أيضاً فزوجها أولياؤها بداود ـ دون أوريا . فعوتب (ع) على الحرص على الدنيا وانه خطب امرأة قد خطبها غيره حتى قدم عليه ، فكانت زلة منه لاستغنائه بتسعة وتسعين والخصمان كانا ملكين أرسلهما الله اليه لينبهاه ، فلما تنبه استغفر ربه وخرّ راكعاً .

وسياق الآيات يدل على كرامته عند الله ونزاهته عما ينسب اليه الحشوية إلا أنه بالغ في التضرع والتحزن والبكاء والاستغفار استعظاماً للزلة بالنظر الى ما له من رفيع المنزلة . وتقرير الملكين تمثيل وتصوير للقضية لا اخبار بمضمون الكلام ليلزم الكذب ويحتاج الى ما قيل : إن المتخاصمين كانا لصين ، دخلا

عليه للسرقة فلما رآهما اخترعا الدعوى ، أو كانا راعيي غنم ، ظلم أحدهما الآخر . والكلام على حقيقته .

وأما الشبهة في قصة سليمان « على نبينا وعليه السلام » فامور :

أحدها- مايشيراليه بقوله تعالى: ﴿إذ عرض عليه بالعشي الصافنات الجياد﴾ الى آخره ، وذلك انه اشتغل باستعراض الافراس حتى غربت الشمس وغفل عن صلاة العصر ، فاغتم لذلك واسترد الأفراس فعقرها . والجواب - ان ذلك كان لأجل الاستغراق فى الالتفات الى أسباب الدنيا ، أو كان على سبيل النسيان كما قيل . وعقر الجياد وضرب أعناقها كان لاظهار النـــدم وقصد التقرب الى الله والتصدق على الفقراء من أحب ماله .

على ان من المفسرين من قال : المراد حبه للجهاد واعلاء كلمة الله . وضمير توارت للجياد لا للشمس ، وانهما طفقا مسحاً بالسوق والاعناق تشريفاً لهـــا واستحساناً وإظهاراً لاصلاح آلة الجهاد .

وثانيها - ما اشير اليه بقوله : ﴿ ولقد فتنّا سليمان ﴾ الآية - فان ذلك على ماروي : انه ولد له ابن وكان يدعه في السحابة خوفاً من أن تقتله الشياطين ، فما راعه أن ألقي على كرسيه ميتاً فتنبه لخطأه في ترك التوكل فاستغفر وتاب . فهذا مما لابأس به وغايته ترك الاولى إذ ليس في التحفظ ومباشرة الأسباب ترك الامتثال لأمر التوكل على ماقاله رسول الله (ص) : اعقل وتوكل . وكذا ماروي انه قال : لأطوفن الليلة على سبعين امرأة كل واحدة تأتي بفارس يجاهد فى سبيل الله ولم يقل ان شاء الله . فلم تحمل إلا امرأة واحدة جاءت بشق ولد له عين واحدة ويد واحدة فرجل واحدة فألقته القابلة على كرسيه . واما ماروي من حديث الخاتم والشيطان وعبادة الوثن في بيته وجلوس الشيطان على كرسيه فعلى تقدير صحته -

يجوز أن يكون اتخاذ التماثيل غير محرّم في شريعته . وعبادة التمثال فى بيته غير معلومة الوقوع .

وثالثها — مايشعر به قوله تعالى : ﴿ وهب لي ملكا لا ينبغي لأحد من بعدي ﴾ في الحسد وعدم إرادة الخير للغير . والجواب ـ ان ذلك لم يكن حسداً بل طلباً للمعجزة على وفق ماغلب فى زمانه ولائق بحاله ، فانهم كانوا يفتخرون بالملك والجاه وهو كان ناشئاً في بيت الملك والنبوة وو'ارث لهما ، أو إظهاراً لامكان طاعة الله وعبادته مع هذا الملك العظيم . وقيل : أراد ملكا لا يورث منه ـ وهو ملك الدين لاالدنيا ، أو ملكا لا أسلبه ولا يقوم فيه غيري مقامي ، كما وقع ذلك مرة . وقيل : ملكا خفياً لا ينبغي للناس وهي القناعة .

واما الشبهة في قصة يونس «ع» مما يشعر به قوله تعالى : ﴿ وذا النون إذ ذهب مغاضباً فظن أن لن نقدر عليه ﴾ فلا يوجب شكا في قدرته ، لأن المراد : ذهب مغاضباً لقوله تعالى : فظن ـ أي استيقن ـ أن لن نقدر عليه ، أي لن نضيق رزقه . ومنه قوله تعالى : ﴿ فقدر عليه رزقه ﴾ أي ضيق وقتر . ومعنى الظلم في قوله : ﴿ إني كنت من الظالمين ﴾ ترك الأفضل وهو ما فاته من هذه العبادة التي فرغ لها فى بطن الحوت .

هذا هو المروي عن الرضا علي بن موسى «ع» فى الجواب عن سؤال المأمون فى هذا الموضع . واما في حق نبينا (ص) فمثل : ﴿ استغفر لذنبك ـ ولقد تاب الله على النبي و ـ ليغفر لك الله ماتقدم من ذنبك وما تأخر ﴾ انه لم يكن أحد عند مشركي مكة أعظم ذنبا من رسول الله (ص) لأنهم كانوا يعبدون من دون الله ثلثمائة وستين صنما ، فلما جاءهم (ص) بالدعوة إلى كلمة الاخلاص كبر ذلك عليهم وعظم وقالوا : ﴿ أجعل الآلهة إلهاً واحداً ان هذا لشيء عجاب ـ وانطلق

الملأ منهم ان امشوا واصبروا على آلهتكم ان هذا لشيء يراد ، ماسمعنا بهذا في الملة الآخرة ان هذا إلا اختلاق ﴾ فلما فتح الله على نبيه (ص) مكة قال يا محمد : ﴿ إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً ليغفر لك الله ماتقدم من ذنبك وما تأخر ﴾ عند مشركي أهل مكة بدعائك إلى توحيد الله فيما تقدم وما تأخر . فقال المأمون لما سمع هـذا الجواب ـ بعد الأجوبة عن سائر السؤالات الموردة على عصمة الانبياء «ع» ـ : لقد شفيت صدري يا ابن رسول الله وأوضحت لي ما كان ملتبساً ، فجزاك الله عن أنبيائه وعن دين الاسلام خيراً .

واما قوله تعالى : ﴿ ووجدك ضالاً فهدى ﴾ قيل : انه ضل في صباه في بعض شعاب مكة . وقيل : ضل في طريق الشام حين خرج به أبوطالب . وبالجملة لا دلالة على العصيان والميل عن طريق الحق ، ولذا قال تعالى : ﴿ ما ضل صاحبكم وما غوى ﴾ . واما قوله : ﴿ ووضعنا عنك وزرك ﴾ فهو تمثيل لما كان يثقل عليه من حمل أعباء النبوة في أوائل البعثة ، أو تهالكه على اسلام أهل العناد وتلهفه .

واما قوله : ﴿ عفى الله عنك لِمَ أذنت لهم ﴾ تلطف في الخطاب وعتاب على ترك الأفضل وارشاد إلى تدبير الحرب والاحتياط .

واما قوله : ﴿ ما كان لنبي أن يكون له أسرى ﴾ إلى قوله ﴿ ولولا كتاب من الله سبق لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم ﴾ أو ليس هذا يقتضي عتابه على استبقاء الأسرى وأخذ عرض الدنيا عوضاً عن قتلهم ؟ ليس في ظاهر الآية مايدل على انه (ص) عوتب في شأن الأسارى ، بل لو قيل : ان الظاهر يقتضي توجه الآية إلى غيره لكان أولى ـ لأن قوله تعالى : ﴿ تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة ﴾ وقوله : ﴿ لولا كتاب من الله سبق لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم ﴾ لا شك انه لغيره فيجب أن يكون المعاتب سواه ، والقصة معروفة والرواية بها

متظافرة ، لأن الله تعالى أمر نبيه (ص) بأن يأمر أصحابه أن يثخنوا في قتل أعدائهم بقوله : ﴿ فاضربوا فوق الاعناق واضربوا منهم كل بنان ﴾ وبلغ النبي ذلك أصحابه فخالفوه وأسروا يوم بدر جماعة من المشركين طمعاً في الفداء فأنكر الله ذلك عليهم وبيّن ان الذي أمر به سواه . وقيل : عتاب على ترك الافضل وهو أن لا يرضى باختيار أصحابه الفداء .

وبالجملة هـذه الشبهات غير واردة على القرآن فانه منزه عن أن ينسب للانبياء مالا يليق بهم ، ومقدس عن أن يلوث طهارتهم وعصمتهم بصدور المعصية منهم .

نعم — هذا شأن العهدين اللذين بيد جماعة اليسوعيين ويزعمون انهما كتابا إلهام ـ وهما بمعزل عن الحق والحقيقة . وذلك لأن الكتاب الالهامي والوحي السماوي بما انه منزل لأن يكون منهجاً إرشاديا للبشر وبرنامجاً إصلاحياً للأمة ـ فبالضرورة يشتمل على حقائق مصقلة للعقول البشرية عن درن الايمان بغـير المعقول ، ويأخذ بيدهم ويخرجهم من الظلمات الى النور ، وليست الكتب السماوية كالروايات الخيالية لا تقصر عن سرد كل رطب ويابس . فاذا وجد في كتاب مايخرج البشر من نور العقل إلى ظلمة الجهل ويكون غشاوةً لصفاء العقول كما هو الشأن في مندرجات العهدين ـ فبالبداهة تكشف عن أن ذلك الكتاب ليس كتابا إلآهياً بل لا يصح نسبته الى الوحي والالهام .

وقد استعرضنا نقد العهدين في المجلد الاول من كتابنا هذا ـ فراجعه .

غير أنا نلفت النظر هنا الى موضع العجب والاستغراب ، وهو أن العهد القديم مع تحريمه الخمر في التاسع والثلاثين من التثنية إذ يقول : « وخمراً لا تشرب » تجده في تاسع التكوين عدد ٢٠ ينسب شرب الخمر الى نوح وتكشّف عورته بقوله :

« وابتدأ نوح يكون فلاحا وغرس كرماً وشرب من الخمر فسكر وتعرّى داخل خبائه فأبصر (حام أبو كنعان) عورة أبيه » .

كما تجد انجيل يوحنا في استهلال الاصحاح الثاني يجعل صناعة الخمر معجزة لعيسى «ع» بقوله : « وفي اليوم الثالث كان عرس في قانا الجليل وكانت أُم يسوع هناك ودعي أيضاً يسوع وتلاميذه الى العرس ولما فرغت الخمر قالت أُم يسوع له : ليس لهم خمر ، قال لها يسوع : مالي ولكِ ياإمرأة لم تأت ساعتي بعد قالت امه للخدام : مهما قال لكم فافعلوه ، وكانت ستة أجران من حجارة موضوعة هناك حسب تطهير اليهود يسع كل واحد مطرين أو ثلاثة قال لهم يسوع : املأوا الأجران ماءً فملؤها الى فوق ثم قال لهم : استقوا الآن وقدموا الى رئيس المتكأ فقدّموا ، فلما ذاق رئيس المتكأ الماء المتحول خمراً ـ ولم يكن يعلم من أين هي لكن الخدام الذين كانوا قد استقوا الماء علموا ـ دعا رئيس المتكأ العريس وقال له : كل انسان إنما يضع الخمر الجيدة أولا ومتى سكروا فحينئذ الدون . أما أنت فقد أبقيت الخمر الجيدة الى الآن . هذه بداية الآيات فعلها يسوع في قانا الجليل وأظهر مجده فآمن به تلاميذه .

ليت شعري كيف يقدسون هذه الكتب وهي مفعمة بالخرافات ، مشحونة بأمثال هذه الترهات ﴿ فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هو من عند الله ﴾ .

ضرورة الدين للانسان

— ١ —

إن جميع الكوائن المادية ـ وبالأخص كلما هو على سطح هذه الكرة الأرضية ، من جماد أو نبات ، أو حيوان ـ إنما هو في بدء أمره وأول نشأة وجوده كأنه قوة مجردة وخلية من البذور المستعدة ، ولا يبلغ الغاية التي تليق به من الكمال والانتفاع بكونه وترتب الآثار على وجوده إلا بعد العمل عليه والسعي فيه ، والادمان على تربيته بالنواميس المعدة لمثله ، وذلك بعد ردح من الزمان ، وبرهة من الأيام تتداوله فيها التطورات والتقلبات في أيدي العوامل الفعالة في الكون كما تسمع وترى .

المعدن رقعة من الأرض وقطعة من الهضاب ولكن لا تسطع لمعانًا ، ولا تستطيع أن تبلغ من غاياتها مكانًا ، ولا تتأهل لأن تكون زينة إكليل ، أو قلادة جيد جميل ، أو ترصع بها آنية ، أو توضع في حلية غانية إلا بعد مزاولة أعمال طائلة فيها ومضي برهة من الدهر عليها . وعجمة النواة ، أو حبة القمح نبذة من الاجسام الجمادية ، ولكنها تختص باستعداد في خليتها وقابلية ، ولكن لا يبرز

ذلك المستعد لها إلى الوجود ولا تعود جسما نباتياً حياً نامياً مثمراً إلا بعد مكابدة عمل ، وطول أمل ، وتربص ليال وأيام ، والسير فيه على سنن مخصوصة .

وعلى هذه النواميس الكونية سارت سنة الكائنات البشرية . فان الانسان فى أول وجوده على سطح هذه الدائرة ما كان إلا كناجمة نبات في الارض يؤلمها حتى مر النسيم ، ويوديبه البرد والحميم ، ويحتاج في بلوغه الى مرتبة حفظ استقلاله وبلوغه أشده الى باهض عناية ومراقبة ، وعمليات أفكار ثاقبة ، وانطواء سلسلة من الزمان وجملة من العمر .

هكذا يرتقي الانسان فى هيكل جسمه وأعضائه ، وبمثل ذلك رُقيه في علومه وأفكاره وآرائه ، فسير قواه المادية والادبية على سنن واحد يسيران — على الاغلب — معاً كتفاً الى كتف وجنباً الى جنب ، والكل على نواميس محدودة وقواميس مجاري مقررة ، لا طفرة في الكون ولا فجأة ، وجميع العلوم والصنائع والكمالات كلها مرتهنة بهذه السنة ، لاتحيد عنها ولا تزول إلا بخرق عادة مما لا يقاس عليه ، ولا يلتفت فى الحكم بالكليات الى مثله .

وُجد الانسان بمكان من الضعف فى جميع قواه حتى من القبض والبسط والاخذ والدفع ، والقيام والقعود ، ولكن في صحيحه الجوهرة المستعدة لبلوغ أقصى غايات المجد والتربع على منصة عرش الشرف — لا كيفما كان وكلما اتفق — بل حيث يستن ويتسنى له السير على لاحب من التربية الصحيحة ، وجدد من الخطة العادلة ، وذاك حيث يدخل الى كل فنّ من بابه ، ويطلب كل شيء من أسبابه ، ويرجع في كل علم الى اربابه ويحصل الغايات من مباديها المقررة لها والطرق المسلوكة اليها . ثم له بعد ذلك حرية الارادة وسلامة الاختيار ، ومكانة الجرح والتعديل ، وإلا فلو تهجم احد على أي علم من العلوم ، وفنّ من الفنون من

دون اخذه من مباديه وتلقيه عن اهله ، وسيره على النهج الذي يلزم فيه ـ لا يعتم ان يكون مشيه فيه مشية السرطان معكوسة الى وراء ، لا تزيده كثرة السير عن غايات ذلك العلم إلا بعداً وتأخراً .

وكم رأينا من قوم دخلوا في العلوم على غرة فيها ، وجهل بمباديها ، وعدم تلقٍّ لها من جهابذتها ونطاسها الخبيرين بطرقها ومسالكها ، فجعلوا يرتقون ويفتقون ويحكمون فيها بما يشاؤن من تلقاء انفسهم ، ومن عند فطير أفكارهم — ضد فطرتهم — يمزقون بمخالب اوهامهم إهاب قواعد ذلك العلم ، ويهرفون على زعمائه وعلمائه بما لا يعرفون . وما السبب الوحيد في ذلك كله سوى الجهالة ، والخروج عن النواميس المقررة في تحصيل استكمال كل شيء ، وما هم إلا على حد قول القائل

ومن البلوى التي ليس لها في الناس كنهُ
أن من يعرف شيئاً يدعي اكثر منهُ

إنك وكل احد عرفت وتعرف كيف كان الانسان في اول كونه من الجهل والسذاجة المطبقة ، ثم يصير كلما يشب ويترعرع يجد في نفسه احوالا وغرائز كأنها كانت مكملة في برعمة نفسه ، ثم تفتحت أكمامها وتفتقت أزهارها ، وتأرجت نفحاتها ولكن حيث لا يدري كيف وجدت ، ولا من أين وجدت ، لا يعلم إلا أنها هي ذا وهي هكذا .

أول تلك الاحساسات والفطريات إندفاعه الى البكاء عند طلب الغذاء ، وسكونه عند الشبع والرواء ، ولم يكن تعلم هذه الواسطة المفّهمة من معلم ولا تعرفها من معرف ، ولا رأى غيره عليها فاحتذى مثاله وأخذ منواله ، بل فطرة وجدها من ذاته واندفع اليها من تلقاء نفسه .

ثم تتوارد عليه هكذا تلك الغرائز والفطر تنبع من ينبوع نفسه ، وتبرز

من خزانة صميمه ، لا يفتأ أن يفرق بين الموجود والمعدوم ، وبين النافع وغيره ، فيميل الى الأول ويسكن اليه من ظئر ترضعه أو أم تربيه ، فيهش اليها ويبتهج بها ولا يأوي إلى جناح غيرها . وهكذا تربو وتتزايد معه تلك الخلال حسب نموه وتربيته فيكون لها من المكانة السامية والمقام الأعلى حتى كأنها هي نفسه وبها كيانه . وهذه هي البديهيات الأولية التي ترداليها جميع النظريات وتنتهي الى حكومتها سائر الأدلة وإلا فلا غناء بها ولا معول عليها .

ثم إن العناية الربانية جل تقديسها ـ بعد ما منحت الانسان تلك النعمة العظمى وذلك الجوهر المقدس ـ لم تهمله وشأنه ، وتتركه ونفسه فيتردى بجهله وسوء إختياره في مهاوي الهلكة المؤبدة ويكون منحه الاختيار مع جهله كدفع السلاح الى الطفل مع إهماله . كلا بل لم تزل عين المراقبة تحوطه وترصده ، وعواطف الاشفاق والحنان تسعده على سلوك سبل الخير والنجاة .

فبعث الرسل اليه ، ونشرت الكتب بين يديه ، وسنت له القوانين ، وشرعت له الشرايع ، واستظهرت بالاعذار والانذار والوعد والوعيد . والجنة والنار ، كل ذلك تعديلا واستدراكا لتلك المنحة الجوهرية ، وأخذاً به الى جانب الخير وإبعاداً له عن هاوية الشر ولكن باختياره «لا اكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي» ليكون ذلك أسمى له وأسنى ، وأبقى لاستحقاقه مراتب الكرامة ووسامات المجد والشرف ، دون ما إذا أجبر على الخير فانه عند ذلك كالحجر فى قبضة صاحبه ـ أينما شاء وضعه موضع سوء أو إحسان ، وكيفما وضعه فالحمد والذم له لا للحجر ، ولكن ـ قتل الانسان ما أكفره ـ وأشده ، كل تلك العنايات والالطاف والتدابير الباهرة لم تنجع فيه ، ولم تعمل إلا في أقله . وبالرغم من تلك المسعفات الجاذبة الى مناحي السعادة أبى إلا الميل مع الهوى الى

مهاوي الشقاء .

لطفت العناية بالانسان وأشفقت عليه إشفاق الأم على جنينها . وحافظت عليه محافظة اليد على عيونها ، فما حرمت عليه شيئًا لصالحه إلا وجعلت مندوحة في غيره ـ خلواً من ضرره ، فما حرمت الزنا حتى رغبت فى النكاح بالعقد ، وما حرمت الربا والسرقة حتى أحلت له البيع والتجارة ، وما منعت الخمر حتى أباحت ألوفا من المشروبات الطيبة ـ مع سلامة العقل وإرفاد النشاط والقوة .

لكنك إذا أمعنت النظر وضربت الفكر فى الاسباب والعلل ـ وجدت من أقوى الدوافع والبواعث الى إرتكاب تلك الجرائم ونشر هاتيك الشرور وسير النفوس على خطة من الشقاء ، هي ضد العناية الالهية ، أقوى الاسباب والبواعث إن لم أقل إنها السبب الوحيد : هي الروح الخبيثة التي بثها الماديون فى العالم الاسلامي من أبعد عهوده وإلى اليوم .

— ٢ —

تنبعث العناية الى رحمة العباد فترسل إبراهيم وموسى وعيسى ومحمد ، فتتجسد تلك الارواح المطهرة ، وتتنازل هاتيك الانوار المقدسة تتهالك على إصلاح البشر وسن النواميس الشريفة فيهم ، وتلاقي الآلام فى كل طاحنة القرى والقفار في سبيل ذلك ، وربما تدب نسمة الصلاح فى العالم أو أوشكت يقوم مثل (مزدك) و (ماني) و (فول الشميشاطي) و (أبيقور) و (ديوجنيس الكلبي) وأمثالهم الى عصورنا هذه من كبار الزندقة والالحاد التي قذفت في الامم طبيعة الالحاد رجيعاً من هضمها الرابع : فظهر أفراد بل أوغاد من الغربيين ومقلدتهم من الشرقيين صاروا يعيدون مخرفات أولئك الانذمين من المفسدين في الارض .

وكل أولئك وهؤلاء من حاضر وغابر يضربون على وتر واحد وهو نشر الاباحة العامة والاشتراكية المطلقة وبالاخص محو كل فضيلة ، وحث الناس على كل رذيلة ، وإبطال عامة الشرايع والاديان . ولما انتشر بين البشر ميكروب هذه الكروب وسرت في البلاد عدوى هذا الهواء الاصفر ـ تسممت العقائد بهذا السم الناقع ، وأزهقت هذه الروح الخبيثة تلك الروح الطاهرة ـ أعني روح الدين والشريعة ـ فبعض جاهر بالالحاد والزندقة وهو الكثير أو الاكثر ، وآخرون

اعتنقوها من وراء ستار شفت عنه خطتهم الخاطئة ، ونبذهم نواميس الدين وراءهم ظهريا .

ضعفت لذلك ثقة الناس عامة بالاديان ـ إلا ما شاء الله ـ وطرحوا نيرها من أعناقهم ، واستأمنوا مواقف العدل الإلهي ومقاوم الجزاء والقصاص والعقاب والحساب ، واطلقوا انفسهم من تلك القيود ، وخرجوا من هاتيك الحبوس فهرعوا يركبون رؤسهم الى شهواتهم ، يسحق بعضهم على بعض ويفترس قوم آخرين ، القوي يحطم الضعيف ، والضعيف يقضم الاضعف ـ وخدّ الارض إذ ذاك محمر خجلا من دم الابرياء وأشلاء الضعفاء ، يحمر تارة من دم اعراض تهتك ، واخرى من دم نفوس بغير حق يسفك . ثم لا راد ولا رادع ولا وزر ولا وازع .

فذرني وشجوني ، ودمع عيني وشؤني ، فها أنا ذا واليأس يميتني والرجاء يحييني ، والمقال ينشرني والفعال تطويني ، حتى يظهر الحق أهله ، وينشر القسط عدله ، فلا تسلني عن شأني ودعني وأحزاني . يقول العلامة الشيخ حميد السماوي :

خلني عن خيال سعدى وسلمى وادّكار الأقمار والآرام

ورسوم بالأبرقين بوال عركتها طوارق الأيام

غربت شمسها فعادت حديثاً في سجل الايجاد والاعدام

خلطتها بعد البشاشة كف رقمتها في لوحة الأرقام

لم تدع لي أغراض قومي حزماً ليت لي شاغلا عن الأقوام

زعموا ـ والصدور تنضح غلاً انه عصر رحمة وسلام

أفرغوا العدل كيف شاؤا إلى أن سبكوا منه آلة الانتقام

ابرزوه في معرض النقد شكلا أبدعت فيه ريشة الرسام

واستدرّ واضرع الوئام إلى أن | مكنوا السيف من وريد الوئام
أكذا شانت الحضارة أم لم | تنــهَ عنه قداسة الاسلام
إن يك المجد في خداع ومكر | فابن آوى أحق بالاحترام
سل ضفاف النهرين ماذا تلاقي | من طواري السنين والأعوام
ملؤا صدرها الرحيب صروحا | ناتئات على رفاة الهــام

فالى الدين الى الدين أيها الملوك والسلاطين ، والبؤساء والمساكين ، والى الانتحار الى الانتحار يا عباد السديم والبخار ، فان الدين أعظم واكبر ناموس فى حفظ نظام العالم ، وأنفذ وازع ورادع للنفوس عن حرصها وجشعها الى حب التغلب والتفوق واستيفاء الحظوظ من الشهوات الحيوانيـة والقوى الغضبية ، والطمّ والرمّ ، والاستكثار من الحطام الجم .

ويستحيل قمع هذه الشرور وقلع هذه البذور من نفوس البشر عامة وخاصة إلا برهبة الدين ، وتسليط سيطرته عليها . إذ أعظم مصلح يقوم في العالم واكبر مدبّر ينهض لخدمة المجتمع البشري لايكون لولا الدين إلا اكبر أهوج خاير مضيع لحقوق شهواته ، من غير فائدة تعود اليه ولا عائدة ترجع بالعوض عليه .

إذ ما الغاية فى تحمل ذلك العناء ، ورفض تلك اللذائذ والصبر على شظف العيش ، والرزوح تحت أغلال البلاء مع علمــه بأنه سيفنى ويذهب متلاشياً في عرصات العدم المحض والفناء المؤبد ، ولو أن جميع العالم الى آخر الأبد صلوا وسلموا عليه بكرة وعشياً ، وسبحوا وقدسوا بحمده غدوّاً ورواحاً — لم يصل اليه ذرة من النفع بكل ذلك ، وكان هو واستبداله بلعنه وذمه سواء ، فهل تحمّله تلك المشاق إلا الحمق والخور وضعف الرأي ، وسوء التدبر ، وعدم النظر لنفسه .

أنت حاكم نفسك أمام وجدانك ، فان صادقتني على هذه الجملة سرنا معاً

في طلب الدين ، وإلا فعرفني بما عندك وما تحصل لديك من نتائج الفكر حتى أشطب على هذه الكلمات إن وجدته حقاً . وهيهات .

بربك — ألم يك فى اعتقادك بأن الدين من أرأف المسلمين ، واشفق الواعظين ، وابلغ المعزين لهذا الانسان البائس المحزوف طيلة حياته بكل عناء وشقاء ومصيبة وبلاء مهما ساعدته العناية وتمهدت له الأسباب وتربع على عرش الملك ؟ فضلا عن البائسين والمساكين الذين يرزحون تحت مجهدات الفقر والفاقة والبأس والمسكنة . قل لي بربك اذا اصيب الانسان — ملكا كان أو سوقة — بمصيبة أفقدته احد أعزته وفلذة كبده ومجسمة روحه . حتى تلظى فؤاده ناراً وطارت نفسه شعاعا ولم يُغن عنه ماله ولا رجاله . ولقد كان لو يستطيع لافتداه بكل ذلك ، قل لي اذا أحس بضعفه عند ذلك ووهنه ، وشعر بضؤلة قواه وتقاصر تعاليه وطوله وعرف محط مركزه من هذا الدين المدهش ، والمفزع الهائل الذي تتعاوره في كل لحظة عوامل البقاء والفناء ، وقوّتا الدفع والجذب . فهو يموت قليلا قليلا ويفنى رويداً رويداً ، ويمشي الى الفناء من حيث هو في البقاء فهو :

بالذي يغتذي يموت ويحيي   أقتل الداء للنفوس الدواء

قل لي أي ملك لا يأسف لماضي عمره ولا يبكي على فقد شبابه وريعان صباه ، ولا يهتم لطول بقائه ويجزع لتذكر موته ؟ وكفى بهذا هماً قاتلا ووجداً رسيساً وداءاً دخيلا ، يكدر كل صفو ويذهب بكل زهو ويعكر كل نمير ، بله ما يتوارد عليه من صروف الزمان وعثرات الليالي والايام ، ونكبات الدهر من غلبة أضعف الدول عليه ، أو ثورة الرعايا وترصدهم له وتربصهم فيه العزل أو المنون ، الى ما لا يحصى من أمثال ذلك .

هذا حال الملوك فما ظنك بالسوقة والرعايا ؟ واني لأرى من العبث

توسيع نطاق هذه الجملة وإطالة امراس البيان فيها ، وهل بعد المشاهدة والعيان من حاجة الى البيان ؟ .

كم رأيت أنت وسمعت من رجال بلغوا من عظمة السلطان وسعة الملك أن سجد الناس أمام أرائكهم ، وعبدوهم دون خالقهم ، وطافوا يستدرون أخلاف الأرزاق بأكف الضراعة والاملاق حول عروشهم ؟ قل لي ماذا كان مصيرهم ، والى أي غاية وصل صغيرهم وكبيرهم ؟ ألم يدسوا في حفائر الأرض كما تدس الجيف والاقـــذار ، ألم يستنزلوا من مشرفات القصور الى مظلمات القبور ؟ وطاشت بهم أهواء الفخفخة والرفعة الخادعة ، ثم أهوت بهم كما تهوي الزوابع بعاليات الشجر الى وهد الحضيض فلا لجأ ولا وزر .

أما والحرمات والذمم ، لولا أن العناية لطفت بالعباد وألهت أفكارهم بالشواغل المادية عن التوغـل والامعان فى هذه الخواطر الراهنة — لترك الناس عمارة الدنيا وسكنوا في شعب الجبال ومغارات الارض ، ولعجوا عجيج الوحوش فى الفلوات أو لخفتوا خفوت النينان في قعر الغمرات ، ولانقطع النسل وبطل العمل وعادت الارض الى شكلها الاول . ويا حبذا لو يكون وانه لكائن .

قل لي إذا أبصر الانسان هذا الخطر المحدق به والبلاء المطل عليه ، وأمعن الفكر فى ذلك وذهب به كل مذهب — فأي شيء يسكن لوعته ويبرد غلته ، ويكف عن غرب جماحه وهيجان أشجانه وجزعه من كل الحياة ولذائذها والدنيا ونعيمها ، تلك اللذائذ التي هي كالسم فى الدسم وتخيل السمن في الورم . تلك اللذائذ التي ما من واحدة منها إلا وهي محفوفة بآلاف من العناء والشقاء والـكدر والبلاء ، كيف يهدأ والحوادث والصروف كل آن تهدده بكل خطر وكل رزية لا يعرف بأي حجر يرمى ، وبأي عثرة وبأي بقعة يموت ويقبر .

أقسم بكل غموس من الايمان لولا سلوة الدين وحسن عزائه ، وطيب النفس بحسن الثقة به ، وان عاقبة الصبر الجميل جميلة ، وان الاستسلام له داعية كل فضيلة — لكان جديراً بالانسان وحريا به بل وحتما عليه أن ينتحر من ساعته ويقضي على حياته من أوائل عمره .

فهل بعد هذا كله إلا ان نقول : ان الدين هو الراحة الكبرى والنعمة العظمى واعظم لوازم الانسانية . واهم مايجب للطباع البشرية . هل إلا ان نقول : ان الاديان سياج العمران وحصن الحياة ومعقل الامم ، وان الحياة لاتطيب لأحد إلا به ، ولو قبض السموات بيمينه والارض بشماله لما اغناه ذلك عن الدين شيئاً ، وان قبض على الدين فقد قبض على راحة الأبد وسعادة النشأتين ولو كان فى أنياب الفقر وبين لهوات البلاء ..

هل من دافع للنفوس الى مآزق الحروب ومضايق الحتوف ومتكاثف الصفوف فى سبيل الدفاع والجهاد لحفظ الكيان إلا الأديان ؟

الدين هو الذي أوجب على كل إنسان يعيش على سطح البسيطة ان يقوم ويدافع ويأمر وينهى حسب إستطاعته . عند أي امر كان او نازلة نزلت على احد من ابناء جنسه ودينه .

— ٣ —

﴿ ان الدين عند الله الاسلام وما اختلف الذين اوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءهم العلم بغياً بينهم ومن يكفر بآيات الله فان الله سريع الحساب * فان حاجوك فقل أسلمت وجهي لله ومن اتبعني وقل للذين اوتوا الكتاب والاميين أأسلمتم فان أسلموا فقد اهتدوا وإن تولوا فانما عليك البلاغ والله بصير بالعباد ﴾(١)

الدين في اللغة الطاعة والخضوع ويطلق على مجموع التكاليف التي يدين بها العباد لله . فيكون بمعنى الملة والشرع . وقالوا : ان مايكلف الله به العباد يسمى شرعا باعتبار وضعه وبيانه ، ويسمى ديناً باعتبار الخضوع وطاعة الشارع به ، ويسمى ملة باعتبار جملة التكاليف .

والاسلام مصدر أسلم ، وهو يأتي بمعنى خضع واستسلم وبمعنى أدى يقال: اسلمت الشيء الى فلان اذا ادّيته اليه . وبمعنى دخل فى السلم وهو بالفتح والكسر بمعنى الصلح والسلامة ، وبالتحريك الخالص من الشيء . ومنه قوله تعالى : ﴿ ضرب الله مثلا رجلا فيه شركاء متشاكسون ورجلا سلماً لرجل ﴾ اي خالصاً له لا يشاركه فيه من يشاكسه .

وتسمية دين الحق اسلاماً — يناسب كل معنى من معاني الكلمة فى اللغة

(١) آل عمران آية ١٩ — ٢٠

واظهرها آخرها فى الذكر ولاسيما في هذا المقام ، ويؤيده الآية الآتية قوله تعالى : ﴿ ومن أحسن ديناً ممن اسلم وجهه لله وهو محسن واتبع ملة ابراهيم حنيفاً ﴾ .

وقد وصف ابراهيم بالاسلام في عدة سور ، ووصف غيره من النبيين بذلك — فعلم بذلك ان الحصر فى قوله : ﴿ ان الدين عند الله الاسلام ﴾ يتناول جميع الملل التي جاء بها الانبياء لأنه هو روحها الكلي الذي اتفقت فيه على اختلاف بعض التكاليف وصور الاعمال فيها وبه كانوا يوصون ، وبذلك كله تعلم ان المسلم الحقيقي فى حكم القرآن من كان خالصاً من شوائب الشرك بالرحمن ، مخلصاً في اعماله مع الايمان ، من أي ملة كان وفي أي زمان وجد ومكان . وهذا هو المراد بقوله عز وجل : ﴿ ومن يبتغ غير الاسلام ديناً فلن يقبل منه ﴾ .

ان الله شرع الدين لأمرين أصليين :

أحدهما تصفية الارواح وتخليص العقول من شوائب الاعتقاد بالسلطة الغيبية للمخلوقات ، وقدرتها على التصرف في الكائنات ، لتسلم من الخضوع والعبودية لمن هم من امثالها او لما هو دونها في استعدادها وكمالها .

ثانيهما — اصلاح القلوب بحسن القصد في جميع الاعمال ، وإخلاص النية لله تعالى وللناس ، فمتى حصل هذان الأمران انطلقت الفطرة من قيودها العائقة لها عن بلوغ كمالها في أفرادها وجمعياتها . وهذان الأمران هما روح المراد من كلمة الاسلام .

واما أعمال العبادات فانما شرعت لتربية هذا الروح الأمري الخلقي ، ولذلك شرط فيها النية والاخلاص ، ومن تربى سهل عليه القيام بسائر التكاليف الادبية والمدنية التي يصل بها الى المدنية الفاضلة وتحقيق امنية الحكماء .

آه ماأشد غفلة الناس عن حقيقة الاسلام ، أي سعادة للناس تعلو عرفان

كل فرد من أفرادهم ، انه اوتي من الاستعداد ما اوتيه من يوصفون بالولاية والقداسة ، ويدلون بالزعامة والرياسة ، فمنهم من يستعبد بها الناس استعباداً روحانياً ومنهم من يستعبدهم بها استعباداً سياسياً ، وإخلاص كل فرد من أفرادهم في عمله الديني لله وعمله الدنيوي للناس .

هذه السعادة هي روح الاسلام وحقيقته حجبتها عن بعضهم الرسوم العملية والتقاليد المذهبية ، وعن آخرين النزعات النظرية والتقاليد الوصفية . فالأولون يرمون بالكفر أو البدعة كل من خالف مذاهبهم . والآخرون ينبزون بالغباوة والتعصب كل من لم يستعذب مشربهم . فمتى يكثر المسلمون الخالصون والمخلصون للاولين والآخرين فيكونوا حجة الله عليهم وعلى جميع العالمين ، وآية الوحدة الفاضحة للمختلفين .

﴿ وما اختلف الذين اوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءهم العلم بغياً بينهم ﴾ قيل : ان المراد بأهل الكتاب هنا اليهود خاصة . وقيل : النصارى خاصة . ويدعم هذا القول ان الآيات نزلت في نصارى نجران ، والصواب انها عامة لا تخص فريقاً دون آخر .

والجملة بيان اسبب خروج أهل الكتاب عن الاسلام الذي جاء به أنبياؤهم على ماتقدم في الجملة الاولى . فصاروا مذاهب وشيعاً يقتتلون في الدين ، والدين واحد لا تفرق فيه ولا مثار للاختلاف بله الاقتتال ، وهذا السبب هو البغي وتجاوز الحدود من الرؤساء ومن كان على علم بالتاريخ ، وخاصة نشأة المذاهب في كل امة . وفشوّ البدع في كل ملة . فهو الذي يفهم كنه المراد من هذه الآية .

فلولا بغي رؤساء الدين والدنيا ونصر مذهب على مذهب لما تعصب لكل مذهب يشتق من الدين — شيعة تنصره وتؤيده في كل مسألة ، وتقاوم

كل من يقاومه وتضليلهم متوكئة على علم الدين ، ومستندة الى نصوصه بتفسير بعضها بالرأي والهوى ، وتأويل بعضها وتحريفه أو يوافق المذهب المنتحل .

ويجب على المسلم أن لا ينظم الآية في سمط أخبار التاريخ ولا في سلك علم الملل والنحل ، أو علم المناظرة والجدل ، بل يتلوها متذكراً أنها ما انزلت إلا هداية وعبرة لمن يؤمن بالقرآن ، ليتقوا الخلاف في الدين والتفرق فيه الى شيع ومذاهب إتباعا لسنن من قبلهم .

نحن المسلمين نعتقد ان دين المسيح (ع) هو الاسلام الذي بيّنا معناه آنفاً وان أساسه التوحيد والتنزيه ، وان الرؤساء الروحيين وغير الروحيين ولاسيما الملوك والاحبار الرومانيين هم الذين بتفرقهم جعلوا ذلك الدين الآلهي الواحد مذاهب ينقض بعضها بعضاً ، وأهله شيعاً يفتك بعضهم ببعض ، وانه لولا بغيهم لما تمزق شمل (آريوس) وأتباعه الذين دعوا الى التوحيد والتنزيه ، بعد فشوّ الشرك والتشبيه إذ حكم المجمع الذي ألفه الملك قسطنطين سنة ٣٢٥ م بمقاومة (آريوس) واحتراق كتبه وتحريم إقتنائها .

ولما إنتشر تعليمه من بعده قضى (تيود) و (سيوس الثاني) باستئصال مذهبه وإبادة الآريوسية بقانون روماني صدر في سنة ٦٦٨ م وبقيت مذاهب التثليث يكافح بعضها بعضاً ولكن يجب علينا أن لا ننسى أنفسنا ولا يغيب عنا ما أصبناه من الخلاف والتفرق . عسى أن يسعى أهل الايمان الصادق والغيرة في نبذ الاختلاف والشقاق والعود الى الوحدة والاتفاق . كما كنا على عهد النبي (ص) (ومن يكفر بآيات الله) الدالة على وحدة الدين ووجوب الاعتصام به وحرمة الاختلاف والتفرق فيه . وهي المراد بالعلم في قوله : (إلا من بعد ما جاءهم العلم بغياً بينهم ـ فان الله سريع الحساب) يحاسب من كفر فيجازيه بما يستحق .

أما هذا الكفر فهو عبارة عن ترك الاذعان لهذه الآيات والامتثال لها ، ومن لوازمه تأويلها بما يصرفها عن معناها لتوافق مذاهب أهل التأويل .

كان النبي (ص) يدعو اليهود في المدينة الى ترك ما أحدثوه في دينهم ، وما اعتادوه من التحريف والتأويل ، والى الرجوع الى حقيقته وهي إسلام الوجه لله والاخلاص له في كل عمل ـ كما نطقت هذه الآيات التي ورد أنها نزلت عند مجيء وفد نصارى نجران ، فقوله تعالى : (فان حاجوك) يعني به أهل الكتاب أو عام أي فان جادلوك بعد أن جئتهم بالحق اليقين وأقمت عليه البينات والبراهين ودمغت الباطل بالآيات والدلائل (فقل أسلمت وجهي لله ومن إتبعني) أي أقبلت عليه بعبادتي مخلصاً له معرضا عما سواه (انا ومن إتبعني من المؤمنين) كانه يقول ان من يقصد الى الحجاج بعد تأييد الحق وتفنيد الباطل لا يقصد إلا الى المجادلة والمشاغبة لمحض العناد والمشاكسة . وذلك شأن المبطلين . واما طالب الحق فانه يبخل بالوقت أن يضيع سدى .

(وقل للذين أوتوا الكتاب والأميين) أي لليهود والنصارى ومشركي العرب وخص هؤلاء بالذكر والبعثة عامة لأنهم هم الذين خاطبهم الرسول بالدعوة بلا واسطة (أأسلمتم) كما أسلمت لما وضحت لكم الحجة أم لا ؟ الاستفهام للتقريع والمراد بالاسلام روح الدين الذي نزل به الكتاب ومقصده ، يعني انه ليس لهم الا الرسوم منه (فان أسلموا) هذا الاسلام (فقد اهتدوا) لأن هذا هو روح الدين فمن اصابه فهو على هداية من هذا الوجه ، فان غشيه ـ مع ذلك ـ شيء من الباطل الصوري فهو لا يلبث ان يزول متى ظهر له الدليل على بطلانه .

ولذلك كان إسلامهم هذا لا بد أن يستتبع اتباعك فيما جئت به لأن من كان كذلك فهو نير القلب متوجه دائماً الى طلب الحق . فهو أقرب الناس الى قبوله

متى جاءه وظهر له (وان تولوا) معرضين عن الاعتراف بما سألك عنه ، لعلمهم انهم ليسوا على شيء منه (فانما عليك البلاغ) لحقيقة الاسلام وما أمرت به من الاحكام (والله بصير بالعباد) فهو أعلم بمن طمس قلبه فارتكس في شقائه ووقع اليأس من إهتدائه . ومن يرجى له بتوفيق الله من بعد ما لا يرجى له اليوم .

ان للدين الاسلامي مزية على سائر الأديان حيث ان دين موسى (ع) يحتوي على جهات مادية أكثر من الجهات الروحية . فكان موسى (ع) رجل المبدأ وصاحب الغرب والى هذا أشير بقوله تعالى : (وما كنت بجانب الغربي إذ قضينا الى موسى الأمر) والغرب رمز المادة . كما ان الدين العيسوي يحتوي على جهات روحية اكثر من الجسمانيات ، ويأمر بالتخلي والزهد عن الدار الفانية ، فكان عيسى (ع) رجل المعاد وصاحب الشرق واليه اشير بقوله تعالى : (واذكر في الكتاب مريم إذ انتبذت من أهلها مكاناً شرقياً) والشرق رمز الروح ومبعث الانبياء . ويشاركها فى هذا الامر ولدها عيسى (ع) لقوله تعالى : (وجعلنا ابن مريم وأمه آية) أي جعلناهما معاً آية ، ولو أراد ان كلا منهما على إنفراده آية لقال آيتين وإنما وحد سبحانه صفتهما وجعلهما آية — وهما إثنان — لأن الذي أعجز منهما شيء واحد وذلك ان مريم ولدت من غير زوج وولد عيسى (ع) من غير أب فلو كان زوج لمريم لكان أبا لعيسى (ع) .

واما الاسلام فهو لاشرقي محض ولا غربي محض ، بل جامع بينهما ويحتوي على السعادتين الدنيوية والاخروية .

ان الاسلام بحق دين الانسانية كلها وهذا من مفاخره ، فبينما يعني ابناء كل دين بمراعاة حقوق أهل ملتهم ، ويتعصبون لهم ، ويهدرون حقوق الآخرين — إذا بالاسلام يرعي حقوق الناس كافة ، ولا يكتفي بذلك ، بل يأمر بالاحسان

والمواساة لخلق الله عامة حتى الحيوان . قال النبي (ص) : « فى كل ذات كبد رطبة أجر » ليعلم المسلمين العطف على كل ما خلق الله . وإذا كان الحيوان مكفول الرعاية من كل مسلم فما بالنا بالانسان الذي يسكن الدنيا ويعمرها .

لذلك شعر الناس فى ازمان التاريخ بمروءة الاسلام ، فدخلوا فى دين الله أفواجا ، حتى العدو الذي فى قتله صلاح العالم ، والحيوان عند ذبحه الذي جعل الله لحمه متاعا للانسان — ينبغي الاحسان فى القضاء عليهما . قال رسول « ص »: « ان الله كتب الاحسان عـــلى كل شيء فاذا قتلتم فاحسنوا القتلة وإذا ذبحتم فاحسنوا الذبحة » .

فماذا بقي من مفاخر الدنيا لم يتضمنها الاسلام منذ نحو أربعة عشر قرنا و نصف قرن ؟ وماذا يبتغي العالم بعد هذه الشريعة السمحة الرحيمة التي أسعدت المهتدين ؟ .

هذه هي الاصول التي لا يجمل بالمسلم أن يغفل عنها ، فهي تراث اجداده ومعقل عزه ، والتى نصر الله بها الاسلام على الدين كله .

أجل هذه هي ميزة الاسلام على غيره من الأديان : انه جعل الرحمة دعامته وقام عليها . ولعله الدين الوحيد الذي يهدي الى فهم الوجود وقياس الأخلاق وتركيز القانون والاجماع ، وجعلها نظرية فلسفته الأولى . فقد سمى الله أحيانًا رحيما وأحيانًا رحمانًا ، وحين تحدث عن الكون قال فى مقام : ﴿ وسعت رحمتي كل شيء ﴾ وفى مقام آخر قال : ﴿ كتب ربكم على نفسه الرحمة ﴾ وحين تحدث عن المجتمع العام قال : ﴿ وما أرسلناك الا رحمة للعالمين ﴾ وعن الاسرة قال : ﴿ وجعل بينكم مودة ورحمة ﴾ . وقال النبي « ص » ـ يصف نفسه ـ « أنا الرحمة المهداة » وحين تحدث عن الأخلاق قال : « الراحمون يرحمهم الرحمن » « ارحموا من فى الأرض يرحمكم من في السماء » .

ففلسفة الاسلام قامت على قاعدة الرحمة التي عالج بها نظام الحياة من شتى وجوهه وجوانبه . وبثها في قانونه وأناظيمه . ودخل بها الى الهيكل المستغرق الجاشع والمجتمع الصاخب الداوي ، وكسر بها شرة الأنانيات الضارية ، وحدّ بها من مد الرغبات النهمة .

وبالرحمة عالج الاسلام طبيعة الانسان المعقدة ليبلغ بها مبلغ المثـــل الأعلى الذي عبر عنه بقوله : « رحماء بينهم » وليحقق بهـــا التآخي العام « إنما المؤمنون أخوة » . وليس هناك كلمة كفيلة بان تدل على روح الاسلام الشائعة في كل اوضاعه وتعاليمه سوى الرحمة ، فهي رمز جامع لمجموعة حقائقه ـ كالمحبة التي هي الرمز الجامع للمسيحية من أقطارها وحواشيها ـ وفرق ما بينهما : ان في طبيعة الرحمة توازن القانون ، وفي طبيعة الثانية خيالية التجريد .

وعلى أساس من الرحمة يقيم الاسلام التربية ، ويضع مناهجه السمحة التي تأذن لكل الطبائع بالنماء فى تقدير موزون ، دون ما كبت يورث إنتكاساً والتواء فى الطبيعة المتفتحة .

ولكن يا للأسف ـ ابتعد معتنقوه عنه غاية البعد فبمقدار ما ارتفعوا إنحطوا وبمقدار ما تقدموا تأخروا ولا يزالون متأخرين ما داموا على البعد منه .

— ٤ —

لم سقطنا وبم نرتقي

هذا سؤال وجهته « مجلة العلم » النجفية الى العالم الاسلامي « تحت هـذا العنوان » وهو إقتراح مهم يلفت الأنظار تقول .

على العارفين بما تقتضيه الأحوال ، على دارسي العوامل الفعالة فى الشعب مدى الأجيال ، على السياسيين الذين خاضوا بحار أسباب ارتقاء الامم وانحطاطها حتى استخرجوا لبابها ، على الحكماء الذين مضغوا فلسفة تاريخ الملل من كل قطر وفى كل قصر وابتلعوا لعابها ، نرجو من فضيلة من يبلغه منهم هذا السؤال المهم والاقتراح اللازم أن يعرب لنا عن اعتقاده ، ورأيه المنوط باجتهاده عن بنيان صحيح ببيان فصيح ، ويبين السبب الوحيد الذي قضى على أوطاننا بالويل والخراب والانحطاط والانقلاب ، هل هو الجهل أو النفاق ، أو الفقر ، أو الجبن ، أو الكسل ، أو غيرها ؟ حتى تستفيد الامـة بكتابها وخطبائها لدفع ذلك الداء العظيم ، وتعين لنا الخطة المرضية والنقطة الحقيقية والسبب الوحيد للترقي ، والعروة الوثقى التي لو تمسكنا بها نجينا الوطن من لجج الفتن ، وارتقينا به من حضيض النقص الى أوج الكمال .

فوردت عدة أجوبة نقتطف لبابها :

الجواب الأول — لفضيلة مبعوث آيدن :

(ان جهل المسلمين اليوم هو السبب الوحيد في تأخرهم ، وان تقدمهم لا يكون إلا بنشر العلوم والمعارف بينهم .

الجواب الثاني — لفضيلة منشىء جريدة الزهور :

وخلاصة ما أفاده — ان ضغط الحكومة على حرية العلماء فى ابداء آرائهم كان المنشأ الحقيقي الدقيق لسقوطنا وتأخرنا ، ولا نرتقي إلا بقرع أبواب العلم لا غير ، ولا تنال الأمة ضالتها المنشودة إلا اذا رأت الفلسفي يدرس ماعنده من العلوم والفنون بازاء من يدرس العلوم الدينية — من غير نكير ، وهو موقوف على أن يطلق للامة حرية القول التام فى جميع الفنون والاحوال .

الجواب الثالث — لصاحب هلال الزوراء — وهو أمتنها والطفها وأبسطها قال : حباً بنفع أبناء وطني واظهاراً للحقيقة التي هي بنت البحث ـ اطلق العنان لقلمي لأخط على صفحات مجلة العلم البهية ماعن لي بشأن الاقتراح المدرج في عددها الاخير تحت العنوان المتقدم ، راجياً عذراً عما يبدو من تقصيري ـ والكريم من عذر فاقول :

ان الناقد البصير يجد في كل من ممالك الانسان والحيوان والنبات من التشابه الطبيعي فى النمو المستمر والقوى الحيوية ماتقع أحكامها تحت شريعة واحدة من الشرايع التكوينية ، على أن المشابهة الكلية تشاهد بين مملكتي الانسان والحيوان بحيث لايختلفان عن مسيرهما الطبيعي تحت الأحكام التي سنتها لهما الطبيعة بأمر مبدعها إلا في العقليات . فان الانسان قد امتاز عن الحيوان بهبة العقل والادراك.

ولقد شرع الانسان منذ البدء يسن له من الشرايع العقلية ما يحصر أعماله وأفكاره ضمن دائرة المعقول لكيما يسير عليها ، لأن من خرج من دائرة القوانين

المسنونة التحق بالبهائم وعد من صنف الحيوان .

أما أساس الشرايع العقلية التي يمتاز بها الانسان عن الحيوان فهو الدين الصحيح ومايتفرع عنه من الآداب والفضائل والأعمال الجليلة التي يفعلها الانسان، لترقية نفسه ونفع بني جنسه ، ومهما اختلف اعتقاد المرء فلا ينكر الفضائل العظيمة التي يبثها الدين في قلب المتدين ، والشرايع التي يسببها لربط الكلمة واتحاد القلوب والمعاونة على مبادلة النفع والفائدة ، واجتناب الأضرار ودفع المنكرات بالحسنات — على أن رأس الحكمة مخافة الله .

فما تقدم نرى ان الدين هو الأساس الذي تبني عليه الفضائل ، وتشاد على جدرانه صروح المجد والعلاء ، وبه تتقوى دعائم الالفة والاتحاد والولاء ، ويرفع لواء البشرية بكامل جلالها وشريف أعمالها . ويتكون فيها جسم الانسانية مرتبطاً بسلسلة محكمة الحلقات ، فيعمل كل فرد بما يفرضه عليه هذا الاتحاد والارتباط ما يعود نفعه لنفسه وأخيه من بني الانسان . فهذه هي الفضيلة التي بها يرضى مدير الحركة وخالق الأكوان ، ومنها يرجى تقدم البشر ورقي الأوطان .

وفضلا عن ذلك فان الانسان متى تهذبت أخلاقه تهذيباً دينياً نشأت في قلبه خلال طيبه وصفات حميدة تقربه من الصدق و الاستقامة فيصبح طيب القلب مستقيم السيرة فى الاعمال والاشغال ، وهذا سر النجاح فتعظم الثقة به وتتسابق الناس الى معاملته وتتوارد اليه الخيرات من كل جانب ، فضلا عما يراه هو من الارتياح وما يتمتع به من راحة الفكر والضمير ، وكذلك يجعله ذلك التهذيب يحب الناس كنفسه فيعاملهم بالحسنى ، ويذود عنهم فى الضراء ويشاركهم في السراء فتمكن بينه وبينهم عرى الارتباط الأخوي بحيث يعتبر الهيئة الجامعة بذلك عائلة واحدة متصلا بعضها ببعض برباط المحبة والاخاء .

وبالاختصار فان التهذيب الديني يعلم الانسان العدل والانصاف ، ويحقر في عينيه الظلم والاستبداد ، ويحذره تحذيراً شديداً من إرتكاب أي منكر ـ متوعداً بالقصاص والعذاب في الآخرة ، وهذا ولا شك مما يجعله يتبع ويسير على صراط مستقيم ان لم يكن بإرادته واختياره فبالارهاب الديني الذي يذكره على الدوام بما ستصير اليه حاله إذا عصى وارتكب منكراً . غير إننا مع الاسف نرى السواد الأعظم من الرجال يضررون بانفسهم ، ويستسهلون إرتكاب المعاصي والانهماك في المنكرات لأنهم لم يتلقوا في صغرهم تربية دينيه صحيحه تردعهم عما يفعلون . فيشب الأولاد على ذلك الأساس المصيب لا يميزون بين الصالح والطالح . ولا يفرقون بين الخير الشر ، وبذلك تكثر الشرور ويعم البـــلاء وتحل الارزاء . فتحط بهم الهيئة الاجتماعية الى دركات التأخر والخراب ، وينقضي مجـــدها الى مهاوي التقهقر والانحطاط .

فعلى الوالدين أن يبثوا في نفوس اولادهم روح الدين ، ويربوهم على اساسه المتين ، حتى إذا إشتد ساعدهم وبلغوا أشدهم لا تميل نفوسهم إلا الى العمل الصالح والذود عن رغائب الفضيلة . وإتباع المبادىء القويمة التي تنتهي بهم الى التمدن الصحيح ، والترقي الى ذروة السعادة ـ سائرين على نهج قويم أساسه الحريـــة والصدق والاخاء .

اما إذا كان الوالدون عاجزين عن تأدية الواجب نحو أولادهم فيجب ان لا يكتفوا بتربية أولادهم تلك التربية القاصرة التي نشأوا عليها ، بل يعهدوا بهم الى رجال ذوي خبرة واسعة وعلم ثابت يقومون بهذه المهمة الجليلة ، ويهذبون الاخلاق تهذيباً دينياً صحيحاً لا تشوبه شائبة ، فيربون أولادهم رجال المستقبل فوق ما يترجون والسلام على من إتبع الهدى .

فهرست تفصیلی

محتويات الكتاب

الموضوع | الصفحة

الموضوع | الصفحة

الموضوع | الصفحة

الموضوع الصفحة

الموضوع | الصفحة

«تم الجزء الثاني ويليه الجزء الثالث»